البصرة

في خمسٍ وعشرين رحلةٍ أجنبيّة

نصوص الرحلات

٩٥٦,٧٣٣
ظ. ٢٨٨ الظالمي، حامد
البصـــرة في خمس وعشرين رحلة أجنبية
حامد الظالمي، البصـــرة، ديوان محافظة البصرة، ٢٠٢١.
٨٨١ص. ، ٢٤ سم
١. العراق- تاريخ، ٢. البصرة- تاريخ
م.و. أ. العنوان.
٤٠١٥ / ٢٠٢١

المكتبـة الوطنيـة / الفهرسـة أثنـاء النشـر

رقـم الايـداع فـي دار الكتـب والوثـائـق ببغداد (٤٠١٥) لسنـة ٢٠٢١

برعـايـة
محافظة البصرة

◈ جميع الحقوق محفوظة باستثناء اقتباس فقرات قصيرة لغرض النقد أو المراجعة، فإنه لا يجوز إعادة إنتاج أي جزء من هذا الكتاب أو تخزينه في نظام الاسترجاع أو نقله بأي طريقة من دون الحصول على إذن مسبق من الناشر.

◈ All rights reserved. Except for the quotation of short passages for purposes of criticism or review, no part of this publication may be reproduced, stored in retrieval system, or transmitted, in any form or by any means, without written permission of the publisher.

الطبعة الأولى
2021

البصرة
في خمسٍ وعشرين رحلةٍ أجنبيّة

نصوص الرحلات

الجزء الأوّل

جمعها وقدّم لها:

د. حامد ناصر الظالميّ

جامعة البصرة ـ كلّيّة التربية للعلوم الإنسانيّة

2021

• قالت مدام ديولافوا عن البصرة ـ إذ وصفتَ سيرها في شطّ العرب، وهي قادمةٌ من المحمّرة ـ في قطعةٍ أدبيّةٍ جميلة:

«ننظر الى ضوء القمر الفضّيّ بروعةٍ وافتتان، كأنّنا في البُندقيّة ... ولكن ليست هذه بندقيّة إيطاليا، بل هي بندقيّة الأقاليم الاستوائيّة، فالسماء صافيةٌ رائقة، لا تجد فيها قطعةً صغيرةً من الغيوم، والبيوت مختفيةٌ تحت ظِلال غابات النخيل الكثيفة وأشجار الليمون المُثقَلة بأثمارها ذات اللون الأحمر الجميل، وأشجار الموز بأوراقها العريّة الّتي تزيد هذا المشهد روعةً وابداعاً. والدور الواقعة على الضفاف يُخيّلُ للمرء تارةً أنّها تسبح في مياه النهر، وتارةً أُخرى كأنّها منتصبةٌ على جانب سدٍّ ضيّقٍ بإباءٍ وإغراء» (١).

(١) رحلة مدام ديولافوا (من المحمّرة الى البصرة وبغداد سنة ١٨٨١م)، ترجمها عن الفارسيّة: علي البصري، مراجعة وتقديم: د. مصطفى جواد، الدار العربيّة للموسوعات سنة ٢٠٠٧، ص ٢١.

المقدّمة

في تاريخ البصرة فجواتٌ لا تزال معرفتنا قاصرةً عنها، لأنّ أهلها لم يكتبوا عنها، ولكن كتب عنها الرحّالة والباحثون الأجانب، وكذلك أصبحَت معرفتنا قاصرةً أيضاً، لعدم توفّر الباحثين الّذين يسدّون تلك الفجَوات، فقليلٌ من الباحثين يسكنهم هاجس التأريخ، بل أنّ هذا الهاجس لا يؤرّق كثيراً منهم، لذلك يذهبون لدراسة جوانب عرضيّة، بل في أحسن الأحوال دراسة أماكن أُخرى ليست بأهميّة البصرة، أو موضوعات مكرّرة.

علينا استكمال واستحكام هذه الفجوات أو الحلقات الفارغة من تأريخ البصرة والمنطقة، فكان هذا العمل الّذي جمعنا فيه نصوص خمسٍ وعشرين رحلةً زار أصحابها البصرة، وتُرجمت رحلاتهم للعربيّة، لعلّها تسدّ تلك الفجَوات وتردمها، وتعطينا تأريخاً مقارباً لما كانت عليه المدينة.

الرحلات عديدةٌ جداً، فقد قال لونكريك في كتابه (أربعة قرونٍ من تاريخ العراق الحديث) أنها أكثر من ثمانيةٍ وتسعين رحلة، مرّ أصحابها بالعراق للمدّة من ١٥٥٣ ـ ١٩١٤.

هذه الرحلات لم تُترجَم جميعها إلى العربيّة، فما تُرجم لا يتجاوز نصف هذا العدد، بل إنّ الأب بطرس حداد يقول: إنّ الرحلات الّتي مَرَّت بالعراق يتجاوز

عددها الثلاثمئة رحلة (١).

ولكنّ أكثر هذه الرحلات كانت لاستكشاف العراق والبصرة، وخاصّةً في عهد الاحتلال العثماني من سنة ١٥٣٤ وحتّى سنة ١٩١٧.

عملنا هنا على جمع نصوص خمسٍ وعشرين رحلةً وصفَت البصرة، وهي مترجمةٌ للعربيّة، وهذه النصوص ـ الرحلات الأجنبيّة ـ لأشخاصٍ من دولٍ واتّجاهاتٍ متعدّدة، وعملنا كان هو ترتيب تلك النصوص حسب تأريخها وفقاً للقرون، ومن ثمّ للسنوات، ليتّضح لدينا الأمر، أي: (الحياة في البصرة وكيف كانت في تلك الفترة)، سواء من حيث تطوّرها أو تراجعها، وقمنا بقديمها بدراسةٍ في ثلاثة محاور:

المحور الأوّل: تراجم للشخصيّات الّتي قامت بالرحلة.

المحور الثاني: وصفهم لسور البصرة الّذي لم يدرسهُ أحدٌ من المحدّثين.

الثالث: عن العلاقات الثقافيّة والتجاريّة بين بلاد الهند والبصرة.

وهناك جوانب عديدة تستحقّ الدراسة في هذه الرحلات، ولكنّنا لم ندرسها هنا، وفضّلنا دراستها في أماكن أُخرى. ومن تلك الموضوعات الّتي تعرّض لها الرحّالة من نقدم على دراستها هنا:

١ ـ الصراع الدوليّ على البصرة في عصر تلك الرحلات.

٢ ـ الحياة الاجتماعيّة في تلك الفترة.

٣ ـ الحياة الدينيّة في تلك الفترة.

---

(١) رحلة سبستياني، ترجمة الأب د. بطرس حداد، ص ٧.

٤ ـ التجارة والزراعة وما يتعلّق بهما في تلك الفترة.

٥ ـ الأوبئة والأمراض.

٦ ـ الحروب والدمار والخراب.

٧ ـ الطبيعة وما يتعلّق بها من الأنهار والمناخ.

٨ ـ الطرق التجاريّة والسفن.

تمهيد

المحور الأوّل: تراجم من أصحاب الرحلات

١ ـ **ناصر خسرو علوي**: كتابه (سفر نامه)، ترجمه من الفارسيّة الى العربيّة الدكتور يحيى الخشّاب، الهيئة المصرية العامّة للكتاب سنة ١٩٩٣، وهي مصوّرة على الطبعة الأُولى سنة ١٩٤٣. جاء في الصفحة ١٥ منه: «ولِدَ ناصر خسرو في قباديان سنة ٣٩٤ هـ ـ ١٠٠٣ م من أُسرةٍ متوسّطة الحال، وتثقّف ثقافةً واسعة، والتحق بخدمة السلطانيين محمود ثمّ ابنه مسعود، وبعد ذلك، أي: عندما سيطر السلاجقة على معظم الدويلات الشرقيّة التحقَ ناصر خسرو بخدمة جغري بيك السلجوقي حاكم خُراسان. بَدأَ ناصر خسرو رحلته الى مكّة سنة ٤٣٧ هـ، ولكنّ الرحلة كتبها إمّا عام ٤٥٣ هـ، أو ٤٥٥ هـ. والرحلة تنقسم الى مراحل ثلاث:

المرحلة الأُولى: تبدأ بقيامه من مرو في ربيع الآخر سنة ٤٣٧ هـ، وتنتهي ببلوغه القاهرة في ٧ صفر سنة ٤٣٧ هـ.

المرحلة الثانية: إقامته في مصر في ٧ صفر سنة ٤٣٩ هـ إلى أواخر جُمادى الثانية سنة ٤٤٢ هـ.

المرحلة الثالثة: عودته الى بلخ عن طريق الحجاز، وفلج، والحسا، والبصرة، وتبدأ منذ قِيامه من مصر وتنتهي في ٢٦ جُمادى الثانية ٤٤٤ هـ.

وبَعدَ أن كان سُنيّاً تَحوّلَ ناصر خسرو الى الإسماعيليّة النزاريّة، وأصبحَ من الدعاة الاسماعيليّين.

٢ ـ سيدي علي ريس: رحلته سنة ١٥٥٣ ـ ١٥٥٤م، وهي في كتاب (رحلات بين العراق وبادية الشام خلال القرن السادس عشر)، ترجمة وتعليق: د.أنيس عبد الخالق محمود، نشر المؤسسة العربيّة للدراسات والنشر، بيروت سنة ٢٠١٣.

وُلِدَ سِيدي علي ريّس في استانبول سنة ١٤٩٨ م، وتُوفّي فيها سنة ١٥٦٣ م، وهو بحّار، وإداري، وكاتب، وشاعر تركي، يُعرف باسم (كاتب رومي)، وشارك في العديد من الحروب البحريّة العثمانيّة في البحر المتوسّط، وفي المحيط الهندي الّذي واجه فيه الأسطول البرتغالي، ورُقّيَ الى مرتبة (كتخدا) [وتعني الوزير الأوّل في الولاية].

وهذه الرحلة هي أوّل رحلةٍ شهدها العراق خلال النصف الثاني من القرن السادس عشر، وكان هدف الرحّالة منها نقل قطع الأسطول العثماني المرابط في البصرة الى ميناء السويس بمصر.

والرحلة موجودة في كتاب (مرآة الممالك) المطبوع في تركيا العثمانية سنة ١٥٥٧ م والمُترجم لعدّة لغات.

وهنا تتّضح اهتمامات سيدي علي ريس بالرياضيات والفلك، وله كتابٌ آخَر هو (المحيط في الكائنات والبحور)، الّذي يتضمّن معلوماتٍ عن تقنيات الملاحة وطرائق تحديد الاتّجاهات وحساب الزمن باستخدام آلات القياس مثل الاسطرلاب والبوصلة وغير ذلك.

وتكمن أهميّة رحلته أنّها كانت في فترة حملة السلطان سليمان القانوني ١٥٢٠ ـ ١٥٦٦ م ضدّ الصفويّين، ففي سنة ١٥٥٣ م، وحينما كان في حلب تلقّى (سيدي علي ريّس) أوامر بنقل السُفن العثمانية من ميناء البصرة الى السويس، وأثناء ذلك اصطدم مع قطع الأسطول البرتغالي في الخليج العربي.

٣ ـ فيدريجي: وكانت رحلته في القرن السادس عشر، وهي ضمن كتاب (رحلات إلى العراق)، عُني بترجمتها والتعليق عليها الأب الدكتور بطرس حداد، وقد جمعَتها وقَدَّمَت لها الدكتورة وسن حسن محيميد، ونشرتها دار الفراهيدي للنشر والتوزيع في بغداد سنة ٢٠١٣.

والرحّالة هو تشيزاري (أي قيصر) بن جيرولامو فيدريجي، من ايربانو من المدن التابعة للبندقية، وُلِدَ نحو سنة ١٥٣٠ م، كان يعمل بتجارة الجواهر، ويسعى إلى اقتناء النفيس منها، ولهذا سافر في رحلةٍ امتدّت به ١٨ سنة، أي: ما بين ١٥٦٣ م إلى ١٥٨١ م، وعادَ إلى موطنه يحمل بضاعةً ثمينة.

طاف في الشرق مروراً بسوريا والعراق والهند حتّى وصل إلى بورما وإلى ماليزيا، وعندما عادَ الى بلده في ٥ / ١٠ / ١٥٨١ كان يحمل بضاعةً جيّدة، استطاع بواسطتها أن يحتلّ مركزاً مرموقاً في سوق البندقية، تُوفّي سنة ١٦٠٢ م.

في سنة ١٥٦٩ م قَرَّر العودة إلى وطنه بعد أن حَقَّقَ أرباحاً طائلة، فرجع إلى غوا في الهند على أمل الإبحار إلى البصرة، ولكنه لم يُبحِر لسببين:

أوّلهما: مرضٌ خطيرٌ أَلَمَّ به أجبره على ملازمة الفراش أربعة أشهُر، ثمّ حصار مدينة البصرة الّذي حال دون مغادرتها، ولما حَصَلَ على مالٍ جزيلٍ قَرَّرَ العودة إلى إيطاليا، فَرحَلَ إلى هرمز، ثمّ البصرة، ثم بغداد، فَحلَب، وبعد زيارةٍ قصيرةٍ للأراضي المقدّسة في فلسطين أكمل الرحلة الى وطنه فَوصَلَ البندقيّة في ٥ / ١٠ / ١٥٨١.

طُبعت رحلته سنة ١٥٨٧ م في البندقيّة، وقيمة رحلته في قِدمها فهي من أقدم الرحلات، ووصفه لطريق بغداد حلب.

٤ ـ كاسبارو بالبي: رحلة الإيطالي كاسبارو بالبي سنة ١٥٧٩، عرَّبها عن

الإيطاليّة وعَلَّق عليها الأب د. بطرس حداد، الدار العربيّة للموسوعات بيروت سنة ٢٠٠٨. جاء في مقدّمة المترجم ص ٥: «هذه رحلة الجوهري البندقي ـ نسبةً إلى مدينة البندقيّة بإيطاليا ـ كاسبارو بالبي، الّذي قَدِمَ إلى العراق في الربع الأخير من القرن السادس عشر وهو في طريقه إلى الهند، وتُعدّ هذه الرحلة من أهمّ الرحلات لِما فيها من معلوماتٍ تأريخيّةٍ وجغرافيّةٍ تخصّ العراق أوّلاً، ولقِدمها ثانياً.

وُلِدَ كاسبارو نحو سنة ١٥٥٠ م في البندقيّة، وبدأ رحلته سنة ١٥٧٦ م أو بعدها بقليل، وقد وصل البصرة في ٢١ / ٣ / سنة ١٥٨٠ م، وبعد أن غادرها إلى الهند عادَ سنة ١٥٨٧ م إلى البصرة ومنها إلى بغداد.

تأثّر بالبي برحلة مواطنه فيدريجي البندقي الّذي سبقه إلى الشرق بأعوامٍ قليلة، وكان حيّاً يُرزَق عندما طَبَعَ رحلته، إذ نشرها سنة ١٥٩٠ م في البندقيّة وكانت في ١٥٩ صفحة.

٥ ـ جون إيلدرد: رحلته من الشام إلى البصرة سنة ١٥٨٣ ـ ١٥٨٤ م، ضمن كتاب (رحلات بين العراق وبادية الشام خلال القرن السادس عشر)، ترجمة وتعليق: الدكتور أنيس عبد الخالق محمود، المؤسّسة العربيّة للدراسات والنشر، بيروت سنة ٢٠١٣.

وُلِدَ الرحّالة جون إيلدرد سنة ١٥٦٢ م في نيو بكنليام بانگلترا، بعدَ أن رَحَلَ والده إليها من كناتيشايل في سوفولك مُستقرّ العائلة منذ أجيال عدّة، وقد زاول الأعمال التجاريّة وحقّق نجاحاتٍ فيها.

غادر في ٣ / ٢ / ١٥٨٣ في السفينة تايگر برفقة كلٍّ من جون نيوبري ورالف فتش، وستّة أو سبعة تجّار آخرين، ففي الأوّل من مايس من تلك السنة وصل

طرابلس الشام، وبعد أن بقيَ هناك مدّة أُسبوعين تَوجّه الى حلب ومنها إلى البيرة الّتي استقلَّ منها مع رفاقه قارباً عبر نهر الفرات نزولاً إلى الفلّوجة الّتي مكثوا فيها أُسبوعاً واحداً، ثمّ استأجروا مئة حمارٍ لنقل بضائعهم إلى بغداد الّتي أقاموا فيها بضعة أيّام، ثمّ عادوا تحميل بضائعهم في قوارب على نهر دجلة، وأخيراً وصلوا البصرة الّتي بقيَ فيها إيلدرد ستّة أشهر منشغلاً بتصريف بضائعه، ومن البصرة قرّر العودة مع رفاقه فاستأجروا سبعين مركباً كبيراً لنقلهم مع البضائع الّتي أتوا بها من البصرة، ولاسيّما التوابل فضلاً عن القرفة والجوز، وكان كلّ واحدٍ من هذه المراكب يجرّه أربعة عشر رجُلاً، وفي غضون ٤٤ يوماً وصلوا إلى بغداد، ومنها بدأوا باتّخاذ الإجراءات اللازمة للقيام برحلةٍ برّية، فغادروا برفقة عددٍ كبيرٍ من التجّار بقافلةٍ هائلةٍ قوامها أربعة آلاف جملٍ مُحمَّلة بالتوابل وغيرها من السلع الباهضة الثمن، وبعد رحلةٍ استغرقَت أربعين يوماً وصلوا حلب في الحادي عشر من حزيران سنة ١٥٨٤، وخلال السنوات الثلاثة المقبلة أصبحَت حلب مقرّاً له، إذ قام خلالها برحلتين إلى بغداد وعاد عبر الطريق ذاته، ثم تجوّل في أنحاء بلاد الشام الأُخرى وفلسطين، وأخيراً قرّرَ العودة إلى لندن الّتي وصلها في ٢٦ آذار سنة ١٥٨٨، ومن خلال تلك الرحلات أصبح رجلاً فاحش الثراء بعد أن تراكمَت ثروته تدريجيّاً، وفي سنة ١٥٩٧ اشترى عزبة ساكهام في سوفولك وبنى بيتاً كبيراً أصبح يُعرف باسم (ناتمغ هول)، ومع ذلك ظلّت إقامته الرئيسة في لندن، وانخرط في أعمالٍ تجاريّةٍ متشعّبة، وحينما تمّ افتتاح شركة الهند الشرقيّة الإنكليزية كانت من أكبر المساهمين بها، وأصبح عضواً في أوّل مجلسٍ للمديرين فيها، وأَسهمَ إسهاماً فاعلاً وبارزاً في شؤونها لسنواتٍ عدّة، وكان أيضاً أثناء حكم الملك جيمس الأول ١٦٠٣ ـ ١٦٢٥، مقاولاً ووسيطاً لبيع الأراضي وملتزماً للگمارك ومانح تراخيص استخراج القصدير، وأخيراً فقد تُوفّي في ساكهام، ودُفِنَ في كنيستها

في ٨ كانون الأوّل سنة ١٦٣٢ م.

نُشرت رحلاته في ثلاثة مجموعات: الأُولى عام ١٨٢٠، والثانية ١٨٢٤، والثالثة ١٩٠٣.

٦ ـ **بيدرو تيخيرا**: ورحلته (من البصرة إلى حلب عبر الطريق البرّي) سنة ١٦٠٤ ـ ١٦٠٥، ترجمة وتعليق: الدكتور أنيس عبد الخالق محمود، ط ١، سنة ٢٠١٣، المؤسّسة العربيّة للدراسات والنشر في بيروت. قال عنه إنه: ولِدَ في لشبونة البرتغالية سنة ١٥٧٠، وينتسب لعائلةٍ يهوديّة، وكان يحاول البحث عن اليهود وأحوالهم ومناطق سكنهم.

٧ ـ **ديلا فاليه**: وكانت رحلته إلى العراق مطلع القرن السابع عشر، وترجمها عن الإيطاليّة وعَلَّقَ عليها الأب د. بطرس حداد، الدار العربيّة للموسوعات لسنة ٢٠٠٦، وقال عنه المترجم: وُلِدَ بيترو ديللا فاليه في ١١ / ٤ / ١٥٧٦ من أبوين شريفين هما بومبيو ديللا فاليه وجيوفانا البيريني في إيطاليا، ولم يكن من رجال الدولة، بل كان حاجّاً وباحثاً، كان يحاول النسيان، نسيان زوجته الحبيبة الّتي تُوفّيت، فقد قرّر تحنيط جثّتها، وأحكم غلق الصندوق الّذي لم يفارقه أربع سنوات، وزوجته عراقيّة واسمها (معاني بنت حبيب جان جويريدة)، ودام زواجهما خمسة أعوام، ولكنّها تُوفّيت بالملاريا في ٣٠ / ١٢ / ١٦٢١، وجلبَ رُفاة زوجته معه من الهند إلى روما عبر البصرة وحلب والاسكندرية ونابولي وحتّى روما الّتي وصلها في ٢٨ آذار سنة ١٦٢٦، واهتمّ أوّلاً بإيداع رفاة زوجته في لحد الأُسرة ثمّ أقام لها نصباً تذكاريّاً خاصّاً بها.

تُوفّي في ٢١ / ٤ / ١٦٥٢، فَدُفِنَ الى جانب زوجته البغداديّة، وكان قبره بعد

موته قِبلة الزوّار والمعجَبين، ولذلك هو يحبّ العرب والبدو بنوعٍ خاصّ، طُبعت رحلته سنة ١٦٥٠ في إيطاليا، ثمّ طُبعَت سنة ١٦٦٠ في البندقية بأربعة أجزاء. وقد كتبَ قصيدةً مطوّلةً عنوانها (إكليل جويريدة) نَوَّه بها في رحلته.

٨ ـ **لابولي لوغوز**: ورحلته من الهند إلى الأناضول عبر العراق في سنة ١٦٤٩، ترجمها عن الفرنسيّة خالد عبد اللطيف حسين، مراجعة الدكتور أنيس عبد الخالق محمود، المؤسّسة العربيّة للدراسات والنشر، بيروت سنة ٢٠١٥.

قال عنه المترجم إنّه: وُلِدَ في مدينة آنجو الفرنسيّة، وتُوفّي في بلاد فارس. ويُعتقَد أنّه وُلِد سنة ١٦١٠ وتُوفّي سنة ١٦٦٨، وأنّه بدأ رحلته الأُولى إلى أُوربّا سنة ١٦٤٣، أمّا رحلته إلى آسيا فكانت في سنة ١٦٤٧، وبدأت من باريس، ثمّ إيطاليا، ثمّ اليونان، ثمّ استانبول، ثمّ بلاد فارس تبريز، ثمّ اصفهان فوصل إليها وكان الشاه عبّاس الثاني ١٦٤٢ ـ ١٦٦٦ يتوجّه لمحاصرة قندهار، ثمّ اتّجه إلى شيراز، ثمّ الهند سنة ١٦٤٨، ثمّ إلى البصرة سنة ١٦٤٩، فزار دير الكراملة، وتحدّث عنهم، وعن الصابئة، ثمّ اتّجه إلى بغداد، فالموصل، ثمّ إلى حلب، ثمّ إلى صيدا الّتي أقام فيها خمسة عَشرَ يوماً، ثمّ مصر، وتحدّث عن اليهود في الاسكندريّة، ثمّ رحل من الاسكندريّة إلى جزيرة رودس التركية، ومن ثمّ إلى أوربا.

نَشَرَ رحلاته سنة ١٦٥٣، بعد ذلك شرعَ برحلةٍ إلى الشرق مرّةً أُخرى، والسبب في هذه المرَّة خيبة أمله لعدم تعيينه رسّاماً للخرائط لدى البابا مكافأةً لجهوده السابقة الّتي استحوذَت على الكثيرين في البلاط الفرنسيّ، ومن بينهم الملك لويس الرابع عشر ١٦٤٣ ـ ١٧١٥ الّذي أمرَ بنشر رحلاته، وبعد إقامته الطويلة في أصفهان تُوفّي فيها سنة ١٦٦٨.

٩ ـ فنشنسو: ورحلته إلى العراق في القرن السابع عشر، وقد ترجمها عن الإيطاليّة وعَلَّقَ عليها الأب الدكتور بطرس حداد، مجلّة المورد، مجلّد ٥ عدد ٣ سنة ١٩٧٦، وقال المترجم: صاحب الرحلة الأب فنشنسو ماريه دي سانتا كاترينا دي سيينا، وهو إيطالي المنبت، انخرط في سلك الرهبنة الكرملية، وفي سنة ١٦٥٦ أُرسِلَ في مهمّة دينيّةٍ إلى الهند الشرقيّة، وتُوفّي سنة ١٦٧٩ م.

ومن مؤلّفاته: رسائل توجيهيّة للرهبان الكرمليّين، وهذه الرحلة بدأت في مطلع سنة ١٦٥٦، وعاد إلى إيطاليا بعد ٣ سنوات، فكتب رحلته، ونشرها سنة ١٦٧٢، ورحلته إلى العراق هي جزءٌ من رحلته إلى بلاد الهند الشرقيّة.

١٠ ـ رحلة الفرنسي تافرنيية إلى العراق: وقد ترجمها گورگيس عوّاد وبشير فرنسيس، ونشرتها الدار العربيّة للموسوعات في بيروت ٢٠٠٦، وقال المترجم: وُلِدَ جان بابتيت تافرنييه في پاريس سنة ١٦٠٥، وكان أبوه كبرييل قد هاجر إليها من انتورب مع عمّه في نهاية القرن السادس عشر، وكان كبرييل هذا من مشاهير الجغرافيّين والنقّاشين.

كانت له عِدّة رحلات: الأُولى سنة ١٦٣٣ إلى بلاد فارس وتركيا والعراق وحلب، والثانية سنة ١٦٣٨ الّتي دامت حتّى سنة ١٦٤٢، ذهب من حلب إلى فارس ثمّ الهند.

وبعد ذلك كانت رحلته الثالثة سنة ١٦٤٣ ـ ١٦٤٩، ثمّ الرابعة من ١٦٥٢ إلى ١٦٥٦، والخامسة سنة ١٦٥٧ ـ ١٦٦٢، والسادسة سنة ١٦٦٣ ـ ١٦٦٨، وكانت جميعها في الشرق، ثمّ مَنحهُ لويس الرابع عشر لقب نبيل. وقد تُوفّي سنة ١٦٨٩ في موسكو في إحدى رحلاته. عاشَ ٨٤ سنة، قضى منها زهاء ستٍّ وأربعين سنةً في

الرحلات، وقد نَشَرَ رحلاته سنة ١٦٧٥، ثمّ طُبعت سنة ١٧١٣ م.

١١ ـ جان دي تيفينو: وكانت رحلاته في الأناضول والعراق والخليج العربيّ سنة ١٦٦٤ ـ ١٦٦٥، وقد ترجمها وعَلَّق عليها الدكتور أنيس عبد الخالق محمود، ونشرتها المؤسّسة العربيّة للدراسات والنشر في بيروت سنة ٢٠١٣. وقال عنه المترجم: تُعدّ رحلات تيفينو من أهمّ الرحلات الفرنسيّة للشرق أبان النصف الثاني من القرن السابع عشر، وكان الهدف الحقيقيّ لهذه الرحلة هو حُبّه للسفر، ولم تكن لها أبعاد سياسيّة أو اقتصاديّة أو تبشيريّة.

زار جنوبي الأناضول والعراق سنة ١٦٦٤، كما زار البصرة وسواحل الخليج العربي سنة ١٦٦٥، وُلِدَ في باريس ١٧ / ٦ / ١٦٣٣، وتُوفّي في أرمينيا في ٢٨ / ١١ / ١٦٦٧، بعد تعرُّضه لإطلاق مسدّسٍ هناك.

وقد طُبعَت رحلاته بثلاثة مجلّدات: الأوّل: رحلة إلى الشرق سنة ١٦٦٤، الثاني: متابعة الرحلة ذاتها سنة ١٦٧٤، والثالث: الرحلة إلى الهند سنة ١٦٨٤ م.

١٢ ـ سبستياني: ورحلة الأب جوزييه دي سانتا ماريا سبستياني الكرملي إلى العراق سنة ١٦٦٦، كان قد ترجمها الأب الدكتور بطرس حداد، ونشرتها الدار العربيّة للموسوعات سنة ٢٠٠٦، وقال عنه المترجم: إنّه وُلِدَ في إيطاليا في ٢١ / ٢ / ١٦٢٣، ولما شَبَّ عن الطوق انخرطَ في السلك الرهباني لدى الآباء الكرمليّين الحُفاة، وأعلن نذوره الرهبانيّة في ٣ / ٣ / ١٦٤١ في روما، متخّذاً اسماً جديداً عُرف في التأريخ وهو (الأخ جوزييه دي سانتا ماريا)، انتدبته الرئاسة الكنسيّة للذهاب في مهمّةٍ رسميّةٍ إلى الهند، بصفة مُفتّش رسولي لدراسة أحوال النصارى في منطقة الملبار، وهي ولاية (كيرالا) حالياً، فباح روما في ٢٢ / ٢ / ١٦٥٦، وشدَّ عصا الترحال إلى الشرق،

ورافقه رهبان من ديره، فعاد سنة ١٦٥٨، وبعدها سِيمَ أُسقُفاً على أبرشية هيرا بوليس شرفاً في ١٥ / ١٢ / ١٦٥٩. ثمّ عاد إلى الشرق مرّةً أُخرى، فترك روما في ٧ / ٢ / ١٦٦٠، وفي منتصف تلك السنة مَرَّ بالعراق وواصل سيره إلى الهند، وحاول قدر استطاعته أن يشدّ عُرى الوفاق بين المسيحيّين ورؤسائهم الدينيّين هناك، تُوفّي في ١٥ / ١٠ / ١٦٨٩.

كانت رحلته أشبه بتقارير رفقها إلى المراجع الدينيّة الرسميّة، وتكاد معظم الكتب التأريخيّة الّتي تبحث عن الرهبانيّة الكرمليّة تُنوّه به، وتتطرّق إلى نشاطاته، وكان رفيقه في الرحلة الأب فنشنسو (الرحلة الأُولى)، وكان سبستياني قد مرَّ بالعراق أربع مرّاتٍ في ذهابه إلى الهند سنة ١٦٥٦، وفي طريق عودته إلى أوروبا بعد سنتين، ثمّ في البعثة الثانية سنة ١٦٦٠، وفي إيابه سنة ١٦٦٤.

١٣ ـ الأب بارثيلمي كاريه: وكانت رحلته إلى العراق والخليج العربي وبادية الشام سنة ١٦٦٩ ـ ١٦٧٤، وقد ترجمها الدكتور أنيس عبد الخالق محمود، ونشرتها المؤسّسة العربيّة للدراسات والنشر، بيروت سنة ٢٠١٤، وقال المترجم: الأب كاريه دوشامييون ١٦٣٩ ـ ١٦٩٩ مُبشِّر يسوعي فرنسي، وهو كذلك طبيبٌ فرنسي، طُبعت رحلاته في جزأين سنة ١٦٩٩، وينتمي لعائلةٍ خدمَت في بلاط الملك الفرنسي لويس الرابع عشر سنة ١٦٤٣ ـ ١٧١٥.

له دورٌ مهمٌّ في تشكيل شركة الهند الشرقيّة الفرنسيّة سنة ١٦٦٤، زار كاريه البصرة مرّتين: الأُولى سنة ١٦٦٩، وسَجَّل تفاصيل هروب الوالي يحيى باشا، ثمّ عاد إليها سنة ١٦٧٠ فغادرها سنة ١٦٧١، ورحلته هي تقريرٌ قدّمه للوزير كولبير، فقد كان بارثيلمي قَسّاً في سلاح البحريّة الملكي.

١٤ ـ كارستن نيبور: ورحلته إلى شبه الجزيرة العربيّة وإلى بلاد أُخرى مجاورة لها، وقد ترجمتها عبير المنذر، ونشرتها دار الانتشار العربي في بيروت سنة ٢٠٠٧، وكانت رحلته قد بدأت سنة ١٧٦١، وقد «وُلِدَ كارستن نيبور في السابع عشر من آذار سنة ١٧٣٣ في مدينة (لودنيغروث) في ولاية هانوفر شمال غرب ألمانيا، لأبٍ فلّاح، وقد مارسَ نيبور الزراعة في مطلع حياته، لكنّه درس الرياضيات بعد أن أظهر ميلاً للدراسة في جامعة غوتينغن الشهيرة بدراسة الرياضيات والطبيعة، وقد تلقّى أيضاً دروساً في علم المساحة والخرائط.

دُعي نيبور في عام ١٧٦٠ للالتحاق بالرحلة البحثية الفنّية للبحوث العلميّة الّتي قرّر الملك فردريك الخامس ملك الدنمارك والنرويج إرساله الى الشرق الأدنى، وجنوب جزيرة العرب بصفةٍ خاصّة، إذ كُلّف نيبور القيام بالأبحاث الجغرافيّة، بينما كانت مهمّة العلماء الأربعة الاسكندنافيّين العمل في تدقيق اللغات وعلوم الطبيعة.

وفي السابع من كانون الثاني ١٧٦١، أبحرت البعثة على متن اسطول بحريّ، وبعد عناءٍ كبيرٍ وصلَت البعثة الدنماركيّة إلى اسطنبول القسطنطينية في ٣٠ تـمّوز سنة ١٧٦١، ثمّ انتقلَت بعد ذلك إلى الاسكندريّة الّتي وصلتها في ٢٦ أيلول سنة ١٧٦١، فمكثَت البعثة في مصر قُرابة السنة، وفي صيف عام ١٧٦٢ ترافق نيبور مع فون هافن في مهمّةٍ خاصّة، وهي محاولة اقتفاء خطوات النبيّ موسى وخروجه وقومه من مصر الى بلاد كنعان (فلسطين)، واكتشاف كلّ أثرٍ لمسيرتهم عبر صحراء سيناء، ثمّ انتقلوا بعدها إلى الجزيرة العربيّة، وذلك في تشرين الأوّل عام ١٧٦٢، إذ أبحر الرحّالة الخمسة ومعهم خادمهم السويدي جنوباً في البحر الأحمر، متّجهين صوب جدّة، ثمّ مكّة، وبعدها اتّجهوا نحو اليمن فوصلوا إلى ميناء اللحية، وبعد ذلك أخذوا يتنقّلون في المدن والقُرى اليمنيّـة.

وَصَلَ نيبور إلى البصرة في أوائل شهر آب سنة ١٧٦٥، وقد سجّل لنا كثيراً من الملاحظات عن المدينة ومختلف جوانب الحياة العامة فيها» (١).

١٥ ـ ابراهام بارسوتد: ورحلته من حلب إلى الخليج العربي سنة ١٧٧٤ ـ ١٧٧٥، وترجمها وعَلَّق عليها الدكتور أنيس عبد الخالق محمود، نشر المؤسّسة العربيّة للدراسات والنشر، بيروت سنة ٢٠١٣، قال المترجم عن هذا الرحّالة: هو مواطنٌ اسكتلندي، وُلِدَ في بريستول، وهو ابن نقيب التجّار، وفي حياته المبكّرة زار عدداً من البلدان قائداً لسفنٍ تجاريّة، وفي سنة ١٧٦٧ م عَيَّنتهُ شركة الليفانت قنصلاً ووكيلاً بحريّاً في ميناء الاسكندرونة السوريّ، وبعد تقاعده بسبب وضعه الصحّي بدأ رحلاته في تركيا لعقد صفقاتٍ تجاريّةٍ بين السنوات ١٧٧٢ ـ ١٧٧٤، وبعد ذلك سافر إلى الاسكندرونة ثمّ حلب، وثمّ عبر بادية الشام متوجّهاً الى بغداد الّتي مكث فيها بين شهرَي مايس وتشرين الأوّل سنة ١٧٧٤، وسافر من بغداد عِبر نهر الفرات إلى الحلّة، ومنها إلى البصرة الّتي كانت تحت حصار الجيش الفارسيّ سنة ١٧٧٥ م، ومن البصرة مَرَّ بالخليج العربيّ في طريقه إلى الهند ثمّ البحرين ومسقط وبومبي، حتّى وصلَ إلى ميناء غوا، وفي طريق عودته من الهند سنة ١٧٧٨ مَرَّ عن طريق البحر الأحمر وزار ميناء المخا على الساحل الجنوبي لليمن، ومنه توجّه إلى مصر الّتي زار مدنها كالسويس والقاهرة ورشيد، ثمّ عاد الى أوروبا ليتوفّى سنة ١٧٨٥، وبعد وفاته صدرت رحلته سنة ١٨٠٨ في لندن، وأهمّ ما ورد فيها المعلومات التأريخيّة عن الحصار الفارسيّ

---

(١) البصرة من خلال رحلة كارستن نيبور عام ١٧٦٥، مجلّة تراث البصرة، العدد ٣، سنة ٢٠١٨، ص ٢١٦ ـ ٢١٧.

للبصرة سنة ١٧٧٥، فهو شاهد عيان، وهو يتحدّث عن تواطؤ شيوخ بني كعب مع الفرس من أجل تقاسم المدينة، واستمرّت رحلته خمس سنواتٍ ونصف من ٢٥ / ٧ / ١٧٧٢ ـ ١ / ١ / ١٧٧٨.

١٦ ـ **صموئيل إيفرز**: رحلته من البصرة إلى البحر المتوسّط سنة ١٧٧٩، ترجمها وعَلَّق عليها الدكتور أنيس عبد الخالق محمود، نشرتها المؤسّسة العربيّة للدراسات والنشر، بيروت سنة ٢٠١٣، قال عنه المترجم: ينتمي الى عائلة ميشيل الثريّة، وُلِدَ سنة ١٧٦٤، ذهب وهو شابٌّ للعمل في شركة الهند الشرقيّة، وهي أكبر مؤسّسةٍ تجاريّةٍ في ذلك الوقت، وبعد أن ترك العمل في تلك الشركة في أوائل عام ١٧٧٩، قَرَّرَ العودة إلى أورپا عبر الطريق البرّي، وقد سَجَّلَ يوميّات رحلته من البصرة إلى إيطاليا بعد عودته إلى بلاده، فقد غادر الهند بالسفينة، ومنها وصل إلى البصرة، ومن ثمّ إلى بغداد عِبر طريق البادية، ثمّ حلب واللّاذقية وإلى إيطاليا، وبسبب عوزه المادّيّ انتحر سنة ١٧٨٧، وقد يكون بسببٍ آخَر، صدرت رحلته سنة ١٧٨٤.

١٧ ـ **سيستيني**: ورحلته من اسطنبول إلى البصرة سنة ١٧٨١ م، وترجمها عن الفرنسيّة وعَلَّق عليها الأب الدكتور بطرس حداد، ونشرها المركز العلمي العراقي في بغداد سنة ٢٠١٠، وقال عنه المترجم: كان سيستيني رحّالة إيطاليا من أهل القرن الثامن عشر، زار العراق، وكتب رحلته باللغة الايطاليّة بعنوان (رحلة من القسطنطينية إلى البصرة عام ١٧٨١)، ونُقلَت إلى الفرنسيّة، وطُبعَت في پاريس سنة ١٧٩٧ م.

وهو دومينيكو سيستيني الّذي أبصر النور في مدينة فلورنس مدينة الفنّ والجمال سنة ١٧٥٠ م، وكان من مثقّفي عصره، فهو أكاديمي، واهتمّ بالآثار، ثمّ اهتمّ

وتخصّص بالمسكوكات، درس اللغة التركيّة، وذهب إلى اسطنبول ثمّ سوريا، ثمّ بلاد ما بين النهرين، ثمّ نزل من الموصل إلى بغداد وإلى البصرة، وعاد في الطريق نفسه. وقد طُبعَت رحلته هذه سنة ١٧٨٢. وبعد رحلته تمّ تعيينه أميناً على مكتبة كاتانيا في صقليّة، ثمّ تَسنَّم إدارة إحدى خزائن الكتب في فلورنس، وفي سنة ١٨١٠ م زار پاريس ودُعِيَ الى المجر، ثمّ عُيّن أُستاذاً في جامعة بيزا العريقة، وتُوفّي سنة ١٨٣٢ م، ومن مؤلّفاته:

١ ـ وصف متحف الأمير بسكاري سنة ١٧٧٦.

٢ ـ رسائل وقد تُرجمت إلى الفرنسية، وطُبعت في ثلاثة أجزاء سنة ١٧٨٩ م.

٣ ـ رحلة من القسطنطينية إلى البصرة.

٤ ـ رحلة من القسطنطينية إلى بوخارست سنة ١٧٧٩.

٥ ـ مجموعة كتب عن المسكوكات.

١٨ ـ **تايلر**: رحلته إلى العراق سنة ١٧٨٩ ـ ١٧٩٠، نُشرت ضمن كتاب (رحلات إلى العراق)، عُني بترجمتها والتعليق عليها الأب الدكتور بطرس حداد، جمعها وقدّم لها وفهرسها الدكتورة وسن حسن محيميد، دار الرافدين للنشر والتوزيع بغداد سنة ٢٠١٣، وصاحب هذه الرحلة من أهل انگلترا اسمه جون تايلر، ترقّى في المناصب العسكريّة، وكان يعمل لحساب شركة الهند الشرقيّة، وقد أوفدَته تلك الشركة في مهام لها إلى الهند، فمرَّ بالعراق سنة ١٧٨٩ ـ ١٧٩٠، وطُبعت رحلته في مجلّدين سنة ١٧٩٩ بعنوان (رحلات من انگلترا إلى الهند)، تُوفي يوم ١٠ / ١٠ / ١٨٠٨ م، وكان قد غادر مدينة لندن في ٢٢ / ٨ / ١٧٨٩ مع زوجته إلى البندقية ثم الاسكندرونة في ٢٨ تشرين الثاني سنة ١٧٨٩، ومنها إلى حلب ثمّ العراق.

١٩ ـ أوليڤييه: ورحلته (معرفة الشرق في العصر العثماني)، ترجمها عن الفرنسية الدكتور يوسف حبي، نشر المركز الأكاديمي للأبحاث، بيروت سنة ٢٠١٤.

قال عنه مترجم الرحلة ص ٨: اوليڤييه رحّالة فرنسي تجوّل في عددٍ من أقاليم الدولة العثمانيّة بما فيها مصر، فضلاً عن زيارته بلاد فارس، وقد قام برحلاته في السنوات الستّ الأُولى من الثورة الفرنسيّة، أي: من ١٧٩٣ حتى سنة ١٧٩٧ م (١٢٠٨ ـ ١٢١٢ هـ)، وزار العراق مرّتين: أولهما عندما قَدِمَ من تركيا وسوريا، ثمّ زاره مرّةً أُخرى في طريق عودته من إيران إلى فرنسا، وذلك خلال السنوات ١٧٩٤ ـ ١٧٩٦ م. وقد كلَّف المجلس التنفيذي المؤقت للثورة الفرنسيّة أوليڤييه ومساعده بروكيير في أواخر تشرين الأوّل سنة ١٧٩٢ بالقيام برحلة إلى بلاد الدولة العثمانية وفارس.

رَصَدَ أوليڤييه الوضع السياسي والطبيعة وطُرق المواصلات، والزراعة والتجارة والخطط والمعدّات العسكرية، ونَشَرَ حصيلة رحلته في أربعة مجلّدات، وكانت رحلته من الموصل، وأربيل، وكركوك، وبغداد، والحلّة، والبصرة، براً، كما مرَّ ببعقوبة، وهيت وعانة، وقد وصف الطريق النهري كذلك، وصدر المجلد الأول من الرحلة في السنة التاسعة من الجمهورية، أي: عام ١٨٠١ في پاريس، والثاني ١٨٠٤، والثالث ١٨٠٧، والرابع كذلك.

وُلِدَ سنة ١٧٥٦ قرب طولون، وتُوفيَ في ليون سنة ١٨١٤، وهو أحد محرري موسوعة الرياضيات، وله موسوعة في الحشرات، وهو طبيب وعالم، تمكّن من شفاء سليمان باشا والي بغداد.

كان هدف الرحلة سياسياً، فقد جاء في السنوات الأُولى من الثورة الفرنسيّة.

٢٠ ـ أبو طالب خان: رحلته المسمّاة (رحلة أبي طالب خان إلى العراق وسوريا سنة ١٨٠٤)، وقد ترجمها الدكتور مصطفى جواد، ونشرتها دار الورّاق سنة ٢٠٠٧، وقال المترجم عنه: أصله تركي، لكن والده هاجر إلى الهند أولاً، ثم إلى البنغال، ثمّ تُوفّي في مقصود آباد عام ١٧٦٨، وُلِدَ أبو طالب في لنكو عام ١٧٥١، والبعض يقول ١٧٥٣، هاجر مع عائلته إلى بانتا، ثمّ إلى مقصود آباد، وكان عمره آنذاك ١٤ عاماً، وعملَ في وظيفة استيفاء الضرائب مدّةً من الزمن، ثمّ هاجر هو وعائلته إلى كلكتا عام ١٧٨٧ م، وكان أبو طالب بليغاً في اللغة الفارسية وآدابها، فقد ألّفَ كتاباً في المختارات الشعريّة الفارسيّة، سافر من كلكتا إلى أوربا، فزار انگلترا وفرنسا والدولة العثمانية، ثم رجع إلى الهند عام ١٨٠٣، وخلال تواجده في الدولة العثمانية ادّعى أنّه من سلالة النبيّ محمّد ﷺ وهو علوي، ودَلَّت الأخبار في رحلته على أنّه كان شيعيّاً، وقد تنقَّل في مدن الدولة العثمانية، وجاء إلى العراق عام ١٨٠٣، وزار المدن المقدّسة، وكربلاء، والكاظميّة، وأعطى معلوماتٍ كثيرةً عن المدن الّتي مَرَّ فيها خلال رحلته.

٢١ ـ دُوبريه: رحلة دُوبريه إلى العراق ١٨٠٧ ـ ١٨٠٩، ترجمها الأب الدكتور بطرس حداد، نُشرت في بيت الورّاق للطباعة والنشر والتوزيع، بغداد سنة ٢٠١١، وقال عنه المترجم: هو فرنسي زار العراق مطلع القرن التاسع عشر، وقال عنه لونكريك في مجرى ذكره الرحلات التي راجعها واستفاد من المعلومات الواردة فيها عند كتابته (أربعة قرون من تاريخ العراق الحديث)، إن نص رحلة دُوبريه أساسي، وبينما وَصَفَ نصوص بعض الرحلات الأُخرى بقوله: «ممتعٌ أو طريف».

كان دُوبريه مولَعاً باللغات الشرقية، وهي مصدر قوته في رحلاته، إذ كان يستطيع التحدّث مع السكّان المحلّيّين.

كانت غايته من الرحلة أن يصل إلى إيران للاطلاع على تأريخها وطبيعتها وسكّانها، ولذلك سمّى رحلته (رحلة إلى بلاد فارس)، وهو في مجلّدين، فتكلّم عن بلاده ما بين النهرين في الجزء الأول المطبوع في پاريس سنة ١٨١٩ م.

وقد اعتمد كثيراً على رحلة (سيستيني)، فقد استمدّ منه معلومات عامّة، ونقلها حرفيّاً، قال دُوبريه في مقدّمة رحلته أنّ غايته في رحلته جغرافية تجارية.

٢٢ ـ خورشيد باشا: رحلة الحدود بين الدولة العثمانية وإيران، وكانت ما بين سنة ١٧٨٠ م، ترجمها وقدّم لها مصطفى زهران، المركز القومي للترجمة مصر سنة ٢٠٠٩، والكتاب اسمه (سياحتنامه حدود)، قال المترجم عن المؤلّف: كانت معاهدة قصر شيرين قد مَهَّدت الطريق لترسيم الحدود في محرم عام ١٠٤٩ هـ/ ١٦٣٩ م، إلّا أنّنا نجد أنّ هذا الصراع الحدودي والمذهبي لم يتوقف بين إيران والعثمانيّين، وقد تم إيفاد خورشيد باشا مؤلّف كتاب (سياحتنامه حدود)، الذي كان يعمل مستشاراً للحكومة العثمانيّة في عهد السلطان الغزي عبد المجيد خان ١٢٣٩ ـ ١٢٧٨ هـ = ١٨٢٣ ـ ١٨٦١ م، ابن السلطان الغزي محمود خان، وكان التكليف هو التجوال والتطواف في مناطق الحدود والأماكن والأهالي والمزروعات و... وتقديم تقرير مفصل عن هذه المهمة، محمّد خورشيد باشا صاحب الكتاب تولّى عدة وظائف مهمة في الدولة العثمانيّة منها الولاية والوزارة، تولّى ولاية الحجاز عام ١٨٧٠، ووزيراً للعدل والأوقاف، ومستشاراً للصدر الأعظم عام ١٨٧٨ م.

كلَّفه السلطان العثماني عبد المجيد بالذهاب إلى منطقة الحدود الإيرانيّة العراقيّة فَقدَّمَ تقريره هذا الّذي يقع في ٤٠٠ صفحة باللغة التركيّة، وامتدّت هذه المهمة أربع سنوات.

٢٣ ـ س . أم . كرستجي: أرض النخيل أو رحلة من بومباي إلى البصرة والعودة إليها سنة ١٩١٦ ـ ١٩١٧، ترجم هذه الرحلة الدكتور منذر الخور، وطُبعت في البحرين، مطبوعات بانوراما الخليج سنة ١٩٨٩، صدر الكتاب الأصل عام ١٩١٨ في بومباي، وكرستجي هندي الأصل زار منطقة الخليج أثناء الحرب العالميّة الأُولى، وهو حاصل على شهادة البكلوريوس في الآداب من جامعة اكسفورد البريطانية.

٢٤ ـ فيلبي: مذكرات فيلبي في العراق والجزيرة العربيّة سنة ١٩١٥ ـ ١٩٢١، ترجمها جعفر الخيّاط، الدار العربيّة للموسوعات بيروت سنة ٢٠٠٨، وقد جاء المستر أيتش سنت جون فيلبي لأوّل مرّة إلى العراق في تشرين الثاني سنة ١٩١٥، عندما كانت الحملة البريطانيّة الّتي احتلّت البصرة تتقدّم شمالاً في طريقها إلى احتلال بغداد، وكان ضمن الدائرة السياسيّة الّتي رافقت الحملة البريطانيّة برئاسة بيرسي كوكس، وقد عُيِّن في الشعبة المالية في البصرة الّتي أسّسها كوكس في الدائرة السياسيّة بعنوان مساعد مالي لرئيس الحكّام السياسيّين، وعند وجوده في البصرة بدأ يتعلّم العربيّة، كما اشتغل مُؤقّتاً بجريدة الأوقات البصرية الّتي كانت تصدر بالعربية والانكليزية، وتعرّفَ أواخر أيّامه في البصرة على المسس بيل، وعمل معها كذلك ضمن الدائرة السياسية، ثمّ أصبح مديراً لجريدة العرب الّتي أصدرتها القوات البريطانية مع الأب انستاس الكرملي.

ومذكراته هذه صدرت عام ١٩٤٨ بعنوان Arabian Days، كتب فيها نشأته، ووظيفته، واشتغاله في العراق، وشرق الأردن، وجزيرة العرب، وكتبَ فصلاً عن (العراق في دور التكوين)، وفيه معلومات هامة عن العراق أيام الحكومة المؤقتة، ومطامع السيّد طالب باشا النقيب و... وأنّه كان يفضل النظام الجمهوري على الملَكي، يكون على رأسه طالب باشا النقيب الّذي كان يميل إليه ميلاً خاصّاً، وكُرهِهِ

للشريف الحسين وأُسرته، رجع إلى بريطانيا بعد أن قدّم استقالته سنة ١٩٢٤.

استطاع الذهاب إلى الربع الخالي وقَطَعَهُ، وأصدر كتابه عنه سنة ١٩٣٣. بعد ذلك اعتنق الإسلام فَأَطلقَ على نفسِه عبد الله فيلبي.

٢٥ ـ كي لسترنج: بلدان الخلافة الشرقية، وهذا الكتاب نقله إلى العربية بشير فرنسيس وكوركيس عواد، طبعة المكتبة الحيدرية في قم سنة ١٤٢٧ هـ، وللكتاب طبعة قديمة، وطبعة المكتبة الحيدرية مصورة عليها.

وهناك مجموعة من الرحلات والكتابات الّتي أشارت ووصفَت البصرة، وتحدّثت عنها، بعضها غير مترجَم والآخَر مترجَم، ولكنّي لم أحصل عليه، وقسمٌ آخَر منها هو ليس رحلات، بل هي كتبٌ تحدّثَت عن البصرة، وهي لا تخرج من الفكرة العامّة للكتاب، وهي بين (البصرة في عيون الأجانب)، سواء أكانوا رحّالة أم غير ذلك. ولعلّنا نجمع ما لم تقع عليه أيدينا الآن، فيكون جزءاً من العمل. وهنا مَرَد بتلك الرحلات والكتابات ومؤلّفيها:

١ ـ ليونهار تراوولف، وهو رحّالة أصلهُ هولندي، كتبَ رحلته باللغة الهولنديّة، اكتسب الجنسية الألمانية، بدأ رحلته بحراً من فرنسا إلى طرابلس في لبنان، وانتقل بعدها إلى دمشق وحلب، ومن هناك توجّه إلى العراق بطريق نهر الفرات، وبعدها عادَ إلى حلب وطرابلس، وتوجّه منها إلى البندقيّة، ونرى في كتاباته التعصّب لعقيدته الدينيّة والقوميّة، وكانت الغاية من رحلته جمع النباتات والأعشاب الطبّيّة الّتي تنمو في بلدان الشرق، إلّا إنّ ما كتبه عن النباتات تجاوزه إلى بعض المعلومات التأريخيّة والجغرافيّة والاجتماعيّة والاقتصاديّة، وكتب معلومات لا يُستهان بها عن العراق، وبعض البلدان العربيّة، وقد ترجم هذه الرحلة إلى العربية سليم طه التكريتي بعنوان

(رحلة المشرق إلى العراق وسورية وفلسطين سنة ١٥٧٣)، ونشرها في بغداد سنة ١٩٧٨ (لم أحصل عليه).

٢ ـ الرحّالة الانكليزي فيج، رحلته عام ١٥٨٣، وتَحدَّث فيها عن البصرة (ولا علم لي بترجمتها إلى العربية).

٣ ـ هارتمان، العراق في القرن السابع عشر، ترجمها بشير فرنسيس، وقد طُبعت الترجمة في بيروت د. ت (لم أحصل عليه).

٤ ـ دي لافال، ورحلته كانت في سنة ١٦٢٤، تحدّث فيها عن افراسياب، وقد صدرت سنة ١٦٦٥، في ٢٤٥ صفحة في لندن (ولكنّها لم تُترجم للعربيّة).

٥ ـ غود دنهو، رحّالة برتغالي، كانت رحلته سنة ١٦٦٣، تحدّث فيها عن البصرة (ولم تُترجم إلى العربيّة حسب علمي)، وقال عن البصرة أنها أعظم سوق في هذه البحار.

٦ ـ كيير، رحّاله انكليزي، كانت رحلته سنة ١٧٧٨ م، وقد طُبعَت في لندن سنة ١٧٨٥ م (ولم تُترجم رحلته للعربيّة حسب علمي).

٧ ـ جاكسون، مشاهدات بريطاني في العراق عام ١٧٧٩ م، وهو أحد موظّفي شركة الهند الشرقية الإنكليزية، دَوَّنَ مشاهداته في رحلته، وكان مصدراً وصفيّاً رائعاً أعطى فيه صورة واضحة عن أوضاع العراق في عهد سليمان باشا الكبير ١٧٨٠ ـ ١٨٠٢، ودور النشاط البريطاني فيه، وذكر ثورة الخزاعل وحملة الشيخ ثويني العبد الله ١٧٩٦ ـ ١٧٩٧ على الوهابيّين، وأعطى أوصافاً دقيقة عن المدن الّتي مَرَّ بها، وقد تُرجمَت رحلته بعنوان (مشاهدات بريطاني في العراق عام ١٧٩٧) (ولم أحصل عليه).

٨ ـ هيود: وهو رحّالة انكليزي، كتب رحلته سنة ١٨١٧، وصدرت في لندن

سنة ١٨١٩ في ٤٨ صفحة (ولم تُترجم حسب علمي).

٩ ـ جميس باكنغهام، وهو رحّالة انكليزي مشهور، زار إيران عام ١٨١٧، وأبحر من مياه بوشهر إلى الهند بمهمّة خاصّة كَلَّفَته بها شركة الهند الشرقية، وأبحر من بومباي إلى موانئ الخليج العربي وصولاً إلى البصرة، وقد كتب عن رحلته هذه كتاباً أسماه (رحلات إلى ميديا وآشور)، طُبع عام ١٨٣٠ يُصوّر فيه رحلاته تلك الّتي استغرقَت أكثر من ثلاثة أشهر، وتحدّث فيها عن الجوانب العسكريّة، وقد عَقَدَ فصلاً عن البصرة، واصفاً أهمّيتها التجارية كميناء رئيس في الخليج العربي، ونَشَرَ جعفر الخيّاط موضوعاً حول هذا الفصل، في العدد الثاني مجلّة المعلّم في شباط سنة ١٩٦٧، وترجمها سليم طه التكريتي، بغداد سنة ١٩٦٩ (لم أحصل عليه).

١٠ ـ فونتانيه، رحّالة فرنسي، كتب عن البصرة سنة ١٨٤٤ (لم تُترجم الرحلة إلى العربية حسب علمي).

١١ ـ استون شفرد، بريطاني، زار البصرة سنة ١٨٥٧، وصدرت رحلته سنة ١٨٧٥، في ١٩٧ صفحة (ولم تُترجم للعربية حسب علمي).

١٢ ـ جون آشر، مشاهدات جون آشر في العراق ١٨٦٤، ترجمة جعفر الخيّاط، بغداد د. ت (لم أحصل عليه).

١٨ ـ باركلي رونكيير، رحّالة دنماركي، كانت مهمته الأساسيّة الوصول إلى الجزيرة العربية للتعرّف على الحركة الوهابية.

وهو الابن الوحيد لوالده عالم النباتات الدنماركي البروفسور كرستيان رونكيير، وهو مولود عام ١٨٦٠، وكانت والدته ناقدة ومؤلّفة وشاعرة، نال باركلي تعليماً جيّداً، وسافر مع أبيه إلى تونس عام ١٩٠٩، ويبدو أنّ رحلته إلى الجزيرة العربية كانت

جزءاً من خطّة الجمعية الفلكيّة الجغرافيّة في الدنمارك لاستكمال المعلومات الّتي قدّمها ينبور في رحلته سابقاً، وكانت بداية الرحلة من استنبول عام ١٩١١، إذ إنّه وصل إلى حلب، ثمّ إلى بغداد، ومنها انطلق عن طريق نهر دجلة ليصل إلى البصرة، الّتي توجّه منها إلى الكويت أوّلاً ثمّ الذهاب برحلة برّيّة بواسطة جملٍ إلى قلب الجزيرة العربية، وقدَّم خلال رحلته أوصافاً وانطباعاتٍ عديدة، وبمختلف المجلّات، وترجم محمّد الخريجي هذه الرحلة بعنوان (عبر لأراضي الوهابية على ظهر الجمل) (لم أحصل عليه).

١٣ ـ مدام ديولافوا، هي رحّالة ورسّامة فرنسية رافقَت زوجها مارسيل ديولافوا ١٨٤٣ ـ ١٩٢٠، وهو مهندس معماري فرنسي وباحث في علم الآثار، رافقت مدام ديولافوا زوجها في أوّل مرحلة إلى الشرق عام ١٨٨١ لإجراء بعض الدراسات على بقايا المدن القديمة، وبعد عودتها قامت بنشر كتاب عن تلك الرحلة تضمّن مشاهداتها والأحداث الّتي واجهَتها، أطلقَت عليه اسم رحلة ديولافوا إلى إيران وشوش وكلدة، وزارت البصرة سنة ١٨٨١، ترجم تلك الرحلة إلى العربية علي البصري ونُشرت في بيروت سنة ٢٠٠٧ (لم أحصل عليه).

١٤ ـ اينهولت، رحّالة هولندي، واسمه ليكلاما اينهولت، وكانت رحلته إلى العراق سنة ١٨٦٦ ـ ١٨٦٧، ترجمها للعربية مير بصري، ونشرتها دار الورّاق للنشر بغداد سنة ٢٠١٢ (لم أحصل عليه).

١٥ ـ السير وليس برج، رحّالة بريطاني، كتب رحلات إلى العراق، وقد وصل البصرة سنة ١٨٨٦، وكتب عنها خمسة فصول، في الجزء الأول من ص ١٦٥ ـ ٢٨٥، وناقش باستفاضة جهود العراقيّين والبصريّين في عرقلة المصالح البريطانية في العراق

(ولم تُترجم الرحلة إلى العربية).

١٦ ـ راؤلف، كتب رحلته (رحلة المشرق إلى العراق وسوريا ولبنان وفلسطين)، وترجمها سليم طه التكريتي، ونُشرت الترجمة في بغداد سنة ١٩٧٨ (ولم أحصل عليها).

١٧ ـ سيرل بورتر، بريطاني الأصل، وُلِدَ عام ١٨٩٥، اتّجه مع الحملة البريطانيّة على العراق خلال الحرب العالميّة الأُولى، فقد كان ضابطاً في الهندسة العسكرية البريطانية، أُعجب بحياة العراقيّين وطُرق عيشهم، وأكلهم، وتزوّج من سيّدتين عراقيّتين، وكانت كتاباته عبارة عن رسائل يبعث بها إلى شقيقته دورا، كانت وفاته في بغداد عام ١٩٦٧، ودُفن فيها، جمعت ابنته أمل بورتر تلك الرسائل فكان كتاب (العراق ما بين الحربين العالميّتين من خلال رسائل سيرل بورتر)، نشرتها دار ميوزبوتاميا، بغداد سنة ٢٠٠٨.

١٨ ـ لويس ماسينيون، كتب عن العراق خطط البصرة، خطط الكوفة، لهجة بغداد. في بدايات القرن العشرين (وهو خارج عن موضوعنا).

١٩ ـ لوريمر، وهو أحد موظّفي حكومة الهند البريطانيّة، أرسلته الحكومة البريطانية عام ١٩٠٤ إلى منطقة الخليج العربي، للتحرّي عن معلومات مُفصَّلة عن المنطقة، فزار أغلب مُدن المنطقة، وكتبَ عنها، وكتبَ عن المدن العراقية، وجاءت كتاباته بشكلٍ مُسهَبٍ في الأوضاع السياسيّة والاقتصاديّة والاجتماعيّة، وبذلك فإنّه يُعَدّ أبرز مصدر وثائقي عن تأريخ الخليج العربي اعتمد فيه كاتبه على سجلّات حكومة الهند وعلى المعلومات السرّيّة الّتي وضعَتها بكاملها تحت تصرّفه، وقد طُبعَ قسمٌ منه عام ١٩٠٨، أمّا القسم الآخَر فقد طُبعَ في عام ١٩١٥، وبقي وثيقة سرّيّة لا

يجوز الاطّلاع عليها حتى عام ١٩٦٠، إذ أتت الحكومة البريطانيّة على نشره، ويتكوّن من قسمين: القسم التأريخي، والقسم الجغرافي، وقَسَّم الكتاب إلى أربعة عشرة جزءاً، سبعة منها للقسم التأريخي، طُبعَت في الدوحة عام ١٩٦٧، ومثلها للقسم الجغرافي، طُبعَت في بيروت عام ١٩٧٠.

وقد جَمَعتُ ما كتبه لوريمر عن البصرة في كتابه هذا، وصدر كجزءٍ من كتابي البصرة ذكرى مدينة (الفصل الأول) سنة ٢٠١٢.

٢٠ ـ الكسندر آداموف: وهو ديبلوماسي روسي عَمَلَ في نهاية القرن التاسع عشر وبداية القرن العشرين قنصلاً لبلاده في البصرة، ألّف كتاباً ضخماً عن البصرة بعنوان (ولاية البصرة في ماضيها وحاضرها)، وللكتاب قيمة علمية كبيرة تكمن بكون مؤلّفه قد عاصر بعض الأحداث، وسَجَّل ملاحظاته بشكلٍ مباشرٍ ولم يعتمد على النقل في تسجيل معلوماته، وكان مطلعاً على عددٍ كبيرٍ من المصادر والمراجع الروسيّة والفرنسيّة والألمانيّة والانجليزيّة الّتي تتعلّق بالمواضيع المختلفة الّتي عالجها في كتابه، ولم تقتصر معلوماته على جانبٍ معين، بل بكل الجوانب السياسية والاقتصادية والاجتماعية والإدارية والجغرافية وأوضاع السكّان، وطبع هذا الكتاب عدّة طبعات بترجمة سليم طه التكريتي، وهو (خارج عن موضوع عملنا لأنه كتاب كبير مستقل عن البصرة).

٢١ ـ وليامسون، شابٌّ بريطاني ترك بيته في بربستول ببريطانا حينما كان يافعاً في أواخر القرن التاسع عشر في سبيل اعتناق الإسلام، إذ مَرَّ بمغامرات عديدة وركب الأهوال، أخذ وليامسون يتكلّم العربيّة الفصحى بل وحتّى العامّيّة.

كتب عنه في الخمسينيات وستانتون هوب كتاباً أسماه (الهارب إلى الله)، ترجمهُ

اللبناني رضوان مولوي، وصدر عن الدار المتّحدة للنشر في بيروت عام ١٩٧٤، وكان رضوان قد التقى وليامسون أو الحاج عبد الله المسلماني في مسكنه بكوت الحجاج بالبصرة (ولكنّي لم أحصل على الكتاب).

٢٢ ـ البصرة حلم الجمهورية، ريدر فسر.

٢٣ ـ معرفة الشرق في العصر العثماني، الرحلة الإيطالية إلى العراق، للرحّالة لياندرو الكرملي، ترجمها عن الإيطالية وعلّق عليها الأب الدكتور بطرس حداد. وصدرت عن المركز الأكاديمي للأبحاث سنة ٢٠١٣، وقد كتب مترجم الرحلة عن حياة هذا الرحالة فقال: إنه لياندرو الكرملي، واسمه الرهباني الكامل: الأخ لياندرو للقديسة سيسيليا من الرهبان الكرمليين الحُفاة. هو إيطالي الأصل، ولِدَ في جنوة سنة ١٧٠٢، وانتهى إلى الرهبانية في نيس فأعلن نذوره سنة ١٧٢٥، وبعد عشرة أعوام أُرسِلَ إلى الشرق فخدم بعض الوقت في همدان (إيران)، حيث كان لهم دير، ثمّ انتقل إلى بغداد، وكان فيها دير للكرمليين منذ وقت قريب، فبقيَ خمسة أعوام متتالية، وفي سنة ١٧٤٦ رجع إلى وطنه. ثمّ عاد إلى الشرق فخدمَ في دياربكر، وانحدر إلى الموصل، إذ رافق الآباء الدومنيكان الإيطاليين في أوّل قدومهم إلى الموصل، ليحلّوا محلّ الآباء الكبوشيين الّذين سبقوهم في الخدمة في أم الربيعين، لكنهم اضطرّوا إلى تركها قبل سنوات، وعاد لينادرو إلى إيطاليا، وبَقيَ هناك إلى أن وافته المنيّة في روما سنة ١٧٨٤، وهذه الرحلة كانت تصف العراق عامّة، وقد تطرّق إلى البصرة ولكن بصورة مختصرة جدّاً جدّاً، لذلك لم نُدرجها هنا.

٢٤ ـ وليم ويلكوكس، مهندس الريّ البريطاني، المُكلَّف من الحكومة العثمانية للقيام بالمسح وتقديم مخطّطات مشاريع الريّ في العراق، ولاسيّما مشروع سدّة الهنديّة بين سنتي ١٩٠٥ ـ ١٩٠٨ ومشاهداته في بغداد وتصرفات الموظفين العثمانيين، وشق

الشارع الجديد من الباب الشرقي إلى باب المعظم، ووصف نهر دجلة ومشاهداته في الأماكن الّتي عمل فيها بين بغداد والبصرة مروراً بالمسيّب وكربلاء والأهوار.

ترجم هذه الرحلة كاظم سعد الدين ضمن كتاب مذكرات ورحلات إلى بغداد، نشرتها دار الشؤون الثقافية في الموسوعة الثقافية العدد ٦٧، بغداد سنة ٢٠٠٩، وقال المترجم عن صاحب الرحلة: وليم ويلكوكس ١٨٥٢ ـ ١٩٣٢، ولِدَ في الهند عند جبال الهملايا، وكان أبوه مهندساً للريّ، وقد اختار الأب الدراسة لأولاده الخمسة، فَدرسَ وليم هندسة الريّ في الهند على أيدي مهندسين بريطانيّين، وتخرّج واشتغل في الهند نفسها في مشاريع الريّ حتى سنة ١٨٨٣، ثمّ استُدعي للعمل في الريّ في مصر ولاسيّما في خزان أسوان من ١٨٨٩ حتّى ١٨٩٨، واشتغل سنةً واحدة ١٩٠١، في جنوب أفريقيا ثمّ عاد مصر من ١٩٠٥ إلى ١٩٠٨، واستدعته الدولة العثمانيّة للعمل في العراق للقيام بالمسح وتقديم مخطّطات مشاريع الريّ فيه، ولاسيّما مشروع سدّة الهنديّة، وتعاقد لمدّة خمس سنوات غير أنه لم يستطع إكمال المدّة فترك العمل في منتصفها، ثمّ عاد إلى مصر من سنة ١٩١١ إلى سنة ١٩١٤، وذهب إلى كندا سنة ١٩١٢، والولايات المتّحدة سنة ١٩١٤، وطُبعت مذكراته في لندن سنة ١٩٣٥ [لم تدخل ضمن موضوعنا لأنّ حديثه عن البصرة كان موجَزاً جدّاً].

٢٥ ـ حميد يارجونك بهادر الهندي، كانت رحلته من الهند إلى بغداد مع والده، فوصف الأماكن والأوضاع في العراق ووصف الفيضان الّذي حَلَّ بالبلاد سنة ١٩٠٧، ومرض الكوليرا الّذي تفشّى في تلك الأماكن، ووصف وسائط النقل النهرية والبرية والوضع الإداري للعراق أبان الحكم العثماني وتصرفات الموظفين وزيارته كربلاء والنجف وبغداد والشيخ عبد القادر الگيلاني وحلولهم ضيوفاً على آل النقيب في البصرة وبغداد ووصفه بيوتهم في تلكما المدينتين ومآكلهم ومشاربهم، ويعرج إلى وصف الخيول العربية في العراق. وترجم مذكراته كاظم سعد الدين ضمن

الكتاب السابق (ولكنها وصفت البصرة بإيجاز).

٢٦ ـ كودالا، رحلة كودالا تناولت الأوضاع في الحرب العالميّة الثانية، وتتحدّث عن حرب القوّة الجوّية البريطانية في الحبّانيّة ووضع الجيش العراقي، وحركة رشيد عالي الگيلاني في مايس سنة ١٩٤١، وترجمها كاظم سعد الدين في كتابه السابق (ولكن الرحلة قدّمت وصفاً مبتسراً عن البصرة).

٢٧ ـ جيرالد دي كاوري، تناول أوضاع العراق في الحرب العالمية الثانية، وأحداث مايس سنة ١٩٤١، من زاويةٍ أُخرى، وهروب عبد الله ونوري السعيد إلى فلسطين ولجوء الملك فيصل الثاني إلى أربيل، ثمّ عودة عبد الإله الوصي ونوري السعيد وحكومتهما بعد فشل الحركة، وهرب رشيد عالي الگيلاني إلى العراق، وترجم هذه الرحلة كاظم سَعد الدين في كتابه السابق (ولكن تلك الرحلة تحدّثت بإيجاز عن البصرة).

٢٨ ـ روسو، (رحلة من بغداد إلى حلب)، والرحّالة فرنسي، ترجم هذه الرحلة الأب د. بطرس حداد، وصدرت في بغداد سنة ٢٠٠٧ (ولكني لم أحصل عليها).

٢٩ ـ الليدي درور، كتابها (على ضفاف دجلة والفرات)، تعريب فؤاد جميل، دار الوراق للنشر، سنة ٢٠٠٨ (ولكنها تحدّثت بإيجاز عن البصرة لم يفِ بالغرض)، وكانت زيارتها للبصرة سنة ١٩١٩.

٣٠ ـ ج. كولن ويرد، كتابه (ميناء البصرة) سنة ١٩٣٨، والمؤلف كان مديراً لميناء البصرة والمدير العام للملاحة، ترجمته سحر أحمد، وأُعيد نشره حديثاً سنة ٢٠١٣ في البصرة، والكتاب مخصص لميناء المعقل (وهو لا يدخل ضمن عملنا).

جدول بأسماء الرحّالة وبلدانهم وتأريخ رحلاتهم

اسم الرحّالة	تأريخ الرحلة	موطنه	شخصيته

١ ـ ناصر خسرو	٤٣٧ هـ	فارسي	رحّالة
٢ ـ سيدي علي ريس	١٥٥٣ ـ ١٥٥٤ م	تركي	عسكري
٣ ـ فيدريجي	١٥٣٦ م	إيطالي	تاجر
٤ ـ كاسبارو بالبي	١٥٧٩ م	إيطالي	تاجر
٥ ـ جون ايلدرو	١٥٨٣ ـ ١٥٨٤ م	انگليزي	تاجر
٦ ـ بيدرو تيخيرا	١٦٠٤ ـ ١٦٠٥ م	برتغالي	يهودي
٧ ـ ديللاڤاليه	بداية القرن السابع عشر	إيطالي	تاجر
٨ ـ لابولي لوغوز	١٦٤٩	فرنسي	رجل دين مسيحي
٩ ـ فنشنسو	١٦٥٦	إيطالي	رجل دين كرملي
١٠ ـ تافرنييه	١٦٣٣	فرنسي	جغرافي
١١ ـ جان دي تيفينو	١٦٤ ـ ١٦٦٥	فرنسي	رحّالة
١٢ ـ سبستياني	١٦٦٦	إيطالي	رجل دين كرملي
١٣ ـ بارثيلمي كاريه	١٦٦٩ ـ ١٦٧٤	فرنسي	رجل دين
١٤ ـ كارستن نيبور	١٧٦١	ألماني ودنماركي	جغرافي
١٥ ـ ابراهام بارسونز	١٧٧٤ ـ ١٧٧٥ م	اسكتلندي	تاجر
١٦ ـ صموئيل ايفرز	١٧٧٩	إيطالي	تاجر
١٧ ـ سيستيني	١٧٨١	إيطالي	آثاري
١٨ ـ تايلر	١٧٨٩ ـ ١٧٩٠	انگليزي	عسكري
١٩ ـ اوليڤييه	١٧٩٣ ـ ١٧٩٧	فرنسي	سياسي ومُرسَل من قِبل مجلس الثورة الفرنسيّة

٢٠ ـ أبو طالب خان	١٨٠٤	تركي	رحّالة
٢١ ـ دُوبريه	١٨٠٧ ـ ١٨٠٩	فرنسي	تأريخي
٢٢ ـ خورشيد باشا	١٨٧٠	تركي	سياسي وعسكري
٢٣ ـ كرستجي	١٩١٦ ـ ١٩١٧	هندي + بريطاني	سياسي
٢٤ ـ فيلبي	١٩١٥ ـ ١٩٢١	بريطاني	سياسي
٢٥ ـ كي لسترنج	بداية القرن العشرين	هندي بريطاني	مؤرّخ

وبهذا يكون لدينا: حسب البلد:

وستكون النسبة:

الإيطاليّين: ٧

هندي + الانگليز: ٦

الفرنسيّين: ٦

الأتراك: ٣

برتغالي: ١

ألماني: ١

فارسي: ١

أما حسب الانتماء:

رجل الدين: ٥

رحّالة: ٢

عسكري: ٣

تاجر: ٦

آثاري + جغرافي + مؤرّخ: ٥

سياسي: ٤

أما حسب الانتماء فرجل الدين والتجّار هم الأكثر.

وهذا جدول بأسماء الرحّالة وبلدانهم وتأريخ رحلاتهم ممّن لم تُجمَع رحلاتهم هنا:

اسم الرحّالة	تأريخ الرحلة	موطنه	شخصيته
١ ـ يونهار تراوولف	١٥٧٣	هولندي	جغرافي
٢ ـ فيج	١٥٨٣	انگليزي	
٣ ـ هرتمان			
٤ ـ دي لافال	١٦٢٤	انگليزي	
٥ ـ غود دنهو	١٦٦٣	برتغالي	
٦ ـ كيير	١٧٨٥	انگليزي	
٧ ـ جاكسون	١٧٧٩	انگليزي	سياسي
٨ ـ هيود	١٨١٩	انگليزي	
٩ ـ جميس باكنغهام	١٨١٧	انگليزي	سياسي
١٠ ـ فونتانيه	١٨٤٤	فرنسي	
١١ ـ استون شفرد	١٨٥٧	بريطاني	
١٢ ـ جون آشر	١٨٦٤	بريطاني	
١٣ ـ باركلي رونكيير	١٩١١	دنماركي	سياسي

١٤ ـ مدام ديولافوا	١٨٨١	فرنسيّة	رحّالة
١٥ ـ اينهولت	١٨٦٦ ـ ١٨٦٧	هولندي	
١٦ ـ السير وليس برج	١٨٨٦	بريطاني	سياسي
١٧ ـ راؤلف	بداية القرن العشرين		
١٨ ـ سيرل بورتر	١٨٩٥	بريطاني	ضابط
١٩ ـ لويس ماسينيون	بداية القرن العشرين	فرنسي	مؤرّخ
٢٠ ـ الكسندر آداموف	بداية القرن العشرين	روسي	سياسي
٢١ ـ وليامسون	بداية القرن العشرين	بريطاني	رحّالة
٢٢ ـ ريدر فسر	معاصر	ألماني	مؤرّخ
٢٣ ـ لياندرو الكرملي	١٧٤٦	إيطالي	رجل دين كرملي
٢٤ ـ وليم ويلكوكس	١٩٣٢	بريطاني	
٢٥ ـ كودالا	١٩٤١	بريطاني	
٢٦ ـ جيرالددي كاوري	١٩٤١	بريطاني	
٢٧ ـ روسو		فرنسي	
٢٨ ـ الليدي درور	١٩١٩	بريطانيّة	
٢٩ ـ ج. كولن ويرد	١٩٣٨	بريطاني	سياسي

وبهذا تتّضح لدينا الدول الّتي ينتمي لها هؤلاء:

وتكون النسبة:

انكلترا: ١٩

فرنسا: ٤

هولندا: ٢

روسيا: ١

البرتغال: ١

إيطاليا: ١

ألمانيا: ١

دنمارك: ١

وبجمع الرحلات الّتي جمعناها مع غيرها من الرحلات تكون النتيجة:

الانگليز: ٢٢

الإيطاليّين: ٨

الفرنسيّين: ١٠

الأتراك: ٣

البرتغال: ٢ من ٥٤ رحلة

ألمانيا: ٢

فارسي: ١

دنمارك: ١

هولندا: ٢

روسيا: ١

غير معروف: ٢

المحور الثاني: سور البصرة

لعلّ هذا السور من أقدم الأسوار الّتي أُحيطت بها المدن الإسلاميّة، ولكن لتغيير موقع البصرة عدّة مرّات فقد يكون السور المقصود ليس هو نفسه، فمدينة البصرة الأُولى والّتي كانت في منطقة الزبير الحالية كانت محاطةً بسور، فهذه المدينة «ونتيجة للنموّ والتطوّر الّذي صاحبها بسبب ازدهار حياتها الاقتصاديّة، أصبحَت هدفاً للهجمات الخارجيّة، وبدأت الأخطار تحدق بها، لذا أصبحَت الحاجة ماسّةً لإحاطتها بسور، وتمَّ ذلك في عام ١٥٥ هـ، لكنه لم يَدم طويلاً، لعدم الاهتمام بصيانته، وعندما استفحلَ خطر القرامطة قام والي البصرة محمّد بن هشام ببناء سور جديد حولها في عام ٢٨٦ هـ، إلّا أنّ هذا لم يمنع من دخولهم إلى المدينة ليفتكوا بأهلها، ولعلَّ بناء السور لم يكن بالمستوى المطلوب، واستمرّت حركة بناء الأسوار في البصرة بسبب الأخطار المتزايدة فَتمَّ بناء سورَين آخَرَين في عام ٥١٦ هـ، في عام ٦٢٩ هـ» (١).

---

(١) تكوين البصرة الحديثة، د. حسين علي المصطفى، سلسلة موسوعة البصرة الصغيرة، عدد ٢، مركز تراث البصرة، سنة ٢٠١٦، ص ١٨.

ولابن القرب العيوني قصيدة يمدح فيها أحد الولاة في نهاية الدولة العبّاسيّة، وهذا الوالي قد قام ببناء سورٍ للبصرة، والقصيدة في ثمانين بيتاً، والأمير هو شمس الدين أبو شجاع، وهو رجُلٌ تركيّ، كان أميراً على البصرة، فقال العيوني:

بَنى بالبصـرة الفيحـاءِ سُـوراً ... يُضاهي السدَّ سَـبكاً وانعقـادا

وأَيّـدهُ بمِثـل اللَّهـب تـأبى ... عـلى الأيّـام صُـفَّتهُ انهـدادا

وَزَيّنهـا بأسـواقٍ أرانـا ... بهـا كُـلَّ الـبلاد لهـا سـوادا

وأَروى أهلَهـا عَـذباً فُراتـاً ... ولم يـنفخْ لهـا عـذبٌ فـؤادا

←

وقال عارف مرضي الفتح في كتابه (الإيجاز في تاريخ البصرة والإحساء ونجد والحجاز): «قال الرحّالة ناصر خسرو: بلغنا البصرة في العشرين من شعبان سنة ٤٤٣ هـ، ٢٨ ديسمبر سنة ١٠٥١ م، وللبصرة سورٌ عظيمٌ يحيط بها، ما عدا الجزء المُطلّ على النهر، وهذا النهر هو شطّ العرب، ويتفرّع من شطّ العرب قناتان كبيرتان بين منبعهما مسافة فرسخ ... الشماليّة الشرقيّة تُسمّى نهر معقل، والثانية الغربيّة الجنوبيّة تُسمّى نهر الأبلة، ومنها تتكوّن جزيرة كبيرة مستطيلة، والبصرة على أقصر ضلع من هذا المستطيل، والجنوب الغربيّ للبصرة صحراء ليس بها عمران ولا ماء ولا شجر مطلقاً ... وبابها وسورها محكمان وقويّان وبها خلقٌ كثير، ودَخلُ سلطانها كبير، وكان أميرها في ذلك الوقت ابن أبي كاليجار الديلمي، الّذي مَلَكَ فارس.

والأُبُلة: الّتي تقع على النهر المُسمّى بها مدينة عامرة، وقد رأيتُ قصورها وأسواقها ومساجدها وأربطتها، وهي من الجمال بحيث لا يمكن حَدُّها أو وصفها، والمدينة الأصليّة تقع على الجانب الشمالي للنهر، وعلى جانبه الجنوبي يوجد من الشوارع والمساجد والأربطة والأسواق والأبنية الكبيرة ما لا يوجد أحسن منه في العالم، والشطّ الكبير الّذي هو دجلة والفرات مجتمعين، والمسمّى شطّ العرب يشق

وكم مِن مشهدٍ ورباطِ زُهدٍ ومدرسةٍ بنى وهُدىً أفادا

ديوان ابن المقرّب العيوني وشرحه، تحقيق: د. أحمد موسى الخطيب، مؤسّسة جائزة عبد العزيز سعود البابطين للإبداع الشعريّ، سنة ٢٠٠٢، جزء ١ / ٣٤٧.

وفي كتاب (صورة الأرض) لابن حوقل، طبعة كريمرز، ١ / ٢٣٧، أنّ القاضي عبد السلام الجيلي استحدثَ سوراً للمدينة كان يمتدّ نصف فرسخ، وسَوَّرَ ما بقي منها سنة ٥١٦، وهذا الكلام ليس لابن حوقل، بل لناسخ الكتاب.

شرق الأبلة، والمدينة في الجنوب، ويلتقي نهرا الأبلة ومعقل في البصرة» (١).

لم يكن هذا النصّ كلّه لناصر خسرو، بل فقط المقطع المبدوء من كلمة الأُبُلة، أمّا ما يتعلّق بالسور فهو كلام عارف مرضي الفتح، وهو متأخّرٌ كثيراً. وناصر خسرو لم يتحدّث عن سورٍ للبصرة، بل الّذي تحدّث عنه عارف مرضي الفتح؛ لأنّ السور كان يحيط الزبير آنذاك، وهو موقع البصرة الأوّل، فالبصرة انتقل مركزها ومقرّ الحكم فيها ثلاث مرّات لثلاث مناطق، وما تحدّث عنه ناصر خسرو كان موقع الزبير، والسور هو سور مدينة الزبير، وقد خلط عارف مرضي الفتح بين سور الزبير وسور البصرة مدار الحديث عندنا هنا، وأدخل على كلام ناصر خسرو.

ولعلّ إشارة الرحّالة جون ايلدرد ١٥٨٣ إلى سور البصرة هي أقدم إشارة من أجنبي، إذ قال: «يبلغ محيط مدينة البصرة ميلاً ونصف الميل، وكلّ البيوت والقلاع والأسوار مبنيّةٌ من الآجُر المُجفَّف بالشمس، وللسلطان التركيّ هنا حامية مكوّنة من خمسمئة انكشاري، فضلاً عن جنودٍ آخَرين».

والإشارة الثانية لسور البصرة كانت من الرحّالة تيخيرا سنة ١٦٠٤، إذ قال: «تقع البصرة ـ وهي مدينةٌ يسكنها العرب ـ على بُعد ميلين من شطّ العرب المكوّن من التقاء نهرَي الفرات ودجلة ... وهي تقع على أرضٍ منبسطة، وربما كان فيها عشرة آلاف بيتٍ داخل الحصن وخارجه ... ولكنّ بناءها رديء، فهي مبنيّةٌ بالآجُر المجفّف بالشمس الّذي لا يصمد أكثر من ثلاث سنواتٍ إلّا ما ندر ... وبيوت الفقراء في

---

(١) الإيجاز في تاريخ البصرة والإحساء ونجد والحجاز، جمع وإعداد وتأليف: عارف مرضي الفتح، ٢ / ٢٣٩.

العموم من الحصران وحُزم القصب الّذي يكثر في الأنهار، وهنا يوجد محيط مربع الشكل طوله أطول من عرضه، وجميع الأسوار والمتاريس هنا من الطين، وكلّها مُهدّمة تقريباً، ويحيط بالمدينة خندقٌ عميق وعريض يُغذّيه رافد، وبداخله نحو عشرة آلاف بيت»، هذا الوصف لا يختلف كثيراً عمّا قاله إيلدرد، ولكن تجدر الإشارة هنا إلى أنّ هذا السور هو عبارة عن متاريس ترابيّة أو أسوار من اللبن تهدّمت فأصبحَت على شكل متاريس من الطين، ويعتقد تيخيرا أنّ الخراب الّذي شاهده في البصرة وبيوتها وسورها هو سبب انفجارٍ كبيرٍ وقع في المدينة، يقول: «حينما وصلتُ البصرة كان كثيرٌ من بيوتها بحالة خراب داخل الأسوار وخارجها، وقد أُعيد بناؤها بسرعةٍ كبيرةٍ جدّاً، وكان السبب في ذلك الخراب أنّ النار شَبَّت في مستودعٍ للبارود قبل ثمانية أو عشرة أيّام، فانفجرت خمسة آلاف كيس جلدي من البارود، وأحدثت هياجاً شديداً، حتّى اعتقد الناس أنّها نهاية العالم، وقد حدثَ ضررٌ عظيمٌ في الجزء الأعظم من هذه المدينة، الّتي مضى عليها الآن نحو قرنين، وهي منتصبة في هذا المكان، أما الآن فهي في موقعها الثالث. ويحتل الأتراك هذه المدينة منذ أكثر من خمسين سنة بعد أن سيطر عليها أحد الطُّغاة العرب ووضعها تحت تصرّفهم».

وبعد سنوات قليلة ـ أي: في سنة ١٦١٠ ـ يصف الرحّالة ديللاڤاليه هذا السور قائلاً: «البصرة مدينة مترامية الأطراف عامرةٌ بالسكّان، رديئة العمران قائمة على أرض مستوية مفتوحة لأنها غير مُسوّرة. ولقد أُحيطت بسورٍ مؤخّراً بسبب الحروب الّتي شنّها الفُرس عليها، وفي السور أبراجٌ من الطين، وقد تهدّم بعضُها، وللمدينة أبوابٌ تُقفل ...».

وفي سنة ١٦٦٩ زارها الرحّالة بارتيلمي فقال عن حصار العثمانيّين للبصرة: «ولم يكد يمرّ علينا يومٌ دون أن نشاهد مدينة البصرة مليئة بالمشاهد المحزنة المؤلمة الّتي

جعلت الناس في كآبةٍ وحزنٍ ورعبٍ شديد، لا يعلمون كيف سينتهي، وكُنّا نرى عصابات الجنود تأتي وتذهب في الشوارع أحياناً، فاضطرّ الحرفيون إلى إغلاق دكاكينهم، وأحياناً كُنّا نشاهد عامّة الناس نساءً وأطفالاً يتدافعون على غير هُدىً، حتّى سادت الفوضى كُلَّ مكان، دونَ أن نعرف ما العمل، لأنّنا لم نعرف حقيقة الوضع في معسكر الأمير العربي، وكانت تلك سياسة الوالي [أي: قطع الطرق]، فقد سيطر على الطرق وأَغلَقَ جميع الجهات، حتّى لا يَسمح بمرور أيّ شخصٍ قد ينقل أخبار اقتراب الجيش التركي، ولم يكن هناك مَنْ يعرف الأخبار سوى حاكم المدينة والمسؤولون في البصرة، الّذين يقومون بحراسة قصر الأمير جيّداً ليل نهار، حيث حريمه وخزائنه، وبحراسة أبواب المدينة، ممّا جعل الناس في حَيرةٍ من أمرهم ولا يعرفون ما يقرّرون»، وهذه إشارة إلى وجود أبواب على هذا السور يتمّ التحكّم بها.

ويتبيّن أنّ السور قد تمّ إصلاحه ووضعت له أبواب وأُدخلت مدينة المناوي داخله، فقد كانت «المناوي تستقبل السفن فضلاً عن السراجي، وفي عام ١٦٥٠ وُسِّعَ سور المدينة ليشمل هذه القرية أيضاً» (١)، ولكن أفضل رحّالة يقدّم لنا وصفاً لهذا السور وأبعاده وأبوابه، بل ورسم لنا خارطة، هو كارستن نيبور، فهو جغرافي وآثاري، ويتبيّن من وصفه للمدينة والسور أنّ المدينة قد استقرّت على سورها حتّى زيارته سنة ١٧٦٤، إذ يقول: «تقع مدينة البصرة على ارتفاع ٣٠°، ٣٠' من القطب، على الجهة الغربيّة لشطّ العرب، واستناداً للخارطة الّتي رسمتها يبلغ طول سورها حوالي الميل تقريباً، وتكثر فيها بساتين النخيل وحقول القمح الّتي تزيد من نقاط التشابه بينها

(١) الاقتصاد السياسي لتجارة البصرة في القرن الثامن عشر، د. ثابت عبد الجبّار عبد الله، ص ٩٨.

وبين مدينة بابل القديمة، والجدير ذِكره أنّ هذه المنطقة لا تضمّ صخوراً منقوشة، إلّا تلك الّتي نشاهدها فوق عتبة الجوامع، فمعظم الأبنية مصنوعةٌ من الخشب الثمين الّذي يُنقل من المناطق الأُخرى، تغطّي الحجارة بعض الأسوار، بينما استُعمل الصلصال لبناء المنازل وسور المدينة الكبيرة، ممّا يعني أنّ أنقاض هذه المدينة لن توازي أنقاض مدينة بابل أهميةً.

يبلغ عرض الشطّ في هذه المنطقة حوالي ربع فرسخ، وتكثر في البصرة القنوات الصغيرة المتفرّعة من النهر الكبير، والّتي تُساعد على الحفاظ على نظافة المدينة، غير أنّني لم أدخل مدينةً أكثر قذارةً من هذه، إذ يستعمل معظم الناس المياه الملوّثة في مطابخهم، كما وأنّهم ينظّفون بها شوارعهم غير المرصوفة، وتضمّ المدينة خمسة أبواب:

١ ـ دروازة أو باب الرباط.

٢ ـ دروازة أو باب بغداد.

٣ ـ دروازة أو باب الزبير.

٤ ـ دروازة أو باب السراجي.

٥ ـ دروازة المجموعة.

ونُشاهد في المدينة مسجداً له منارتين، وثمانية آخرين لكلّ واحدٍ منها منارة واحدة، وهي تُعرف بالجوامع، ويُقال أنّ هذه المدينة تضمّ ٤٠ مسجداً صغيراً، ولكنّني أخالها أقرب إلى المصلّى منها إلى الجامع».

وهذه الأسوار الّتي كانت على شكلٍ مستطيلٍ ومحاطةً بنهرَي الخورة والخندق من خارجها ويخترق نهر العشّار المدينة، ولكن ما وصفه الرحّالة السابقون [قبل نيبور] لسور البصرة لا يعدو كونه سوراً من لبن أو سدة ترابية، ولكن قد يكون الأمر قد

تطوّر قبل دخول نيبور للمدينة سنة ١٧٦٤، وإلّا فإنّ هذه الأسوار قبل قرن كانت مهملة، ولكن لا أعرف المعلومات الّتي استند إليها أحد الباحثين المعاصرين عندما وصف السور بغير ذلك عندما قال: «في عهد [علي باشا افراسياب] تمّ بناء أسوارٍ للبصرة على شكل مستطيل غير منتظم بسبب محاذاة الأسوار نهرَي الخورة والخندق، إذ يكون السور الأول في الضفة الشمالية لنهر الخورة جنوب محلّة المشراق، ويستمرّ شرقاً إلى أن يصل مقابل مَحلّة (توثة العبّاس) (العبّاسيّة حالياً)، والسور الثاني يبتدئ من نهاية السكن ـ أي: غرب محلّة نظران جنوب نهر الخندق ـ، ثمّ يتّجه شرقاً إلى أن يصل إلى نهاية محلّة الساعي، وقد تَمَّ بناء سورٍ يربط نهايتَي السورَين من دون تحصينات، ربّما لقربها من القاعدة العسكريّة في المناوي.

وشهد بناء الأسوار في عهد (حسين باشا افراسياب) حركةً دائبة، إذ زادَ في قوّة الأسوار السابقة، ومن ثمّ مدّها باتّجاه الشرق بحيث وصل السور الأوّل قريباً من شطّ العرب، ولزيادة التحصين في المنّاوي قد أُحيطت بسورَين، وأُكمل امتداد السور الثاني بحيث أوصله إلى نقطةٍ تقع إلى الشمال من مَحلَّة المقام، ثمّ ينعطف السور باتّجاه الجنوب إلى خفاف نهر شطّ العرب.

وفي عام ١٧٦٥ هـ، تمَّ حفر قناةٍ في جهة الغرب تكمل مسيرة النهرين بحيث أُحيطت المدينة بالمياه بشكلٍ تامّ.

والجدير بالذكر أنّ تلك الأسوار كانت لها أبواب، وفي البداية كان للأسوار بوّابتان، هما: بوّابة بغداد، وبوّابة الزبير، وفي القرن الثامن عشر حَدَّد الرحّالة نيبور خمس بوّابات للأسوار، هي: باب الرباط، وباب الزبير، وباب بغداد، وباب

المجموعة، وباب السرّاجي»[١].

وعندما زار بارسونز البصرة سنة ١٧٧٥، قَدَّم وصفاً دقيقاً للسور، بل وطريقة تسليحه، إذ قال: «ويحيط المدينة سورٌ وخندقٌ عميقٌ وواسع، ولها أربع بوّابات وميناء للسفن، والأسوار مبنيّةٌ من الطين، ويبلغ عرضها ما بين (٢٠ ـ ٢٥) قدماً، وفيها متاريس أماميّة عالية ذات فتحات صغيرة للبنادق والسهام (فالعرب ماهرون برمي السهام)، ولا تحيط هذه الأسوار المدينة من جهة اليابسة فحسب، وإنّما من جوانب الرافد أيضاً الّذي يبدأ من مسافةٍ بعيدة، حيث تنتهي الأسوار من كلا الجانبين، وكلّ طرفٍ يحميه حصنٌ وبوّابةٌ تبعد عن المدينة ثلاثة أميال، وتنتشر في المسافة الممتدّة بين البوّابة والمدينة عدّة آلافٍ من النخيل وغيرها من الأشجار المُتداخلة مع الزرع في التربة، ويبلغ محيط الأسوار نحو ١٢ ميلاً، ومع أنّ نصف ما بداخل الأسوار غير مبني، إلّا أنّ المدينة كبيرة، وكانت مكتضّةً بالسكّان قبل طاعون ١٧٧٣، والبوّابتان الرئيستان كبيرتان، وهما على جهة اليابسة، وتُدعى الأُولى (بوّابة بغداد) والثانية (بوّابة الزبير)، ولا يحمي الخندق أَيّاً منهما، فهو يبعد عن كلّ جانبٍ كثيراً، وحينما يمتلئ الخندق يغمرُ الماء أساس الأسوار المبنيّ من الآجُر المفخور، حينها يُسمح للماء بالدخول إلى الخندق عند فيضان خليج البصرة، فتحبسهُ بوّابات الفيضان.

وهناك ثمانية متاريس نُصِبَتْ على كُلٍّ منها ثمانية مدافع نُحاسيّة زِنة كلّ إطلاقة منها إثنا عشر رطلاً، إلى جانب خمسين مدفعاً نُحاسيّاً زِنة كُلّ إطلاقةٍ منها ما بين (٦ ـ ٩) أرطال، وتحملها عربات نُصِبَ حول الأسوار، لكنّ هذه المدافع بدت وكأنّها غير

---

(١) تكوين البصرة الحديثة، د. حسين علي المصطفى، ص ٧٥.

صالحةٍ للاستخدام، ولكن حينما وصلت أنباء اقتراب الحصار الفارسيّ على المدينة، هَمَّ (المُتسلِّم) بإصلاحها بكلّ حماسة، وأمر بتزويدها بالكثير من القذائف والبارود الّذي يتمّ تصنيعه في المدينة، فهناك كمياتٌ كبيرة من الملح الصخري في المنطقة المجاورة، فلا يستوردون البارود أبداً، وإنّما يُجهّزون الأماكن الأُخرى به، وتقتصر التحصينات على كُلِّ جانبٍ من جوانب مصبّ الرافد على هذه المتاريس الثمانية، وإلى جانب ذلك هناك بطرية مكوّنة من ١٢ مدفعاً نحاسياً مُوزَّعة على مقرات القائد العسكريّ التابع للباشا، وتبعد أكثر بقليل من مئة ياردة جنوبي مصبّ الرافد».

ويصف لنا بارسونز ما حصل بعد ذلك للمدينة الّتي هجم عليها كريم خان الزند عام ١٧٧٥، فيقول: «في ليلة أمس ٢٦ كانون الثاني قام ثلاثمئة رجل مُسلَّح تابعون لشيخ بني كعب بتسلّق أسوار المدينة وزحفوا نحو السوق الرئيسة، ففتحوا المخازن والمحالّ التجاريّة عُنوةً وعادوا مُحمَّلين بغنائم هائلة من أجود البضائع الهنديّة، وكان الحرس مهملين جدّاً، فلم يكونوا يراقبون سوى البوّابات، والأغرب من ذلك لم تكن هناك بوابات تؤدّي إلى الأسواق أو الشوارع كما في بقيّة أجزاء تركيا، ولاسيّما في هذا الوقت الّذي يمكن تُسمع فيه تقارير باقتراب أيّ جيش لغرض الحصار عليها، على أيّة حال، من المؤكّد أنّ هذه الحادثة ستجعلهم أكثر حذراً في المستقبل ...»، وفعلاً عمل متسلّم البصرة على تقوية السور استعداداً للمعركة الّتي ستحصل أشهر قليلة، «وفيما كانت إيران تقرع طبول الحرب كان مُتسلّم البصرة المحبوب سليمان آغا منهمكاً في إعداد المدينة إلى حصارٍ طويل، وفي مطلع سنة ١٧٧٥ كانت المدينة قد تَحشَّدت عن بكرة أبيها استعداداً للحرب في الأشهر التالية، عبر شطّ العرب ثلاثون ألف محارب إيراني، وخلال الحصار الّذي أعقب العبور بَرهَنَ سليمان آغا على أنه قائد عسكري عظيم مثلما كان إداريّاً ناجحاً فقد نجح في منع الغزاة من اختراق أسوار البصرة

المحاصرة لمدّة ثلاثة عشر شهراً مرهقاً» (١).

وبارسونز الّذي مكث فترةً ليست بالقصيرة في البصرة يصف لنا استعدادات سليمان باشا مُتسلّم البصرة بعد حادثة تسلل ثلاثمئة شخص في ٢٦ كانون الثاني، إذ يقول: «في السابع من هذا الشهر [مايس سنة ١٧٧٥] وحتّى اليوم وردت أنباءٌ متكرّرة مفادها أنّ الجيش الفارسي كان يعبر النهر على مهله عبر عوّامات، لعدم وجود عدوٍّ يعيقه، وقد استغرب كثيرٌ من الأهالي، لأنّ المُتسلّم سَمَحَ لهم بنقل جيشهم دون اعتراض. على أيّة حال، يبدو لي من الواضح جدّاً أنّه لم يكن يثق كثيراً في ضبّاطه أو المُقرَّبين له بعيداً عن عينيه، لئلّا يتخلّوا عنه ويلتحقوا بالعدوّ، فإذا كان زعيم عربي مستقل يملك جيشاً قوامه خمسة عشر ألف رجلاً أو أكثر، كلّهم من المتطوّعين، قد ترك موقعه دون أن يَطلقَ طلقةً واحدة، فما يتوقّع من مرتزقةٍ معظمهم مأجورون ومُجبرون على أداء الخدمة العسكرية، ولا يملكون أيَّ شيءٍ في المدينة أو سواها، ويتمنّون التخلّص من حبسهم داخل أسوار في أقل إجازة طعام؟

لم يكن المُتسلّم شجاعاً جدّاً فحسب، وإنّما نَشِطاً ويقظاً أيضاً، فقد كان يقضي معظم يومه تقريباً على ظهر حصانه، في حركةٍ مستمرّةٍ يراقب ترميم الأسوار وعربات المدافع ونصب المدفعية، ولكن لسوء الحظ لم يكن ضباطه يؤازرونه من صميم أعماقهم، ولا يمكن وصف التصرف المتراخي لسيده باشا بغداد، بأنه عديم المسؤولية وغير قابل للتفسير فحسب، وإنّما بأنه تصرّف لا يُغتفر أيضاً، لأنّ أهل بغداد سرعان ما سيهجرون المدينة دون تجارة مفتوحة مع البصرة، ومع أنّه لم يكتفِ بإرسال إنذارٍ

(١) الاقتصاد السياسي لتجارة البصرة في القرن الثامن عشر، ص ١٢٦.

بين الحين والآخر، وكرَّر النصائح والتحذيرات لإرسال النجدات أيضاً، ولكن الوعود وحدها لم تُلبَّ حتّى الآن، مع أنّه يستطيع إرسال جيشٍ قوامه عشرون ألف رجلٍ من أكفأ الرجال، من بغداد والحِلَّة والحسكة وبضعَ مدن رئيسة أُخرى، قادر على سحق الجيش الفارسي المكوَّن من ستّين ألفَ رجل والانتصار عليه، فلم يعد للفُرس جيش نظامي منذ آخر صراعٍ خاضوه من أجل عرش الامبراطورية بعد مقتل نادر شاه، أو قلي خان، أما الجيش الحالي بقيادة صادق خان [أخو كريم خان] فكلّهم رجال قليلو الخبرة وغير مُدرَّبين.

هذه الأسوار كانت قد بُنيَت منذ أيام حسين باشا افراسياب ١٦٥٠ ـ ١٦٦٨، وكانت من الطين واللّبن، وكان فيها خمسة أبواب و١٣١ بُرجاً مُسلّحاً، ويحيط السور بالبصرة من ثلاث جهات، ويمتدّ ضلعاه المتوازيان حتّى شطّ العرب في الشرق، وقد قُدّر محيط السور ١٣ كم. وهذا يتّفق مع قياس الخندق الّذي كان يحيط بالمدينة خارج السور، والّذي يُشاهد حتّى اليوم [نهر الخندق ونهر الخورة اليوم هما بقايا الخندق القديم الّذي كان يحيط بالمدينة]، ولا يخالف هذا التقرير سوى حامد البازي الّذي يقول: إنّ أسوار البصرة تُقدَّر بـ ٧ ـ ٨ كم، ومن المؤسف أنّه لا يدُلّنا كيف توصل إلى هذا الرقم. وكانت إدامة السور واجباً مُلزماً على جميع الذكور من سكّان المدينة، وكان يشترك في إصلاح السور حتّى الوالي [المتسلّم]، إذ كان يحضر ويُسهم مع الآخرين في إصلاح الثغرات أو نقل الرمال المتكدّسة عند أسفل الأسوار، وبالرغم من المظهر المتواضع لهذه الأسوار إلّا أنّها صمدَت في وجه حصار نادر شاه عام ١٧٤٣ ثلاثة أشهُر، وحالت دون تقدّم كريم خان زند ثلاثة عشر شهراً قبل أن تُسلَّم المدينة الّتي كانت تكابد المجاعة في عام ١٧٧٦.

وفي عام ١٧٨٦ ـ ١٧٨٧ لاحظ رحّالةٌ من الهند أنّ كثيراً من المدافع باتت لا

تصلح للقتال، وأنّ الأسوار والأبراج أضحت خرائب، وسجَّل الباب العالي اهتمامه بالأوضاع الّتي انتهت إليها الأسوار في عددٍ من رسائله إلى الوالي يحثّه فيها على معالجة الحالة، ومع ذلك فقد لاحظ أحد الرحّالة أنّ نصف الأسوار فقط هو في وضعٍ صالحٍ عام ١٨١٧، ويبدو أنّ الوضع ساء أكثر في عام ١٨٦٠، إذ اشتكى قاضي البصرة أحمد نور الأنصاري إلى الحاكم العثماني من الحالة البائسة الّتي انتهت إليها هذه الأسوار» (١).

ويتحدّث بارسونز عن الهجوم على هذا السور الّذي قام به جيش صادق خان، ففي نهار يوم الجمعة ٧ نيسان سنة ١٧٧٥، جاء أربعة من الفُرس على خيولٍ جميلة واقتربوا من الأسوار متظاهرين بالشجاعة، ثمّ تقدّموا على مهل، وبقوا ضمن ثلاثين

---

(١) الاقتصاد السياسي لتجارة البصرة ... ص ٥١.

إذ يقول الأنصاري: «أمّا البصرة المحروسة فهي مسورة أربعة أركانها وسورها من لبن غير مفخور، وبعضه متداعٍ قريب الاضمحلال، وأمّا مساكن أهلها من الأبنية فتسعة أعشارها ساوت التراب، حتّى أساسها حُفِرَ وأُخِذ ما فيه من الآجُر، فترى مواضع البيوت الخربة تلولاً وحُفراً علتها السباخ، وأمّا العُشر الباقي فهو مساكن للوجوه والتجّار وسائر الناس الموجودين فيها الآن، وهم بقيّة الأهالي السابقين وذراريهم، وخالطتهم أفاقية [يعني الناس من جميع الآفاق] من العراق الأعلى، ومن إيران، ونجد، والإحساء، والبحرين، وهم بأجمعهم بالنسبة لما كانت البصرة حاوية من الأهالي السابقة قليل من كثير. ونهرُ العشار يشقّ البلدة ليسقي النخيل والأشجار الّتي هي داخل سور البصرة ... وأمّا دائرة السور الحاوي العمران الموجود والنخيل الموجود ومواضع الأبنية الخربة فمسير نحو ساعتين ونصف».

كتاب النصرة في أخبار البصرة، لأحمد نور الأنصاري، ص ٣١، وهذا الكتاب في الأصل تقريرٌ قدّمه الأنصاري سنة ١٢٧٧ ـ ١٨٦٠ إلى منيب باشا متصرف البصرة.

خطوة منها، وألقوا نظرةً على الموجودين فوق الأسوار بثقةٍ ودون مُبالاة، وكأنّهم أصدقاء، وفي نحو الساعة العاشرة أو الثانية عشرة سُمِحَ للرجال بالنزول من رُكن الحُصن (الّذي اقترب منه الفرس)، فنزلوا في اللحظة المناسبة جدّاً، بينما كان الفرس يمسكون لجام خيولهم قتلوهم كلّهم، واقتادوا ثلاثةً من خيولهم إلى المدينة، أمّا الخيول الأُخرى فقد أُصيبَت بعياراتٍ ناريّة، ولكنها لم تُقتَل فبقيَت مع الرجال، ولكن أيّاً منها لم تُسرَق، وهذه هي بداية الأعمال العدوانيّة بين الفُرس والأتراك.

وفي اليوم التالي السبت الثامن من نيسان: كانت الأسوار مُجهَّزة بالرجال بشكلٍ جيّد، والمراقبة جيّدة، إذ لم يُسمَح لأيّ قادرٍ على حمل السلاح بالانصراف، فكانوا جميعاً منذ الليل على الأسوار الّتي نُصِبَت بالقرب منها خيامٌ وأكواخ حول المدينة بأسرها، لحمايتهم من تردّي الطقس، وفي نحو الساعة التاسعة صباحاً قامت قوّة استطلاع تابعة للعدوّ، قوامها ثلاثمئة فارس على خيولهم بالاستعراض حول الأسوار، ولكنّها تَجنَّبت إطلاق نيران المدافع، وكانت معنويّات الأهالي هنا مرتفعة، العرب والأتراك، فلا أحد يمشي أو يأكل أو ينام إلّا وسيفه ودرعه بيده، فضلاً عن أنّ جميع الرجال كانوا يحملون بنادق ومسدّسات ورماحاً أُخرى ... أمّا الأكواخ والسقائف الكثيرة القريبة من الأسوار فقد ملأتها النسوة اللّاتي جئنَ بكلّ أنواع المُؤن والفواكه للبيع، وكُنَّ يُجهّزن الرجال بالطعام نهاراً، ويعدن ويرجعن إلى بيوتهنّ ليلاً، فلم يكن يُسمَح لأيّ رجلٍ بمغادة الأسوار، سواءٌ أثناء النهار أو في الليل، ونُصِبَت الخيام للبعيدين عن المكان لينامو بالقرب من الأسوار ... وفي اليوم الأحد ٩ نيسان تمّ إيقاظنا من النوم، وأُبلغنا أنّ الفُرس انقضّوا على الأسوار وتسلّقوا من خمسة أماكن مختلفة ... وبَدأَ الهجوم على الأسوار، وكان الدفاع عنها كان مستمرّاً هذه الليلة ... وكانت معنويّات الجميع عالية، فقد أخبرني كلّ مَن التقيت به مسيحيّاً كان أم تركيّاً أم يهوديّاً بأنّهم دافعوا دِفاعاً

باسلاً ليلة أمس، في هجومٍ استمرَّ ثلاث ساعات متواصلة، قُتِلَ فيه أكثر من ثلاثمئة فارسي كانوا يَتسلّقون السلالم، إلى جانب واحدٍ وعشرين سُمِحَ لهم بالتسلُّق أمام متاريس الأسوار فقط، فَتسلَّلوا خِفيةً حتّى تمَّ الإيقاع بهم وأُعدموا في الحال ... ولا نستطيع تأكيد عدد القتلى بالقُرب من الأسوار أو حولها، لأنّ الفُرس قاموا بإخلائهم قبل طلوع النهار، أمّا فيما يخصّ المدافعين، فقد ذكرتُ أنّ عدد القتلى لم يتجاوز ثلاثين شخصاً، وبقيَت رؤوس الواحد والعشرين فارسيّاً الّذين سُحِبوا من السلالم على الأسوار مكشوفة طوال النهار، وشاهدتُ اثني عشرَ منها على بوّابة بغداد، وتسعة على بوّابة الزبير ... وعند الساعة الرابعة والنصف امتطينا خيولنا، أنا وأربعةٌ من موظّفي الوكالة التجارية، وتَوجَّهنا نحو بوّابة بغداد، ومنها إلى بوّابة الزبير، ثمّ بجانب دار القطّان باشا مباشرة، وإلى مصبّ الشطّ، وكان مسارنا طول الطريق ـ الّذي بلغ طوله عشرة أميال كاملة ـ بالقرب من الأسوار ... وبينما كُنّا نجول بخيولنا حول الأسوار، شاهدنا منظراً مهيباً، وهو أنّ عِدّة مِئات من الأعلام كانت ترفرف عليها، والبنادق والحراب والرماح مُوجَّهة نحوها، ويحيط بها الرجال إحاطة تامّة، حتّى فاق عددهم عدد الرجال في المدينة ... وعلى مسافة قليلة داخل الأسوار شاهدنا خيام الأرمن واليهود والأغنياء الّذين بقوا مع خدمهم مُسلَّحين طوال الليل والنهار، وكُلُّهم مُزوّدون بكلّ المستلزمات الضرورية، لأنّ المُتسلِّم منعهم من زيارة منازلهم دون إذنه، وبدا كلّ مَن على الأسوار مُندهِشاً لرؤية آباء الدير الّذي تأسَّس هنا، والتابع للرُّهبان الكراملة المُبجَّلين، فهؤلاء لم يكونوا فَرحين فحسب، وإنّما قالوا بأنّهم مُصمّمون على المقاومة بأقصى قوّتهم ... وعند بوّابتَي بغداد والزبير رابَضَ أكثر من خمسمئة رجل، ونحو مئتي رجل على كلّ مَعقلٍ من المعاقل الثمانية، الّتي كان كُلٌّ منها مُزوَّداً بثمانية مدافع نحاسيّة، تحمل كُلٌّ منها قذيفة تتراوح زِنتها بين ستّة أو تسعة أو اثني عَشَرَ

رطلاً ...

وبعد هذه الحرب وصفت الأب سيستيني (سنة ١٧٨١) تلك الأسوار بقوله: «كانت المدينة على درجةٍ كبيرةٍ من الانحطاط، فقد دمّرها الفُرس بالكامل، وكانت مُحاطةً بسورٍ مَطمور، وبيوتها بائسة يتناثر فيها بعض النخيل».

ووصف تايلر (سنة ٧٨٩ ـ ١٧٩٠) السور وقال عنه: «للبصرة أسوارٌ تحيط بها، وفي هذه الأسوار أبراجٌ مُدوَّرة، لكن لا قيمةَ دفاعيّة لها ...».

وقد وصف اوليفييه (سنة ١٧٩٤) تلك الأسوار وتحدّث عن المتسلّم سليمان واستعداده لكريم خان الّذي مرّ ذكره فقال: «ولمّا عَلِمَ سليمان مُتسلّم البصرة باستعدادات كريم خان، جَمَعَ بسرعة مؤونة وذخيرة تكفي لمدّة سنة، وسَلَّح نحو خمسة عشر ألفَ رجل من الانكشاريّة، وكان يُمنّي نفسه أن يَتمكّن منه، إمّا من رفع الحصار، أو الانتظار حتّى تتمّ أيّة محاولة من قبل الباشا فيرسل لهم المعونة، لقد كانت أسوار المدينة جيّدة على الرغم من أنّها من طين، وهي مُحصَّنة بمئة مدفع ذات عيارات مختلفة، كما أنّها مُحاطة بقناةٍ عريضةٍ متّصلةٍ بالنهر، وكان الأهالي كُلّهم مستعدّين لدعم حاكمهم الّذي كانوا يقدّرون مهارته ويمتدحونَ مزاياته الخُلقيّة ... وكانت البصرة تضمّ يومئذٍ داخل أسوارها أكثر من أربعين ألف نسمة، أمّا اليوم فلا يكاد يُوجَد فيها خمسة عشرة ألفاً، أمّا نطاقها فأوسع بكثير من سكّانها، إذ يبلغ عرضها ألفاً وخمسمئة أو ألفاً وستّمئة خطوة هندسيّة على امتداد شطّ العرب، وطولها ثلاثة آلاف خطوة من المسافة، ولا يكاد يكون ربع هذه المساحة فقط مشغولاً بالبيوت، أمّا الباقي فليس فيه سوى حدائق وسهول مزروعة بالقمح والقطن أو مغروسة بالنخيل ...».

وقال الرحّالة الانگليزي جاكسون في كتابه (مشاهدات بريطاني في العراق) ص

٣٠، عندما وصل البصرة في ١٨ حزيران سنة ١٧٩٧: «أنّ البصرة يبلغ طول أسوارها من ضفة النهر حتّى الصحراء زهاء أربعة أميال، وطولها من الشمال حتّى الجنوب ثلاثة أميال، وقد شُيّدَت هذه الأسوار من اللّبِن بصفة رئيسة، وهي لا تستطيع مقاومة المدافع».

ويُشير ابن غملاس في كتابه (ولاة البصرة ومتسلّموها) ص ٧١، أنّه في سنة ١٨٠١ م تعيّن مستلّم البصرة سليم بك، وكان من آثاره تعمير سور البصرة.

وقد وصفها أبو طالب خان سنة ١٨٠٤، فقال عنها وعن سورها: «والبصرة مدينةٌ أعظم بكثيرٍ من بغداد، وهي مركز اجتماع التجّار لجميع أصقاع الشرق، وسورها وخندقها العميق المملوء من ماء دجلة يصونانها من كُلِّ اعتداء، وفي داخل السور بساتين واسعة وكروم ونخيل، وتُسقى كُلّها بنهرٍ يتّصل بدجلة [يقصد شطّ العرب] ... وقد شَيَّدَ عبد الله آغا حاكم المدينة في الزمن الأقرب سوراً عليها من جهة الصحراء طويلاً يمتدّ ستّة عشرَ فرسخاً ويحفظ أبوابه حراس متيقظون ...».

ولكن دُوبريه يقدر محيط السور بأقلّ ممّا قدّره أبو طالب خان، فدُوبريه الّذي زار البصرة سنة ١٨٠٧، أي: بعد أبي طالب خان، قال عن السور: «يحيط بالبصرة سورٌ من الطين، ونطاقُ السور عامرٌ بالبساتين، وإنّي أُقدّر محيطه بنحو ثلاثة فراسخ ... ويبلغ عدد سكّانها بالكاد ستّة آلاف نسمة أكثرهم عرب، ولكن يُوجَد عددٌ قليلٌ من الأرمن واليهود ...».

ونعتقد أنّ تقدير دُوبريه هو الأقرب للصواب، فهذا الطول معقول، لأنّ الفرسخ الواحد يساوي ثلاثة أميال، فيكون المجموع تسعة أميال، والميل الواحد يساوي ما يقارب ١٩٠٠ متر، فيكون مجموع الطول ١٧,١٠٠ كم، وهو معقول، قياساً لما قدّره

أبو طالب خان بـ ١٦ فرسخاً، أي: ما يعادل ٢٠٠ , ١٩ كم، وهو مُبالَغٌ فيه.

وما قَدّرهُ دُوبريه يقارب ما قدّره كرستجي الّذي زار البصرة سنة ١٩١٦، فقال: «ومن المؤكّد أنّ مدينة البصرة كانت في الماضي بأسوارها القديمة الّتي يصل محيطها إلى سبعة أميال، وتضمّ في داخلها العديد من الحدائق وبساتين النخل، وببوّاباتها الخمس ...». ولكنّ وصف كرستجي لم يكن عن مشاهدة، فالسور كان قد تهدّم قبل أن يزورها كرستجي سنة ١٩١٦، ولكنّه نقل المعلومة عن آخرين.

فهذا السور الّذي تعرّض لهجماتٍ عديدةٍ أشهرها حرب حسين آفراسياب مع الأتراك ومن ثمّ حصار نادر شاه للبصرة في آب سنة ١٧٤٣، والهجوم الثالث الّذي قام به كريم خان الزند عام ١٧٧٥، الذي حاصرها بخمسين ألف جندي بقيادة شقيقه صادق خان لمدّة عامٍ تقريباً، وتمكّنت قوّاته من دخول البصرة في السابع من نيسان حتّى الخامس عشر منه سنة ١٧٧٦، وكان سبب صمود البصرة هو وجود الحقول الزراعيّة والبساتين والاكتفاء الذاتي من الغذاء.

بل وقد «تعرضت البصرة في عهد المتسلّم عزيز آغا سنة ١٨٢٦ لهجومٍ مشترك من الكعبيّين والمنتفك فوق هذا السور ليدافع حامياً المدينة وأهلها حيث فشل المهاجمون من أن يتسلّقوه بالرغم من استخدامهم السلالم، بل تعرضوا إلى حصاد كبير في الأرواح ... وبعد فشل المهاجمون وانسحابهم قرر متسلّم البصرة قطع النخيل المحيطة بالسور حسب القاعدة القائلة: يُزال الضرر العامّ بالضرر الخاصّ، ولما عارض البعض هذا القطع على أنّه جريمة لا تجوز في الإسلام استفتى المتسلّم مفتي البصرة يومذاك الشيخ علي أفندي الحلبي فأفتاه بجواز قطع النخيل طالما في قطعها فائدة

عامّة» (١).

وفي كتاب بلدية البصرة إشارة إلى أنّ سور البصرة اندثرت معالمه قبل تأسيس بلدية البصرة، حيث لم يكن من الحجارة ليقاوم عاديات الزمن» (٢)، ومعروف أنّ بلدية البصرة تأسّست في نهاية القرن التاسع عشر، وتحديداً سنة ١٨٦٩، ولذلك قام والي البصرة مخلص باشا سنة ١٩٠٥ بتهديم السور القديم ليشيّد مكانه سوراً جديداً قويّاً، ولكنّ هذا الوالي نُقِلَ عن البصرة فَبقيَ السورُ مُهدَّماً حتّى زال أثره، فأصبح على شكل أكوامٍ من التراب (٣).

هذه الأكوام من التراب شكّلت مرتفعات على أرض البصرة سمّاها الأهالي بالجبال، وكان منها جبل خماس الموجود في الوقت الحاضر وباسمه محلة جبل خماس المحاذية لمحلة الصبخة، كما هناك ما يُسمّى بالجبلين خلف سجن البصري المركزي [المقابل للمستشفى الجمهوي]، ومرتفعات أم الطواب وهي سلسلة من المرتفعات بين غرب محلة نضران ومستشفى البصرة الجمهوري (٤).

ويحيط بهذا السور نهر الخندق من جهة الشمال، من شط العرب وحتى الغرب، أي: على ضلع السور الشمالي الّذي فيه باب الرباط وباب بغداد، وهو نهرٌ تمّ حفره ليكون حامياً للسور، وأمام كلّ بابٍ يوجد جسر لعبور هذا النهر، ويسقي الصحراء

---

(١) الأنهار الستّة وشناشيلها وقصورها وجسورها وسور البصرة وأبوابه، حامد البازي، مجلّة التراث الشعبي ـ بغداد، العدد ٣، سنة ١٩٨٩، ص ١٧٦.

(٢) بلديّة البصرة، رجب بركات، ص ١٦٢.

(٣) يُنظَر: حامد البازي، المصدر السابق، ص ١٦٤.

(٤) يُنظر: المصدر نفسه، ص ١٧٦.

وأواخر مدينة البصرة ثمّ يلتقي مع نهر الخورة عند غرب البصرة، وكانت السفن تدخله لنقل التمور، وهو يسقي أربعمئة ألف نخلة [١]. ومن جهة السور الجنوبي باتجاه باب السراجي يحيط السور نهر الخور، وطوله يقارب عشرة كيلومترات وله عدّة فروع تمتد على يمينه ويساره، وقسم منها يدخل سور البصرة مكونة شبكة مائية [٢].

(١) يُنظر: المصدر نفسه، ص ١٦٤.

(٢) يُنظر: المصدر نفسه، ص ١٦٧.

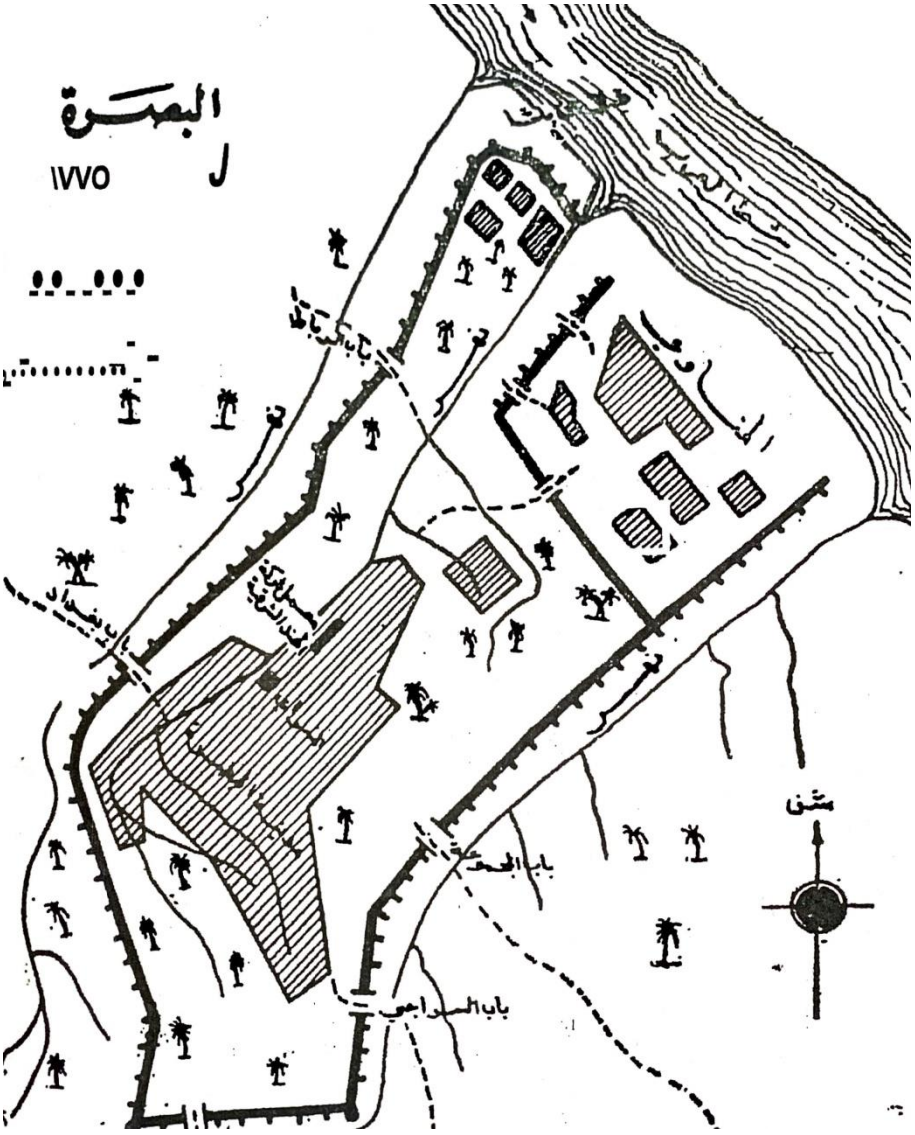
البصرة
١٧٧٥
مشى
باب البحر
باب السواحل

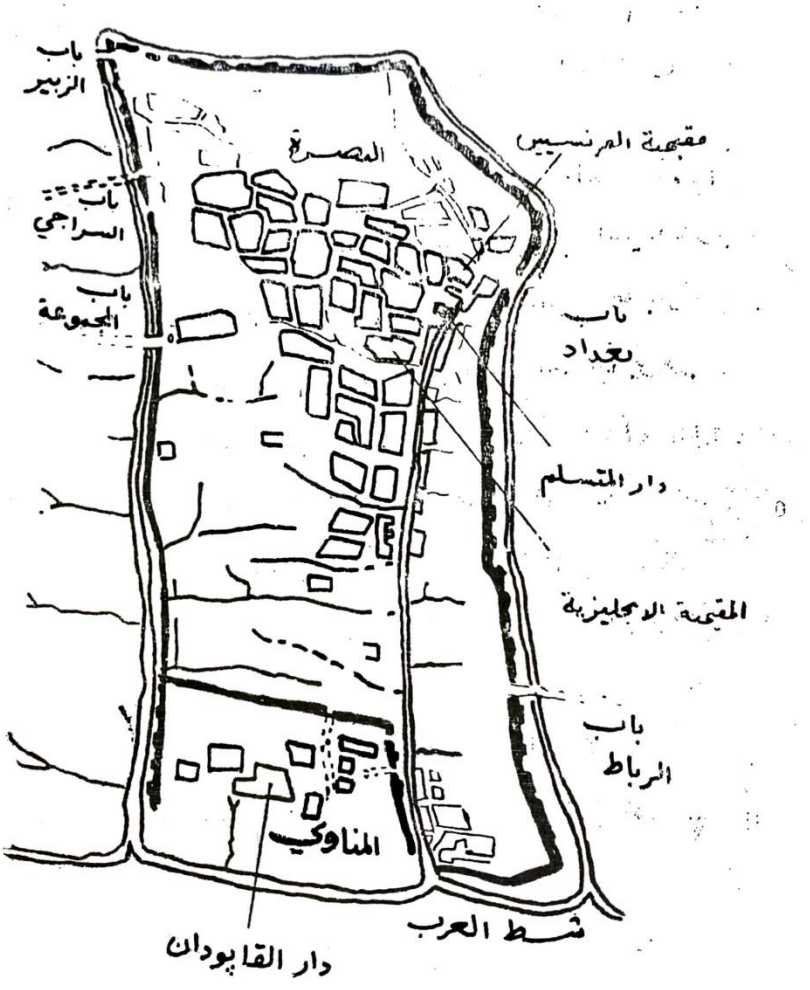
باب
الزبير
البصرة
مقبرة المرنسيين
باب
السراجي
باب
المجموعة
باب
بغداد
دار المتسلم
المقبرة الانجليزية
باب
الرباط
المناوبي
شط العرب
دار القاپودان

المحور الثالث: ملامح من العلاقات الاقتصاديّة والثقافيّة بين البصرة وبلاد الهند

تميَّزت البصرة عن بقية مناطق العراق بالصِلات الثقافية والإجتماعية والإقتصادية مع دول الجوار، وخاصة بلاد الهند، بسبب وجود الطرق البحرية والتجارة بينهما، وقد سُمَّيت البصرة بأرض الهند كما يذكر الطبري، الذي قال «وعندما توجّه عتبة بن غزوان الى البصرة قال له عمر بن الخطاب إني أريد أن أوجهك الى أرض الهند» (١).

وبعد أن فَتَحَتْ الجيوش الإسلامية بلاد السند بقيادة محمد بن القاسم الثقفي، ذهب العرب الى مناطق مختلفة من تلك البلاد وكان من العلماء البصريين الذين ذهبوا الى بلاد الهند آنذاك «أبو حفص ربيع بن صبيح السعدي البصري، وهو من جيل التابعين، ويُعد أول مَن صنَّفَ في الإسلام الأحاديث النبوية، إذ دخل الهند سنة ١٥٩هـ، وتُوفيَ فيها سنة ١٦٠هـ» (٢).

وقابل الهجرة العربية الى بلاد الهند هجرةٌ معاكسة من الهند الى البصرة، حتى إذا ما جاء العصر العباسي أصبح «هناك تواجد هندي مُميز في أنحاء الدولة العباسية حيث

---

(١) تأريخ الطبري: ٣ / ٥٩٠ أو ٢٧٠.

(٢) يُنظر: مولد العلماء ووفياتهم للربعي، تحقيق عبد الله أحمد سليمان ١/ ٣٧٤، الرياض سنة ١٤١٠هـ، وكذلك أعلام المؤلفين بالعربية في البلاد الهندية د.جمال الدين الفاروقي وآخرين، مركز جمعة الماجد للثقافة والفنون والتراث / دبي، ط١/ سنة ٢٠١٣ ص١٦.

استَقرَّت في بداية العصر العباسي بعض العناصر الهندية مثل الزط [١]، والأساورة [٢] والسيابجة [٣] مع أهلهم وجواميسهم الهندية في جنوب العراق وتحديداً في بطائح

---

(١) الزت هم (الجت) تطَلق المصادر الإسلامية عليهم الزط، وهم الزنزج من الهنود، وللمزيد ينظر (فتوح البلدان للبلاذري ص٤٦٦ ـ ٤٦٩)، وقد تعرَّض هؤلاء في السند الى معاملةٍ سيئة من حاكمهم (داهر) إذ لم يسمح لهم بالاشتراك في الجيش أو ركوب الخيل أو لبس الحرير، ينظر كتاب (الوجود العربي في الهند في العصور الوسطى، د. محمد نصر عبد الرحمن، الهيئة المصرية العامة للكتاب سنة ٢٠١٣ ص٢٤) وقال الخليل فيما نقله الزبيدي عنه في مادة زط: جيل من الهند إليهم تُنسب الثياب الزطية وهو مُعّرب (جت) بالهندية والقياس على هذا يقتضي فتح مَعرّبة أيضاً، وفي الصحاح: الواحد زطي ن وفي اللسان مادة (زط) عن ابن الأعرابي قال: وهم جنسٌ من السودان والهنود، وقيل الزط: السيابجة قومٌ من السند.

وقال دوزي في تكملة المعاجم ٥/ ٣٢١ من الفارسية (جت) وقال دوزي «وقد استقدَم بهرام جور إثني عشر ألفاً من أبنائهم من الهند»، وقال في موضع آخر مادة (جاط)، وهم البوهيمون أو الغجر ...

وذكر الجاحظ أن نهراً في البطائح سُمّيَ باسمهم كما في الحيوان ٥/ ٣٩٨، ونَقَلَ عن السدي قال: كنت بالزط فكنت أرى البعوضة تطير عن ظهر الثور فتسقط على الغصن من الأغصان فتقلس ما في بطنها ثم تعود والبعوضة تغمس خرطومها في جلد الجاموس ن كما يغمس الرجل أصابعه في الثريد.

(٢) الأساور: لفظٌ مُكَّون من مقطعين من اللغة السنسكريتية (آشو) بمعنى حصان و(آر) بمعنى مرتفع والمعنى العام (الفارس) ينظر: الحاج مولوي فيروز اللغات ص٧٨ نقلاً عن كتاب الوجود العربي في الهند ص١٩٦.

(٣) السيابجة: هي مُعرّبة عن (سياه بجه) وسياه بمعنى الأسود و (بجه) بمعنى الأطفال والمعنى العام (الأطفال السود) ينظر: فيروز اللغات ص٧٥١ نقلاً عن كتاب الوجود العربي في الهند ص ٢٧٢.

البصرة، وكانت تلك الهجرات راجعة لتأزم الظروف الإقتصادية في بيئتهم الأم، كما أن استقرارهم في بطائح البصرة مرجعه تشابه تلك البيئة الجديدة مع بيئتهم الأم في السِند وهي بطائح نهر مهران التي كانوا يعيشون بها على صيد الأسماك وتربية الجاموس في البراري، كما كان اتجاههم لتلك المنطقة تحديداً راجعاً لوجود عناصر منهم تم توطينها في تلك المنطقة بمعرفة الدولة الأموية خلال العقد الأخير من القرن الأول الهجري (السابع الميلادي) بعد أن تم أسرهم في المعارك التي خاضها المسلمون لفتح السند» (١).

هذا الوجود الهندي في البصرة جعلَ أصحاب التأريخ يطلقون عليها أرض الهند أو فرج الهند (٢)، وقد ساعدَ ذلك التواجد على أن تكون البصرة من المراكز البحرية التجارية التي يتم عن طريقها الإتصال ببلاد الهند، سواء أكانت الطرق التجارية بحرية أم برية، ولكن «التجارة البحرية مع الهند تؤلف أكثر الجوانب أهمية في تجارة البصرة في العصر العثماني، وثمة ثلاث نقاط رئيسة كانت تنتهي عندها البضائع الهندية في الإمبراطورية العثمانية (اسطنبول وحلب والقاهرة)، فالإثنتان الأوليتان كانتا تتلقيان معظم بضائعها الهندية عن طريق البصرة ولاسيما في القرن الثامن عشر ... وكان الطلب على المنسوجات الهندية عادةً في ذروته وينافس بنجاحٍ تام المنتجات

---

(١) الوجود العربي في الهند، ص ١٢٣.

(٢) يُنظر: البدء والتاريخ للمقدسي ٥ / ١٧٥، وسيَر أعلام النبلاء للذهبي ١ / ٣٠٥، وتأريخ الطبري ٣ / ٢٠٧.

المحليّة، وقد قُدِّرَ أنه في سنة ١٧٨٥م كانت المجموع السنوي للاستيرادات من البضائع الهندية الى اسطنبول وحدها يعادل خمسة ملايين قرش تقريباً، وكان يَقلُّ قليلاً عن العدد الكلي للاستيرادات من أوربا خلال ذات الفترة.

وكانت السُفن الهندية مُحمَّلة بكمياتٍ كبيرة من صنوف البضائع، وتجلب السفينة الكبيرة في المُعدَّل ما ينوف على ألف بالة من البضائع، وتستورد البصرة من البنغال (بنغلادش) الرز والسكر وسُكر النبات والحديد والقصدير والرصاص والخشب والأواني الخزفية وبضائع أخرى من (خمسين نوعاً مختلفاً تقريباً).

ويُزِّود ساحل كورومانذل في جنوب شرق الهند قماش الجيت (أو الشيت) بمختلف أشكاله والقطن وغزول القطن، أما المِسك والحنّاء وكُتل اللّك والشال الكشميري وقطع الأقمشة فكانت تُستورَد من منطقة كوجرات في شمال غرب الهند ومختلف المنسوجات القطنية المنوَّعة من ساحل سُرات ومالابار، وتأتي التوابل الهندية (البهارات) بما فيها الفلفل والقِرفة (الدارسين) والكركم والهيل والقرنفل وجوز الطيب والعِرق الحار (الجنجر) وكذلك النيلة من مختلف أنحاء شبه القارّة الهندية» (١).

ولم تكن التجارة البصرية مع بلاد الهند باتجاهٍ واحد، بل كانت مع غرب الهند ومع شرقها، وهناك مواسم للتجارة مع غرب الهند ومواسم أخرى مع شرقها، إذ

---

(١) الاقتصاد السياسي لتجارة البصرة في القرن الثامن عشر، د. ثابت عبد الجبار عبد الله، ص ١٣٥.

يقول أحد الباحثين المعاصرين «كانت هناك دائرتان تجاريتان متمايزتان:

الأُولى: تتكون من كوجرات ومالابار في غربي الهند، وهذه تؤلف مع الخليج منطقة تجارية واحدة.

الثانية: تؤلفها البنغال وكوروماندل في شرقي الهند.

وإذا أخذنا بالاعتبار الرقم الإجمالي للسُفن وتواريخ الإنطلاق والوصول يمكن حينئذ وضع جدول للإبحار ما بين البصرة والهند، وإن سُفن البنغال وشرقي الهند المُتّجهة الى البصرة تنطلق مع انطلاق الرياح الموسمية الشمالية الشرقية تصل الى البصرة ما بينَ نيسان وتموز وأكثرها يصل في حزيران تماماً في الوقت الذي تأخذ فيه الرياح بالتحوّل، وهي بهذا تضمن عدم التأخّر طويلاً في البصرة. والحق أن تلك السُفن التي تعود الى البنغال مباشرة تغادر البصرة عادة في غضون اسبوعين من وصولها طالما تأخذ رحلة العودة قرابة أربعة أشهر، واجتيار سيلان يصعب تماماً بعد تشرين الأول ونادراً ما تُقدِم سفينةٌ واحدة صغيرة على هذه الرحلة.

أما عن المواصلات مع الهند الغربية، فقد كانت أيسر كثيراً وموفقة أكثر، برغم أن غالبية السُفن كانت كانت تصل في تموز وآب إلاّ أن عدداً لا يُستهان به يصل ما بين كانون الأول ونيسان أيضاً، أما مغادرة البصرة فتبلغ ذروتها في فترتين نحو آب وتشرين الثاني، وقد تَتَضمَّن الثانية سُفناً تتجه أساساً نحو البنغال مع وقفاتٍ طويلة عند موانئ غربي الهند، وبينما يتم نقل قدر كبير من البضائع من شرقي الهند على مراحل بالسفن الهندية ـ العربية المحلية فإنَّ السفينة الأوربية سادت طُرق النقل المباشر طوال

(القرن الثامن عشر)، لكن الحال لم تكن كذلك في التجارة مع غربي الهند، ومع أن أقدم الأرقام المُعتمدة والمتوفرة هي لعام ١٧٢٤م، فإن المصادر تؤكد أن النقل الهندي ـ العربي هو الذي يسود هذا الطريق طوال الثلث الأول من القرن، وفي عام ١٦٩٠م وبالرغم من الصراع العنيف مع وباء الطاعون، وصلت الى البصرة ما يقرب من ست عشرة أو سبع عشرة سفينة من مختلف أنحاء الهند، وفي عام ١٧٠٧م انخفض هذا الرقم الى ست سُفن نظراً للنزاعات التي اندلعت مع ايران وقبائل المنتفك، وبعد بضع سنوات بدأت التجارة تلتقط أنفاسها بفضل استتباب الأمن حتى بلغ عدد السُفن القادمة الى البصرة إحدى عشرة سفينة في عام ١٧٢٠م، كذلك عَمَّتْ تجارة مناسبة خلال هذه الفترة بالتوافق مع ازدهارها في غربي الهند ولا سيما في مالابار التي راجت فيها التجارة نحو سنة ١٧٣٠م»[١].

هذه التجارة عبر البحر بين البصرة وبلاد الهند سيطرت عليها مجموعةٌ من العوائل العربية أو الهندية التي امتهنت ذلك سواء في القرن العشرين كما سنرى أم في القرن الثامن عشر إذ «كانت أهم السُفن العربية العاملة في التجارة ما بين البصرة وغربي الهند تعود الى عائلة الجلبي في سرات وكانت البصرة في كل عام تنتظر بلهفة وصول سفينتي الجلبي اللَّتين تقومان برحلاتهما بانتظام من سرات، وخلال العقد الأول من القرن وحين كان العثمانيون منهمكين في السعي لغرض سيطرتهم على

(١) المصدر نفسه، ص ١٣٧.

جنوب العراق كانت سفينتا الجلبي هما الوحيدتان اللّتان تواصلان وصولهما الى البصرة بانتظام وكان حجم هاتين السفينتين يفوق حجم معظم السُفن الأوربية العاملة في تجارة هذه المنطقة، فالسفينة المدعوّة بـ (فتح الرحمن) التي ظَلَّت تقوم بإبحارها على هذا الطريق طوال النصف الأول من القرن كانت حمولتها خمسمئة طن، وذات الشأن يصح على (اسلامبولي) و (السَلماني) اللّتين كانتا تعملان في النصف الثاني من القرن، وقد بدت واضحة أهمية هذه السُفن لتجارة البصرة، في عام ١٧٥٤م، حينَ أقدمَ الهولنديون على وضع أيديهم عليها نتيجة لنزاعٍ سابق مع المُتَسلِّم، إذ وَلَّدَ الذعر الذي نجمَ عن هذا العمل ضغطاً أرغمَ المُتسلِّم على الإذعان لمطالب الهولنديين» (١).

ولما كانت البضاعة التي يتم تصديرها من الهند الى البصرة عبارة عن (التوابل والبخور والأقمشة و...) كانت البضاعة التي تُصدِّرها البصرة في القرن الثامن عشر هي التمور والخيل فقد«لاحظ الرحّالة الفرنسي أوتر في عام ١٧٣٤م أنه كانت هناك كثير من المخازن لخزن التمور لغرض التصدير الى بغداد والخليج والهند» (٢)،أما تجارة الخيول التي تُصَدَّر من البصرة الى الهند فـ «تشير مصادر مختلفة الى تصدير الخيول من البصرة الى الهند رغم الخطر الذي أصدره الباب العالي بشأن تصديرها » (٣).

---

(١) المصدر نفسه، ص ١٤٣.

(٢) المصدر نفسه، ص ٩٥.

(٣) المصدر نفسه، ص ٩٤.

كانت تجارة البصرة مع الهند تحتاج كما هو معروف الى استبدال العملة بين البلدين، ولابد من وجود صرّافين يقومون بهذا العمل، وقد «أشارت التقارير الى أن جميع صرّافي البصرة (في القرن الثامن عشر) كانوا من الهنود، وبرغم ما في القول من مبالغة، فإنه يكشف أهمية تحويل الأموال الى الهند، وقد بلغت هيبة الجالية الهندية في مطلع القرن السابع عشر أنه قد سُمِحَ لهم بأن يستقدموا من الهند تمثالاً للإله (كوفنداراج) وذلك برغم حساسيات التقاليد الإسلامية » (١)، ولَعلَّ موضوع الصيارفة الهنود يذكرنا بما قاله الجاحظ قديماً«لا ترى بالبصرة صَيرفياً إلاّ وصاحب كيسه سندي » (٢)، وهذا يُبين لنا حجم الاهتمام بالهنود التي جعلت من الصيارفة يأتمنونهم على أموالهم لأمانتهم، بل ونجد في العصر العباسي أن تُسند مهمة إدارة السجون في البصرة إليهم للثقة بهم من قِبل السلطات، حتى قال الشاعر يزيد بن مُفرَّغ الحميري حينَ تمَّ سجنه في البصرة:

---

(١) المصدر نفسه، ص ٦٧.

(٢) البيان والتبيين، ص ٥٩٦. وحكى الجاحظ في رسالة فخر السودان على البيضان: أن الصيارفة لايولون أكسيتهم وبيوت صروفهم إلاّ السند وأولاد السند، لأنهم وجدوهم أنفذ في أمور الصرف وأحفظ وآمن، ولا يكاد أحد أن يجد صاحب كيس صيرفي ومفاتيحه عند ابن الرومي أو ابن خراساني، ويذكر المقريزي أن «أول مَنْ غشَ الدراهم وضربها هو عبيد الله بن زياد حينَ فرَّ من البصرة سنة ٦٤هـ، ثم فشت في الأمصار الأخرى الدراهم الزُّيوف» حاشية إغاثة الأمة لبدر الدين السباعي على كتاب إغاثة الأمة بكشف الغُمة ص ٦٢.

وطماطـــم مـــن ســـيابيج حـــرز يلبسوني من الصـباح القيـودا[١]

وتطوَّر الأمر في القرن العشرين خاصة بعد الاحتلال البريطاني للبصرة الذي اعتمد على الهنود، فأصبحوا جالية لها معابدها ونواديها وجمعياتها وأسواقها، ومنها سوق الهنود الذي سنتحدَّث عنه «وقد سكن أعضاء هذه الجالية مدينةَ البصرة منذ زمنٍ للاشتغال بالأعمال التجارية، جاء أكثرها مع الحملة الإنكليزية، وبقوا فيها، ومنهم مَنْ تَجنَّس بالجنسية العراقية ومنهم مَن بقس على جنسيته الهندية رغم تزوُّج بعضهم العراقيات ولهذه الجالية روابط متينة ما بين أعضائها رغم تباين الأديان، وقد أَسسَتْ لها جمعية ونادي للإجتماع فيه، والنظر في أمور الجالية المختلفة ومنها.

١ـ جمعية المؤاساة الخيرية الهندية.

وغايتها مؤاساة الفقراء من الهنود، وربط أواصر الأُلفة والمَحبَّة بين أعضاء الجالية، وكثيراً ما تُساهم في بعض المشاريع الخيرية في العراق، أما هيئتها الإدارية فهي:

الرئيس: السيد عظمت خان.

السكرتير: السيد كول محمد خان.

الأعضاء: السادة مين زس خان، بال خان، سعد الدين خان، بنتو خان، عبد الحكيم خان، لطيف الرحمن خان، أمرنات خان، غلام محمد، والسين خان، خنا خان، وللجمعية بناية خاصة في العشار.

---

(١) يُنظر: لسان العرب ٢ / ٢٩٤.

٢ـ نادي الهنود.

تأسست سنة ١٩٣٦م باذن من وزارة الداخلية، وغايته بث روح التعارف والثقافة والألفة والرياضة بين أعضاء الجالية، وله بناية جميلة تقع في الجبهة الشرقية من نهر العشار، وتحتوي على مكتبة فيها الجرائد والصحف المختلفة عربية وإنكليزية وهندية، وفيه قاعة خاصة للمطالعة، وقاعات خاصة للنساء، حيث للمرأة الهندية حق الاشتراك فيه مجاناً ولكنها لا تشترك في الإنتخابات، وفيه قاعات للألعاب الرياضية كالتنس وكرة المنضدة، وفيه مطبخ للضيوف الذين يفدون عليه، أما أثاثه فهي جميلة، والهيئة الإدارية له تتألف من:

الرئيس: السيد قاسم علي الحاج نور محمد التاجر المعروف باسم حاجي كوكل جيتايائي.

نائب الرئيس: السيد ديوي ديال متعهَد الأبنية.

السكرتير الفخري: محمد عبد الله رئيس كُتّاب القنصلية البريطانية.

مساعد السكرتير: المستر بخشا سينك وهو موظف في شركة كري مكنزي.

أمين الصندوق: المستر ناك وهو محاسب شركة سورين.

مُدقق الحسابات: المستر رام لال الموظف في شركة ستريك.

الأعضاء: السيد بخش علي جمعة، تاجر في العشار، والسيد عبد الرحمن ميانجي وكيل التاجر الحاج إلياس نور محمد، والسيد قربان حسين الموظف في شركة كري مكنزي، والسيد عبد الحسين الحاج نور محمد مدير محل الحاج جيتا، والسيد ج. ر.

ديسوز الموظف في شركة كري مكنزي، والسيد آرجين الموظف الميكانيكي في ميناء البصرة، والسيد ونكي الموظف في شركة كري مكنزي والسيد ساموئيل الموظف في شركة نوري لاسو»(١).

٣ ـ حُسنية البُهرة.

«وموقعها في سوق حنّا الشيخ قبل بنائه بجانب مصرف الرافدين، وكانت في الطابق الثاني من البناء، وسبب وجودها تقديمها التسهيلات لسكن زوّار العتبات المقدَّسة من اليهود، وقد أُجرِّت في الخمسينات لاستعمالها قسماً داخلياً للطلبة، وتحت الحُسينية في الطابق الأول مطعمٌ تابعٌ لها يُسمّى (مطعم دو ساجي) وصاحبه (عبد القادر دو ساجي)، وهو يبيع المأكولات الهندية، وهو ـ دائماً ـ مزدحم بالهنود، وبمحبي المأكولات الحارّة من العراقيين»(٢).

٤ ـ مَعبد الهنود السيخ.

«ويُسمّى الكردوالة ومكانهُ في الباب الرئيس لمدينة الألعاب، وعند توسيع الشارع المُمتّد بين القوة البحرية حتى فندق شط العرب أُزيل المَعبَد لدخوله ضمن الشارع، وكان عددٌ كبيرُ من السيخ في البصرة يرتادونه لإقامة شعائرهم، وأثناء دخول القوات الهندية مع القوات البريطانية الى البصرة سنة ١٩٤١، تدفقَّت أعدادٌ كبيرةٌ من

---

(١) حاضر البصرة، عبد المجيد الغزالي، ص ١٤٤ ـ ١٤٥.

(٢) البصرة في ذاكرة أهلها، كريم علّاوي، ص ٥٨.

الجنود السّيخ على المعبد لإقامة الشعائر »[١].

أما الشركات والمَحلاّت التي يملكها الهنود في البصرة فهي:

١ ـ شركة الحاج جيتايائي كوكل.

وقد مرَّ بنا معنى كلمة (الجت) سابقاً والحاج جيتا هو من تلك القومية التي ذكرناها سابقاً وشركته «كبيرة ومشهورة وكانت تُسمّى (بيت الحاج جيتا) وتقع في نهاية شارع (أبو الأسود) (الخَضَّارة) مقابل الداكير، ويعمل في الشركة عددٌ كبيرٌ من الموظفين والعمال، ولها وكالات بحرية كثيرة وخاصة التي تسير بواخرها على طريق الهند، وللشركة مخزنٌ يقع في منطقة (الداكير) لخزن القطن والجِبال والكمبار المستورد للشركة، وللشركة سِيف (مخزن) كبير للحبوب في المنطقة نفسها تُصدِّر منه الى بعض الدول ولها مكبس تمور فيها ـ أيضاً ـ وقد انتقل إثر حريق فيه الى منطقة (نهير الليل) وكان المرحوم الحاج (جيتا) يُقيم مأتماً حُسينياً في مُحرَّم ورمضان، وكان الشيخ الدكتور أحمد الوائلي خطيب هذا المأتم، وفي كانون الثاني سنة ١٩٦٩م أُعدِم الحاج جيتا من قِبل السلطة بحجة التجسس وعُلِّقت جُثَّته في ساحة أم البروم»[٢].

وفي الثلاثينيات قال عبد المجيد الغزالي صاحب مجلة الهدف عن بيت جيتا «محل الحاج جيتايائي كوكل: وهذا المحل يتعاطى تجارة الحبوب والتمور على اختلاف

---

(١) المصدر نفسه، ص ٥٩.

(٢) المصدر نفسه، ص ٥٨.

أنواعها، ويستورد من الهند الى العراق البضائع المختلفة ورئيس المحل السيد قاسم بن الحاج عبد الحسين الحاج نور محمد جيتا، ولهذا المحل عدة فروع في الهند وايران، والمحل الرئيس في كراجي برئاسة الحاج محمد نور الحاج جيتا والد الوجيه السيد قاسم علي، وهذه العائلة تَتمسَّك بالدين والتقوى والفضيلة وتعطف كثيراً على الفقراء وهي رئيسة الجالية الهندية في البصرة» (١).

وهذه الشركة قد تطوَّر عملها كثيراً في البصرة وانتقل مقرَّها من «نهاية شارع (أبو الأسود) الى منطقة (مقام علي) قرب مقهى التَّجار، بجانب بيت (الذكير) وتعود ملكية الشركة الى الأخوين الحاج (عبد الحسين) والحاج (قاسم) الذي تُوفيَّ في أربعينيات القرن الماضي ... وقد استأجرت الشركة سِيف الحاج (كاظم البدر) والد الأستاذ (جعفر البدر) الشخصية السياسية المعروفة، لخزن المواد الغذائية فيه، ولدى الشركة مكبس تمور لتصديرها الى الخارج وخاصة الهند وباكستان ... وكانت الأبوام (جمع بوم) الهندية والكويتية تقوم بنقل التمور الى هناك والأبوام كانت منتشرة في شط العرب في موسم التمور ... وفي سنة ١٩٤٣ حدث حريقٌ كبير في مخزن وسِيف الشركة والمخزن المؤجَّر أدّى الى حرق المواد المخزونة كافّة،وبعد فترةٍ عادت الشركة الى أعمالها، وبعد ذلك أسست الشركة معرضاً كبيراً في البناية المجاورة للمحافظة القديمة المجاورة لخزّان ماء العشار، وقد عَرَضَت للبيع فيه الثلاجات ومكائن السقي

(١) حاضر البصرة، ص ١٤٦.

ومكائن الخياطة والمواد الكهربائية المختلفة، وقد شَيَّد الحاج (جيتا) حُسينية في منطقة الخندق، وكان الحاج (راضي الهلال) مسؤولاً عنها، ـ والأخير كان يعمل لدى الشركة ـ وكذلك شيَّد الحاج عبد الحسين جيتا جامعاً في محلة الجمهورية وشيَّد حسينية في نهاية شارع (أبو الأسود) قرب مقر الشركة وحسينية في قضاء المدَينة... »[١].

٢ـ مخزن جاشا نمال.

ويعود الى الهندي جاشا نمال وهو «من الهنود المُجنَّسين بالجنسية الإنكليزية جاء الى البصرة سنة ١٩١٨م، وأسسَ له محلاً تجارياً باسم محل جاشا نمال يديره ولده المِستر نارين المولود سنة ١٩٠٨، والمستر جاشا نمال في البحرين، والمحل في العشار وتجارته في الملابس والبدلات النسائية والألعاب الرياضية والكتب وخاصة الروايات الصادرة في أوربا وله معاملات تجارية مع أوربا واليابان والصين والهند»[٢].ويوجد فرع آخر في منطقة المعقل « مقابل بوابة رصيف المعقل، وكانت تُسمّى نمرة (ع) وهو يبيع كذلك التجهيزات الرياضية وكرات القدم ومضارب التنس والهوكي والمنضدة والملابس المختلفة والقماش والأحذية وكان البيع بالأقساط وأكثر زبائنه من منتسبي الموانيء والشركات»[٣].

٣ ـ وللهنود مخزن آخر لبيع التجهيزات الرياضية وهو **(مخزن عراق سبورت)**

---

(١) البصرة في ذاكرة أهلها، ص ٧١ ـ ٧٢.

(٢) حاضر البصرة، ص ١٤٧.

(٣) البصرة في ذاكرة أهلها، ص ٦٠.

«وموقعه في شارع الوطني وكان يتاجر بالتجهيزات الرياضية كافّة والخياطة وبيع الأقمشة وقد تم افتتاحه في بداية الأربعينيات، وعند فتح المخزن أخذت المدارس والأندية والمؤسسات التي كانت تشتري تجهيزاتها من بغداد تشتري منه، وكان الشاب (راجندر) الذي يُدير المخزن مع أبيه وأخيه من مشجعّي لعبة كرة القدم، وقد أهدى كأساً الى نادي الإتحاد الرياضي لإجراء مباريات على الكأس بين الأندية والمؤسسات وقد تم إبعاده عن العراق لكونه من التبعية الهندية وقد اشترى السيد محمد تايه المخزن» (١).

٤ ـ مخزن آدم علي.

و «آدم علي من المستوردين الكبار للفحم، ويقع مخزنه في منطقة (الداكير)، أما مكتبة، فيقع في بداية شارع الكويت ولكنه دَخَلَ ضمن شارع الكويت، وقد احترقَ المخزن سنة ١٩٤٣، مما أدى الى حرق كميات كبيرة من الفحم وَوَصلَت النار الى مخزن الحاج (جيتا يائي كوكل) ما تَسبَّبَ في حرق كميات كبيرة من القطن والحِبال والكمبار والتمور، وقد بقيت النار تشتعل بالموجودات لعدّة أيام» (٢).

٥ـ مخزن بشير بك.

«وموقع المخزن في منطقة (الداكير) وكان مُخصَّصاً لبيع الخشب والحديد

---

(١) المصدر نفسه، ص ٥٩.

(٢) المصدر نفسه، ص ٦٠.

المُستَورَد خصيصاً للمخزن وكان (خورشيد بن بشير بك) يُدير المخزن الكبير وخلال انسحاب القوات البريطانية من البصرة اشترى (خورشيد) كميّاتٍ كبيرة من مُخلَّفات القوات البريطانية وعرضها للبيع في المخزن» (١).

٦ ـ مطعم جراندس.

«ويقع في المعقل مقابل بداية رصيف المعقل، بجانب مخزن (جاشا نمال) في المعقل والمطعم يبيع المأكولات الهندية، وسبب وجوده قرب بوابة رصيف الميناء لأن أكثر عمّال البواخر التي في الرصيف من الهنود» (٢).

٧ ـ مطعم عمرنات.

«ويقع في المعقل مقابل بوابة رصيف المعقل بجانب مخزن (جاشا نمال) والمطعم مشهور ببيع الماكولات الهندية مثل (الباكورة والشعرية والسنبوسة) وغيرها، ويعود للمطعم فرنُ صمونٍ وفضلاً عن المأكولات فهو يصنع مختلف المواد مثل: الفانيلات والقمصان والملابس» (٣).

٨ ـ خياطة الإمبراطور.

«وتقع في نهاية شارع المطاعم تقريباً، وصاحبه يسكن في الطابق الثاني، وقد

---

(١) المصدر نفسه، ص ٦١.

(٢) المصدر نفسه، ص ٦١.

(٣) المصدر نفسه، ص ٦١.

اشتهر عنه إتقانه خياطة الملابس العسكرية فضلاً عن خياطة (السترة والبنطلون)، ثم انتقل بجانب كنيسة الُريان المجاورة لنهر العشار» (١)، وصاحبه كول محمد وقد «ولِدَ في الهند وتثقَّف فيها وقد جاء الى العراق سنة ١٩١٥، وهو خياطٌ ماهر متزوج من إمرأة عراقية وله عِدة أولاد، وهو حسن الأخلاق» (٢).

أما سوق الهنود في العشار، فهو لم يؤسسه الهنود الذين دخلوا البصرة كما قد يعتقد البعض، ولكن لكثرة المحلاّت التي تبتاع القهوة والتوابل وغيرها أُطِلقَ عليه سوق الهنود، و إلاّ فهو أسبق من دخول الهنود مع الإنكليز الى البصرة سنة ١٩١٤، فقد أورد «اللواء الركن إبراهيم الراوي في مذكراته الصادرة عام ١٩٦٧ قوله: عند مواجهتي مزاحم الباججي سألته عن نوري أركان: وكان هذا اسم نوري السعيد عندما كان يدرس في كلية الأركان في استامبول وقد تركها هرباً مع عبد الله الدملوجي، وحلاّ في البصرة فقال الباججي إنه بالعشار وأنا أدلّكَ عليه عصراً، فذهبت الى العشار، وإذا بنوري السعيد واقف في شرفة فندق قُبالة سوق الهنود مع نوري القاضي حاكم بداءة البصرة، فقال لي ... أنا محكوم بالإعدام والأتراك لا يُؤمَن شرُّهم والبصرة ستسقط» (٣).

وهذا يعني أن سوق الهنود كان موجوداً في العهد التركي قبل دخول الإنكليز

---

(١) المصدر نفسه، ص ٦١.

(٢) حاضر البصرة، ص ١٤٧.

(٣) عبير التوابل، ص ٤٥.

ومعهم الهنود الى البصرة سنة ١٩١٤، ولكن التسمية جاءت لوجود العُمّال الهنود، وبسبب بيع التوابل والمُنتجات الهندية، ولكنه أصبح فيما بعد من أهم الأسواق التي تجمع ما بين التجار الهنود والإنكليز واليهود والإيرانيين والأتراك وغيرهم، حتى أن «العابر الى سوق الهنود يرى مجاميع كثيرة من النساء والرجال ويسمع ويرى اختلاط اللغات العربية والتركية والإنكليزية والهندية والفارسية بين الطوائف الإسلامية والمسيحية واليهود والهندوسية والصابئية» (١)، ولذلك تَحسَّرت الشاعرة البصرية زهور دكسن على ذلك السوق في قصيدةٍ لها في ديوانها (وللمدن صحوة أخرى).

عادَ ظلاً

وصوتاً

وذكرى

ومرَّ المدى وإلتقينا

شغوفاً كرجع الصدى

قلتُ:

لعلَّ تذكرّ اللاّفتات المُضيئات

في وجه (سوق الهنود)

---

(١) المصدر نفسه، ص ٥٠.

ردَّ:

فقد عادت الذكريات البعيدات

لكننا ... لن نعود

آه..

عشار

رَقَّت نجوم العُشيّات

والبدر

في صفحة النهر

من ليلٍ (سوق الهنود)

عادت الذكريات البعيدات

لكننا

لن نعود

ومن الشخصيات الهندية التي عاشت في البصرة فضلاً عمّا ذكرناه سابقاً:

١ـ الحاج محمد آر هاشم.

«وهو من الشخصيات الهندية المحبوبة يشتغل بالتجارة وله محل تجاري تأسس سنة ١٩١٧، ويُصدِّر الصوف والتمور والحبوب بأنواعها الى الهند وأوربا، وقَدِمَ الوجيه الحاج محمد آر هاشم الى البصرة سنة ١٩١٧ للعمل بالتجارة، وقد ولِدَ سنة

١٩٠٢ في الهند وتَثقَّف فيها وهو من عائلة هندية عريقة»[١].

٢ ـ الدكتور ديفد.

«وهو هندي الجنسية جاء مع القوات البريطانية وكانَ من أشهر الأطباء، وعيادته كانت في شارع الصاغة في الثلاثينيات ثم انتقلت الى قرب ساعة سورين في بداية سوق المغايز، وكان يسكن في الطابق الذي فوق عيادته»[٢].

٣ـ الدكتور بوران سنك لال سنك.

وهو «من الأطباء المعروفين في البصرة جاء الى العراق من الهند سنة ١٩٢١، فاشتغل في المؤسسات الصحية الحكومية ردحاً من الزمن أدّى فيها خدماتٍ جليلة للإنسانية من سنة ١٩٢١ ـ ١٩٢٦ وبعد ذلك تجنَّس بالجنسية العراقية وأمتهن الطب الأهلي في البصرة حيث فتحَ عيادة يؤمّها كثيرُ من المرضى، ولِدَ في أبوتاباد في الهند سنة ١٨٦٩، فنالَ دروسه الطبية في جامعة بنجاب فحازَ على شهادة (م.ب.ب.س) ثم سافر الى لندن حيث أكمل دراسته العالية هناك وتُخرَّج منها سنة ١٩٢٠، ولم يكتفِ بهذا بل شُغِفَ في القانون العام، فَدرسه بواسطة المراسلات الدولية الأمريكية، وبعد مُضي سنتين على دراسته هذه حازَ الشهادة العلمية بدرجة لسانس في القانون الدولي العام، عدا دراسته الخاصة وأبحاثه الكثيرة في الطب والقانون. فهو بحق الرجل

---

(١) حاضر البصرة، ص ١٤٧.

(٢) البصرة في ذاكرة أهلها، ص ١٦٢.

الوحيد الذي جَمَعَ بين الطب والقانون في العراق وله عدة مؤلفات قيّمة منها كتاب في الإنكليزية عنوانه General Topics »[١]، وقد عُيِّن قنصلاً للهند في البصرة وتَركَ مهنته واشتغلَ بالتجارة[٢].

العلاقات الثقافية.

كانت العلاقات الإقتصادية هي المنفذ بين البلدين للتواصل الثقافي بينهما، وقد ذكرنا في بداية الحديث ذهاب (أبي حفص ربيع بن صبيح السعدي البصري الى الهند وهو أول مَنْ صَنَّف في الحديث)، وقد ذكر أحدُ الباحثين الأثر الموجود بين قصص ألف ليلة وليلة والقصص الهندي وخاصة قصة الحسن البصري [٣]، أو «الأصل الهندي لمغامرات السندباد البصري في كتاب بُزرك عجائب الهند» [٤]، أو أثر الفلسفة الهندية وخاصة فكرة الحلول أو النيرفانا في فكرة المتصوف البصري حسين بن منصور الحَلاّج الذي زار الهند وتأثر بتلك الفلسفة»[٥].

وقد استمر الأثر المتبادل بين الثقافتين البصرية والهندية، إذ سَكَنَ بلاد الهند وعلى وجه التحديد (حيدر آباد) أحد كبار علماء البصرة، وهو مُهذّب الدين البصري

---

(١) حاضر البصرة، ص ٢٤٥.

(٢) يُنظر: البصرة في ذاكرة أهلها، ص ١٦٣.

(٣) يُنظر: الوجود العربي في الهند، ص ١٤١.

(٤) المصدر نفسه، ص ١٤٢.

(٥) المصدر نفسه، ص ١٤٥.

صاحب التآليف الكثير، بعد أن هاجر من البصرة الى بلاد فارس ثم الى حيدر آباد، وهذا الرجل الذي ولِدَ سنة ١٠٢٠هـ في البصرة، وتَنَقَّل بين مدن خراسان ثم استقرَّ في بلاد الهند، وقد ألفَّ أكثر من خمسمئة كتاب ورسالة وعند وصوله الى بلاد الهند سنة ١٠٧٧هـ وحتى وفاته فيها نهاية القرن الحادي عشر الهجري كان قد أَلَّفَ في الهند الكتب والرسائل الآتية.

١ ـ العبرة الشافية والفكرة الوافية، أَلَّفه سنة ١٠٩٨هـ في حيدر آباد وقد حققّه الدكتور حامد ناصر الظالمي سنة ٢٠١٧.

٢ ـ آداب المناظرة، وقد أَلَّفه سنة ١٠٨١هـ في حيدر آباد.

٣ ـ تحفة ذخائر كنوز الأخيار في بيان ما يحتاج الى التوضيح من الأخبار في مجلدين أَلَّفه سنة ١٠٨١هـ في حيدر آباد.

٤ ـ التحفة الصفوية في الأنباء النبوية، أَلَّفه سنة ١٠٧٩هـ في قندهار.

٥ ـ العبقرية الأنيسة المعطوفة على الجواهرية النفسية، أَلَّفهُ سنة ١٠٨٥هـ في حيدر آباد.

٦ ـ فائق المقال في علم الرجال، فَرَغَ منه سنة ١٠٨٥هـ في حيدر آباد، وقد نشره دار الحديث في قم سنة ١٤٢٢هـ بتحقيق غلام حسين قصيرية.

٧ ـ القيافة في دلائل الأعضاء، رسالة كتبها في حيدر آباد في الهند سنة ١٠٨١هـ.

٨ ـ كليات الطب، أَلَّفه سنة ١٠٨١هـ في شاهجان آباد في الهند.

٩ ـ المفردة الطبية، أَلّفه في شاهجان آباد في الهند سنة ١٠٨٠هـ.

١٠ ـ المُقْنعة الأنسية والمُغنية النفسية (في علم الدراية)، ألّفه سنة ١٠٧٩هـ في هراة (حققه الدكتور قاسم خلف مشاري والدكتور توفيق الحجَّاج وصدر عام ٢٠١٦ عن مركز تراث البصرة التابع للعتبة العباسية المُقدّسة).

هذا ما استطعنا جمعه من كتبه التي ألَّفها في الهند، فضلاً عن كتبه التي ألَّفها في بلاد فارس والبصرة، وقد توفي في مدينة حيدر آباد في بداية القرن الثاني عشر الهجري أو أواخر القرن الحادي عشر الهجري.

أما الشخصية الثانية فهو عميد أسرة آل الرديني البصرية إذ «هاجر السيد إبراهيم الرديني الى مصر سنة ١٠٩٩هـ ـ ١٦٨٧م، وتُوفيَ هناك وهاجر السيد محمد الرديني الى الهند حيث توفيَّ سنة ١١٣٥ هـ ـ ١٧١٦م، ومنها عاد أولاده الى العراق مرةً أخرى أي الى البصرة» (١).

والشخصية الثالثة هو السيد إبراهيم الرفاعي الذي «سافرَ الى الهند وتزوج هناك وأنجب ولداً سمّاه رجب عاش ومات في الهند، وكان السيد ابراهيم الرفاعي قد تولّى نقابة الأشراف في البصرة سنة١٢٤٩هـ ـ ١٨٣٣م، قبل رحلته الى الهند، ثم رَجَعَ الى البصرة ليصبح مُفتياً فيها سنة ١٢٦٦هـ ـ ١٨٤٩م، وبقي في هذا المنصب حتى وفاته» (٢).

---

(١) البصرة في مطلع العهد العثماني، د. حسين المصطفى، ص ١٦٩.

(٢) يُنظر: زبدة التواريخ للشيخ عبد الواحد باشا أعيان ٧ / ١٥، وعبد الله باشا أعيان كتاب (أعيان البصرة) طبعة بغداد سنة ١٩٦١ ص ١٩، نقلاً عن: البصرة في مطلع العهد العثماني، ص ١٦٣.

والشخصية الرابعة هو (مولانا محمد باقر آغا المدرسي) الذي ترجع أصوله الى البصرة فهو «العالم القدير في اللغة والأدب والذي تنتمي أسرته الى أهل النوائط الذين انحدوا من البصرة في القرن السادس الهجري واستوطنوا سواحل الهند الغربية في كجرات وكونكن وحيدر آباد، ثم انتقلوا الى مناطق أخرى في الهند ... وقد ولِدَ باقر آغا عام ١١٥٨هـ، فاهتمَّ به والده مرتضى بن باقر بن جعفر الويلوري بتربيته وتثقيفه منذ صغره وقد أتقن العربية والفارسية والأردية وهو صبي، ونظم الشعر بالعربية فأصبح من أهم كُتّاب المقامات بعد بديع الزمان الهمداني وأبي القاسم الحريري (البصري) ومن مؤلفاته في اللغة العربية:

١ـ تنوير البصيرة والبصر في الصلاة على النبي ﷺ بذكر السير.

٢ ـ النفحة العنبرية في مدح خير البريّة.

٣ ـ تلك عشرة كاملة، وهي مجموعة قصائد على طراز المُعلّقات.

٤ ـ ديوان الشعر وهو مجموعة منظوماته.

٥ ـ الشمائل في نظام الرسائل.

٦ ـ القول المُبين في ذاري المشركين.

٧ ـ الدُّر النفيس في شرح قول محمد بن أدريس.

٨ ـ نفائس النكات في إرساله عليه السلام.

٩ ـ حواشي بن كثير.

١٠ ـ مقاماته، وقد طبعها الأستاذ يوسف كوكن مع تعليقاته وفيها خمس

مقامات:

الأولى: المقامة الشمامة الكافورية في وصف المعاهد الويلورية.

الثانية: المقامة الخطفة العقابية للفارة المسكية.

الثالثة: المقامة الترشنافلية.

الرابعة: المقامة الآركاتية.

الخامسة: المقامة الحيدر آبادية» (١).

وننقل ما قاله عنه صاحب كتاب أعلام المؤلفين بالعربية في البلاد الهندية

المقامات العربية:

ومعظمها غير مطبوعة إلا العربيَّة منها، وقد طبعها الأستاذ يوسف كوكن مع تعليقاته، وفيها خمس مقامات: المقامات الشمامة الكافورية في وصف المعاهد الويلورية، والمقامة الخطفة العقابية للفارة المسكية، والمقامة الترشنافلية، والمقامة الآركاتية، والمقامة الحيدرآبادية.

وقد ذكر له العلامة عبد الحي اللكنوي في كتابه (نزهة الخواطر) غزليين ينمان على محاولة التجديد في النظم العربي الهندي في قالب الغزل الخاص، يقول في الأول:

قـــد صـــيرني الهـــوى جـــددا يـــا ليتنـــي مـــتُ قبـــل هـــذا

(١) أعلام المؤلّفين بالعربيّة في البلاد الهندية، ص ١٩١ ـ ٢٠٠.

مـــا أفعـــل لم أجـــد لاهـــي ... في صـــخر فؤادهـــا نفـــاذا
في فرعـــك قـــد خفيـــت لكـــن ... مـــن طرفـــك لا أرى مـــلاذا
أربّيـــب عـــلى الحديـــد طبعـــا ... بـــالقطع وإن حكيـــت لاذا
إن كنت رضيت عـن صـدودي ... أدركـــت مـــن النـــوى لـــذاذا
ألفيـــت هـــواك صـــفو عمـــري ... أبغيـــــه وإن عـــــدا وآذى
آغـــاه إذا هـــراق دمعـــا ... أغمضـــــت وخلتـــــه رذاذا

ويقول في الغزل الثاني:

في كاظمـــــة أو ذي ســـــل ... قـــد ضـــل فـــؤادي بالنـــدم
كـــالريح يجـــول بمســـرحه ... كالنـــار يلـــوح عـــلى علـــم
بالمـــدمع يحكـــي غاديـــه ... بـــالزفرة يشـــبه بالضـــرم
قـــد أبصـــر فيهـــا بهكنـــة ... بـــالنجوم زرت بالمبتســـم
لـــو واجـــه غرتهـــا شـــمس ... لغـــدت أســـفارهن النـــدم
لـــو شـــافه طرتهـــا قمـــر ... لَتحـــيَّر في جـــنح الظُلـــم
لله قســـــاوة مهجتهـــــا ... لا تحســـب كالحنـــاء دمـــي
مـــرت وأصـــارتني جنفـــا ... كـــالأثر طريحـــا في اللقـــم
لا أدري أيـــــن محلتهـــــا ... فبقيـــت حســـيرا كـــالوجم
لا تنظـــر قـــط إلى أســـفي ... لا تســـأل حـــالي في الألم

آغـــاه تناهـــت حيرتـــه أدركـــه إلهـــي بـــالكرم

وله أشعار أخرى ومنها:

أيـــا نفســـا تَجهَّلـــت بـــبطلان تَقوَّلـــت

ومـــن دهليـــز إلحـــاد إلى كفـــر تَنقَّلـــت

وبعـــد الخـــوض في رفـــض الى شرك ترحَّلـــت

تَحمَّـــرت تَكلَّبـــت تخـــترت تغوّلـــت

وفي تنقـــيص مـــن كملـــت بخـــير الخلـــق أوغلـــت

لقـــد كانـــت حبيبتـــه فـــما لـــك مـــا تأملَّـــت

بحمقـــك ســـب مـــن بـــرأت لـــوحي الله سَـــهَّات

حجيرتهـــا لهـــا ملـــك وأنـــت عَـــلامَ عولـــت

وكانـــت في تصـــرفها وأنـــت عـــلى المـــرا طلـــت

وتلـــك وبيـــت زهـــراء ســـواء لـــو تعقَّلـــتِ

شـــهور الـــوحي مـــا قســـموا ترثـــا أنـــت بـــدَّلت

وكـــان المرتضـــى مـــنهم فعنـــه قـــد تَحوَّلـــت

عـــن الســـبطين أعرضـــتِ إلى الشـــيطان أرقَّلـــتِ

إسهاماته في أدب المقامات:

يعتقد أن بديع الزمان الهمذاني هو مبتكر فن المقامات، والغرض منها تقديم قطعة أدبية في أسلوب مسجوع، وليس لها قيمة قصصية. ولكن بعض النقاد يعتبرونها من الصورة البدائية للقصة العربية. وإذا أنعمنا النظر في هذه المقامات وجدنا ما يعالج قضايا المجتمع باسلوب فكاهي وفيها شيء من النقد الإجتماعي. وبعد أن ابتكر الهمذاني هذا الفن سار على منواله كثيرٌ من الكُتاّب ومنهم أبو القاسم الحريري. ومولانا باقر آغا المدراسي الهندي الذي كتب على طرازهم خمس مقامات. وهي تشير إلى حسن ذوقه، ودقة نظره فيما حوله من طبائع الناس، كما ينتقد في خلالها المشائخ الكذّابين الذين يلبسون على العوام دينهم كما يشير إليه في المقامة الترشنافلية.

ـ المقامة الشمامة الكافورية:

وهي في وصف المعاهد في ويلور وهي أول مقامة في وصف ويلور في أكثر من خمسين صفحة، يصف فيها أراضي ويلور وحدائقها وسكانها وعلماءها وأزهارها وشيوخها، فيقول: سأصف لك أيلور، وما أدراك ما أيلور، بلدة طيبة ورب غفور، وروضة من رياض الجنان، فيها من كل فاكهة ورمان، أما قلعتها فإرم ذات العماد التي لم يخلق مثلها في البلاد.

ويقول وهو يصف أهل ويلور: الرقيقة طباع أهلها العبيقة خصال مواليها، وأشرفها علما وحكما وأعلمها فماً وقلباً وأشملها جوداً وكرماً وأكملها كماً وكيفاً وأعلاها نظماً ونثراً وأعظمها عزاً وقدراً، وبعد ذلك يقول عن بلدة أيلور: صانها اللهُ عن طوارق الدهور، فإنها من البلدان كالعين في الإنسان أو الإنسان في العين الأعيان،

أو الروح في الجسمان أو الشنب في الإنسان أو الروح في الريحان، أو كإمرىء القيس في الجاهلية أو كلبيد في المخضرمين، أو جرير في الإسلاميين أو بشار في المُولّدين أو المتنبي في المُحدَثِين، او ابن حلاج في المتأخرين أو كأفلاطون في الإشراقيين أو كأرسطو في المَشّائين أو أبي علي في حكماء الإسلام، أو ابن زكريا في الأطباء الفخام، أو المهدي في الخلفاء أو الصاحب في الوزراء، او إسحق في الندماء أو معين في الجود والإحسان، أو عنترة في مشاهير الشجعان، أو كالصباح في النهار أو الشباب في الأعمار أو الربيع في الفصول، أو المختصر في زبر الأصول أو نسيج الحريري في صفوف المقامات أو وشي الراغب في ضروب المحاضرات.

ويقول في علماء ويلور: العلماء النحارير والفضلاء المشاهير وصلوا الغاية القصوى في التقرير، وبلغوا الذروة العليا في التحرير، أخذوا من كُلِّ فنٍ أوفى، وفازوا من كُلِّ فنٍ بسقط مستوفى، يُقيِّدون كُلَّ نفيس في التعليم والتدريس.

ويقول عن شيوخ ويلور: فَكُلٌّ مهم كالطود الشامخ دائبون في السلوك والإنجذاب واثبون إلى الزلفى وحسن المآب، لايسامون من السير آناء الليل وأطراف النهار، وأحسنهم تبياناً وأتقنهم برهاناً وسيدهم إيقاناً وسندهم عرفاناً وأعظمهم شأناً، وأحكمهم سلطاناً وأفصحهم لساناً، وأبلغهم بياناً وأكملهم خُلقاً وأجملهم خَلقاً، وأطولهم باعاً وأمثلهم إتباعاً، وأشبعهم قلباً وأتبعهم للسُننِ.

وبعد ذلك يقول عن شيخه الكريم السيد أبي الحسن القربي: حسيني الجرثوم حسنيه، حجازي المحتد مدنّيه، فضيلي الفضل جنيديّه كميلي الكمال نحيديّه، ثم يقول

فيه:

شريـــفٌ ســـيّد ســـند كـــريم غـــدا في الفخـــر مســـتند الكـــرام
هـــو الصـــنديد في غـــرر الســـجايا وفي العليـــا الإمـــام ابـــن الإمـــام
أبـــو الحســـن العـــلي القـــدر شـــأناً حســـــيني المناقـــــب والمقـــــامِ
وأنـــت لـــدين ربـــك نعـــم عـــون وأنت لشـــرع جدك خـــير حـــامي
كلامـــي في ثنائـــك في قصـــور عليـــك تحيـــة الـــرب والســـلام

وذكر في هذه المقامة الأزهار المخصوصة والأثمار الطرية، ويقول في الجام: الجام ما الجام، وما أدراك ما الجام، ثمر حلو المذاق، يمد ريحه قوة الإستنشاق شكله، رائق وشجره باسق سقط من الكمثرى على ثرى الهوان.

ـ المقامة الخطافية العقابية للفارة المسكية:

وهذه المقامة تمثّل شمائل رجل عربي جاء إلى مدراس ليقابل النواب، وتَوسَّل إليه بباقر آغا، ولكن النواب مشغول في تلك الأيام، وعليه إلتمس منه باقر أن ينتظر قليلاً. ولكن الرجل لم يصبر عليه. وبدأ يَتكلَّم بلهجة عنيفة ويسب النواب، ويأخذ عليه أنه لا يفهم العربية. وقد كتب خطاباً إلى باقر آغا، ولكنه كله أخطاء. وهناك بدأ يكتب مقامة عن حماقة هذا الرجل ويقول:

هل أتاك حديث الأحمق، وما أدراك ما الأحمق الأزرق الأمهق العين الأمرق العاهن الأسرق المُشتق من الفسق، الحالك وجهه من بهق الزهق النافذه في النافذ في النفق الملق، الخافق فؤاده كالزئبق، المُرتَكِب من الجهل المُركَّب طبقاً عن طبق، المتكبر

كالغراب المتبختر كالذباب المختال كالثعلب المحتال كالأرنب البار كالقرد الخاضع الهرة المعجل المصنوع.

المقامة الترشنافلية:

وقد نسجها على منوال المقامة الحريري جعل فيها سالم بن هاشم روياً، وأبا الفرج البدري بطلاً، والراوي سالم يذهب إلى ترشنافلي من ويلور ويحضر مجلس الشيخ واسمه علي، وهو شيخ طريقة صوفية قديمة، والشيخ يَتكلَّم أمام الناس ويذكر حقائق العرفان، إذ طلع عليه رجل فقير في لباس دارس، وبدأ يخطب أمام الحشد بالفصاحة والبلاغة وينصح الشيخ والحاضرين أن يتمسكوا بالدين خالصا لوجه الله، والناس يلتفتون إليه لحسن بيانه، ويقدمون إليه الهدايا، ولكنه رفضها، واختفى بسرعة من ذلك المكان، وهناك تبعه الراوي وسأله عن اسمه وعرف أنه أبو الفرج البدري، فلما حضر المجلس عاتب الحاضرين وشيخهم قائلاً له: وتدعي أحواله الأوتاد ولا تخشى أهوال يوم التناد هل تظن أن التصوف هو القليل والقال، أو كثرة الأتباع من النساء والرجال، وكيف تدعي الإرتقاء إلى المعارف الإلهية وأنت غير ضابط للمسائل الفهية ما الذي أغرك على ذلك وحملك على الولوج في تلك المهالك، ثم قال:

تبـاً لَمِـنْ نبـذ الشـريعة بـالهوى ... جهلاً ولم يخش الوعيد وما ارعوى

رام الوصـول الى الأصـول بغـير أن ... يدري الفروع فما أصاب وما اهتدى

وشرى الضـلالة بالهـدى بخسـا فـما ... ربحـت تجارتـه وخـاب بـما اشـترى

زجـر الكـلام عـن اتبـاع كلامهـم ... أف لَمِـنْ سـمع المقـال ومـا وعـى

ودعـوا إلى التحقيـق عـن طـوبى لمـن أصـــغى وحقـــق مـــا ادعـــى
وســـعى بتقـــوى الله جـــداً مُوقنـــاً أن لـــيس للإنســـان إلّا مـــا ســـعى

المقامة الآركاتية:

وملخص هذه المقامة أن الراوي سالم بن هشام يحضر مجلس النكاح في إحدى قرى آركات، وكان أبو الفرج البدري قاضياً وخطيباً هناك، والناس يتعجبون من فصاحة كلامه ويهدون إليه الهدايا الرائعة بينما هو يجمعها في ردائه وينصرف فوراً فيتبعه الراوي ويسأله عن اسمه وبلده فيقول: أنا أبو الفرج البدري، وقد قال في خطبة النكاح: أيّها الناس فانكحوا ما طاب لكم من النساء، وعليكم بالعذراء الخضراء البيضاء الحمراء اللمياء، والدعجاء الهيناء النجراء الحسناء، ومع هذه الأوصاف الرزينة تكون دينة أنيسة ودوداً ولوداً نسيبها ليست قرابة قريبة، ولا تركنوا الى كل خسيسة وتَخيَّروا لنطفكم ولا تضعوها إلاّ في مواضع الأكفاء، وكذلك فرّوا من الحاربة الهادبة والباهنة الصائنة والناكتة الماكثة والخارجة المارجة والجامحة الكالحة والخامدة الباردة والناسية الساهية، وجعلنا الله وإياكم مِمَّنْ استمع الحق والسلام على مَنْ اتبع الهدى، وبعض العرب يقولون لا تنكحوا المرأة أنانة ومنانة وحنانة وحدّاقة وبّراقة وشدّاقة.

المقامة الحيدآبادية:

يذكر فيهامحاسن أرض حيدرآباد وجمال حدائقها وحسن هندامها وسذاجة سكانها ومهارة علمائها ومكانة مدارسها ومناقب مشائخها، ويمكن القول إن الشيخ

باقر آغا وفِقَ في أن يحتفظ في خلال هذه الجهود المتواصلة بالتراث الأدبي والعلمي الذي ورثه أجداده كابرا عن كابر، ونراه يفتخر به دائماً كما يقول:

بنو عـذارة إن فـاخروا بجمـيلهم فآغا هنا قد صـار فخـر النـوائط

وكان شديد الحرص على البقاء على ما أرشده إليه أستاذه زاهداً في الدنيا مُتعفِّفاً في شؤون الحياة قانعاً بما آتاه الله حتى وافته المنية ١٢٢٠هـ بالغاً من العمر ٦٣سنة.

والشخصية الخامسة [١]، قال عنه العلاّمة السيد ملي نقي النقوي هو «علاّمة الأدباء المُفتي السيد محمد عباس بن السيد علي أكبر بن السيد محمد جعفر الموسوي التستري اللكهنوري من أحفاد السيد نعمة الله الجزائري (البصري)، وكان شاعراً وله ديوان يُسمى (رطب العرب) ومنه قصيدة في مدح أستاذه السيد حسين سيد العلماء يقول فيها:

نأيـت عنـكَ وإني اليـومَ أغـبطُ مَـنْ يفـوزُ عنـدَك بالـدّنيا وبالـدّينِ
فازُورا بما طمَعـوا مـنكم ومـا قَصَـدوا ولا أفـوزُ بلَحـظٍ منـكَ يُكفينـي
كَـم نِعمـةٍ جئتنـي فيهـا تُهنئنـي ومحنـةٍ زُرتَنـي فيهـا تُعزّينـي
تركتنـي مُـوسراً واليسـرُ لي عسـرُ والعسـرُ كاليسـرِ مهـما كنـتَ تـأتيني

ومن قوله فيه أيضا لطيف جداً:

---

(١) تراجم مشاهير علماء الهند، ص ٢١٠ ـ ٢٢٢.

خَفضتَ جَناح الذّل للناسِ رَحمةً فأصــبحَ أدنــاهُم أَعــزَّ وأَرفعــا
يُعاب على المَرءِ التكبرُ في الـورَى وإنّك قد عَابوا عليـكَ التواضُـعا
يقــولُ عزيــزُ القــومِ أذللتنــي ولا مَحَلَّ لشكواه لبُطلانِ ما ادّعـا
فنفسُكَ مِن أَعلى النّفوسِ مكانـةً وفي خَفضِها رفعُ الشّـكايةِ أَجمعـا

ومن جيد شعره الذي استظرفناه، قصيدةً كتبها إلى سيّد العلماء ﷺ استعطافاً على بعض أفاضل أدباء النجف من آل قفطان، وهي هذه:

مـدحتُك دهـراً بالـذي كُنـتَ لائقـاً ولم يَـكُ ذو نُطـقٍ هنالـكَ ناطقـا
تَفرّسـتُ فيـكَ الجـودَ إذ كُنـتَ مُعـدَما فكـذّبَني قـومٌ وقـد كُنـتُ صـادِقا
فلـمّا بـدل للنـاس صِـدقُ نقـالتي تسـابقتْ الـدّنيا إليـك تسـابُقا
فجـاؤوا ونـالوا زلفـةً وتقرُّبـا وأصبحتُ مسبوقاً وقد كُنتُ سَابِقا
وأخرسـتني أصـواتُهُم إذ تَشـاغبوا ولم أسـتطِع لُقيلـكَ إلّا مُسـارِقا
لـكَ المـنُّ إذ فَردتنـي عَـنهُم كـما تَفَـرَّدتَ بالمـدحِ الـذي كـان رائقـا
سـقى اللهُ أيامـاً مضَـتْ في جِـوارِكُم فَكُنـتَ رؤوفـاً بي كَـما كُنـتَ وَامِقـا
فُـؤادي مَحفـوظ لـديكَ وإنْ يَكُـن ثنـائي مَنسِـيّاً وجِسـمِي مُفارِقَـا
وإن بـتَّ في ذلٍّ عـلى طـولِ صُـحبتَي وقـد كُنـت ذا عـزٍّ غلامـاً مُراهقـا
فأنـت وليُّ الله فعلُـكَ معجـزٌ فتظهـرُ للعـاداتِ منـكَ خورقـا
كفـاني مـن الـنعماءِ علمُـكَ أننـي محـبٌّ صـميمُ الحـبِّ لسـتُ منافقـا

ومـــا أنـــسَ لا أنـــسَ الغـــريَّ وأهلـــهُ ... فقـــد زعمـــوني مســـتغاثاً مرافقـــا

حكيـتُ عـن القفطـانِ عســرتَهُ لكـم ... وكـــان رجـــائي في نوالِـــكَ واثقـــا

رجانـا عـلى بعـدِ الـديارِ وقـد أتـتْ ... مكاتيـــبُ منـــه ســـابقاً ثـــمّ لاحقـــا

فبشرتُه فـــيما كتبتـــهُ إليـــه بالـــ ... ـــعطاءِ المُرجـى ليتنـي كنـتُ صـادقا

وحسّـنتُ مـا كاتبـت مستنسـخاً لـه ... فـما الحسـنُ فـيما لـيس حقـاً مُطابِقـا

بـأيِّ لسـانِ أويـس البـائس الـذي ... رجلنـي ابتـداءً داعيـاً لي بِـلا لقـا

رأى أن لي جاهـــاً لـــديكَ وحرمـــةً ... فبـــانَ لـــهُ ذُلِّي وشـــاعَ مشـــارقا

أمـــرتُهم بالصـــبرِ فـــيما أصـــابَهم ... فَضِـقتُ بهـم ذَرعـاً وهـم في مضـائقا

أُعـالجُهم بالصـومِ وهـو يضـرُّهم ... ويضـمنُ ذو طـبّ ولـو كـان حاذِقـا

وكـلُّ عـلاجٍ فهـو بالضـدِ ينبغـي ... وإني قـد اسـتعملتُ مـثلاً مُسـاوِقا

فـداويتهم بالصـوم والصـومُ داؤهـم ... ولـو أفطـروا كـان العـلاجُ مُوافِقـا

منعـــتُ جياعـــاً ســـاكتين تَعفّفـــاً ... وأعطيـتُ أهـل السـؤال بَـراً وفاسِـقا

ولولا احتسابُ الأجرِ ما جئـتُ سـائلاً ... فـــربيّ خـــيرُ راحِمـــاً لي ورَازِقـــا

وحَسـبي مـن أفضـالكُم ونـوالِكم ... إفـــادتكم إيّـــايَ بعـــضَ حقائقـــا

رهنـــتُ بـــما زَكيتَنِـــي وهـــديتني ... فـــإن زكـــاة المـــال لـــيس لهـــا بقـــا

فعفـواً وصـفحاً أن ذا الحـزن رُبَّـما ... يُكّلـمُ هجـراً وهـو يَـدري العَوائِقـا

أراني لقـــولِ الله جـــلَّ جلالُـــهُ ... يجـــادلُني في قـــومِ لـــوطٍ مُوافِقـــا

فهـــذا خليـــلُ الله جـــادلَ ربَّـــهُ ولم يـــكُ الكفـــارُ خَـــلا مُصـــادقا
وإني لَفـي الأخيـارِ جادلـتُ سـيّدي فهـــاكَ بـــه بـــين الجـــدالين فارِقـــا
وجـادل عـن بشـرٍ وقـد زالَ روعُـه وجادلـتُ عـن حـزنٍ أخـافُ البَوائِقـا
لســـاني يَشـــكوكم وقلبـــي عـــارفٌ بأنّـــك عَـــلاّمٌ عرفـــتَ الـــدَقائقا
فـاعطِ أو امنـع سـيدي إنـك أمـرؤ خلائقـــه طُـــرَّاً تـــروق الخلائقـــا

ومن الأدلة على كُثرةِ حُبّه لأستاذهِ قوله في مقطوعة له:

كـــلُّ الكنـــوزِ لي الفـــداءُ وأننـــي لفـــداءِ مَـــولاي الإمـــامِ الحُســـينِ
إن كنتُ أفديه فلا عجبَ مـن الـــ ـــعباس أضـــحى فِديـــةً لحُســـينِ

وقد قال في هذا المعنى بالفارسية:

زاو يافـــت رواج مـــذهب آل كـــرام مـــن نيـــز بخـــدمتش بـــرآوردم نـــام
كوياكـــه بجنـــگ دشـــمنان حيـــدر عباس علمدار وحسين است امام

مؤلفاتُه:

وله من التصانيف ما يزيد على مائة بين مُختصَرٍ ومُطوَّلٍ، وقد ذكر جلّها في إجازته لتاج العلماء السيّد علي محمّد، ونحن نذكر منها ما يحضرنا فمنها:

١ ـ الشريعة الغرّاء: في الفقه الإستدلالي، برز منه مجلدان في الطهارة والصلاة (مطبوع في الهند).

٢ ـ الجواهر العبقرية: في الردّ على (التحفة) (مطبوع في الهند).

٣ ـ نصر المؤمنين: ويُلقّب أيضاً بـ (المقام المحمود في دفع شبهات اليهود).

٤ ـ معراج المؤمنين: في أحكام الصلاة (مطبوع في الهند).

٥ ـ روائح القرآن: في تفسير الآيات الواردة في أمير المؤمنين عليه السلام كتابٌ جليلُ لم يُصنَّف مثله، وعليه تقريض لسيّد العلماء السيّد حسين قدس سره. واسمه (روائح القرآن في فضائل أمناء الرحمن) يشتمل على تفسير ١٣١ آية في فضائل أهل البيت عليهم السلام من كتب الفريقين مطبوع في الهند سنة ١٢٧٧ هـ، وكذلك سنة ١٢٧٨ هـ وكذلك سنة ١٣٠٦ هـ.

٦ ـ منابر الإسلام: مجلّدان في المواعظ.

٧ ـ أوراق الذهب: في ترجمة استاذه سيّد العلماء. طبع حديثاً سنة ١٤٢٨ هـ في مؤسسة البلاغ ـ بيروت، بتحقيق الأستاذ محمد سعيد الطريحي.

٨ ـ الرسالة الحُسينية: فارسيّة أيضاً في ترجمته.

٩ ـ رطب العرب: ديوان شعر مبسوط (مطبوع في الهند).

١٠ ـ الظلّ الممدود: في المكاتيب العربية ممّا ورد عليه أو صدر منه.

١١ ـ رياحين الإنشاء: فارسي.

١٢ ـ جلجلة السحاب في حُجية ظواهر الكتاب: ردّاً على الأخباريّين.

١٣ ـ نور الأبصار: أيضاً في الردّ على أهل الأخبار.

١٤ ـ الجوهر المنظوم: مثنوي فارسي في حديث الأمير عليه السلام مع اليهودي الذي

سأله عن مواطن امتحانه وهو مذكور في (خصال الصدوق ﵀).

١٥ ـ كوهر شاهوار: مثنوي فارسي في أصول الدين.

١٦ ـ المنّ والسلوى: مثنوي مبسوط في المواعظ والأخلاق فارسي وعربي بلسان يُذيب القلوب، طُبع في الهند وإيران، وعليه تقريض الفاضل الشيخ إبراهيم قفطان النجفي ﵀.

١٧ ـ أجناس الجناس: ويسمى بـ (المُرصَّع)، مثنوي كبير مشتمل على عدة الآف من الأبيات وإلتزم في كلّ بيت منها بصنعة الجناس.

١٨ ـ بنياد اعتقاد: في أصول الدين.

١٩ ـ تشبّث الغريق: إنشاء ومثنوي فارسي في قصة شاب أخذه البحر مشتمل على مواعظ تُصدع الأكباد على نمط (أبواب الجنان).

٢٠ ـ الدليل القوي: فارسي كتبه لأستاذه العاميّ الشيخ عبد القوي فاستبصر.

٢١ ـ بناء الإسلام في أحكام الصيام.

٢٢ ـ العشرة الكاملة: في مسائل الكلام.

٢٣ ـ حاشية على مبحث الكُر من (الوجيز الرائق) لسيّد العلماء.

٢٤ ـ تعليقة أنيقة: على (الروضة البهية) للشهيد الثاني رحمة الله.

٢٥ ـ الشعلة الجوّالة: في إثبات إحراق الخليفة الثالث للمصاحف من كتب العامة.

٢٦ ـ يدٌ بيضاء: شرح قصيدة له في مدح الإمام موسى بن جعفر عليه السلام. طُبعت مع شرحها نثراً سنة ١٣٣٠ هـ.

٢٧ ـ آب زلال: مثنوي فارسي.

٢٨ ـ شمع المجالس: في أشعار الرثاء.

٢٩ ـ البضاعة المُزجاة.

٣٠ ـ بيت الحزن: مثنوي فارسي في قصة معجزة لمولانا الحسين **(عليه السلام)** ظهرت في أحمد آباد.

... إلى غير ذلك ممّا لايحضرنا ذكره من كتب ورسائل.

ـ وفاته رحمه الله.

تُوفيَ رحمه الله في الخامس والعشرين من شهر رجب سنة ١٣٠٦ ودُفن في حسينية غفران مآب العلّامة السيّد دلدار علي رحمه الله في لكهنو قدس الله نفسه الزكية.

ـ أولادُه رحمه الله.

وقد خلّف أولاداً أكبرهم:

السيّد محمد المتخلّص بـ (الوزير): كان عالماً فاضلاً بارعاً أديباً تتلمذ على أبيه وعلى ممتاز العلماء السيّد محمد تقي رحمه الله وأقام ببلدة كلكته.

ـ وله من المؤلّفات:

١ ـ شمس الضحى: منظوم.

٢ ـ وسبيل النجاة: مثنوي.

... وغير ذلك.

ومنهم:المفتي السيّد محمد علي والمفتي السيّد أحمد علي دامت بركاتهما.

والشخصية السادسة [١]: هو محمد يوسف كوكن العمري و «ينتمي نسبه الى النوائط، وهذه الطائفة تنحدر من سلالة عربية جاءت من البصرة الى جنوبي الهند في القرن الثامن للهجرة واستقروا في كونكن من المناطق السواحلية بالقرب من ممباي وعُرفت هذه الأسرة بعد استقرارها فيها باسم كوكن نسبةً الى المكان الذي تواطنت فيه، وقد ولِدَ محمد يوسف كوكن في الرابع من نوفمبر ١٩١٦م بمينبهور، وكان أبوه محمد إبراهيم فقيهاً تلقى منه مبادىء الأُردية والتاملية وشيئاً من المبادىء الفقهية والحساب، تُوفيَ والده عام ١٩٦٧م فتَعلَّم القرآن من أمه، وتعلم الأرُدية في المدرسة الابتدائية، وكان خاله أبو صالح محمد غضنفر مُدرّساً في جامعة دار السلام بعمرآباد، وبإيعاز منه إلتحق يوسف كوكن بدار السلام عام ١٩٢٥م وواصل دراسته هناك لنحو ثلاث سنوات، درس خلالها الفارسية وأفاد فيها من خاله ومن أساتذة الجامعة الآخرين، وقرأ النحوَ والصرفَ وكتبَ الحديث على مولانا محمد نعمان أعظمي، وقرأ التأريخ على محمد عثمان، وكتب الفلسفة والمنطق على مولانا عبد الرحمن الرحماني، وصحيح البخاري على محمد البخاري وأتم دراسته في الجامعة دار السلام سنة

---

(١) أعلام المؤلفين، ص ٣٥٥ ـ ٣٦١.

١٩٣٢، وفي السنة التالية حصل على شهادة أفضل العلماء من جامعة مدراس كما نال شهادة منشىء فاضل ومتريكوليشن في اللغة الأُردية والإنجليزية.

ـ الرحلات والجولات:

بعد تخرجه في جامعة دار السلام وحصوله على هذه الشهادات، تَوجَّه إلى أعظم كره بإيعاز من السيد كاكا إسماعيل، مدير دار السلام، وذلك ليلتحق بدار المصنفين هناك للتدريب في تأليف الكتب، وكان مديرها آنذاك العلاّمة السيد سليمان الندوي، وبدأ الأستاذ كوكن يعد المقالات لنشرها في مجلة المعارف، لسان حال دار المصنفين بعنوان حضارة المسلمين في القرن السادس الهجري وقد نشر في كل أعدادها، وقد أرشده العلاَّمة السيد سليمان الندوي إلى أهمية جمع المعلومات من المصادر والمراجع المهمة في المواضع قبل أن يكتب المقالات، وإقامته في دار المُصنّفين في صحبة العلاّمة سليمان الندوي جعلته متضلعاً في العلوم ومنهجية التأليف.

ثم رجع من أعظم كره إلى بلده، وفي أثناء إقامته في مدارس أعدَّ خطة جديدة لإصلاح منهج التعليم في دار السلام عمرآباد على غرار منهج دار العلوم بندوة العلماء، ووافق عليها رجال الجامعة من أمثال كاكا عبد الرزاق وغيره.

ثم عاد إلى دار المصنفين فأشار عليه العلاّمة السيد سليمان الندوي بإعداد بحث عن حياة ابن تيمية ومآثره، فبدأ في جمع المصادر والمراجع، وأكمل جمع المواد ورتبها في صورة كتاب في سنتين، وهذا الكتاب يحتوي على ٦٨٦ صفحة في اللغة الأُردية، وَنَشَر هذا الكتاب سنة ١٩٥٩م وذاع بذلك صيته في الأوساط العلمية في الهند وباكستان،

وبلغ من أهمية كتابه العلمية أن قامت إذاعة راولبندي بتقديم نشرة تعريفية به وبصاحبه، مما أتاح له الفرصة عام ١٩٥٩م للإشتراك في المؤتمر الدولي المنعقد في سريناكار.

وكان الأستاذ كوكن قد حفظ القرآن في أثناء إقامته في دار المُصنّفين بأعظم كره، وبعد خمس سنوات قضاها فيها غادر إلى وطنه واشترك في امتحان انترميديت في إله آباد دون علم السيد سليمان الندوي، ثم إلتحق بكلية محمدن كالج بمدراس عام ١٩٤١م ونال شهادة البكالوريا كما أنهى دراساته العليا وحصل على الماجستير في الآداب (M.Lit) عام ١٩٦٥م وكانت رسالته فيها «العربية والفارسية في كرناتك منذ عام ١٧١٠ الى ١٩٦٠م» وكانت في اللغة الإنكليزية.

ثم سافر الأستاذ إلى مصر بعد أن حصل على منحة دراسية من الحكومة الهندية، فإلتحق بجامعة القاهرة سنة ١٩٥٧م، وكان من أساتذنها وقتئذ الدكاترة طه حسين وسهير القلماوي ويحيى الخشاب والدكتور حسين نصار، وكان الدكتور شوقي ضيف مشرفاً على بحثه، وبدأ جمع المواد في موضوعه عن الشاعر الأموي المَعروف الفرزدق، ولكن الظروف القاسية حالت دون إتمامه، فاضطر إلى الرجوع إلى الهند في العام التالي، وكان في أثناء إقامته بالقاهرة يواظب على الاستماع الى المحاضرات التي كان يلقيها الدكتور طه حسين بلهف وشوق بالغين، وتأثّر بإسلوبه وأفكاره ؛ لأنه دائماً يتحدَّث باللغة العربيَّة الفصحى ولا يعمد إلى اللغة الدارجة.

وقد قام بزيارته الرسمية وغير الرسمية الى البلدان العربيَّة مثل دمشق وبيروت

وحلب وذلك في عام ١٩٥٩م.

وفي عام ١٩٧١م زار الأستاذ كوكن إيران مع زوجته بدعوة من حكومة إيران للاشتراك في احتفالات العيد الوطني وتجوّل أثناء ذلك في مدن إيران وحضر مؤتمرات عديدة عقدت في شيراز وطهران، وألقى محاضرات عن وضع اللغة الفارسية في تاملیناد، وفي عام ١٩٧٥م زارها لمرةٍ أخرى حيث شارك في الندوة المُنعَقدة حول اللغة الفارسية وآدابها الحديثة المُستهدَف بها أساتذة الجامعة وكان أحد المشاركين الخمسة من ممثلي الجامعات الهندية، كما زار دولة الإمارات العربيَّة المُتحدة عام ١٩٧٩م وباكستان عام ١٩٨١م وكان جُل اهتمامه في خلال هذه الزيارات منصرفاً إلى إقامة العلاقات بعلماء الدولة المضيفة كما أهدى مؤلفاته الى بعض المؤسسات والشخصيات البارزة هناك.

ـ المناصب التي تقلدها:

بعد الحصول على شهادة الماجستير من كلية محمدان بمدراس تقلد عدة وظائف عُيِنَ أولاً كمترجم في دار الترجمة، وعُيِنَ بعد ذلك مسؤولاً في دار الرقابة لولاية مدراس عام ١٠٤٤م، وبعد سنتين عمل نائب أمين في المكتبة الشرقية بمدراس حيث سنحت له الفرصة للإطلاع على الذخائر العلمية من التراث الإسلامي واستفاد منها، وانخراط في سلك التعليم في كلية محمدن عام ١٩٤٦م وبقي فيها لمدة سنتين حتى تم تعينه مُدرِّسا في كلية برهنان الحكومية في تلاشيري بولاية كيرالا، وظَلّ يعمل هناك حتى عام ١٩٤٩م ثم عاد الى وظيفته في المكتبة الشرقية نائب أمين لها، وفي أغسطس

من ذلك العام إلتحق بجامعة مدراس محاضراً في قسم اللغة العربية وكان رئيس القسم آنذاك محمد حسين ناينار ولما غادر هو لمباشرة وظيفة أخرى خارج الهند، تَقلَّد منصبَ رئاسة قسم اللغات العربيَّة والفارسية والأُردية وَخَدَمَ فيه حتى عام ١٩٦٣م وَحَدَثَ في أثناء ذلك أن زار السيد جمال عبد الناصر الرئيس المصري مدينة مدراس حيث أهدى إليه الأستاذ مؤلفاته فأعُجب به وباسلوبه العربي الرصين، وبعد تقاعده من جامعة مدراس تولّى منصب الأستاذ الزائر في جامعة كالكوت، وعرض عليه عمادة الكلية الجمالية بمدراس فقبلها وأصبح عميدها عام ١٩٨٣م.

وظَلَّ يخدم العلم والثقافة حتى عام ١٩٨٦م وكان قد اعتاد أن يذهب إلى الكلية راجلاً على القدمين وذات مرة صدمته دراجة وهو في طريقه إلى الكلية وانكسرت رجله اليسرة مما جعله طريح الفراش بعد ذلك، ولم يكن يستطيع الحراك بدون آلة المشي، وظل على حاله هذه حتى وافاه الأجل المحتوم عام ١٩٩٠م.

ـ مؤلفاته:

يُعد الدكتور محمد يوسف كوكن من أكبر الشخصيات التي أنجبتها الهند الجنوبية في مجال الأدب العربي وآثار العلمية والأدبية تدل على نبوغه في هذا المجال، ومن إسهاماته الأدبية ما يلي:

ـ أعلام النثر والشعر في الأدب العربي الحديث:

يقع هذا الكتاب في ثلاثة أجزاء كبار. كل منها يحتوي على ما يربو على أربعمائة صفحة، وفي هذا الكتاب النفيس يعرض تراجم الأدباء والشعراء من مصر والشام

ولبنان والعراق، وأدباء العرب في المهجر الغربي بالتفصيل مع اعتناء بإسهاماتهم من الأدب العربي وميزاتهم الأدبية، والكتاب فريد في نوعه. ويندر وجود كتاب آخر من هذا الطراز حتى في البلاد العربية، ويتميز الكتاب باحتوائه على الأحداث الهامة والحركات الأدبية التي تتَعلَّق بالأدب العربي الحديث، وقد قَدَّم بهذا العمل الجليل للأوساط الأدبية تحفة رائعة قليلة النظير ولا يزال هذا الكتاب موضع عناية للأساتذة والباحثين على حد سواء، مُقرِّين بانه أهم المراجع في موضوعه، ويُجسِّد الكتاب الجهود المضنية التي بذلها صاحبه لجمع المعلومات من منابعها الأصلية ورجالاتها مباشرة، مما جعله رمزاً صالحاً خالداً لفضله وفضل الهنديين، وقد تَحمَّس الى وضعه وهو يلقي الدروس في الأدب العربي الحديث على طلبة قسم العربيّة بجامعة مدراس، حيث كان يعتمد كثيراً على ما قد سمعه من أساتذته في القاهرة من أمثال الدكتور طه حسين والدكتور شوقي ضيف، وأشار عليه بعض أصدقائه بتأليف كتاب في الأدب العربي الحديث ليستفيد منه طلبة العلم وخصوصاً في البيئة الهندية.

ـ العرب وآدابهم:

هذا كتاب مُجمَل عن تأريخ الأدب العربي، وضعه المؤلف للطلاب المبتدئين في الكليات والمدارس العربية، ويبحث فيه تأريخ الإسلام الى جانب تأريخ الأدب العربي، مما يحتاج إليه في المناهج الدراسية في مختلف الجامعات الهندية، والجزء الاول منه يبدأ من تأريخ العرب قبل الإسلام ومصادره إلى عصر النبي (صلى الله عليه وآله) والجزء الثاني يبدأ من الخلفاء الراشدين حتى الدولة الأموية، والأسلوب المُتبَع في

تأليفه رائع وسهل يروق الطلاب المبتدئين، وتَحرّى المؤلف تَجنُّب الألفاظ الصعبة والجمل المُعقَّدة.

القراءة المفيدة:

اختار المؤلف مواد هذا الكتاب على نحوٍ يناسب تطلعات الناشئين الثقافية، كما أنه يمثل أدب الأطفال الهادف في صورة الأقصوصة التي استقاها من المصادر التأريخية.

القراءة العربية:

يحتوي هذا الكتاب على مقالاتٍ بديعة ذات أسلوب أدبي رائع تساعد الطلاب الناشئين على تعلم اللغة العربيّة بأسلوبٍ حديث يناسب ذوقهم، وقد تم إدراج هذين الكتابين في المقررات الدراسية في المدارس والكليات العربيَّة في جنوبي الهند، وله كتاب آخر يتَعلَّق بعلوم التجارة باسم (التجارة وما يَتَعلَّق بها) والهدف منه إرشاد المُتخرِّجين مِمَّنْ يريدون الوظيفة للحصول على الوظائف في البلاد العربية.

دولة المغول:

هذا كتاب يحتوي على أكثر من ثلاثمائة صفحة ويبحث عن وصول المغول إلى الهند وأيام حكمهم كما يشير إلى سير الملوك الذين حكموا الهند من أسرة المغول، ويتناول بجانب هذا الحالة السياسية والإجتماعية التي كانت تسود البلاد في تلك الأيام ويطلع على إسهاماتهم في نشر الثقافة ويناقش آثارهم الخالدة التي لا تزال الهند تتباهى به.

والشخصية السابعة [١]: هو الدكتور محمد حميد الله الحيدر آبادي الذي «ولِدَ بحيدر آباد الدكن في التاسع عشر من فبراير عام ١٩١٨م، وهو ينتمي كذلك الى أسرة النوائط الأسرة المشهورة ذات الجذور العربية، وقد انحدرت من البلاد العربيّة منذ عهد سحيق، وبعد أن دَرَسَ القرآن في بيته إلتحق بمدرسة دار العلوم بالقرب من جارمنار، ثم إلتحق بالمدرسة النظامية ليتعلم اللغة العربية والعلوم الإسلامية، ودرس اللغة الإنكليزية من تلقاء نفسه دون أن يدري بذلك والده وحضر امتحان الصف الأول الثانوي ثم دخل قسم الدراسات الإسلامية بالجامعة العثمانية، ونجح في اختبارات البكلوريوس بتقدير امتياز، ومن ثم أنهى دراساته للماجستير والبكالوريوس في القانون سنة ١٩٣٠ م، ثم نال منحة التحقيات العلمية من الجامعة العثمانية وَبَدَأَ يعمل في التحقيق في موضوع القانون الإسلامي العالمي، ثم انتخب سكرتيراً لجمعية القانون في الجامعة عام ١٩٢٩ م.

وقد وفِقَ لأداء فريضة الحج وفي أثناء ذلك وافقت بون بألمانيا على منحه منحة دراسية لمواصلة دراساته هناك، كما أنَّ الجامعة العثمانية تفضَّلت باستمرار منحتها إيّاه لدراساته التحقيقية في ألمانيا، وفي خلال دراسته هناك نال الدكتوراه من جامعة بون لرسالة أعدها بعنوان (العلاقات الدولية في الإسلام) ولما إنتهت مدة منحته الجامعية سافر الى بريطانية ومنها الى باريس، وحصل على شهادة دكتوراه ثانية من جامعة

---

(١) المصدر نفسه، ص ٣٦٢ ـ ٣٦٧.

السوربون بمقالة قَدَّمها بعنوان مجموعة الوثائق السياسية في العهد النبوي وفي الخلافة الراشدة، ثم رجع الى حيدر آباد وإلتحق بالجامعة العثمانية أستاذاً في قسم الدين، ثم عُيِنَ في قسم القانون الدولي وظَلَّ يخدم فيها حتى اختير عضواً في وفد رسمي يمثل حكومة حيدر آباد الى الأمم المتحدة سنة ١٩٤٨م وذلك لعرض استقلال حيدر آباد وعدم رغبتها في الانضمام الى الكيان الهندي، ولكن الحكومة الهنديّة المُستقلِّة ضَمَّتها قسراً الى جمهورية الهند قبل أن تتم مفاوضة أعضاء الوفد ثم رجع جميع أعضاء الوفد الى الهند وَبقيَ هو هناك وآثر الإقامة في باريس.

وقد استقى الدكتور حميد الله العلوم من الأساتذة الكبار في أيامه من أمثال مناظر أحسن الكيلاني والمولوي عبد الحق والأستاذ عبد القدير الصديقي والأستاذ عبد المجيد الصديقي والمُفتي عبد اللطيف والمولوي صبغة الله والدكتور سيد عبد اللطيف وحسين علي ميرزا مما ساعده على تكوين عقلية واعية وشخصية علمية عالية، ولما استقرَّ رأيه على البقاء في باريس إلتحق بالمعهد القومي للأبحاث العلمية وَبَقَي هناك على منحة مركز أبحاث الدراسات الشرقية (Oriental studies research centre) ولم يلبث أن حصل على منحةٍ أخرى من المركز الوطني للتحقيق العلمي (National centre for scientific research) استمرت لعشرين سنة،وفي خلال هذه الفترة ألقى محاضرات في مختلف الجامعات وأسهم في وضع القوانين وخطة التعليم لحكومة باكستان. وقد ظَلَّ طوال عمره المديد معطاء غزير التأليف، ولم يَتوقَّف عن العمل إلاّ بعد أن صار طريحاً للفراش لسنتين قبل وفاته، حيث كان مع ابن' أخته في الولايات المتحدة، ولم يتزوج رحمه الله بل تَفرَّغ للعلم والبحثِ والتأليف، وعندما

استقرَّ في باريس لم يكن فيها أحد مِمَّنْ يتحدَّث عن الإسلام سوى زمرةٍ من المستشرقين.

ولما كثرت وفود الطلبة من البلاد العربية إلى باريس بادر إلى تأسيس جمعية الطلبة المسلمين حفظاً لكيانهم الإسلامي وحماية لهم من الذوبان في ثقافة البلاد المضيفة.

ومن أبرز إسهامات حميد الله مبادرته لوضع مبدأ الحياد في القانون الدولي الإسلامي، كما أن له الفضل في إدخال مصطلحات جديدة في القاموس الإسلامي مثل دولة المدينة ودستور المدينة ونال أعلى جائزة من جمهورية باكستان لأعماله المُميزة في السيرة، وعَملَ أستاذاً زائراً في كلية الإلهيات بجامعة إستنبول، وكان يَعرِف إثنتين وعشرين لغة، درس الأخيرة منها وهو في الثانية والثمانين من عمرة، وكان له قدرة فائقة في التأليف في سبعِ لغاتٍ في العربيّة والألمانية والأردية والفرنسية والتركية والفارسية والإنجليزية، ونظراً لبحوثه القيّمة وإسهاماته الجليلة في الدراسات الإسلامية المقارنة رُشِّحَ اسمه لجائزة الملك فيصل عام ١٩٩٤م ولكنه اعتذر إليهم عن قبولها.

ودعاه الرئيس الباكستاني السابق الجنرال محمد ضياء الحق الى إلقاء سلسلة من المحاضرات في جامعة بهاولفور في سيرة النبي محمد (ص) بمناسبة مرور ١٤٠٠ عام بعد الهجرة، وقام بها حق قيام، كما أنه ألقى المحاضرات في جامعة باريس وجامعات ألمانيا وجامعات استنبول وأنقرة وكوالالمبور و باكستان.

أعماله العربية:

تتميز أعماله العلمية وأبحاثه بالأصالة ودقة العرض والشمولية وكان موضوعه المُحبَّب إليه السيرة النبوية، وقد طُبِعَ له أكثر من ألف مقال، كما طُبِعَ أكثر من مائة وخمسة وسبعين من كتبه ورسائله، ومعظم كتاباته حول الإسلام والقانون الإسلامي والسيرة النبوية والرد على الشبهات حول الإسلام ومن أهم أعماله ترجمة القرآن إلى اللغة الفرنسية.

وفي السيرة نشر (**صحيفة همام بن منبه**) عن مخطوطة برلين بعد أن حَقَّقها وعَلَّق عليها مع مقدمة في تأريخ تدوين الحديث وطُبِعَتْ في بيروت، وتحتوي هذه الصحيفة على أحاديث كتبها أبو هريرة عن النبي محمد ﷺ وتعرف بالصحيفة الصحيحة، ثم نقلها عند تلميذه همام بن منبه، وهذا أقدم ما وصل إلينا كتابةً عن النبي ﷺ وقد عثر الدكتور حميد الله على مخطوطاتها ببرلين في أثناء دراسته في ألمانيا، ثم دلَّه الدكتور زبير أحمد الصديقي على نسخةٍ أخرى للصحيفة في المكتبة الظاهرية بدمشق، فَحقَّق الدكتور هذه الصحيفة وقارن بين نسختيها وكَتَبَ مقدمةً ضافية في تدوين الحديث وكتابته في المعهد النبوي وأثبت بالبراهين الساطعة والحجج القاطعة أن الحديث كان يُكتَب في أيام الرسول ﷺ كما أن النبي كتب كتابا للمهاجرين والأنصار واليهود للتعامل بينهم، وهو يُعتبَر أول وثيقة دستورية للدولة الإسلامية التي كان رئيسها النبي ﷺ هكذا فند الدكتور حميد الله المزاعم الباطلة التي ينشرها أعداء الدين، إذ يقولون إن الأحاديث لم تُكتَب إلاّ بعد القرن الثالث الهجري، ونُشِرَتْ الصحيفة أولاً في المجمع العلمي بدمشق ثم نُشِرَتْ في المركز الثقافي الإسلامي بباريس وخرّجَ أحاديثها التي بلغ عددها ١٣٨ حديثاً، وهذه الصحيفة تُرجِمَتْ إلى الأُردية والفرنسية

والإنجليزية والتركية.

كتاب السرد والفرد:

وهو في صحائف الأخبار ونسخها المنقولة عن سيد المرسلين جمع هذا الكتاب الشيخ أبو الخير أحمد بن إسماعيل بن يوسف الطالقاني القزويني وهو من علماء الحديث وأحد كبار فقهاء الشافعية في القرن السادس، يقول المؤلف في تسمية كتابه: هذا الكتاب يَتَضمَّن صحائف ونسخاً تلقيناها تحوي أخباراً كثيرة عن سيدنا المصطفى ﷺ بإسنادها الوحيد تسهيلاً لحفظها على طُلاّب علم الحديث، وسَمَّيته كتاب السرد والفرد يعني به سرد الأحاديث المُتعدِّدة بالأسانيد المنقولة المتفقة والكتاب يحتوي على الصحائف الآتية:

ـ صحيفة همام بن منبه عن أبي هريرة.

ـ صحيفة كلثوم بن محمد عن أبي هريرة.

ـ صحيفة عبد الرزاق عن أبي هريرة.

ـ صحيفة حميد الطويل عن أنس بن مالك.

ـ صحيفة إلياس والخضر عليهما السلام عن النبي ﷺ.

ـ صحيفة الأشبح عن علي بن أبي طالب.

ـ صحيفة عن طريق أهل البيت عن علي بن أبي طالب.

ـ صحيفة جعفر بن نسطور الرومي.

ـ صحيفة خُراش عن أنس بن مالك.

ـ صحيفة عبد الرزاق بن عمر.

ـ صحيفة جويرية بنت أسماء عن ابن عمر.

نشر الدكتور الكتاب عن النسخة الخطِّية التي كُتِبَتْ سنة ٥٩٩هـ كما قام بتحقيقه وترقيم أحاديثه في كل مخطوط ورقَّمَ جميع أحاديث الكتاب بالتسلسل، فبلغت الأحاديث ٤٥٤ حديثاً، ثم ترجمها الى اللغة الإنجليزية وحلاّه بمقدمةٍ ضافية عَرَّفَ فيها بجميع الصحائف وألقى الضوء على تأريخ تدوين الحديث، وتم نشر هذا الكتاب في المجلس الوطني للهجرة بإسلام آباد سنة ١٩٩٠م، وفي الكتاب تقريظ لشريف الدين بيرزاده وتعريف الدكتور محمد حميد الله لأصحاب الصحائف.

ـ الوثائق السياسية للعهد النبوي والخلافة الراشدة:

هذا الكتاب من اهم الأعمال التي قام بها الدكتور حميد الله والتي تُعد من روائع أعماله، وهو في الحقيقة رسالةٌ قَدَّمها في جامعة السوربون للحصول على شهادة الدكتوراه، وقد طُبِعَ بالعربية بالإضافات والتنقيحات، جَمَعَ فيه الوثائق السياسية الخاصة بعهد الرسول ﷺ وفي أيام الخلافة الراشدة، وعدد الوثائق التي جمعها الدكتور حميد الله ٣٧٣ وثيقة، والكتاب ينقسم على أربعة أقسام: القسم الأول يشمل على وثائق الرسول ﷺ قبل الهجرة، والقسم الثاني يحتوي على الوثائق التي كُتِبَتْ بعد الهجرة، يبدأ هذا القسم بالوثيقة المكتوبة في تحديد الواجبات والحقوق بين المهاجرين والأنصار واليهود، وتُعتَبر هذه الوثيقة أول دستور للإسلام ثم ذكر الوثائق الخاصة

بالعلاقات مع الروم والفرس بين القبائل العربية، ويحتوي القسم الثالث على الوثائق التي كُتِبَتْ في عهد الخلافة الراشدة، سَجَّلَ فيها وثائق خلافة أبي بكر وعمر وعثمان وعلي عليهم السلام على الترتيب، ويشتمل القسم الرابع على ملحقات ذكر فيها العهود مع اليهود والنصارى والمجوس، ثم ألحقَ به الوثائق التي عَثَرَ عليها فيما بعد، وفي آخر الكتاب فهارس تشمل الصور والخرائط والجداول وطُبِعَ الكتاب في اللغة الفرنسية سنة ١٩٣٥م ثم نقله الى العربيّة وطبع في القاهرة سنة ١٩٤١م، ثم أُعِيدت طباعته عدة مرات.

ـ كتاب السيرة لابن إسحاق:

هذا الكتاب هو المصدر الأول الأصلي للسيرة النبوية، وهو الذي اعتمد عليه صاحب سيرة ابن هشام ومحمد بن إسحق هو تلميذ محمد بن شهاب الزهري الذي بدأ تدوين الحديث أولا بايعاز من عمر بن عبد العزيز وكان الكتاب مفقوداً، وعَثَرَ الدكتور حميد الله على نسخةٍ خطية منه في المكتبة الظاهرية بدمشق كما، وَجَدَ نسخةً خطية أخرى في مكتبة جامع القرويين بفاس، فاعد الدكتور الكتاب بالمقابلة بين النسختين، وطُبِعَ في الرباط في معهد الدراسات والأبحاث للتعريب.

وله كتبٌ أخرى في مختلف فنون التحقيقات. منها المُعتَمد في أصول الفقه لأبي الحسين البصري قام بتحقيقه مع محمد بكير وحسن حنفي، وطبعه المعهد الفرنسي بدمشق، ومنها أنساب الأشراف لأحمد بن يحيى المعروف بالبلاذري، حَقَّقه الدكتور حميد الله وطبعه معهد المخطوطات بجامعة الدول العربيّة، ومنها معدن الجواهر

بتأريخ البصرة والجزائر لابن العراق، وصدر ذلك عن مجمع البحوث الإسلامية بإسلام آباد مع تحقيق الدكتور حميد الله.

ـ مؤلفاته في الأدب واللغة:

١ـ كتاب الأنواء في مواسم العرب لابن قتيبة، قام بتحقيقه بالإشتراك مع شارل بلا، وصدر عن دائرة المعارف العثمانية.

٢ ـ الذخائر والتحف للقاضي رشيد بن الزبير، صدر عن دائرة المطبوعات والنشر بالكويت.

٣ ـ كتاب النبات لأبي حنيفة الدينوري.

وله كتب أُخرى لم تر النور حتى الآن، منها تأريخ تطور الدستور عند المسلمين الذي يبحث فيه عن الوثائق الدستورية في مكة قبل الإسلام ومن العهد النبوي إلى نهاية العصر الأموي، وكتاب أديان العالم ومقارنتها الإسلام وغياث الأمم لإمام الحرمين.

وليس غريباً بعد هذه الصلات الثقافية والاقتصادية بين البصرة وبلاد الهند أن يتم تشكيل أول مَحكَمة في البصرة بقوانين هندية، إذ يقول سليمان فيضي في مذكراته: «في أواخر عام ١٩١٥ أسست الحكومة البريطانية أول محكمة مدنية في البصرة برئاسة الكرنل نوكس الذي كان يُجيد العربية وبعض الحُكّام البريطانيين، وكانت القوانين

المَرعية فيها آنذاك هي القوانين الهندية»[١].

وأن يقوم الحاج حمدي المشراقي باصدار صحيفة بصرية هي (مرقّعة الهندي) التي صَدّرت في البصرة في كانون الثاني سنة ١٩٠٩م، وهي صحيفة فكاهية مُتنوّعة، ولذلك كان اسمها (مرقّعة الهندي) لأنَّ الهنود يلبسون الملابس التي تحتوي على ألوان متعددة فكأنما أراد أن تكون الصحيفة تشبه تلك الملابس المتنوعة الألوان.

ولعلَّ ذكريات الهنود عن البصرة هي ما بَقَي في أذهانهم عنها إذ ينقل لنا الدبلوماسي «صائب عبد الواحد الفرحان مؤلف كتاب (البصرة رؤيا وذكريات) صفحاتٍ مشرقة عن شواهد تأثرت بها الأغاني التي كانت تَتَحدَّث عن البصرة وعالمها الغريب، ومن تلك الآثار ما نقله شعر (رابندرانات) المُلحَق الصحفي الهندي في بغداد، وهو يُحدِّثنا عن الأغاني الهندية التي تحلم بالبصرة وبعودة الأحباب الذين سيرجعون للوطن مُحمّلين بالذهب والتمر والعسل وطرائف مغامراتهم.

لقد كانت البصرة في القرنين التاسع عشر وبداية القرن العشرين تُصيب القادمين من موانيء العالم بالدهشة والفرح عندما يرون أنهاراً تصب العسل الأسود ونخيلاً مُحمَّللاً بالعناقيد الذهبية وغدراناً مليئة بالطيور والأسماك فترسو سفنهم الشراعية لينهلوا من تلك الخيرات فكانوا يكتبون رسائل تفيض بالحنين والشوق الى أهلهم وأحبابهم يصفون لهم ذلك الفردوس الموعود، ويؤمِّلون أبنائهم وزوجاتهم

---

(١) مذكرات سليمان فيضي، ص ٢٥١.

بالعودة إليهم وكلّما طال الزمن انتشرت أغان تفيض باللّوعة والشوق والعتاب كُلها تَتَحدّث عن بومبي والبنجاب وكراجي والبصرة، وفي ديوان (رابندرانات) قصائد عديدة تروي حكاية إمرأة هندية مغامرة زارت العالم إلاّ أنها لم تَتَذكّر إلاّ البصرة.

ويُعقِّب السيد صائب الفرحان على تلك الأغاني والبستات بقوله: بأنَّ وجود أكثر من أربعة عشرة مليون نخلة وأكثر من مئة مكبس للتمور على حافات الأنهار الفرعية لشط العرب. واكتضاض شط العرب بالسُفن والزوارق وتواجد مئات الألوف من أطنان التمور المُكدَّسة تحت شمسٍ ساطعة كان يفرض على الملاّكين إيجاد ممرات وغدران للتخلص من سيول الدبس الأسود وقذفها الى الأنهار، فكانت مثل هذه المشاهد تصيب الغرباء بالدهشة وهم يستقون منها ويصيدون طيورها وأسماكها بلا مقابل، تلك الوقائع هي ما جَعَلَ من البصرة الجَنّة الموعودة »[1].

وهكذا وجدنا أنّ العلاقات الإقتصادية والثقافية بين البصرة وبلاد الهند لم تقتصر على فئةٍ دون أخرى، ووجدنا التبادل الإقتصادي بينهما مُتميِّزاً وأثر البصرة الثقافي في الهند كانت له الأولوية على الأثر الثقافي الهندي في البصرة.

المصادر

١. **أعلام المؤلفين بالعربية في البلاد الهندية**: د. جمال الدين الفاروقي وآخرين، مركز جمعة الماجد للثقافة والفنون والتراث دبي، ط ١ سنة ٢٠١٣.

(١) عبير التوابل، ص ٤٦٠ ـ ٤٦١.

٢. **إغاثة الأمة**: بدر الدين السباعي، حاشية على كتاب إغاثة الأمة للمقريزي، تحقيق محمّد مصطفى زيادة وجمال الدين محمد الشيال، مطبعة لجنة التأليف، القاهرة سنة ١٩٤٠.

٣. **البدء والتأريخ**: للمقدسي.

٤. **الاقتصاد السياسي لتجارة البصرة في القرن الثامن عشر**: ثابت عبد الجبّار عبد الله، ترجمه للعربية عزيز سباهي، ونشرته دار المدى سنة ٢٠١٣.

٥. **البصرة في ذاكرة أهلها**: كتابٌ توثيقي يتناول البصرة في ثلاثينيات وأربعينيات القرن العشرين، تاليف: كريم علّاوي حميدي، نشر مركز تراث البصرة التابع للعتبة العباسية المقدّسة، طبع دار الكفيل سنة ٢٠١٦.

٦. **البصرة في مطلع العهد العثماني**: دراسة في التأريخ الاجتماعي والعمراني (٩٥٣ ـ ١٠٧٩ هـ) ، حسين علي عبيد المصطفى، دار تموز، دمشق، ط ١ سنة ٢٠١٢.

٧. **البيان والتبيين**: للجاحظ (ت ٢٥٥ هـ)، تحقيق: عبد السلام محمّد هارون، دار الفكر ـ بيروت، سنة ١٩٨٥م.

٨. **تاج العروس من جواهر القاموس**: مرتضى الزبيدي، دار الفكر ـ بيروت، ١٩٩٤م.

٩. **تأريخ الرسل والملوك**: أبو جعفر محمّد بن جعفر الطبري (ت ٣١٠ هـ)، تحقيق: محمّد أبو الفضل إبراهيم، دار المعارف، القاهرة، سنة ١٩٦٦ م.

١٠. **تراجم مشاهير علماء الهند**: تاليف العلّامة السيّد علي نقي النقوي (ت

١٤٠٨ هـ)، تحقيق: مركز إحياء التراث التابع لدار مخطوطات العتبة العبّاسية المقدّسة، ط ١ سنة ٢٠١٤.

١١. **تكملة المعاجم العربيّة**: رينهارت دوزي، نقله إلى العربية الدكتور محمّد سليم النعيمي، دار الرشيد للنشر، وزارة الثقافة والإعلام، بغداد، سنة ١٩٨٢.

١٢. **حاضر البصرة**: عبد المجيد الغزالي، مطبعة المعارف، بغداد ١٩٤١.

١٣. **الحيوان**: للجاحظ (ت ٢٥٥).

١٤. **سيَر أعلام النبلاء**: شمس الدين الذهبي (ت ٧٤٨ هـ)، دار إحياء التراث العربي ــ بيروت، ٢٠٠٦ م.

١٥. **تاج اللغة وصحاح العربيّة**: للجوهريّ (٣٩٨ هـ) ، دار إحياء التراث العربيّ، بيروت، ط ٥، ٢٠٠٩ م.

١٦. **العِبرة الشافية والفكرة الوافية**: مهذَّب الدين البصري (ت ١٠٩٧ هـ)، تحقيق الدكتور حامد ناصر الظالمي، دار الفيحاء للطباعة والنشر والتوزيع، سنة ٢٠١٧.

١٧. **عبير التوابل والموانيء البعيدة، لوحات من البصرة**: إحسان وفيق السامرائي، مطبعة البصرة، سنة ٢٠١١.

١٨. **لسان العرب**: لابن منظور (ت ٧١١ هـ)، صحّحها محمّد صادق العبيدي، دار إحياء التراث العربي ـ بيروت، ٢٠١٠ م.

١٩. **مذكرات سليمان فيضي**: شركة مطبعة الأديب البغدادية، ط ٤، ٢٠٠٠ م.

٢٠. **الوجود العربي في الهند في العصور الوسطى**: د. محمّد نصر عبد الرحمن،

الهيئة المصريّة العامة للكتاب، سنة ٢٠١٣.

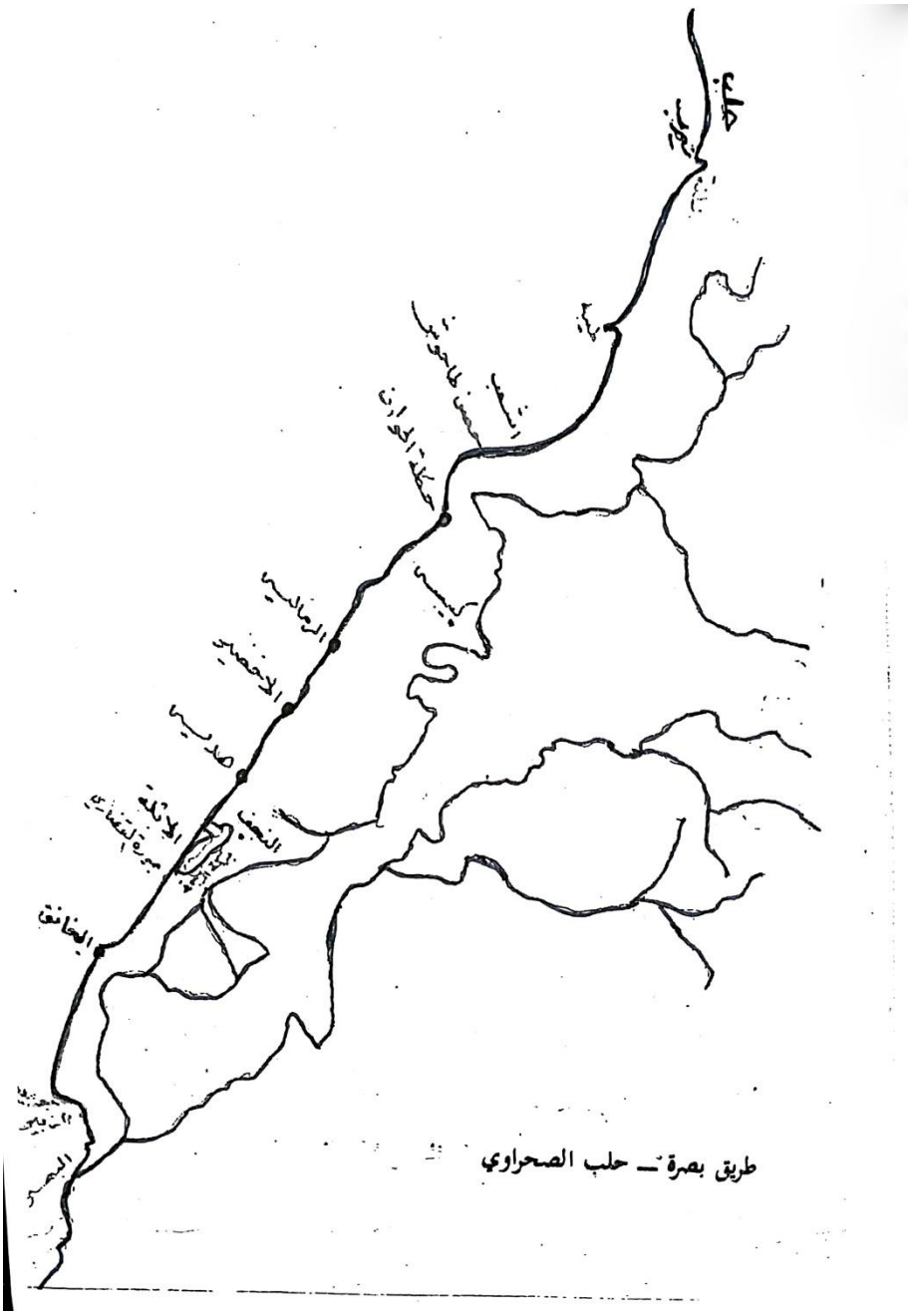

طريق بصرة ــ حلب الصحراوي

وصف للطريق الصحراوي بين البصرة وحلب:

وهذ الطريق هو أقصر الطرق الّتي تربط الخليج العربيّ بالبحر الأبيض المتوسّط، بل وأقصر من طريق رأس الرجاء الصالح الّذي يخضع [آنذاك] للسيطرة الأسبانية البرتغالية. ومحطّاته حسب ما كتبه الرحّالة:

الزبير ← جويبرة ← الخانق ← الأثلة [وهي قرب بركة الرحمة الواقعة مقابل مدينة النجف من جهة الغرب] ← هَريَّة ← الأُخيضر ← الرحالية ← حكلة حوران [حيث تلتقي فيها القوافل التجاريّة القادمة من قبل بقوافل البصرة] ← طيبة [وهي من أكبر المحطّات التجاريّة الصحراويّة قبل مدينة حلب، وقال عنها تيخيرا سنة ١٦٠٤ أنّها تضمّ ٢٥٠ بيتاً] ← الحكلة [وهي آخِر محطّة، وتقع بالقُرب من قريةٍ قديمةٍ تُعرف بالجبون، وهي نهاية الطريق، وفيها تقف القوافل تنتظر أوامر الباشا من حلب ليحّدد مكان التجمّع وليتمكّن الشاهبندر ورجاله رؤية القافلة] ← نيرب [وهي مكان تفتيش القافلة وفرض الضرائب، حيث يوجد موظّفو الكمارك].

والطريق الّذي ذكره نيبور لا يختلف كثيراً عن الطريق السابق، وهو: الزبير ← جويبرة ← شكرة ← الخنقة ← الصقر ← وادي أبو مريس [عيون سعد أم كرون] ← الغضاري ← الأثلة ← [بركة الرحمة، بالقرب من النجف حاليّاً] ← الطقطنة [الحياضية] ← كربلاء ← الأخيضر ← رأس العين ← تويل ← كبيسة ← عقلة [حوران] ← غب الجاموس ← المانعي ← الرتقة ← البردون ← الرحبة ← حَبُ الغنم ← جبل البشير ← العرمة ← طيبة ← قصر العين ← فالح أبو الفياضي ← عنز الروثة ← صهاريج ← مرتفعات سبيث [وفي هذه المرتفعات توجد الحكلة] ← عين سفيرة [أو عين الذهب] ← حلب.

ويذكر نيبور الجغرافي المتتبّع طريقاً ثالثاً يصل البصرة بحلب، يتمّ استخدامه كبديلٍ عن الطريق السابق في حالة اضطراب الأمن أو وجود صراعٍ بين العشائر وغيرها، وهذا الطريق هو باتّجاه الغرب أكثر، ولكنّه طريق مُقفر ويحتاج أصحاب القافلة للتزوّد بالماء لمدّة خمسة أيّامٍ على الأقلّ، وهو:

الزبير ← جويبرة ← شكرة ← الخانق ← القصير ← السلمان ← الأثلة ← قطري البريء ← حجرة أو محيوز ← القصرة ← صواب ← الصرايم ← الصختة ← بئر قديم ← أبو فياض ← الحمام ← جبل الحص ← الحكلة ← سفير ← حلب.

وهذا يعني أنّ الطريق الثالث هو انحرافٌ عن الطريق الثاني وابتعادٌ في بعض المحطّات باتّجاه الغرب والذهاب باتّجاه نقرة السلمان الحالية، ومن ثمّ العودة الى الأثلة، أي: الابتعاد عن عشائر الفرات الجنوبي [المنتفك]، وبعد ذلك الذهاب في عمق الصحراء حتّى جبل الحص والحكلة [أي: الابتعاد عن عشائر الفرات الأعلى]، إذ كانت تلك العشائر في صراعٍ مستمرٍّ مع السلطات العثمانيّة.

وهذه المحطّات الموجودة على هذه الطرق تزوّد القوافل بالماء والغذاء، وفيها الخانات لمبيت القوافل، ومكاتب لتبادل الأموال، ومحلّات للبيع والشراء، وغير ذلك [١].

وهكذا فالبضاعة الواردة إلى البصرة من بلاد الهند تصل عِبر هذه الطرق إلى

---

(١) يُنظَر: مدينة البصرة كما وصفها الرحّالة الأُوربّيون في العصر الحديث، د. فلاح حسن عبد الحسين، موسوعة البصرة التأريخيّة، جامعة البصرة، سنة ١٩٨٠، ص ٢٤.

حلب، ومن ثمّ إلى الدولة العثمانيّة أو إلى أورپا. وتُقطع هذه الطرق بالجمال، وكلّ قافلةٍ تضمّ مئات الجمال والخيول، فضلاً عن الحرّاس والحمايات.

أ. د. حامد ناصر الظالمي

البصرة

رحلة ناصر خسرو علوي

١٠٥٢ م / ٤٤٣ هـ

[١]

رحلة ناصر خسرو علوي

سفر نامة

حين بلغنا البصرةَ كُنّا من العرى والفاقة كأنّا مجانين، وكُنّا قد لبثنا ثلاثةَ شهور لم نَحلقَ شعرَ رأسنا، فأردت أن أذهب إلى الحمام، ألتمس الدفء، فقد كان الجو بارداً ولم يكن علينا ملابس. وكنت، أنا وأخي، كلانا يلبس فوطة بالية، وعلى ظهرينا خُرقةٍ من الصوف مُتدلِّية من الرأس، حتى قُلتُ لنفسي مَنْ الذي يسمح لنا الآن بدخول الحمام؟ فبعت السَلَّتين اللتين كانت بهما كتبي، ووضعت بعض دراهم من ثمنها في ورقةٍ لأعطيها للحمامي، عسى أن يسمح لنا بوقتٍ أطول في الحمام لنزيل ما علينا من كدر. فلما قدَّمتُ إليه هذه الدراهم، نظر إلينا شذراً وظن أننا مجانين وانتهَرنا قائلاً اذهبوا فالآن يخرج الناس من الحمام. ولم يأذن لنا بالدخول، فخرجنا في خجلٍ ومشينا مُسرعين. وكان بباب الحمام أطفال يلعبون فحسبونا مجانين، فجروا في أثرنا، ورشقونا بالحجارة، وصاحوا بنا. فلجأنا إلى زاويةٍ وقد تَملَّكنا العجب من أمر الدنيا. وكان الأعرابي يطلب مِنّا الثلاثين ديناراً مغربياً ولم نكن نعرف وسيلةً للسداد، وكان بالبصرة وزير ملك الأهواز واسمه أبو الفتح علي بن أحمد، وهو رجلُ أخلاقٍ وفضل يجيد معرفة الشعر والأدب، وكان كريماً وقد جاء البصرةَ مع أبنائه وحاشيته وأقام بها، ولم

يكن لديه ما يشغله، وكُنتُ عرفتُ رجلاً فارسياً فاضلاً من أصدقاء الوزير والمتردِّدينَ عليه كل وقت، وكان هذا الفارسي فقيراً، لا سِعةَ عنده لإعانتنا، فقَصَّ على الوزير قصتنا، فلما سمعها أرسل إليَّ رجلاً ومعه حصان أن اركب أحضر عندي كما أنت. فَخَجَلتُ من سوء حالي وعُريي ولم أرَ الذهاب مناسباً فكتبتُ رقعةً معتذراً وقلتُ فيها إني سأكون في خدمته (بعد وصول ورقتي إليه)، وكان قصدي من الكتابة شيئين. أن يَعرف فَقري وعلمي حين يَطلَّع على كتابتي وأن يُقدّر أهليتي، وذلك حتى لا أخجل من زيارته. وقد أرسل إليّ في الحال ثلاثين ديناراً لشراء كسوة، فاشتريت حِلَّتين جميلتين، وفي اليوم الثالث ذهبتُ لمجلس الوزير فرأيته رجلاً كاملاً، أديباً، فاضلاً، جميلَ الخِلقة، متواضعاً، ديناً، حلوَ الحديث. وله أربعة أبناء أكبرهم شابٌ فصيحٌ أديبٌ عاقل، اسمه الرئيس عبد الله أحمد بن علي بن أحمد. وكان شاعراً وكاتباً، فيه فتوة الشباب، ورجاحة العقل، ومظاهر التقوى، وقد أضافنا الوزير عنده، من أول شعبان إلى نصف رمضان. ثم أمر بإعطاء الأعرابي الذي استأجرنا جَمَلَه، الثلاثين ديناراً التي له عَليَّ، فكفاني مؤونة هذا الدَين، اللّهمّ تباركت وتعاليت فرج ضيِّقَ المَدينين من عبيدك من هَمّ القرض بحق الحق وأهله. ولما أردنا السفر، رحلنا عن طريق البحر، بعد أن أفاض علينا بنعمهِ وأفضاله، فبلغنا فارس في كرامةٍ وهدوء، ببركة هذا الرجل الحُر، رَضيَ اللهُ ﷻ عن الرجال الأحرار.

وفي البصرة ثلاثة عشر مشهداً باسم أمير المؤمنين علي ابن أبي طالب صلوات الله عليه وسلم، وجاء إلى البصرة في ربيع الأول سنة خمس وثلاثين (سبتمبر ٦٥٥) من هجرة النبي عليه الصلاة والسلام، وكانت عائشة رضي الله عنها قد أَتت مُحارِبة، وقد

تزَّوج أمير المؤمنين عليه السلام ليلى بنت مسعود النهشلي، وكان هذا المشهد بيتها، وقد أقام به أمير المؤمنين إثنين وسبعين يوماً، ثم رجع إلى الكوفة (١). وبجانب المسجد الجامع مشهدٌ آخر يُسمّى مشهد باب الطيب. ورأيتُ في مسجد البصرة عموداً من الخشب طوله ثلاثون ذراعاً وسمكه خمسة أشبار وأربعة أصابع، وكان أحد طرفيه أسمك من الطرف الآخر، قِيلَ إنه من أخشاب بلاد الهند، استولى عليه أمير المؤمنين علي عليه السلام وأحضره للبصرة. والأحد عشر مشهداً الأخرى، كل منها بموضعٍ، وقد زُرتها كلها.

بعد أن أيسرنا، ارتدينا ملابسنا، وذهبنا يوماً إلى ذلك الحمّام الذي لم يُسمَحْ لنا بدخوله من قبل. فوقف الحمّامي عند دخولنا من الباب، وكذلك وقف كل من الحاضرين، حتى دخلنا، ثم جاء المُدلِّك والقَيم وقاما بخدمتنا. فلما فرغنا ودخلنا غرفة الملابس، وقف كُلٌّ مَنْ بها، ولم يجلسوا حتى لبسنا ثيابنا وخرجنا. وفي أثناء ذلك كان الحمّامي يقول لصاحب له: هذان هما الرجلان اللذان لم ندخلهما الحمام يوم كذا. وكان يَظنُّ أنني لا أعرف لغته، فقلت له بالعربية: حقاً ما تقول فنحن اللذان كُنّا نلبس خرقة من الصوف على ظهرنا. فَخَجَل الرجل واعتذر. وكان بين هذين الحالين عشرون يوماً. وقد ذكرت هذا الفصل حتى يعرف الناس أنه لا ينبغي التذمر من أزمات الزمان واليأس من رحمة الخالق جَلَّ جلاله وعَمَّ نواله فإنه تعالى رحيم.

---

(١) وقد أنجب عليٌّ عليه السلام منها ولديه عُبيد الله وأبا بكر اللذين قُتلا مع أخيهما الحسين عليه السلام.

وصف المد والجزر بالبصرة ووصف انهارها:

يحدث المد ببحر عُمان عادةً مرتين كُلِّ أربع وعشرين ساعة، فيرتفع الماء مقدار عشرة أذرع. وحين يبلغ الإرتفاع أقصى مداه يبدأ الجزر بالتدريج. فينخفض الماء عشراً أو إثني عشرة ذراعاً. ويعرف بلوغ ارتفاع الماء مقدار الأذرع العشر بظهوره على عمودٍ أُقيمَ هناك أو على حائطٍ. ولو كانت الأرض مستوية وغير عالية ـ لعظم إمتداد البحر إليها. ويسير النهران، دجلة والفرات، بغاية البطء، حتى يتَعذَّر، في بعض الجهات، معرفة اتجاه التيار فيهما. وحين يبدأ المد يدفع البحر ماءهما مسافة أربعين فرسخاً حتى يُظن أنهماً يَرتَدّان إلى منبعهما. أما في الأماكن الأخرى التي تقع على شاطيء البحر، فإن إمتداد المد إليها يَتوقَّف على ارتفاعها وانخفاضها، فحيثما استوت الأرض ازداد المد، وحيثما ارتفعت قَلّ. ويُقال إن المد والجزر مُتعلِّقان بالقمر، فيبلغ المد أقصى مداه حين يكون القمر على الأفقين، يعني أفقي المشرق والمغرب. ومن ناحيةٍ أخرى حين يكون القمر في اجتماع الشمس واستقبالها يزداد الماء، أي أن المَد يزيد في هذه الأوقات ويعظم ارتفاعه، وحين يكون القمر في التربيعات تأخذ المياه في النقصان، يعني لا يكون علوها كثيراً وقت المد، ولا ترتفع ارتفاعها وقت الإجتماع والاستقبال. وكذلك يكون جزرها في هذه الحالة أقل هبوطاً منه في وقت الإجتماع والإستقبال. وبهذه الدلائل يقولون: إنَّ المد والجزر متعلقان بالقمر، والله تعالى أعلم.

والأبلة، التي تقع على النهر المُسمّى بها، مدينةٌ عامرة. وقد رأيت قصورها وأسواقها ومساجدها وأربطتها، وهي من الجمال بحيث لا يمكن حدُّها أو وصفها. والمدينة الأصلية تقع على الجانب الشمالي للنهر، وعلى جانبه الجنوبي يُوجَد من

الشوارع والمساجد والأربطة والأسواق والأبنية الكبيرة ما لا يُوجَد أحسن منه في العالم، وهذا الجانب الجنوبي يُسمّى شق عثمان. والشط الكبير، الذي هو دجلة والفرات مجتمعين، والمُسمّى شط العرب، يقع شرقي الأبلة، والمدينة في الجنوب. ويلتقي نهراً الأبله ومعقل عند البصرة. وقد ذَكرتُ ذلك من قبل.

وصف أحياء البصرة:

والبصرة عشرون ناحية، في كُلٍّ منها كثيرٌ من القُرى والمزارع وهي: حشان، شربه، بلاس، عقر ميسان، المقيم، نهر حرب، شط العرب، سعد، سام، الجعفرية، المشان، الصمد، الجونة، الجزيرة العظمى، مروت، الشرير، جزيرة العرش، الحميدة، الحويزة، المنفردات.

ويُقال إنه كان من المُتعذّر في وقتٍ ما أن تمر سفينة من فم نهر الأبلة، لعظم عمق مائه، فأمرت إمرأة من أثرياء البصرة بتجهيز أربعمائة مركب وملأتها كُلُّها بنوى التمر وأغرقتها هناك بعد إحكام سدادها، فارتفع القاع وتيسر عبور السفن. وفي الجملة فقد غادرنا البصرة في منتصف شوال سنة ثلاث وأربعين وأربعمائة (٢٠ فبراير ١٠٥٢)، فركبنا الزورق وسُرنا في نهر الأبله، ورأينا طوال أربعة فراسخ في إجتيازه حدائقَ وأكشاكاً ومناظرَ لا تنقطع على شاطئيه. ويَتفرَّع من هذا النهر تُرعٌ كُلٌّ منها في سعة نهر. فلما بلغنا شقَ عثمان، وهي أمام الأبله نزلنا وأقمنا بها. وفي السابع عشر من شوال (٢٢ فبراير) ركبنا سفينةً كبيرة تُسمّى بوصي. وكان الناس الكثيرون الواقفون على الجانبين يصيحون قائلين: سَلَّمك الله تعالى يا بوصي. وقد بلغنا عبّادان فنزل الرُكّاب

من السفينة.

تقع عبّادان على شاطيء البحر، وهي كالجزيرة، إذ أن الشط ينقسم هناك إلى قسمين مما يجعل بلوغها مُتعذّراً، من أي ناحية، بغير عبور الماء. ويقع المحيط جنوب عبّادان، ولذا فإنّ الماء يبلغ سورها وقت المد، كما أنه يبتعد عنها أقل من فرسخين أثناء الجزر. ويشتري بعض المسافرين الحصير من عبّادان، ويشتري البعض الآخر المأكولات منها. وفي صباح اليوم التالي، أُجريت السفينةُ في البحر، وسارت بنا شمالاً، وكان الماء حلواً مُستساغاً، لغاية عشرة فراسخ، ذلك لأنَّ ماء الشط يسير كاللسان في وسط البحر. ولما ارتفعت الشمس ظهر في البحر شيء يشبه العصفور الدُرّي، وكان يكبر كُلّما اقتربنا منه، فلما واجهناه من اليسار على مسافة فرسخ خالفت الرياح، فرموا المَرساة، ولَفّوا الشراع. فسألتُ ما هذا؟ قالوا إنه الخشاب.

وصف الخشّاب (المنار):

يَتكوَّن من أربعة أعمدة كبيرة من خشب الساج على هيئة المنجانيق. وهو مُربَّع، قاعدته مُتسعة وقمتهُ ضيقة، ويرتفع عن سطح البحر أربعين ذراعاً، وعلى قمَّتهِ حجارة وقرميد، مقامة على عمد من خشبٍ كأنها سقف، ومن فوقها أربعة عقود يقفُ بها الحُراس. ويقول البعض إنَّ الذي بنى الخشاب هذا تاجرٌ كبيرٌ، ويقول آخرون بل بناه أحد الملوك. وكان الغرض منه شيئين: أحدهما أنه بنى في جهةٍ ضحلة يضيق البحر عندها، فإذا بلغتها سفينةٌ كبيرة ارتطمت بالأرض. ففي الليل يشعلون سراجاً في زجاجةٍ بحيث لا تطفئه الرياح، وذلك حتى يراه الملَّاحون من بعيد فيحتاطون

وينجون، والثاني ليعرف الملاحون الإتجاه، وليروا القرصان إنْ وجدوا فيتقونهم بتحويل اتجاه السفينة، ولما اجتزنا الخشّاب، بحيث أصبح لا يُرى، رأينا آخرَ مثله، ولكن ليس على سطحه قُبّة، لأنهم لم يستطيعوا إكماله.

القرن السادس عشر الميلادي

٢ ـ رحلة سيّد علي ريس ١٥٥٣ ـ ١٥٥٤ م

٣ ـ رحلة فيدريجي سنة ١٥٦٣ م

٤ ـ رحلة الإيطالي كاسبرو بالبي سنة ١٥٧٩ م

٥ ـ رحلة جون إيلدرد (١٥٨٣ ـ ١٥٨٤)

[٢]

رحلة سيد علي ريس

قال: (حينما اتخذ السلطان سليمان حلب مقراً لإقامته الشتوية تم تعييني أنا كاتب هذه الصفحات لقيادة الأسطول المصري، وتَلقَّيت تعليمات لإعادة السُفن (وهي ١٥ قادساً) إلى مصر، كان قد تم ارسالها مُسبقاً إلى البصرة الواقعة على الخليج الفارسي)، ولكن (أنا أشاء وأنت تشاء والله يفعل ما يشاء)، إذ لم أَتمكَّن من تنفيذ مهمتي، وأدركتُ استحالة العودة عن طريق البحر، فَقرَّرتُ العودة إلى تركيا عبر الطريق البري، بصحبة عددٍ قليل من الجنود المصريين المُتعَبين والمُخلِصين، فقد سافرتُ إلى كُجرات[١].

وصلتُ البصرةَ في بداية شهر شباط سنة ١٥٥٤م، وفي اليوم الذي أَعقَبَ وصولي

---

(١) كُجرات: ولاية تقع على الشمال الغربي من ساحل الهند، وتنقسم إلى قسمين: القسم البري والقسم شبه القاري، سورات حالياً، يَحدُّها البحر العربي من جهة الغرب وباكستان من جهة الشمال وولايتي راجاستان وماديا برادش من جهة الشرق ومهاراشترا من جهة الجنوب الشرقي يبلغ طول خَطّها الساحلي ٩٩٢ ميلاً (١ ,٥٩٦كم) ولا يبعد أي جزءٍ فيها عن البحر أكثر من ١٠٠ ميل، تبلغ مساحتها ٧٥ ,٦٨٥ ميلاً مربعاً ١٩٦ ,٩٢٤ كم٢ وهي عاصمة مدينة أحمد آباد وأكبر مدنها وكما تُوجَد فيها أكبر مصانع نسيج القطن، وفيها بنى المهاتما غاندي (سابراماتي أشرم).

أَجريتُ مقابلةً مع مصطفى باشا [١] الذي بعد أن رأى أوراق اعتمادي، عَهَدَ إليَّ بالخمسة عشر غاليوتاً التي كانت بحاجة إلى اصلاحٍ كبير وبقدر المستطاع أعدتُ ترتيبها وجَلفطتُها. وتَمَّ تجهيزها بالمدافع التي لم تكن كافية، سواء في المخازن هناك أو في هُرمز. وتم توفير احتياطات من الماء، وكان أمامي خمسة أشهر قبل أن يحين موسم الإبحار، فَقُمتُ بزيارةٍ إلى مسجد علي [٢] وأضرحة الحسن البصري وطلحة [٣] والزُبير [٤] وأنس

---

(١) يذكر لونكريك إن هذا الاسم غير موجود في القائمة المُدرَجة في تقويم ولاة البصرة ولكن يبدو أنَّ القائمة غير كاملة لأنَّ الأسماء مأخوذة من ذكر الحوادث في تأريخ باشا عيان، أنظر أربعة قرون من تأريخ العراق الحديث ترجمة جعفر الخياط ط٦ بغداد سنة ١٩٨٥ ص ٤٨ هامش رقم ١٠

(٢) مسجد الإمام علي في البصرة: وهو المسجد الثاني الذي بُني في الإسلام بعد المسجد النبوي الشريف، إذ تَمَّ بناؤه سنة ١٤هـ في منطقة الزبير بالبصرة بعد فتح المدينة على يد القائد عتبة بن غزوان الذي بناه بالقصب ويرؤى أن الذي قام بعملية البناء أما محجر بن الأدرع من قبيلة سُليم، أو نافع بن الحارث بن كِلدة، وبعد بنائه انتشرت حوله المساكن والخُطَط وبعد سنة ١٧هـ احترقَتْ البصرة وربما شَمَلَ الحريق المسجد أيضاً فأعاد بناءه الوالي أبو موسى الأشعري باللبن والطين وسَقَّفه بالعشب وزاد في مساحته.

(٣) هو الصحابي طلحة بن عبيدُ الله بن عثمان القرشي التميمي المكي، قُتِلَ في موقعة الجمل بالبصرة سنة ٣٦هـ، يقع مسجده في منطقة الزبير بالبصرة.

(٤) ثمة جامع في منطقة الزبير في البصرة حيث تُوفي، وهو أول مسجد أُسِّس في الزبير أنشأه الأتراك سنة ٩٧٩ – ١٥٧١م، بعد أن احتلوا البصرة سنة ٩٥٣هـ – ١٥٤٦م، في داخل المسجد ضريح الزبير تعلوه قُبة، وبالقرب منه من جهة الشرق ضريح عتبة بن غزوان مُؤسِّس مدينة البصرة القديمة، وفي كتاب التُحفة النبهانية في تأريخ الجزيرة العربية للعلّامة الشيخ محمد بن الشيخ خليفة بن حمد بن موسى النبهاني الطائي وصفٌ لمدينة الزبير وأثارها، وكيف كانت عندما ←

ابن مالك وعبد الرحمن بن عوف، والكثير من الشهداء وصحابة النبي».

زارها سنة ١٣٤٠هـ - ١٩٢٢م، ويُذكر أنه في سنة ١٢٩٣هـ - ١٨٧٦م وَرَدَ أمرُ من السلطان عبد الحميد الثاني بتعمير المراقد الشريفة على نظارة والي البصرة ناصر السعدون ثم في سنة ١٣٠٥هـ -١٨٨٨م، أمر السلطان بتبيِّيض القِباب وتعمير المساجد أيضاً وأمرَ أيضاً بكسوتين للضريحين (الزبير وعتبة بن غزوان) من الحرير الأحمر الفاخر المُطرَّز بالفضة وأمر أيضاً بوضع مباخر وقماقِم من الفضة عندهما، وتم ذلك خلال نظارة شعبان باشا والي البصرة سنة ١٣٠٦هـ - ١٨٨٩م، وفي سنة ١٣٢١هـ - ١٩٠٣م، وَرَدَ الأمرُ السلطاني بترميم المراقد الشريفة مع المسجد، ولكن الأمر لم يُنفَذ في البصرة، وفي سنة ١٣٣٤هـ - ١٩١٦م قام الشيخ قاسم بن محمد آل إبراهيم ببناء المسجد وترميم منارته وتبيِّيض قبة الزبير وتوسيع المسجد والزيادة فيه عن البناء الأول زيادة مهمة مع البنيان المُحكَم، وأمر أيضاً بفرش المسجد بالسجاد والحَصير، فأصبحَ المسجدُ المذكور في غاية المتانة والرَونَق، وقد تم الإنتهاء من تعميره سنة ١٣٣٥هـ - ١٩١٧م.

[٣]

نص رحلة فيدريجي (سنة ١٥٦٣م)

قال: «البصرة، تقع مدينة باصورة أو بوصورة أو بُصرا على خط عرض ٣٠ درجة و٢٠ دقيقة طول شمالاً، و٤٧ درجة و٤٠ دقيقة شرقاً، على الجانب العربي من نقطة إلتقاء نهري دجلة والفرات وكانت فيما سبق تحت حُكم العرب، الذين يُطلَق عليهم عرب (الأزيرج) [١]، ولكنها الآن تحت سيطرة التركي الأعظم [٢] الذي يحتفظ

---

(١) وَرَدَتْ في النص الأصلي بصيغة zizarij وربما المقصود بهم عشائر الأزيرج المعروفة في محافظات ميسان والبصرة والسماوة وغيرها من المحافظات الجنوبية وهو الإحتمال الأرجح كما جاء عن التسمية في كتاب عباس العزاوي عشائر العراق الجزء الثالث سنة ١٩٥٥ ص ٧٢- ٧٦، أو ربما يقصد بها الرحّالة عرب الجزيرة أو الجزائر أو الجزاير (أو الجوازر) كما تُلفَظ بالعامية إشارة إلى مناطق الأهوار في جنوبي العراق، وقد أشار إلى التعبير الأخير المُؤرخ وليم فلور في كتابه المُعنون الخليج الفارسي قائلاً «كانت البصرة خاضعة لعرب الزيزاريج zizarij أي عرب الجزاير jazeyer انظر: Willem. Floor, the Persian gulp: a political and economic history of five port cities 1500 – 1730, 2006, p. 154.

ونُرجّح الإحتمال الأول فيما يخص هذا التعبير فهو الأقرب إلى الواقع، أما في ترجمة الأب الدكتور بطرس حداد، فقد وَرَدَتْ بصيغة (العرب الجزائريون) إذ في ترجمته ما يأتي «أما العرب الجزائريون فلهم بلدٌ كبير ويرفضون الخضوع للحكم التركي الذي لا يستطيع اخضاعهم لما في بلدهم من قنواتٍ كثيرة تتصل بالبحر ... الخ» انظر ترجمته للرحلة ص ١٦٦.

(٢) لقبٌ يُطلَق على السلطان العثماني وكان حينذاك السلطان مُراد الثالث (١٥٧٤- ١٥٩٥)

بقوةٍ عسكرية كبيرة هناك، ولا تزال القبيلة العربية التي تُسمّى (عرب الجزيرة) تستحوذ على مساحةٍ واسعة من هذه المنطقة (١) ولا قِبل للأتراك بالتغلُّب عليها، لأنَّ البحر يُقسِّم منطقتها إلى جُزرٍ مُتعدِّدة بوساطة الكثير من القنوات، لذا فالأتراك غير قادرين على توجيه أي جيشٍ ضدها سواءً براً أو بحراً، ولأنَّ سكانها شُجعان ومجبولون على الحرب أيضاً. وقبل يومٍ واحدٍ من الإبحار قبل وصولنا إلى (باصورة) نجتاز قلعة أو حُصناً يُسمّى القُرنة (٢) عند نقطة الأرض التي يرتبط فيها نهر الفرات بدجلة، حيث تُشكِّل المياه المُتحِدَة لهذين النهرين نهراً كبيراً جداً يجري في خليج فارس (٣).

---

(١) أصبحت هذه المنطقة خاضعة لحكم العرب تحت قيادة الشيخ راشد بن مغامس بدءاً من سنة ١٦٩٤م وقد ذكر العقيد البريطاني جيسني الذي زار المنطقة خلال السنوات ١٨٣٥ – ١٨٣٧ «أن اتحاد عشائر المنتفك تَمَكَّن بقيادة مغامس من احتلال ميناء البصرة فعلاً، لكن الأوربيين الذين اعتادوا التجوّل في شوارع البصرة لم يكونوا على بينةٍ من أن أولئك الأشخاص المتسكعين ذوي العباءات الرَثَّة هم عرب الأهوار، لذا كانت رؤيتهم في محيطهم الأصلي مثار أعجاب لبعضهم ومصدر خوف للبعض الأخر» انظر: كافن يونغ، العودة إلى الأهوار، ترجمة حسن الجنابي، دار المدى للثقافة والنشر، دمشق، بيروت سنة ١٩٩٨ ص ٦٨.

(٢) الجملة في النص الإنكليزي فيها إلتباس، إذ وَرَدَتْ كالآتي Adays sail before coming to Bassara.

ونعتقد أنَّ حرف (s) بعد كلمة day خطأ مطبعي على الأرجح، وبخلافه فإنّ حرف (A) في بداية الجملة زائد، ولكن الأرجح هو الإحتمال الأول انسجاماً مع سياق النص ومعناه، انظر النص الإنكليزي ص ١٤٧.

(٣) وَرَدَتْ في النص بصيغة Carna، ولم يذكرها ياقوت الحموي وهي مدينة القُرنة الشهيرة جنوبي ←

تبعد البصرة خمسين ميلاً [١] عن البحر [٢]، وهي مركز تجاري عظيم، لا سيما بالتوابل والعقاقير التي تُجلَب إليها من هُرمز، وتتوافر فيها الذرة والرز والتمور التي تُنقل إليها من المنطقة المُحيطَة بها، ومن البصرة أبحرت إلى هُرمز عبر خليج فارس بعد أن قطعت ٦٠٠ ميل وهي المسافة بين البصرة وهُرمُز وقد أبحرنا بسفنٍ صغيرة مبنية من ألواحٍ مربوطة ببعضها البعض بواسطة حبال أو أسلاك، ويُحشَى نوعٌ معين من التبن بين المسافات التي تَتَخلَّل تلك الألواح، ثم تُخاط الحِبال أو الأسلاك ببعضها ولأنَّ بنائها غير مُحكَم فإنَّ هذه المراكب خَطِرة جداً ويَتَسرَّب الكثيرُ من الماء إلى داخلها، وعند مغادرتنا من البصرة أبحرنا بمسافة ٢٠٠ ميل بمحاذاة الساحل الأيسر للخليج، في حين كانت الجهة الأخرى [٣]، المفتوحة من البحر على جهتنا اليُمنى، حتى وصلنا إلى جزيرة تُدعى خَرج أو خارج [٤]، ومن هناك واصلنا رحلتنا إلى هُرمز وكان

البصرة ومحل إلتقاء نهري دجلة والفرات وتكون شط العرب.

(١) وَرَدَ في ترجمة الأب الدكتور بطرس حداد سهواً أنها تبعد خمسة عشر ميلاً عن البحر، انظر ترجمته للرحلة ص ١٦٧.

(٢) يقصد الخليج العربي.

(٣) يقصد شبه الجزيرة العربية

(٤) خرج أو خارك، وردتا في النص الأصلي بصيغتي (كاريجي carichij وكارك karak) وهما اسمان لجزيرة خَرج الواقعة عند النهاية العُليا للخليج العربي، وذكر ياقوت إنها (كارك) جزيرة في وسط الخليج العربي (سمّاه الفارسي)، وهي جبلٌ عالٍ وسط البحر إذا خَرجَتْ المراكب من عبادان باتجاه عُمان وطابت بها الرياح وصَلتَ إليها في يوم وليلة، وهي من أعمال فارس، يقابلها في البر جنابة ومهروبان تنظر هذه من هذه للجيد النظر، فأما جبال البر فإنها ظاهرة جداً، وقد ←

الشاطيء الفارسي دوماً على الجهة اليسرى من مرمى بصرنا في حين كُنّا نشاهد الكثير من الجُزر على الجهة اليمنى بإتجاه شبه الجزيرة العربية.

جئتها غيرَ مَرَّة ووجدت أيضاً قبراً يُزار وينذر له، يزعم أهل الجزيرة أنه قبر محمّد بن الحنفية ﵁ والتواريخ تأبى ذلك. انظر: الحموي، معجم البلدان ٢ / ٢٣٧.

[٤]

رحلة الإيطالي كاسبارو بالبي سنة ١٥٧٩م

القرنة

يجب الإنتباه كثيراً إلى السُفن اعتباراً من هنا، لأنَّ ماءَ البحر في مَدِّه يسعى للدخول على النهر، ففي هذه الحالة يجب إيقاف السُفن، وعلى ما يروي الملاحون إنه بقدر ما تندفع السُفن إلى الأمام بقوة المجاذيف، ترجع إلى الوراء بقوة المياه المُتصاعِدة من جرّاء المد.

كان الريف القريب من هناك مأهولاً بالسكان. وكانت تسرحُ فيه –على ما قِيلَ لنا– في الأزمنة الغابرة خيول ذات شعرٍ أخضر وعيونٍ صفر (١).

كانت تطير فوق مراكبنا في هذا المكان أسراب هائلة من الذباب الأبيض، وكان لسعها أشبه بوخز الزنبور، بل كوخز الأبر. كم كانت مُزعِجة ومُضرّة في الوقت نفسه.

توقفنا في ذلك المكان حتى الساعة الثالثة ليلاً، لأنَّ المياه كانت تزداد بفعل مد البحر؛ ولما رحلنا أخيراً من هناك نحو منتصف الليل، وصلنا إلى مدينة تُسمّى «القُرنة»

---

(١) لَعلَّه ينوه بالحمار الوحشي المُسمّى الأخدر والأخدري (أنظر معجم الحيوان لمعلوف: ص ٩٨). أو إنه نَقَلَ روايةً شعبيةً سمعها من المسافرين.

التي يديرها سنجق يستوفي ٢٥ شاهياً عن كُلِّ مركبٍ يمر من هناك، وشاهيين عن كل حمل ما عدا الثياب الوبرية (الأجواخ) والمَخمَلية، إذ يطلب عن كل حمل أربع شاهيات. ولقد توقفنا هناك إلى الساعة الثالثة من نهار اليوم التالي وهو ٢٠ آذار.

رحلنا من هناك، وبَعدَ مسافةٍ غير بعيدة رأينا فرعاً للفرات يَتحدُّ بدجلة [١] وقد شُيِّدَ في الموضع حصنٌ للحراسة يُسمّى «سير سيز اوزاكا»(؟) Sersisauzaca ويقيم فيه عددٌ كبير من الجنود لملاحقة السُراق الذين يجوبون تلك المنطقة بمجموعاتٍ كبيرة قِوامُ كُلِّ مجموعةٍ منها مئة شخص وغايتهم السطو!

في تلك الأثناء دخلنا في عرض النهر الفائق الجمال إذ توسَّعت جوانبه في تلك المنطقة حتى أصبح شبيهاً بنهر النيل. وكانت المناطق على جانبيه مأهولةً بالناس، فالبيوت كثيرة والأرض خضراء.

المناخ في هذه المنطقة حار جداً في بعض فصول السنة، قد يؤدي بحياة بعض الناس الضعفاء. وقد علمتُ شخصيّاً أن أربعة أنفار كانوا في سفر فأضنأهم التعبُ والحر فجلسوا يستريحون قليلاً وإذا بهواء حار هَبَّ عليهم أدّى إلى موتهم بالاختناق. لهذا السبب شيّدوا هناك مَسجداً يُقال له «منصور بني صعب».

بعدَ مسافةٍ قصيرة رأينا جزيرةً كثيرةَ السكان تُسمّى «ابن النمر» وبالقُربِ منها

---

(١) وَرَدَتْ هذه الفقرة في كتاب «الإقليم الوظيفي لمدينة القرنة» تأليف عبد الحسين جواد السريح، ص ٢١٤ (بغداد ت ١٩٧٧) والترجمة غير موافقة.

جزيرة أخرى يُقال لها «جزيرة الأرمو».

السكان

دعني أتوقف قليلاً لأُبَينَ كيف يستخدم هؤلاء السكان آلةً لطيفة جداً يصطادون بها كمياتٍ وافرة من السمك، وما هذه الواسطة سوى قصبة محددة الرأس لا غير (١).

يعيش هؤلاء الناس حياةً هانئة لكثرةِ ما عندهم من الحنطة. وجدير بالذكر أن حبة الحنطة هنا كبيرة تفوق الحجم الإعتيادي؛ ويرجع سبب ذلك في ظني إلى أن حقولهم فسيحة وواسعة جداً، ولذا فبإمكانهم الزرع في حقل ارتاح مدةً طويلة منذ الحصاد الأخير، قد تطول هذه المدة إلى ١٥ أو ٢٠ شهراً. ففي هذه الحالة يعطي مثل هذا الحقل ثمراً جيداً. لهذا السبب نرى تلك المناطق عامرةً بالسكان والدور.

كما يزرعون هناك الرز بكمياتٍ كبيرة أعتباراً من هذه المناطق وإمتداداً إلى حدود مدينة البصرة.

بعد أن سرنا حتى الساعة ٢٣ وصلنا إلى حصنٍ يُقال له «المناوي» (٢). وفي هذا الموقع يستوفون الضريبة من تجار العبيد.

أكملنا رحلتَنا بقوة الشراع طِيلة ذلك الليل فرأينا قُرى مأهولة وقِلاعاً على عدوتي النهر. وفي صباح اليوم التالي قبل شروق الشمس بثلاث ساعات رأينا في الجهة

---

(١) أظنه يشير على الفالة المنتشر استعمالها في الأهوار وما يليها.

(٢) هي القلعة الفاصلة بين البصرة وشط العرب.

اليمنى قناةً عريضة بمقدار رمية حجر [١]. ودخلنا في تلك القناة وسرنا حتى الساعة الثانية من يوم الحادي والعشرين من شهر آذار (١٥٨٠) فوصلنا إلى مدينة البصرة.

وصف البصرة

بصرة [٢] أو كما يُقال لها البصرة، مدينة واقعة في بلاد العرب، وهي تحت سيطرة الأتراك حاليّاً، لكنها كانت من قبل بقبضة العرب الذين يُقال لهم «الجزريون أفراسياب» الذين يمتلكون الآن بلداً واسعاً حيث لا تصلهم يَدُ الأتراك، لأنَّ منطقتهم تخضع لعامل المَدِ والجَزر ومعظم أراضيهم تحيطها المياه فتصبح عند المد أشبه بالجزيرة بل قد يغمرها الماءُ. لهذا السبب لا يستطيع الجيش النظامي التوغل فيها لا عن طريق الماء ولا اليابسة.

وسكان هذه المناطق هم رجالُ قِتال، لذلك يتوجب على الأتراك أبقاء حامية كبيرة في البصرة تكلفُها نفقاتٍ باهظة [٣].

تبعد هذه المدينة عن البحر نحو خمسةَ عشرَ ميلاً. وهي مدينةٌ واسعة التجارة بالتوابل والعقاقير ومختلف السلع الأخرى التي تردها عن طريق هرمز، وفيها وفرةٌ من التمور والرز والقمح، وكُلُّها تُزرَع في المنطقة نفسها. لكنها تشكو من شِحة المياه

---

(١) إنه نهر المعقل. (كيف يكون المعقل وهو قد وصل قبله إلى المناوي) [هو لم يذكر نهر المعقل].

(٢) راجع الهامش ٤ من هذا الكتاب.

(٣) هذا الوصف نقله بالبي على ما يَظهر من رحلة فيدريجي، مجلة المَوَرَدَ ١٨ (١٩٨٩) العدد ٤ ص ١٦٦.

العذبة. فَمَنْ يرد أن يشرب ماء طيباً عليه الذهاب مسافة نصف نهار ليَرد الماءَ الزلال. أما الأشخاص الذين يشربون ماء النهر فتصيبهم الأمراض، لأنَّ النهر يجرف معه كمية هائلة من الأوساخ بسبب أن أهل تلك البلاد يُسمِّدون الأرض بالبراز البشري. فعندما يفيض النهرُ يجرف كميةً كبيرة من تلك الأقذار وهو ما يجعل طعم الماء أُجاجاً وفوق ذلك يؤثر في الهواء أيضاً فيجعله مزعجاً ورديئاً. وتكثر من جراء ذلك أعداد هائلة من الذباب والبراغيث والبَق ومختلف الحشرات الضارة والمزعجة.

رسوم المكس

تُدفَع الرسوم في هذه المدينة على حساب ستة بالمئة، فضلاً عمّا يحاول «الأمين» إنتزاعه عنوةً عندما يفتح الحِزَم ويُقلّب البضائع. لذا فالأفضل منحه مُقدَّماً مقداراً من المال، وكذلك الباشا، وهو ابن جيكإلّا قائد مسينا [١] ذاك الذي لم يَتورَّع عن أخذ بعض الثياب مُدعِياً شراءها على حسابه، وكان ثمنها يبلغ نحو ٦٢ من فئة الدراهم البندقية.

وخُلاصةُ القَولِ أننا عوملنا في هذه المدينة بخشونةٍ فائقة أكثر من أي بلدٍ آخر،

---

(١) شيبوني جيكإلّا (١٥٤٥-١٦٠٥) المعروف في المصادر العثمانية باسم جغالة ازاده يوسف سنان باشا، وهو ابن فسكونت جيكإلّا في صقلية من جارية تركية. أُسِرَ وهو صغيرُ السن فتربى في بلاط سُليمان الأول وخدم خلفاءه وتَسلَّم مسؤولياتٍ كبيرة منها توليه بغداد. انظر كلشن خلفا ص ٢٠٩؛ رحلة ديللافاليه ص ١٧٩-١٨٠.

ولكانت أمورنا أتعسَ بكثيرٍ لولا حماية اسكندر الآغا [١] التابع للباشا الذي أكرم مثوانا سواء عند الباشا أو في الكمرك، وفي الأماكن الأخرى إلى أن أبحرنا إلى هرمز. وأضاف الرجلُ إلى حسناتهِ حسنةً جديدة عندما علم عن طريق الباشا خبراً وَصَلَ إليه آنذاك ومفادُه أن بعض القراصنة المدعوين «نوتيكي» [٢] ينهبون البضائع ويقتلون الناس ويغرقون السفن. وكانوا بأعدادٍ كبيرة في تلك الأيام ينشرون الرعب في تلك الأطراف. فلما علم الرجل –أي الآغا– بهذا النبأ أسرع فأخبرنا ونصحنا بعدم الإقلاع حتى أشعارٍ آخر. لذا بقينا هناك بسبب هؤلاء القراصنة.

تجارة الهنود في البصرة

في السادس والعشرين من آذار تعرّفنا على بعض التجار الوثنيين من الذين يُقال لهم «أهل بنيان» [٣] قَدِموا من مدينةٍ تُدعى «كمباجا» [٤] وهي مدينةٌ وثنيةٌ أيضاً. ويتناول أهلها عادةً الرز والخبز والحليب، ولا يتناولون أكثر من وجبةٍ واحدةٍ في اليوم. وهم لا يأكلون لحوم الحيوانات من أي نوعٍ كان، بل ولا يقبلون بذبحها، وإذا

---

(١) الآغا (تركية) هو السيد أو الموظف في أحدى دوائر الدولة.

(٢) هم قراصنة كانوا يلاحقون السفن في الخليج قضى عليهم الإنكليز سنة ١٨٠٩ (قالته السيدة بينتو).

(٣) مقاطعة في الهند (كوجرار) اشتهر سكانها بالصيرفة وتعاطي التجارة، حتى عمّ أسمها على كل التجار الآسيويين.

(٤) يُقال لها اليوم كامبي وهي على البحر.

وجدوا البراغيث أو الحشرات الأخرى فإنهم يضعونها على ورقةٍ ويطلقونها في الجو. وأكثر من ذلك كُلّه أنهم عندما كانوا في البصرة ورأوا الأهالي يصيدون الفئران عمدوا إلى شرائها واطلاق سبيلها!

هؤلاء القوم لا يَطلِقون لحاهم أي أنهم يحلقونها، أما بالنسبة إلى الشوارب فمنهم مَنْ يطلقها ويَحرصُ على أن تكون عريضةُ وكَثَّةً، وبعضهم لا يهتم بها البتة. لكنهم يتركون شعر رؤوسهم ينمو ويطول جداً ويلمونه تحت الشاشية [١] الصغيرة التي يغطون بها رؤوسهم. وأخيراً يرتدي هؤلاء الناس القماش المَوصلي الأبيض، وثيابهم طويلة جداً لذا يجمعون أذيالها عند الصدر.

لغتهُم خشنةٌ على الطريقة الهندية، ولهم سحنة سمراء، لكنهم ليسوا سُوداً.

عندما يتوفى أحدهم يقوم ذوُوه بحرق جثته. وما يَتبقَّى من رماد جثمانه يُذرَّى في النار والهواء، والقسم الباقي يُوارى في الأرض، لأنّه يعتقدون أن الإنسان مُكونٌ من أربعة عناصر، ولذا يجب أن تَسترجع هذه العناصر حصصها منه بعد الموت.

في السابع والعشرين من آذار قطع الباشا بحد السيف رقابَ ثمانية من هؤلاء البنيانيين لأنهم شتموا الدين الإسلامي.

بعد أن تَكلَّمتُ ما يكفي عن عادات البصرة وتقاليدها، وعن موقعها، يليق بنا

---

(١) غطاء للرأس انتشر إستعماله في العراق قديماً. أنظر: دوزي: المُعجَم المُفصَّل بأسماء الملابس عند العرب، ترجمة د. أكرم فاضل، بغداد – ١٩٧١، ص ٢٠٠.

أن نقول شيئاً عن الموازين والمقاييس المتداولة فيها.

الأوزان والنقود والمقاييس في مدينة البصرة

الأوزان

المَنّ الواحد في البصرة يساوي في حلب خمسةَ أرطال وأوقيتين وثُلثا. وإن تسعةَ عشرَ منّاً ورُبعاً يعادل القنطار الحلبي المُكوَّن من مئة رطل، أي في وزن البندقية ٧٢٠ ليبرة بندقية.

القنطار البصري الذي يَتكوَّن من عشرين منا، يُعادل ١٠٤ أرطال حلبية، وهو يساوي ٧٤٨ ليبرة بندقية زائداً ٩ أوقيات بندقية أيضاً.

ولكن من الضروري أن تَعرِف: إن التجار عندما يتباحثون فإنهم يتعاملون بالمَنّ، وينقصون من أوزان السلع لكل مَنٍّ بحسب النوعيات وبحسب التعامل المحلي.

المقاييس

أما مقاييس هذه المدينة فتجري بحساب الأذرع، وهي –أي الذراع– بالنسبة إلى أَذرُع حلب، تقل بنسبة ١٨ بالمئة كالمقاييس المُستَعمَلَة في بغداد بالضبط.

النقود

إن نقود هذه المدينة هي الفلوس [١] النُحاسية الكبيرة، وهي شبيهةٌ بعيار الزيت

---

(١) استعمل المؤلف كلمة فلوس المعروفة.

في البندقية [١] ويُطلق عليها اسم «الاستيني» [٢]، وأن ١٢ منها تساوي مؤيديّاً واحداً، وكذلك في حساب حلب، وتُعادل أربع صولديات [٣] من نقودها.

إن المُؤيَدي هو نقدٌ من فضةٍ شبيهٌ بالصاد [٤] المتداول في هُرمِز، ويحمل نقشاً تركيّاً [٥] على وجهيه. إن قطعتين من فِئة المُؤيَدي تساويان دامينا [٦] واحداً. ويساوي في حساب حلب مُؤيَدياً وبحساب البندقية ثماني صولديات.

والدامين المذكور هو من النقود الفضية ويَشبه القِرش [٧] لكنه أكبر منه، مع نقشٍ تركي على وجهيه وأن إثنين ونصفاً منه يساويان شاهيةً واحدة وبحساب البندقية

---

(١) قالت بينيتو: هي قطعٌ معدنية مُثلثّة الشكل كانت تُوضَع في براميل الزيت وتُجمَع في الكمرك ويتم دفع المكس على قدر عددها، فهي ليست من النقود لكنها في الاستعمال الشعبي صارت تُعبر عن قيمةٍ نقدية.

(٢) Estinni هي نقودٌ فارسية (بينيتو) أقول: لم أجد لها في الكتب العربية التي بَحثتْ في النقود التي كانت تُستَعمل في العراق ككتاب الأب الكرملي والأستاذ العزاوي والباحث يعقوب سركيس.

(٣) صولدو(ج: صولديات أو صولدي) من نقود البندقية.

(٤) الصاد والسادي والساندي والسندل (فارسية) تعني مئة وهي عُملةٌ كانت مُتداوَلة في هُرمز والبصرة وتساوي ١٠٠ ديناراً (بينيتو) [أعتقد أنه المجيدي].

(٥) نقشٌ أو ختمٌ ولعله الطغراء، وقوله تركي يعني إسلامي أو عربي لأنَّ الغربيين كانوا يستعملون كلمة تركي للإشارة إلى المسلمين بصورةٍ عامة.

(٦) الأصح دنيم (ده نيم) وهو نقدٌ فارسي يعادل عُشر المحمودي، قال سركيس «دهنيم» أي من العشرة واحد. أما العزاوي فقال مُصحّحاً سركيس: «وصوابه نصف العشر» (تأريخ النقود العراقية: ١٦٦).

(٧) من نقود البندقية سبق شرحه.

٢٠ صولدية بالضبط.

هذه الشاهية شبيهةٌ بمثيلاتها في حلب، وأن شاهيةً واحدة زائداً ٢٠ استينا تساوي لارينا [١] واحداً، وبالحساب الحلبي ستة مؤيدات ونصف وأربعة فلوس، وبحساب البندقية ٢٦ صولدية زائدا ٨ باكاتيني [٢].

إن اللّاري المذكور هو نقدٌ غريب المنظر حقاً، فهو ليس مدوراً كسائر النقود. إنه قطعةٌ سميكةٌ من الفضة يبلغ سُمِكها بقدر ريشة الأوز التي تُستَعمل في الكتابة، وطولها نحو نصف الربع [٣]. حافات أو رؤوس القطعة مَطوية من جميع جهاتها إلى النصف (إلى منتصفها) وتجتمع في (نقطةٍ) واحدة حيث تُوجَد الكتابة التركية (أو الختم؟).

هذه اللّاينات هي على نوعين: فبعضها ضربٌ في بلاد الأتراك ولذا فهي تحمل الختم التركي (العثماني) والكتابة التركية وبعضُها الآخر يُسكُ في هُرمز وعليه ختم ملك تلك المدينة. وأول مَنْ بدأ بَسكِّهِ كان ملك اللُّر [٤] الذي كان عاهِلاً قديراً ضمن

---

(١) قال العزاوي: «من النقود الشائعة في الأحساء ونَجد ما يُسمّى بالطويلة.. هو نقدٌ معدني. ذو علاقة بالنقد المُسمّى در ازد هكاني ص ٣٤ من هذا الكتاب (أي كتابه) وقد بطل استعماله» إنتهى قول الأستاذ، ورجعت إلى ص ٣٤ فلم أجد أي شرح هناك. مهماً يكن من أمرٍ فقد وَرَدَ شرح هذا النقد في دائرة المعارف الإسلامية في مادة «طويلة» للمستشرق آلان.

(٢) نقدٌ بندقي من النحاس انتشر في القرن ١٥.

(٣) أي ربع الذراع البحري (بينيتو).

(٤) ياقوت: معظم البلدان ٤: ٣٥٥.

بلاد فارس وشاه عباس اغتصب معظم أراضي مملكته، ولم يترك له غيرَ بلدٍ صغير واقع على البحر. وهذا الملك يَضمرُ عداوةً للبرتغاليين لأنهم على علاقةٍ حَسنةٍ بغريمه ملك هرمز.

تُعد اللّارينات أفضل النقود المُتداولة في طول الهند وعرضها. وإن ست لارينات تساوي بندقيّاً واحداً، وتساوي بالحساب الحلبي ٤ مؤيدي، وبالحساب البندقي ٨ ليرات.

البُندقي الذهب أو بالأحرى السلطاني يساوي ٧ لارينات ودانياً واحداً، وبحساب حلب ٤٨ مؤيديا ونصفا وأربعة فلوس. وبحساب البندقية ٩ ليرات وأربعة عشر صولديا أو صولدية وثمانية من النقد الصغير (١).

يُباع النقد البُندقي بالوزن: كل ١٠٠ مثقال منه بثمانٍ وثمانين لاريا وتساوي ١٥٠ دِرهَماً (٢) حلبيّاً.

يجب الإنتباه إلى أن التجار عندما يتعاملون بالنقود فإنهم يَتحدَّثون عن فئةٍ مثقال التي تعادل ١٥٠ درهما –بعيار– حلب كما سبق أن أشرت إلى ذلك. إلّا أنه في مدينة «فوجيوا» (٣) Voceua فإن النقد الذي يستلم في القلعة بوزن مئة درهم تعطي عن كل مئة درهم خمس مؤيديات أقل مما في المدينة. مع العلم أنهم يُسلّمون المبلغ في فترة

---

(١) نقد بندقي من النحاس انتشر في القرن الخامس عشر دُعي أحياناً باكاتيني.

(٢) الدرهم هنا يُشير إلى الوزن لا إلى العُملة.

(٣) لم يُشر أين تكون هذه المدينة.

أربعين يومياً وبما يعادلها من الشاهيات أو اللّاريات (١).

الضرائب

إن الضرائبَ في هذا المكان هي بمعدل ستة بالمئة عن مختلف أنواع البضائع، سواء أكانت عند الدخول أو المغادرة.

كما أن الطواف والبواب يَتسلَّمون ستةً مُؤيدات عن الرأس سواء عند القدوم أو عند الرحيل.

وإذا ترك شخصٌ بضاعته في الكمرك عند وصوله فإنه لا يدفع شيئاً عند خروجه، ولكن عندما يريدون بعد الإنتهاء من المعاملة أخذ البضائع إستعداداً للرحيل فينبغي أن يعودوا ويُقدِّموا للطَّواف (٢). وللبواب ثلاثة مُؤيديات عن البضائع عن كل رأس ولا يَقع عليهم أي شيءٍ آخر.

وقد يحدث أحياناً أن «الأمين» عند تقديره البضائع يحاول تقديرها أعلى من قيمتها ولا يكتفي بالتقدير المعقول، عندئذٍ بالإمكان أن يُقال له أن يأخذ من البضاعة نفسها ما يعادل الستة بالمئة –بحسب تقديره نفسه– وفي هذه الحالة لا تُدفَع له نقود المكس وهذه عادةٌ جارية ومألوفة بأمرٍ من السلطان.

بعد إيفاء الرسوم، لابُدَ من إتخاذ الأمور الضرورية والإستعداد للرحيل، ولكن

---

(١) هذه الفقرة غير واضحة، اعترفت بذلك المُحقِّقة الإيطالية بينيتو!

(٢) سبق شرح هذه الوظائف.

قبل فعل ذلك من الضروري جداً مطالبة الأمين بقائمةٍ مُفصَّلةٍ مُذيَّلةٍ بختمه، يسجل فيها تفاصيلَ البضاعةِ كُلّها. وقبل مغادرة المدينة يحضر الأمين بنفسه للتدقيق، لكن في حالة العودة إلى المدينة مع بضائع أخرى لا يعطى المجال لإنتزاع أتاوة أو أن يصبح التاجر ضحية مَكِيدة من المكائد التي هي من عادات أولئك الناس!

الموازين من جديد

من المُفيد أن تعلم أيضاً أن مِئة مثقال في مدينة البصرة تزن ١٧ أوقية ونصف (صغيرة) [١] في حساب البندقية أما في حساب حلب –فكما بيناه– تُعادل ١٥٠ درهماً (وزناً).

القنطار الدمشقي والطرابلسي وقوامه ١٠٠ رطل، أي ما يُعادل ٦١٨ ليبرة (صغيرة) في مدينة البندقية.

القنطار الحلبي المَذكور أعلاه وقوامه ١٠٠ رطل، يساوي ٧٢٠ ليبرة (صغيرة) في البندقية.

قنطار عُمان وقوامه ١٠٠ رطل يساوي ٧٤٠ ليبرة (صغيرة) في حساب البندقية.

أجور السفن

يتم تخمين أجرة السُفن في مدينة البصرة إلى هرمز، على متن السُفن المُسمّاة

(١) تمّ شرحه.

«طرّادات»[١] وذلك حسب حجمها:

- طرادة الحمل حجم عشر كُرات[٢] تُؤجَر بمئة وثمانين لاريا.
- حجم خمسة عشر بمئتين وسبعين لاريا.
- حجم عشرين كارة بثلاثمئة وستين لاريا.
- حجم ثلاثين كارة بخمسمئةٍ وأربعين لاريا، ويجب أن نعلم أن «الكارة» تساوي أربعة قناطير بوزن البصرة.

ويعطون للناخداه[٣]، وهذا هو لقب صاحب الطرّادة أي السفينة، عن التحميل قنطاراً واحداً، وإلى بقية الملاحين ثلاثة قناطير. فالمجموع الكلي إذا أربعة قناطير. وبعد دفع المبالغ المذكورة عن الأجور، لا تُدفع بعدئذٍ نفقات أخرى للمعيشة، ولكن يلزم أن نشرح هذه الأمور بوضوحٍ في إتفاقية استئجار الطرّادة بحيث لا يجوز تحميل رطلٍ واحدٍ أكثر من المُتَفَق عليه؛ لأنّه إذا ما رأوا في هُرمز أن هؤلاء الناخداه حَمّلوا السُفن أكثر مما هو متفق عليه يُحاسَبون ويتم إيقافهم. وهذا إجراء جيد لإيقافهم عند حدهم.

---

(١) طرادة (ج: طرادات وطرارید) وهي عربيةٌ فصيحها طراد، وهي سفينةٌ صغيرة مَطليةٌ بالقار، سريعة الجريان كاظم الدجيلي: السفن في العراق، مجلة لغة العرب ٢ (١٩١٢) ص ١٠١.

(٢) من موازين الحنطة.

(٣) أي رئيس السفينة (فارسية) شرحها آدي شير، «رئيس السُفن مأخوذ من ناخذا وهو مُركَّب من نأو أي سفينة، ومن خدا أي صاحب». الألفاظ الفارسية المُعرّبة (بيروت – ١٩٠٨) ص ١٥٠. [ملاحظة خدا يعني رب فتعني العبارة رب السفينة وليس صاحب].

فنحن في هُرمز كأننا في بلدنا [١]، وهُناك في هُرمز لا يبالون بأمثال هؤلاء. وبهذه الطريقة يعملون على ردعهم ويضعون حداً لطَمَعِهم، لأنهم طَمَعاً بالربح كانوا يحملون المراكب فوق طاقتها دون مبالاة إلى ما في ذلك من خطرٍ على الأرواح وعلى السُفن ونحن نشهد على كل ذلك فقد كُنّا نفقد الحياة والمال في رحلتنا.

وخُلاصة القول أن هؤلاء عندما يبحرون بطريق النازل [٢] أي طريق الذهاب يعرفون عَزّ المعرفة أنهم تحت طائلة المُحاسَبة في هُرمز إذا ما وجد في سفنهم أكثر من الحُمولة فسينالهم عقابٌ صارمٌ إضافة إلى الغرامة التي سوف تُؤخَذ منهم عن الحُمولة الزائدة، لذا فَمِنْ الضروري أن يتم الإتفاق بفطنةٍ وبحضور الأمين أو أحد الأشخاص المُعتَبرين من أهل البلد.

وبهذا الكفاية في موضوع الموازين والنقود والمقاييس ولنا عودة إليه عندما سَنَتكلَّم عن طريق الإياب من جزيرة هُرمز إلى البصرة.

الإبحار من البصرة إلى جزيرة هُرمز

الحمام الزاجل

لا أظن أن الكلام الآتي سَيُعد خارج موضوع الرحلة، إذ يطيب لي قبل أن أضع خاتمة الفصل الخاص بأهم أخبار البصرة، أن أروي أمراً لَعلَّ بعضَ الناس لا

---

(١) لأنها كانت تحت الإستعمار البرتغالي.

(٢) استعمل الكلمة العربية في النص.

يصدّقونه، ولكنه حقيقي، ومفاده أن بعض التجار الذين يتعاملون بين البصرة وبغداد يُحضِرون معهم من بغداد بعضَ أنواع الحمام، لأنها كثيرةٌ في تلك المدينة. وعندما ينقلون الحمام داخل أقفاص، لا يدعون الضوء يَتسرَّب إليها بكثرة. فعندما يصلون إلى البصرة يحبسون الحمام في غرفةٍ إلى أن تحين الفرصة ليتصلوا بجماعتهم في بغداد من أجل أطلاعهم على هبوط أسعار التوابل أو صعودها في سوق البصرة، فيكتبون رسالة ويربطونها تحت جناح الحمامة. ولكي لا تضيع المعالم على الحمام فلا ترجع إلى البيت الذي تَربَّت فيه، يخرج التجار إلى خارج المدينة مسافةَ ميل تقريباً، ويُطلِقون الحمام من هناك [١]، فيصل إلى بغداد في اليوم نفسه فعندما يلاحظ صاحب البيت وصول الحمام يخرج الرسالة ويَطَّلع على فحواها، وهكذا يَتعرَّف تجار بغداد على شؤون السوق بطريقةٍ سهلةٍ لا تكلفهم شيئاً مع المحافظة على السرية في الوقت نفسه، وهذا أمرٌ جزيل الفائدة لهؤلاء التجار.

---

(١) في الطبعة اللاتينية للرحلة يوجد رسم يمثل ثلاثة تجار يُطلقون الحمام (بينيتو) وكذلك في الطبعة الهولندية ومنها نسخة في مكتبة المتحف العراقي. وعن الحمام أنظر الجاحظ: الحيوان ١:٤٣٥ تحقيق يحيى الشامي، القاهرة ١٩٩٧ الدميري: حياة الحيوان الكبرى ١:٣٨٢، القاهرة ١٣٧٤هـ ويُسمّي النويري هذا النوع من الحمام «العلوي» ويقول عنه إنه: «يطلب وكره ولو أرسل مسافة ألف فرسخ، ويحمل البطائق ويأتي بها» النويري: نهاية الأرب ١٠:٢٧٠ وأنظر: ميخائيل صباغ: مسابقة البرق والغمام في سعادة الحمام باريس ١٨٠٥ وأعاد نشرها حكمت توماشي، مجلة المَوَرَدَ ٢ (١٩٧٣) العدد ٣ ص ١٤١-١٥٢.

مغادرة البصرة

بعد أن أدّينا ما علينا من رسومٍ، وقَدَّمنا الهِبات الضرورية في البصرة، ثم تَحرّينا عن شؤون البحر فتأكدنا من إستتباب الأمن فيه، عندئذ استأجرنا على بركة الله إحدى السُفن من النوع الذي يَمخر ما بين البصرة وهرمز، وذلك في اليوم التاسع من نيسان (١٥٨٠) وقد استأجرنا السفينة بأكملها من العنبار إلى السطح، لأنهم يحجزون عادةً العنبار لتعبئته بالتمور. أما المبلغ الذي اتفقنا عليه فهو ٢٠٠ لاريا، ونحن نعلم أن هذا المبلغ هو أعلى من المألوف لكننا إضطررنا إلى ذلك لأنَّ السُفن رفضت الخروج إلى عرض البحر خوفاً من القراصنة، لأنَّ عدداً كبيراً من السُفن كان تم استئجاره وكانت مُتأهِّبة للرحيل لكنها لم تقلع للسبب المذكور، إذ كان القراصنة يَجوبُون البحار وينهبون كل ما تصل إليه أيديهم.

حملنا البضائع في السفينة وفي مساء الحادي والعشرين من نيسان صَعدنا على السفينة، وفي صباح اليوم التالي تركنا قناة البصرة وتَوجّهنا إلى نهر دجلة الكبير [١] الذي يُوجَد على ضفته ضريح أحد أوليائهم، ويُسمّى ذلك المكان «سيكالي» Siccali ومن عادات المَلّاحين أنهم حين وصولهم إلى هذا الموضع يطلبون تَبرُعاً من التجار فَيتصدَّقون من أموال الآخرين على الضريح المذكور.

دخلنا النهر، وإذ كانت المياه بإرتفاع بسبب المَد لذلك أوقفنا السفن. وكان

---

(١) بالأحرى شط العرب.

برفقتنا سبعُ سفنٍ أخرى فضلاً عن سفينتنا، ولم نستطع التقدم نحو البحر إلى أن بدا الماء بالهبوط أو الإنحسار بعد منتصف النهار، عندئذ بدأنا بالتقدم قليلاً بالرغم من معاكسة الريح لنا. وأخيراً توغلنا إلى العُمق مع حلول المساء فقضينا ليلتنا الأولى في البحر.

ما يجب معرفته بصدد السفن، أننا عندما نُريد سحبَ سفينةٍ نربط حبلاً بكوثل القارب الساحب ونربطه بين الخشبتين.

في صباح اليوم التالي وهو ٢٣ نيسان استعملنا الأشرعة وساعدتنا لحُسن الحظ ريحُ الشمالِ فوجدنا في وسط النهر بعد مسيرةٍ قليلة جزيرة بها بيوت تُسمّى «فوجيادي» Fugiadi حيث شاهدنا عدداً كبيراً من المراكب الشبيهة بسفننا وكانت تَمخُر بين هُرمز والبصرة أو العكس.

وصف السفينة(١)

قبل أن استطرد في الكلام، أرى من المفيد في هذا الصدد أن أَتكلَّم قليلاً على هذه السُفن التي تَمخُر بين البصرة وهرمز، فهي مُقعَّرةٌ الأسفل ولا غطاءَ لها، صدرها ملموم وكذلك مؤخرتها والجزء الذي يشق الماء عريض، لكنه أقل عرضاً من تلك السُفن التي يُقال لها «قره موسالي». مع العلم أن الكوثل هو أعلى من الصدر، وأن

(١) يراجع عن السفن: عباس العزاوي: السفن الشراعية في الخليج العربي، مجلة المَوَرَدَ ٥ (١٩٧٦) العدد ٢: ص ١٩٧–٢٠٠ نشرتها راجحة عباس العزاوي.

الدَفَّة مربوطة إلى الكوثل أي في المؤخرة بحبالٍ مَجدولة من سعف النخل، وهي مشدودة بقوةٍ ولذلك فإن الدفة لا تتحرك إلى الجهتين أكثر من مسافة أصبعين لا غير، لكن هذه الحركة البسيطة كافية جداً لإدارتها؛ لأنَّ هذه الأنواع من الدفّات دقيقة في الأعلى وكأنها قطعةٌ واحدة مع الكوثل من سطح الماء إلى فوق فتظهران شيئاً واحداً.

أما طريقة قيادة الدَفّة فتتم بقطعةِ خشبٍ ظاهرة فوق الماء يبلغ طولها أكثر من ذراع مُثبَّتة من وسطها في طرفي الدفة، ويُوجَد حبل مربوط بهذه الخشبة من جهتها البارزتين، وبالإمكان سحبها بحسب الحاجة إلى اليسار وإلى اليمين، والحبلان مربوطان إلى لوح مثبت في السفينة من جهتها أيضاً ويمر هذا اللوح تحت الكوثل ويبرز قليلاً من الجهتين بقدر خطوة واحدة.

يجلس الربان على لوحٍ في الوسط ويمسك الحبلين بيده فيجر هذا الحبل تارة والحبل الآخر تارة أخرى بحسب الضرورة التي تستوجبها قيادة السفينة.

تقوم الساريات في وسط السفينة، أما الأشرعة المُستَعمَلة فتشبه أشرعة سفننا التي نُسمّيها «المربعة» وقد مَرّ ذكرها، وعندما لا تضرب الريح مؤخرة السفينة يضعون شراعاً صغيراً يطلقون عليه اسم «سمبوسة» لأنّه شراع مساعد ويُمكن أن يشرع من هذه الجهة أو تلك حسب هبوب الريح وإتجاهها وقد يربط إلى الشراع الكبير أيضاً.

إن الحبل الذي يُستَعمَل لسحب الشراع إلى الأعلى يضعونه عند المؤخرة مربوطاً بالخشبة التي مَرّ الكلام عنها أي تلك التي يجلس عليها الربان، بعكس العادة المعمول

بها عندنا إذ نتركه عند السارية.

يُوجَد فوق المؤخرة مَوضعٌ مُغطّى بأخشاب وحُصران يبلغ ارتفاعه أكثر من ثلاثة أذرع ويشبه ما هو موجود في السفينة المُسمّاة «قره موسالي» التي وَرَدَ ذكرها قبل قليل.

تَرتَفع في مؤخرة السفينة أربعةُ أعلامٍ كبيرة. إثنان من كل جهةٍ إضافة إلى علمٍ آخر في الوسط لكنه أصغر من الأعلام الأخرى.

تَحملُ كُلَّ سفينة أو طرّادة قطعتين من حديد في المقدمة في الصدر بصفة مرساة لإيقاف المَركب عند الحاجة وذلك بإنزال المَرساة إلى الأسفل بالحبال.

يُصنَع الشراع من قماشٍ غليظ كالقُنّب، وتكون الأشرعة على أنواع فمنها كبيرة ومنها صغيرة حسب الحاجة.

يحملون في السفينة بيرقاً أو عموداً يثبت في جهة السفينة اليسرى في المُقدِّمة ولَعلَّه يفيد كعامل توازن.

كما يحملون أيضاً مَوقِداً [١] يضعونه قريباً من السارية من جهة الكوثل بين صندوقين مخيطين ومَشدُودَين بحبالٍ قوية، ولا يُطلى الصندوق بالقِير لكنهم يَستَعمِلونه عوضة دهن السمك ويملأون الصندوقين بالماء العذب ويحافظون عليه بإهتمام، إذ يستعملون هذا الماء للشرب والطبخ، ولأنَّ الصندوقين مَطليِّنِ بدهن

(١) لَعلَّه يريد أن يقول مِشعلاً؟ أو هو مكان الطبخ فعلاً.

السمك فإنهما يحافظان على الماء جيداً. ويُطلَق على الصندوق اسم «تانجي»[١].

هذه السُفن مربوطة بالحِبال وبمسامير مصنوعة من الخشب وفائدة هذه الطريقة هي المحافظة على السفينة فلا تَتَحطَّم بسهولة إذا ما اصطدمت كما لو كانت مصنوعة بمسامير حديد.

إنها بالحقيقة أقوى وأكثر إستعداداً للحوادث التي قد تصادفها في البحر. ومن أجل إعدادها لهذه الحالات فإن السُفن مُبطَّنة من الداخل بسعف النخيل، وهذه البطانة ليست متصلة مباشرة بجسم السفينة أو قعرها بل تفصلها فواصل، لذا فعند تَسرُّب الماء قليلاً إلى الباطن يبقى في قعرها تحت هذه البطانة.

يربطون إلى صدر السفينة قارباً صغيراً. ولكي لا ينصب إهتمام رُبّان السفينة على القارب، فإنهم يُعيّنونَ عاملاً خاصاً يهتم بنشر الشراع الخاص به عند الحاجة أي عند هبوب الريح.

أعتقد أني أطلت الكلام دون أن أدري في شرح أمور هذه السفن. لهذا فلندع هذا الموضوع ولنعد إلى وصف رحلتنا.

تكملة الرحلة

لنعد الآن إلى الحديث عن رحلتِنا إلى هرمز، فأقول: اننا واصلنا الإبحار، ففي

---

(١) ومنها كلمة تانكي المُستَعمَلة عندنا، أو من طَنجرة وتنجرة بالتاء، قِدرٌ من النحاس (فارسية) دوزي: تكملة المعاجم العربية ١٠٨:٧.

الثاني والعشرين من نيسان [١] نحو منتصف الليل وصلنا جزيرةٍ كبيرة جداً وجميلة للغاية وعامرةٍ بأشجار النخيل تُدعى «فيجادة» [٢] وكانت كُلُّ الأراضي إزاء الجزيرة أي على ضفتي النهر خصبةً ومزروعةً.

كان مجرى النهر في ذلك الموضع واسعاً جداً شبيهاً بمجرى نهر النيل. وهناك يتفرّع من النهر جدول يجري في أرض «بيرين» [٣] (اسجونفان) [٤] ثم يصب في البحر الذي يصطاد منه الناس اللؤلؤ. ولكون ذلك الفرع قليل العُمق فهو لا يفيد لسفينتنا، لذلك لم نَتوغّل فيه بل بقينا في النهر الكبير. وعند حلول المساء توقفنا عند رأس جزيرة تقع بالقرب من البحر الذي هو الخليج.

في الساعة الواحدة من صباح اليوم التالي توغلنا في البحر وكان هادئاً جداً. لذا لم نستطع قطع مسافة طويلة لإنعدام الريح. وفي منتصف النهار هَبَّت ريحٌ سموم شرقية قوية للغاية وكانت مُعاكِسة لنا، حتى اقتضت الحالة أن نُنزِل المراسي من الجهات الأربع في موضع إزاء بلاد العرب الواقعة إلى اليمين فعن يسارنا تقع أرض فارس.

في صباح اليوم التالي وهو ٢٥ من الشهر المذكور، سُرنا سيراً حسناً منذ بزوغ الشمس تدفعنا ريحُ الجريباء الطيبة. وكانت مقدمة السفينة تَمخَرُ البحر بخُيلاء! وبعد

---

(١) أخطأ السائح على ما يبدو لأنه سبق أن قال إنه بهذا التأريخ ترك قناة البصرة.

(٢) سبق ذكرها قبل قليل وسمّاها فيجادي.

(٣) هل يشير إلى البحرين؟

(٤) أدخلها المؤلف خطأ هنا، وهي بين قوسين في الأصل.

شروق الشمس بساعة كُنّا قد وصلنا إلى المنطقة التي تنتهي فيها السيطرة التركية.

لم يكن لأولئك المَلّاحين بوصلات، لذلك كُنّا نسير ووجهتنا قبالة الأرض العربية، وعلينا في الوقت نفسه تَجنُّب الصخور الموجودة تحت سطح الماء في الناحية الأخرى، التي هي جهة بلاد فارس. وتمتد هذه الصخور مسافةً طويلةً تحت سطح الماء نحو ستة أميال، ويُطلَقُ عليها اسم «رأس الخان».

ولما كانت الرياح الشمالية حَسنةً فقد أكملنا سيرنا حتى منتصف الليل. ولكن بعد ذلك هَبَّت رياحٌ عاتية فَتَملَّكنا الفزع من أن تبتلعنا الأمواج. ولشدة الرياح انسكب ماءُ الشُرب المحفوظ في أحد الصندوقين، وتَقَطَّعت الحبالُ المربوطة إلى الدفة، وبالكاد استطعنا أن نحافظ على سلامة الشراع. فبقيت السفينة بلا قِيادة وزاد الخطرُ أكثرَ من السابق فشرعنا نصلي! وأخيراً تَوقَّفت الريح وهدأ البحر نحو الساعة ٢١ من اليوم السابع والعشرين من ذلك الشهر فأكملنا السير طوال الليل.

صباح اليوم التالي وهو ٢٨ من الشهر وصلنا إلى موضع يقع إلى اليسار أي قرب الشواطيء الفارسية وهي جزيرة يُقال لها «الجبل». هناك غَطَسَ ربابنا في البحر لأنّه لاحظ وجودَ ثقبٍ في المركب كان الماء يَتَسرَّب منه. فأدخل في الثقب قطعةَ خشب مصنوعة خصيصاً لسد مثل هذه الثقوب يبلغ طولها نصف ذراع، ويلف في رأسها شعر – ذيل – حصان. فالرجل الذي يغطس في الماء يذهب إلى موضع الثقب في السفينة وما أن يمد الخشبة المذكورة حتى يجذب الثقب الشعيرات فيدفع الخشبة حالاً. إنه أمرٌ عجيب حقاً بهذه الطريقة يعرف صاحب السفينة أين هي العيوب في سفينته

فيعالجها حالاً كما حَدَثَ في سفينتنا. وأضيف بهذا الصدد شيئاً آخر عن هؤلاء المَلّاحين، فهم عند الغطس يضعون على الأنف قطعة من قرن الجدي تَطبَع على المَنخرين بقوة. والأمر الذي لا يُصدَّق أن أمثال هؤلاء الغَطّاسين يبقون مدة طويلة تحت الماء، وهذه حقيقة رأيتها بأمّ عيني!

[يكمل بالبي الحديث عن رحلته إلى هرمز].. وأخيراً وصلنا إلى ميناء هرمز، واستغرق السفرُ من البصرة إلى هنا ٣١ يوماً، لأننا غادرنا البصرة في ٩ نيسان ١٥٨٠ وفي العاشر من أيار وصلنا إلى هرمز.

مقاييس هرمز (١)

إن المقاييس المُستَعمَلة في هُرمز تكبر بنسبة ٢٥ وثلثين بالمئة نِسبةً إلى تلك المقاييس المُتداولة في بغداد والبصرة.

فإذا حَملتَ إلى هُرمز مئة ذراع قماش، أو أي شيءٍ آخر أخذته على قياس بغداد أو البصرة فإنه سيصبح بحساب هُرمز ١٢٥ كوفادي (٢) زائداً ثلثين من هذا المقياس.

(خصص بالبي الفصل السادس عشر في الحديث عن أجور المراكب من هُرمز إلى الهند، وهذا الفصل لا يهمنا، ثم سَرَدَ في قائمةٍ طويلة أسعارَ مختلف التوابل والمواد

---

(١) خَصَّصَ المؤلف الفصل ١٥ بالمقاييس والموازين والنقود المُتداولة في هرمز كما فعل بالنسبة إلى بغداد والبصرة، فاقتصرنا على ترجمة ما يفيد الباحث العراقي.

(٢) مقياس برتغالي الأصل للطول يساوي ٦٦ سم تقريباً، ويُعتَبر بالبي أول مَنْ ذكر هذا المقياس بين الرحّالين (بينيتو).

التجارية المهمة، مقابِلاً إياها بالنقود البندقية (ص١٢٥-١٢٨ من النص الإيطالي) ولو قارن صاحبنا هذه الأسعار بنقود البصرة أو بغداد المُتداوَلة آنذاك لعَمدتُ إلى ترجمتها إلى العربية لفائدة الباحثين لكنه لم يفعل).

العودة من البصرة إلى بغداد في نهر دجلة

أخيراً وصلنا إلى البصرة بعد إثنين وعشرين يوماً منذ مغادرتنا هرمز [١]. وبعد أن أمضينا ثمانية عشر يوماً في البصرة، وأدينا ما علينا من رسومٍ أكملنا الإستعدادات الضرورية لرحلة العودة، وكانت مجموعة السُفن المُهيأة للرحيل نحو خمسين سفينة. وأقمنا رئيساً للكار [٢]. له سلطة الأمر والنهي على السُفن كلها. ويُقال لهذا الرئيس في التعبير المحلي «كروان باشي» [٣] وكان رَجُلاً ماهراً له خبرة واسعة في طبيعة تلك المناطق وكان يَعرف جيداً المواضع التي يكمن فيها اللصوص.

فلما وصلنا إلى قلعة القُرنة توقفنا لندفع شاهِيينِ عن كُلِّ سفينةٍ فهذه هي العادة الجارية، واستلمنا ورقةً تَشَهدُ بأننا أدينا ما يَتوجّب علينا من رسومٍ، ولذا نستطيع المرور.

---

(١) استغرق سفر العودة أقل بكثير من سفر الذهاب إلى هرمز.

(٢) هو مجمع السفن المُنحَدِرة أو المُغربة، كالقوافل في البر (كاظم الدجيلي: السفن في العراق، مجلة لغة العرب ٢: ص ١٠١).

(٣) لفظة تركية تعني رئيس القافلة.

ويتم التوقيع على هذه الشهادة في كل مكان يَتوجَّب علينا فيه دفع الرسوم.

ولما وصلنا إلى «الزكية» (١) دفعنا خمسَ شاهيات وقطعتين من فِئة المُؤيدي عن المَركَب وعن «التيزال» وهي قوارب صغيرة تُؤخذ في السفر لإنزال البضائع فيها إذا حدث لسوء حظ المسافرين ارتطام إحدى السُفن بموضعٍ ضَحلٍ. ففي هذا الوقت من السنة تكون المياه منخفضة في نهر دجلة. وندفع عن هذه القوارب الصغيرة سبعَ قطعٍ من فئة المُؤيدي. ولهذا عندما يُسلّمون الشهادات –أي الوصولات– عن السُفن يذكرون فيها عدد القوارب أيضاً.

أما في «كرت» Chert فإنهم يَستوفون أربعَ قطعٍ من فِئة البُندقيات، على أعتبار أن كل بندقية تعادل ٨ شاهيات، أعني أننا ندفع عن السفينة أربعَ شاهيات ومؤيدين وعن القارب المُلحَق أي ضمن التيزال ١٧ شاهياً. وفي هذا الموقع يعطون للمسافرين تذكرة(٢).

وفي «العمارة» تُستوفى ثلاث شاهيات عن الحِمل الواحد، لكنهم هنا لا يعدون الأحمال بل يكتفون بتقدير عددها في كُلِّ سفينةٍ لكي لا ينزلوا البضائع من على متن السفينة؛ أما عن القوارب المُلحَقة فيستوفون ٢٢ مُؤيدياً.

أما في «الجديدة» فيأخذون ١٧ شاهية عن السفينة يدفع التاجر منها تِسعَ

---

(١) معجم البلدان ٢:٩٣٨ سركيس: مباحث عراقية ١:٢٦٤.

(٢) قال بالبي (تسكره) وهي التذكرة أي ما تستذكر به الحاجة وهي الشهادة أو ورقة السفر.

شاهيات والباقية على صاحب المركب.

إنهم يَطلبون الشهادة التي ذكرناها سابقاً لسببين:

الأول – لفائدة التاجر على أنه أدّى ما عليه من رسومٍ في كل الأماكن التي مَرَّ بها. والسبب الثاني – لخير السُفن نفسها: إذ ينبغي على التاجر تَسليم جميعَ الشهادات (أي الوُصولات) التي جمعها إلى أصحاب السُفن من أجل إبرازها في طريق الرجوع إلى أماكنهم، فتشهد على أنهم دفعوا كُلَّ الرسوم المُترتِبة عليهم. وبعكس ذلك يَتوجَب عليهم الرسوم ثانيةً إذا أرادوا المرور.

يؤكد تافرينه إلى أنّ البصرة مدينة كبيرة وتقع داخل أسوار ترابية يبلغ طولها ست ساعات مشياً على الأقدام.

ويبدو أن السور كان عبارة عن سداد ترابية عالية لفترة غير قصيرة من القرن السابع عشر، حتى أدرك حكام المدينة وباشواتها عدم كفاءة تلك الأسوار وضعف تحصيناتها آنذاك.

إذ ذكر الرحالة الأب الإيطالي الكرملي فنشتسو الذي زار المدينة عام ١٦٥٦ من أن حاكم المدينة طلب أكثر من مرة وضع مخطط جديد لها وتحصينها جيداً على مثال ما تمّ في مالطة، وقد توقف عن البناء بسبب قلة الجص والحطب اللازم لفخر اللبن.

[٥]

رحلة جون إيلدرد (١٥٨٣ ـ ١٥٨٤)

غادرنا بغداد بقواربَ مُسطَّحة، أقوى وأكبر من تلك القوارب التي تجوب نهر الفرات، واستغرَقَتْ رحلتنا ثمانية وعشرين يوماً أخرى عبر نهر دجلة نزولاً إلى البصرة [١]، ولكن ربما كان بمقدورنا إجتيازه في ثمانية عشر يوماً أو أقل فيما لو كان منسوب الماء أعلى.

وعلى إمتداد النهر تنتشر الكثير من المُدن التي تشبه أسماؤها أسماء الأنبياء القُدامى، أول هذه المدن (العزير) [٢] والأخرى (زكية) [٣].

---

(١) وَرَدَتْ في النص الحديث (طبعة ١٩٠٣) بصيغتين (بوصورة) و(بالصورا) Balsora [Bussorah] وهي إشارة لطريقة كتابتها في الطبعتين، واستخدمتُ الأقواس المضلَّعة لتمييز اللفظ كما وَرَدَ في النسخة الحديثة، أما فيما يخصّ الوقت الذي استغرقه الرحّالة فيمكن مقارنته بما ذكره كُلَّ من سيزار فيدريجي ورالف فتش وجون نيوبري في رحلاتهم حينما قالوا: «وحينما يكون هناك منسوب المياه مرتفعاً في نهر دجلة يمكنك الذهاب من بابل إلى البصرة في غضون ثمانية أو تسعة أيام، أما إذا كان المنسوب منخفضاً، فقد يستغرق الأمر أياما أخرى.»

(٢) العزير، وَرَدَتْ في النص الأصلي بصيغة ozecchia، وهي قرية بين واسط والبصرة.

(٣) زكية، وَرَدَتْ في النص الأصلي zecchig، وهي قرية بين البصرة وواسط، انظر الحموي، معجم البلدان ٣ / ١٤٦.

وقبل أن نصل إلى البصرة بمسافة يومٍ واحد يلتقي النهران دجلة والفرات، وهناك قلعة للأتراك تُسمّى (القُرنة) (١)، يَدفَعُ عندها التجار ضريبةً بسيطة، وعند هذا المكان يبدأ النهران المُتحِدان بالإتساع إلى بين ثمانية أو تسعة أميال، وهنا أيضاً يبدأ المدّ والجَزر ويَطفحُ الماءُ مُكوِّناً منطقةً خِصبةً جداً، ملأى بالذُرة والرُز والقمح والتمور.

البصرة

يبلغ محيطُ مدينة البصرة ميلاً ونصف الميل (٢)، وكل البيوت والقِلاع والأسوار مبنية من الآجُر المُجفَّف بالشمس، وللسلطان التركي (٣) هنا حامية مُكوَّنة من خمسمئة إنكشاري، فضلاً عن جنودٍ آخرين، ولكن قوته الحقيقية تَتَمثَّل بالقوادس (٤) التي يتراوح عددها ما بين خمسة وعشرين إلى ثلاثين قادساً (٥)، كُلُّها بحالةٍ جيدة جداً ومُزوَّدة بمدافعَ ضخمة.

---

(١) كُتبت في النص الحديث بصيغتين (curnah) [kurnah]، تُمثل الثانية اللفظ المُصحَّح لدى مُحقّق الطبعة الأخيرة.

(٢) نعيد التاكيد إلى أنّ وحدة القياس بالميل الإنكليزي.

(٣) هو السلطان مُراد الثالث (١٥٧٤-١٥٩٥).

(٤) القادس galley جمعها قوادس تُسمّى في بعض المصادر خطأ (الغالي) وهي سفينة شراعية كبيرة ذات مجاذيف.

(٥) قارن ما وَرَدَ عن الأسطول العثماني المرابط في مدينة البصرة خلال رحلة سيدي علي رئيس، إذ ذكر أن قوام الأسطول ١٥ قاليتا، وأنه استخدم في احتلال جزيرة الحويزة خمسة قاليتات، لا ندري إنْ كانت من ضمن الأسطول العثماني زاد بمقدار عشر قطع بحرية.

شهرياً، تأتي إلى ميناء البصرة هذا سفنٌ كثيرةٌ من هرمز، مُحَمَّلة بكل أنواع السلع التجارية الهندية، مثل التوابل والعقاقير والملابس المصنوعة في الهند وفي كلكتا، وعادةً ما تبلغ حمولة هذه السُفن ما بين أربعين إلى ستين طَناً ويتم سد الشقوق الموجودة بين ألواح السُفن بحبالٍ مصنوعة من ألياف النخيل، وهُم يستخدمون الأشرعة والصواري بدلاً من مشاقات الحِبال القديمة، ولا يستخدمون الحديد في سفنهم مُطلَقاً، إلّا في المراسي.

وفي غضون رحلة ستة أيام من هذا المكان، نزولاً عبر الخليج، يصلون إلى مكان يُدعى (البحرين) يقع في منتصف الطريق إلى هُرمز وهناك يصطادون اللؤلؤ لمدة أربعة أشهر من السنة وهي حزيران وتموز وآب وأيلول.

العودة إلى بغداد عبر نهر دجلة

استَمرَّت إقامتي في البصرة ستة أشهر فقط (من آب ١٥٨٣ إلى شباط ١٥٨٤) تَلقيتُ خلالها رسائلَ كثيرة من السيد جون نيوبري في هرمز، الذي اعتقله البرتغاليون، هو ورفاقه بتهمة الخيانة، بعد أن كان مُبحِراً عبر ذلك الطريق حاملاً معه رسائل من صاحبة الجلالة إلى ملك كمبايا، زيبلاديم أكبر [١]، وإلى ملك الصين

(١) هو أكبر شاه، باديشا أو امبراطور المغول في الهند، وكلمة زيبلاديم تعني (المنتصر) كما وَرَدَ في الرحلة.

العظيم[١].

وفيما بعد تمَّ إرساله أسيراً إلى غوا، وبعد أن قضى مدةً طويلة وعُومِل معاملةً وحشية في السجن، تمّ إطلاق سراحه هو ورفاقه بعد أن قدّموا ضمانات بعدم مغادرة المدينة من دون إذن الأب توماس ستيفنسن، وهو رجلُ دينٍ إنكليزي وجده هناك.

ولكن بعد ذلك بمدةٍ قصيرة فَرَّ ثلاثةٌ منهم، كان من بينهم السيد رالف فتش الذي عاد إلى إنكلترا، أما الرابع فقد كان رَسَّاماً ويُدعى جون ستوري وأصبح متديناً في كلية سان بولص في غوا، كما فهمتُ من مراسلتهم[٢].

أما أنا ورفيقي ويليام شايلز، فبعد أن أنجزنا عَمَلَنا في البصرة استقلَّينا سفينةً ضمن أسطول مُكوَّن من سبعين مركباً، كُلُّها مُحمَّلة بالسلع التجارية، وكُلُّ مركبٍ يسحبه أربعة عشر رجلاً، وهي مشابهة لمراكبنا التي تجوب نهر التايمز، واستغرقَ وصولنا صعوداً عبر النهر إلى بابلَ (بغداد) أربعة وأربعين يوماً.

---

(١) هو الإمبراطور (وانلي) حكم مابين ٤ أيلول (١٥٦٣ – ١٨ آب ١٦٢٠)

(٢) يبدو أنه كان مُطلِّعاً على تلك المُراسلات، أو على مضمونها، ولا سيما أن قِسماً منها كان مُوجَّهاً له ولرفاقه الآخرين.

القرن السابع عشر الميلادي

٦ ـ رحلة بيدرو تيخيرا ١٦٠٤

٧ ـ رحلة ديللافالية سنة ١٦٢٥

٨ ـ رحلة لابولي لاغوز سنة ١٦٤٩

٩ ـ رحلة فنشنسو سنة ١٦٥٦

١٠ ـ رحلة تافرينيه

١١ ـ رحلة جان دي تيفينو سنة ١٦٦٥

١٢ ـ رحلة سبستياني سنة ١٦٦٦

١٣ ـ رحلات الأرب بارثيلي كاريه ١٦٧٤

[٦]

الإبحار مُجدَّداً من هُرمز والوصول إلى الخليج الفارسي مَرَّة ثانية، ثم عبر نهري دجلة والفرات إلى مدينة البصرة

الخميس، ١٧ حزيران: (١٦٠٤) بعد أن تهيأنا وتجهزنا بالمُؤَن في هرمز، واصلنا رحلتنا التي كُنّا نأمل أن تسير بشكلٍ أفضل؛ فالرياح الشمالية الشرقية في هذا الموسم، كما تأكّدنا، تكون أهدأ وأقل عنفاً. إلّا أننا، في حقيقة الأمر، وجدنا أن هناك اختلافاً قليلاً عمّا ذُكر. وفي هذه المرة أبحرنا بعيداً عن جزيرة قشم، وانطلقنا بسرعةٍ نحو الساحل نفسه كما في الرحلة السابقة· واجتزنا مستنقعات (كناوة) [١] الضحلة، ثم اجتزنا بعدها حصن (بوشهر) [٢] الشهير بوفرة الخبز والفواكه والخضار ذات النوعية

---

(١) وَرَدَت في النص بصيغة (Kane)، والمُقصود بها كناوة (Kanawa)، أو(Ganaveh): وتبعد نحو ثمانية أميال إلى الشمال الغربي من بندر ريق، ونصف ميل إلى الداخل، وهي قريةٌ كبيرة فيها عددٌ قليل من النخيل وغيرها من الأشجار، وتضم ضريحاً كبيراً ذا قمة مُستدقّة. وسكانها يزاولون الزراعة بالدرجة الأساس. ويُوجد فيها مرسىً للسفن، لكن الرسو يكون غير مُمكن عندما تنحسر المياه، بسبب وجود بعض الكثبان الرملية التي لا يزيد عمق الماء تحتها أكثر من قدمين والتي لابد من إجتيازها. أنظر: Persian Gulf Pilot, Comprising the Persian Gulf, the Gulf of Oman, and the Makran Coast, Washington, 1920, p. 273. (hereafter: Persian Gulf Pilot).

(٢) وَرَدَت في النص بصيغة ريشر، أو ريشاهر، (Rexer)، وهي قريبة من بوشهر.

الجيدة، وهو يقع ضمن الأراضي الخاضعة للشاه، أو ملك بلاد فارس، الذي شَيَّد عليها ميناءه المُحصَّن جيداً.

جزيرة خرج

وإلى الأبعد بإتجاه الشمال تُوجَد جزيرة (ريق سيف الدين) (١)، أي رمال أو شاطيء سيف الدين، وهي مأهولة بالعرب، مثلها في ذلك مثل الجزء الأعظم من هذا الساحل الفارسي التابع للشاه أو الملك. وبعض هؤلاء العرب يميّزون البرتغاليين، فيأخذون بطاقاتهم أو جوازات سفرهم (٢)، التي يَتعرَّضون من دونها لملاحقة السُفن

---

(١) وَرَدَت في النص بصيغة (Regh Cefadin)، والمقصود بها ميناء بندر ريق المعروف، وليس ريغ كما وَرَدَ في النص، وتعني بالفارسية الساحل الرملي. وربما تكون ريق سيف الدين كما مُثبت في النص. ولكننا لا نعلم مَنْ يكون سيف الدين هذا. ولم يكن هذا اللقب شائعاً في بلاد فارس ولا في الهند. وثمةَ عدد من زعماء هرمز بهذا الاسم. ولكن في سنة (١٦٦٥)، عندما حَلَّ الرحّالة الفرنسي جان تيفينو في البصرة، لم يكن هناك سوى بندر ريق (Bender Righ)، أو ريك (Rik) كما يكتبها؛ والتي ترجمها بشكل صحيحٍ، ويضعها بعد بوشهر، ويذكر أنها تبعد عن البصرة يوماً وأحداً. أنظر: Jean de Thévenot, The Travels of Monsieur De Thevenot into the Levant, Archibald Lovells (trans.), London, pt. II, chap. viii., pp. 149-151.

(٢) ذكر الرحّالة في النص الأصلي كلمتي (Cartazes)، التي تعني الكارتات أو البطاقات، و(Passports)، وتعني جوازات السفر، مع أن تعبير جواز السفر كما نَعرفه حالياً لم يكن، ربما، مُستخدماً حينذاك. ويُفتَرض سنكلير أن لهاتين الكلمتين دلالة أكبر بالإسبانية الأصلية.

البرتغالية من نوع الفوستات [١]، التي كانت تجوب تلك البحار الضيقة بشكلٍ مستمر. لذا، فقد كانت علاقة سكان ريق سيف الدين سيئةً مع البرتغاليين، بسبب المظالم التي ذكرناها سابقاً. وبسبب ذلك، فضلاً عن الخوف من الغليوتات الأربعة التي أبحرت معنا أيضاً فقد هَجَرَ السكان جزيرة خرج كلياً، التي تقع مقابل اليابسة بمسافة ثلاثة فراسخ، ويبلغ محيطها أقل من فرسخين· وهي تُشكِّل ملاذاً جيداً ضد الرياح الشمالية الغربية، كما أن طبيعة أرضها جبلية وصخرية، ومياهها عذبة، وفيها بعض بساتين النخيل، فضلاً عن الخِراف والماعز، كما أنها تنتج كمياتٍ كبيرةً من البصل؛ إذ تُرسل الحمولات الكبيرة إلى البصرة [٢]، وغيرها من الموانئ. أما أهلها فأغلبهم من العرب [٣]. وهنا رسونا في الخامس والعشرين من تموز، ومكثنا أربعةَ أيام بسبب شدة الرياح المعاكسة· وإلى الشمال من هذا المكان تُوجَد مرتفعات بلاد فارس على إمتداد حدّ البحر وعلى مرأى البصر، ولكنها من هذه النقطة فصاعداً تَتَجّه نحو البر [٤]، فالأرض منخفضة جداً بحيث لا يمكن تمييزها حتى عند مسافةٍ قريبة جداً. وهناك نهران عميقان مياههما عذبة يصبان في هذه الأنحاء، عند بوشهر وريق سيف

---

(١) الفوستا :(fosta) نوعٌ من المراكب الشراعية الصغيرة.

(٢) كتبها الرحّالة هنا بصيغة (Baçora)، وسنرى أنه سيكتبها في مواضعَ لاحقة بصيغةٍ مختلفة·

(٣) وهي جزيرة خرج، التي تُلفظ أحياناً بصيغة خارك (Khark)، وبعباراتٍ مشابهة أخرى في كتاب المُرشِد الملاحي للخليج. أنظر: Persian Gulf Pilot, pp. 270, 272.
إذ يذكر إمكان الحصول على بعض الخضر·

(٤) أنظر: Persian Gulf Pilot, p. 270.

الدين [١].

قناة خراب

من هذا المكان أبحرنا شرقاً، مُفتقدينَ مشهد الأرض تماماً، مع أننا كُنّا قريبين منها، بسبب مستواها المنخفض. وكان يقودنا مرشدٌ مُحمّدي = (مسلم)، تَوجّه بنا نحو جزيرة خرج التي، مع أنها أفضل جزيرة في تلك الأنحاء، جعلتنا قريبين من اليابسة جداً، عند قناة يُسمِّيها المُحمّديون خراب، أي المكسور، أو المُخرَّب [٢]. فهُم يقولون أنَ ثمةَ مدينةً كانت هناك، لكنها غرقت بسبب مستواها المُنخَفض. ويبلغ عُرض هذه القناة نحو أربعة فراسخ، وهي كثيرةُ الضفاف، لذا فغالباً ما يعبروها بكل الطرق ويُبقون القارب إلى الأمام بسبب التفاوت الكبير في العُمق، الذي يبلغ ثلاث قامات على الأقل. وحينما كُنّا خارجها شاهدنا مُسطَّحاتٍ مائيةً أكثر، ويابسةً على كلا الجانبين. وبعد أن أدرنا ظهرنا إلى الساحل الفارسي وصلنا في الأول من آب إلى مرسىً عند مصب شط العرب، أي نهر العرب، إذ يُدعى النهر الكبير شط، والأصغر خور،

---

(١) المقصود هنا (خور سلطاني)، يتسم بمياهه الضحلة عند بوشهر. ويُوجد في بندر ريق خورٌ صغير أيضاً. أنظر: Persian Gulf Pilot, p. 256.

وتظهرها خارطة (Rio Grande Southern Railroads 1890-1953 = R. G. S.)، باسم مهر شاهبور، في منتصف الطريق بينهما.

(٢) خراب :(Kharab) هذه الترجمة تُلفظ بالفارسية والعربية على حدٍ سواء. ويذكر سنكلير أن المُفردة الهندية الشائعة لكلمة خراب تعني سيء، وقد استُخدِمت حديثاً، واحتفظ المكان بهذا الاسم، لكنه لم يختفِ من خرائط كتاب المرشد الملاحي للخليج المذكور أعلاه.

أو هور، أو ود؛ ويُسمّى بالإسبانية الوادي الكبير، والوادي الأكبر، ووديانا، وغير ذلك (١).

شط العرب

يَتكوَّن هذا النهر = شط العرب، الذي يستمد الناسُ المياهَ العذبةَ من قنوات تبعد ثلاثة فراسخ عنه، من إلتقاء النهرين الشهيرين، دجلة والفرات، عند القرنة، وهي آخر نقطة من بلاد ما بين النهرين، وتقع على بعد ثلاثة أيام شمالي مدينة البصرة (٢)، وتُوجَد فيها قلعة للأتراك تُسمّى القرنة، أي النقطة، وهي تشرف على القناتين (٣). وهنا يَتَحد النهران ليَصبا مياههما بين شواطيء مستوية على كلا الضفتين التي يسيطر على السهول الشمالية أو الفارسية منها الزعيم العربي مبارك بن مطلب، الذي يخوض الآن حرباً مع السلطان التركي، مُدَّعياً بأحقيته في تلك الأراضي وأراضي البصرة (٤).

---

(١) وَرَدَتْ في النص على التوالي (Xat:، Kor، wed، Wedelquebir، Wedelagar، Wedyana) وفيما يخص تسمية الوادي الأكبر، فيبدو أنها وَرَدَت في النص بخطأ مطبعي، إذ حُذف منها حرف (b) سهواً.

(٢) كتبها هنا بصيغة بازورا (Bazora).

(٣) القرنة: ترد في المصادر والخرائط بصيغة (Kurnah, Kornah, Kůrnaå) وقد يكون إسمها مُشتقاً من القرن، أي النقطة. وهذا التعبير شائعٌ ويُطلق على الشاطئ وعلى البحر على حدٍ سواء.

(٤) عن مبارك هذا انظر: رحلة ديللا فاليه إلى العراق، ترجمة وتحقيق الأب بطرس حداد، بغداد، ٢٠٠١؛ إذ يذكر في الصفحات ٤٩، و١٧٧- ١٧٩، أن مباركاً هذا هو المولى مبارك بن عبد المطلب من أبرز المُشعشعين الحاكمين آنذاك في منطقة الحويزة العربية. وفي المُلحق الثاني من ←

ترجمته لهذه الرحلة يذكر المزيد من المعلومات عنه، فيقول أن السائح (يقصد ديللافاليه) أظهر اهتماماً خاصاً بمنطقة الحويزة العربية، فكان يتتبع أخبارها. وقد ذكر في أكثرَ من مرةٍ في القسم الأول من رحلته اسم مبارك، وقال عنه إنه كان موالياً للفرس إتقاءً لشرّهم. ومبارك هذا هو ابن عبد المطلب بن حيدر بن محسن. وبعد وفاته تولّى شؤون الإمارة ابنه الكبير (ناصر) لمدة سنة تقريباً ومات مسموماً بيد راشد، وكان رجلاً شجاعاً، لكنه أثار الفتن في منطقته، ثم فرّ إلى الشاه، وعاد لمحاربة البصرة ومات في الحرب. فتولّى الإمارة بعده (سلامة) لمدة قصيرة (ولم يذكر المؤرخون الذين رجعت إليهم – الكلام هنا للأب بطرس حداد – اسم سلامة باستثناء يعقوب سركيس في مباحث عراقية نقلاً عن ديللا فاليه). ثم تنازل لأخ مبارك الأصغر واسمه (منصور) الذي رفض الخضوع للشاه الفارسي، فأوعز هذا إلى خان شيراز لمحاربته والقضاء عليه، فاضطر إلى الفرار وإلتجأَ إلى البصرة، فنصّب الفرس محمّد بن راشد مبارك أميراً على الحويزة سنة (١٦٢٥)· ويستطرد الأب بطرس حداد حديثه عن هذا الموضوع قائلاً: هذا ما جاء في الرحلة عن أمراء الحويزة، بينما نقرأ في كتاب السيد جاسم حسن شبر، تأريخ المشعشعين وتراجم أعلامهم، النجف، (١٩٦٥)، ص ١١٣، ١١٦، بعض الإختلافات: فبعد موت مبارك (١٠٢٥ / ١٦١٦م) تولّى الإمارة ولده ناصر لأشهرٍ قليلة ومات مسموماً، وقيل أن الذي سَمَّه هو ابن عمه السيد راشد· وأضاف المؤلف أن السيد ناصر بن مبارك تزوج بعقيلة الملك شاه عباس الصفوي وصار من المُقرَّبين عنده، بينما قال السائح أنه كان صهر الملك، إذ تزوج بأخته. وجاء في كتاب تحفة الأزهار أن مباركاً كان قد أرسل ابنه ناصراً رهينة عند الشاه وعاد في مرض أبيه، وتُوفي بعد سبعة أيام مسموماً، إذ سَمَّه راشد بن سالم بن مطلب (نقلاً عن مباحث عراقية، القسم الثاني، ص ٣٨٥ في الهامش). أنظر أيضاً: عبد المجيد إسماعيل، عربستان عبر التأريخ، آفاق عربية، السنة السادسة، (١٩٨٠)، العدد ٣– ٤، ص ١٨٩؛ محمّد حسين الزبيدي، إمارة المشعشعين أقدم إمارة عربية في عربستان، آفاق عربية، السنة السابعة (١٩٨١)، العدد ١، ص ٦٢– ٧٠؛ علي نعمة الحلو، الأحواز، ج ٢، بغداد، ١٩٦٩، ص ١٨٢– ٧٩١ (إلى هنا ينتهي اقتباس النص من ملحق كتاب الأب بطرس حداد).

وفي تلك الأراضي تُوجَد مُدن مهمة وكبيرة مثل المقدم (١)، والحويزة ودورق (٢)، وهي مهجورة مع أنها ليست قاحلةً، لكنها غير مَزرُوعة خوفاً من الأتراك. أما الأراضي الواقعة على الضفة الأخرى، أي الضفة العربية، فهي خصبة ومزروعة وفيها بساتين نخيل شاسعة وبساتين فاكهة وحدائق (٣). وهناك انعطافه كبيرة عند مصب النهر الذي يعود إلى مساره ليتّجه هنا من الغرب إلى الشرق. وربما يبلغ عرضه في هذا المكان أقل من ميلين وعمقه في أوطأ مستوىً له نحو ست قامات في هذا الموسم، ومنسوبه منخفضٌ وتياره قوي.

---

(١) وَرَدَ الاسم في كتاب الرحلة، بترجمتيه، بصيغة (Magdom)، ولم نعثر له على تعريف· كما وَرَدَ أيضاً بصيغة (Magdon) في مجلة حول العالم الفرنسية· أنظر:

Pierre d'Avity, Le Monde, au la Description Généeale de l'Asie, premiere partie, Avec tius ses empires, royaumes, estates et Republiques, Paris, M. DC. LX. (1660), p. 317.

ومع ذلك، فإنّ المؤلف هنا اقتبس الإشارة نفسها من رحلة تيخيرا أيضاً، ولم يضِف لها شيئاً جديداً.

(٢) وَرَدَتْ في النص بصيغة دوريكا (Doreka)، وهي دورقستان: مستنقعاتٌ ضحلة تقع غربي خور موسى تتخللها خلجانٌ صغيرة (خيران = جمع خور)، وتمتد إلى خور بهمشير الذي يبعد عنها نحو(١٨) ميلاً. ويُشكّل خور سيف النقطة الجنوبية له، وخور سلايك بحري (Silaik Bahri) إلى الغرب مباشرة من (بو سيف). ويبلغ مستوى المياه عند مدخله نحو ستة أقدام، ويُقال إنه يرتبط بنهر القرنة· أنظر: Persian Gulf Pilot, pp. 276-277 [يقصد شطّ العرب].

أما سنكلير فقد ذكر في تعليقه على هذا الموقع أن المقصود به نهر المقطع في الأحواز، أو ربما في الحويزة، ويُلفظ دورق، أو الفلاحية.

(٣) لا يزال هذا التناقض موجوداً في كتاب المرشد الملاحي للخليج، ومعلومات تيخيرا لا يمكن تأكيدها الآن، لأنَّ مجرى النهر قد تَغيَّر كثيراً جداً.

على كُلِّ شاطيء من هذه الشواطيء شاهدنا قطعاناً وأسراباً كثيرةً، وطيور إوز وبط ودجاج وبهائم أخرى أما السكان فهُم من العرب الذين يتواصلون فيما بينهم سباحةً على جلود منفوخة (= قِرب). وقد جاء الكثيرون منهم إلى سفينتنا لبيع الدجاج البحري والإوز والحليب والزبدة والتمور وغيرها من الأطعمة، وكُلُّها بأسعارٍ زهيدة جداً. وكانت هناك رياح معاكسة قوية، لذا سرنا ببطء مع اتجاه النهر. وبعد ثمانية أو تسعة فراسخ وصلنا إلى حيث ينقسم النهر على قناتين متساويتين: إحداهما تصبّ جنوباً نحو شبه الجزيرة العربية، وتدخل الخليج الفارسي عند القطيف بالقرب من البحرين، مشكِّلةً لساناً من الأرض على شكل جزيرة ربما يبلغ طولها أكثر من فرسخ [١]. أمّا القناة الأخرى فهي تلك التي أبحرنا عليها، ومنها على مجرىً مُنفَرد، أوسع وأعمق. وإلى الشمال منها قليلاً وصلنا إلى جُزيرة عند منتصف النهر يبلغ طولها فرسخٌ واحد، وعُرضها نصف فرسخ، خضراء جداً وزاخرة ببساتين

(١) الترجمة حرفية هنا، ولكن من الصعوبة الإفتراض أن تيخيرا كان يصدق بوجود أي مصب لشط العرب يصل إلى القطيف، بالقرب من جزيرة البحرين، والذي سنرى أخيراً أن ثمة سبباً للإعتقاد بأنه زارها. بيد أن المسافة، بالفراسخ الجغرافية من عشرين درجةً إلى درجة واحدة، تطابق ذلك الموقع. ويمكن الافتراض أن مرشداً جاهلاً أو كاذباً ضلل الرحّالة؛ إذ يذكر الكاتب والتر دي غراي بيرش العبارة ذاتها فيما يخص الفرع الواصل إلى القطيف. أنظر:
Description of Bassora, British Museum, Sloane, MS. 197, f. 161; in: Walter de Gray Birch, The Commentaries of the Great Afonso Dalboquerque, Second Viceroy of India, (translated from the Portuguese edition of 1774), vol. 5, London, 1847, pp. 232- 238.

النخيل والحدائق [١]. والقناة الواقعة على جانب شبه الجزيرة العربية أعمق منها. [يقصد الفاو]. فتابعنا رحلتنا ووصلنا عند الساعة الثامنة صباحاً من يوم السادس من آب إلى قرية السرّاجي [٢]، الواقعة على بُعد خمسة عشر أو ستة عشر فرسخاً من هذا الشريط، حيث ترسو السُفن المحمّلة لتفريغ حمولتها. فألقينا مراسينا قبالة حصنٍ كان الأتراك يشغلونه على جانب النهر، في إقليم مبارك [٣]. فقد كان للأتراك الكثير من هذه الحصون هنا، سواءً في شمال الحصن أو جنوبه، لحماية المنطقة ومراكبهم من غزوات العرب.

تركتُ السفينةَ ودخلتُ القناةَ، التي ربما يبلغ عمق مياهها قامتين عند الجزْر، وأكثر من ثلاث قامات عند فيضان المدّ. وفيما يخص المدّ والجزْر فهو محسوس هنا، ومع ذلك فالمياه عذبة جداً [٤]. وبعد رحلةٍ أقل من فرسخ عبر هذا الجدول الصغير،

---

(١) هذا الوصف ينطبق على جزيرة مُحلة الحديثة، أسفل مدخل قناة الحفار، أو القناة المُؤدِّية إلى نهر الكارون. أنظر: Persian Gulf Pilot, pp. 278-279.

(٢) لم تُلاحَظ في كتاب الدليل الملاحي للخليج، ولكن سنكلير يذكر، استناداً إلى خارطة كيبرت أن السرّاجي تقع جنوبي البصرة بقليل، على الجهة الغربية.

(٣) وَرَدَتْ في ترجمة ستيفنس وترجمة سنكلير بصيغة موماريكا(Mombareka) ، وربما يقصد بها الشيخ مبارك المذكور آنفاً.

(٤) يبلغ المد والطفح عند البصرة نحو ثمانية أقدام، ويصل تأثير المدّ إلى نحو ثلاثين ميلاً بعد الكارون، ولكن مجرى شط العرب ينعطف هنا جنوباً. ويبدأ المدّ والجزر بالتناقص إلى الصفر. والماء مالح قليلاً، وأسخن من ماء قناة الحفار، أو الكارون، والسفن تفضّل الأخير. أنظر: Persian Gulf Pilot, p. 279.

المُزدان من كل جانب بالأراضي المزروعة وبساتين النخيل والحدائق المروية هنا وهناك، وصلنا إلى البصرة.

مدينة البصرة

تقع البصرة (١)، وهي مدينةٌ يسكنها العرب، على بُعد ميلين من شط العرب، المُكوَّن من إلتقاء نهري الفرات ودجلة، وتتصل بهما عبر القناة التي سبق ذكرها (٢)، وعن طريق اليابسة المعزولة بقنواتٍ طبيعية وقنوات صناعية. وهي تقع على أرض منبسطة، وربما كان فيها عشرة آلاف بيت داخل الحصن وخارجه، معظمها واسعة وفسيحة، لكن بناءها رديءٌ؛ فهي مبنيةٌ بالآجر المُجفَّف بالشمس الذي لا يصمد أكثر من ثلاث سنوات إلّا ما ندر. وبيوت الفقراء في العموم من الحصران وحُزم القصب الذي يَكثُر في الأنهار. وهنا يُوجَد محيط مربّع الشكل، طوله أطول من عُرضه (٣). وجميع الأسوار والمتاريس هنا من الطين، وكلها مُهدَّمة تقريباً. ويحيط بالمدينة خندقٌ عميق وعريض يُغذّيه رافد، وبداخله نحو عشرة آلاف بيت (٤). وهنا مركز الحركة التجارية ومعظم الحِرف اليدوية أيضاً فضلاً عن المقرّات الرئيسة ومراكز القيادة

---

(١) قارن وصف البصرة في أعلاه.

(٢) هي العشار اليونانية في كتاب المُرشد الملاحي للخليج المذكور أعلاه.

(٣) الأدق أنه مستطيل وليس مربعاً، بسبب اختلاف أبعاد الطول والعرض.

(٤) إن الرقم المذكور في أعلاه يشمل المدينة المُحصَّنة والضواحي. أما كلمتا (Fortaleza) و(Fort) فتعنيان الحصن أو المدينة المُحصَّنة، وليس المعقل(Citadel) ، ذي المعنى العسكري الصِرف.

ومعظم الحامية التي تَتكوَّن إجمالًا من ثلاثة آلاف رجل بين جنود مسلحين وخيّالة، وهم من الأتراك والأكراد والعرب، إلى جانب أولئك الموجودين في المخافر. وهناك الباشا، وهو القائد الأعلى في حالتي السلام والحرب، ودار مكوس تَدرُّ عوائدَ كبيرةً تُدفع منها نفقات الحاميات وغيرها من التكاليف، ويزيد منها فائض كبير.

وهنا أيضاً دار لصناعة السُفن أرسنال (١)، وعددٌ كبير من المدفعية جيدة الصنع، وبعض القوادس القليلة المصنوعة من قطع الخشب الصغيرة، وهي رديئةُ الصُنع. وقد تمّ تدشين إحداها حينما كنت هناك. ولكن تلك القوادس لم تَكُن مُعدَّةً ضد البرتغاليين مثلما كَتَبَ أحدهم، لأنَّ الأتراك كانوا يعرفون جيداً أنهم لا يستطيعون بمثل تلك القوادس (٢)، إلحاق الأذى بهم، وإنما كان الغرض منها استخدامها في النهر وفي المناطق المجاورة ليس إلّا، لكبح جماح العرب المُتمردين الذين كانوا يبتزون منهم

---

(١) عن اشتقاق مصطلحي أرسنال وترسانة، أنظر: أنيس عبد الخالق محمود، القوة البحرية العثمانية في البحر المتوسط خلال القرن السادس عشر، دار المدار الإسلامي، بيروت، ٢٠١٣، ص ٤٩، هامش (٤٨)؛ إذ وَرَدَ فيه: إن مصطلح ترسانة دخل إلى اللغة التركية بعد استخدامات كثيرة لكلمة (دار الصناعة) العربية من جانب العديد من دول البحر المتوسط عبر القرون. فقد استخدمها الإسبان بصيغة(ataruzana-arsenal- darsena) ، والبرتغاليون بصيغة - (darsenale drasena)، والإيطاليون بصيغة(arsenale -darsena) ، والمالطيون (tarzna – tarznar) أما العثمانيون فقد كانوا يستخدمون كلمة ميناء(port) ، بدلاً من الأرسنال البحري· ولكن منذ بداية القرن السادس عشر فصاعدا، بدأوا باستخدام مصطلح ترشانة(tershane) ، أو ترسانة (tersane)، المُشابه للإستخدام الإيطالي للكلمة.

(٢) القادس: (Galley) نوع من السفن الشراعية·

إتاوةً ثقيلة. وعلى الرغم من قِلة عدد تلك القوادس، إلّا أن كلفتها كانت عاليةً، لأنَّ أشجار الصنوبر لا تنمو في تلك المنطقة على الإطلاق، كما أن استيراد أخشابه من المناطق الأخرى مكلفٌ.

وثمةَ جسرٌ خشبيٌ مكوّنٌ من ثمانية قوارب يمتد على رافد النهر، ولكن في الأماكن الأخرى يعبر الناس على قوارب يُسمّونها دوانق، مصنوعةٍ من قطع خشب صغيرة بسبب شحّة القطع الأكبر. ومع ذلك، وعلى الرغم من أن هذه الدوانق غير مُجلفطة (١)، فإن الماء لا ينفذ إليها لأنها مُغطّاة بقارٍ يُسمُّونه قِير (٢) سأتحدث عنه كثيراً فيما بعد، بدلاً من الزفت.

والبصرة مُجهّزةٌ تجهيزاً جيداً بالمواد الغذائية وخصيبة، ولاسيما بالتمور التي تكثر هنا بأنواعٍ فاخرة جداً ومتنوعة، حتى أن كميات كبيرةً منها تُصدَّر إلى بغداد وإلى موانئ بلاد فارس وهرمز سنوياً، لأنَّ تلك المواد تُشكّل الغذاء الرئيس لعامة الناس. وتنتج التربة هنا كل صنوف الفواكه والخضار والقمح والشعير والرز والحبوب، وهي

---

(١) الجلفطة: سدّ حزوز السفينة أو القارب.

(٢) قارن: Henry Yule and Arthur Coke Brunell, A Glossary of Anglo-Indian Colloquial Words and Phrases, and of Kindred Terms; Etymological, Historical, Geographical, and Discursive, London, 1886, p. 368, (hereafter: Hobson- Jobson).

إذ يذكر بصيغتين: كيل (Kil)، وقير (Kir).

وفيرةٌ وزهيدة. وبسبب حركة الاستيراد من بوشهر [١]، وريق سيف الدين ودورق [٢]، يبقى السعر منخفضاً. وهناك أنواعٌ كثيرة من المواشي الصغيرة والكبيرة، وأنواع كثيرة من الطيور أيضاً [٣]، وهناك الأسماك النهرية، لكن طعمها ليس لذيذاً. وهناك تجارة مع هُرمز التي تأتي منها كُلُّ السلع الهندية، ومع كُلٍّ من البحرين والقطيف والإحساء [٤]، وبلاد فارس وبغداد وكل أنحاء شبه الجزيرة العربية. وتنتشر هناك أعداد لا حصرَ لها من العقارب، وقد شاهدتُ الكثيرَ منها بحجم الروبيان [٥]. والهواء هناك غير صحي والمناخ حار جداً. أمّا السُكان فهُم من الأتراك والعرب، ولكن أعداد العرب أكثر، فهُم هنا مواطنون، وملامح معظمهم جميلة، ولاسيما الأطفال والنساء، اللواتي يُقال أنهن لسنَ عفيفات جداً [كذا]. وغالباً ما يستخدم السكان هنا الجِمال والبِغال والحمير والخيول؛ ومنها خيول إستيلاد نشطة تُصدَّر إلى

---

(١) لاحظ أن حرف (r) الأخير قد تَغيَّر في صفحة (٢٣) من ترجمة سنكلير وأصبح (l)؛ إذ وَرَدَ الاسم بصيغة (Rexel). وقد تدهورت زراعة الرز خلال مطلع القرن العشرين وحَلَّت محلها زراعة القمح والتمور. بشأن التغييرات الكبيرة التي طرأت على المناخ، أنظر: Persian Gulf Pilot, p. 287ff.

(٢) وَرَدَتْ هنا بصيغة(Dorek) ، في حين وَرَدَتْ في المرة الأولى بصيغة (Doreka).

(٣) وَرَدَتْ في ترجمة سنكلير بصيغة :(fowl) ويقصد بها الطيور المائية، أو الدجاج المائي تحديداً.

(٤) وَرَدَتْ في النص الأصلي بصيغة(Lasan) ، وفي الأغلب إنها الإحساء، وهي ولاية في شبه الجزيرة العربية تحيط بالقطيف.

(٥) الكلمات: (crayfish)، أو (écrevisse)، أو (Astacus fluviatilis)، تعني الروبيان، أو جراد البحر، أو (سلطعون النهر). وهو لا يشبه العقرب في الشكل، ولكنه يماثله بالحجم.

هُرمز للمتاجرة بها في الهند بسبب كثرتها وجودة نوعيتها.

حينما وصلت البصرة كان كثيرٌ من بيوتها بحالة خراب، داخل الأسوار وخارجها، وقد أُعيد بناؤها بسرعةٍ كبيرة جداً. وكان السبب في ذلك الخراب أن النار شَبَّت في مستودع للبارود قبل ثمانية أو عشرة أيام، فانفجرت خمسة آلاف كيس جلدي من البارود، وأحدثت هياجاً شديداً، حتى اعتقد الناس أنها نهاية العالم. وقد حَدَثَ ضررٌ عظيمٌ في الجزء الأعظم من هذه المدينة، التي مضى عليها الآن نحو قرنين وهي منتصبة في هذا المكان. أمّا الآن فهي في موقعها الثالث (١). ويحتل الأتراك هذه المدينة منذ أكثر من خمسين سنةً بعد أن سيطر عليها أحد الطُغاة العرب ووضعها تحت تصرفهم (٢).

---

(١) الإشارة هنا إلى أحدى التحولات المُتعدِّدة للموقع والمباني المألوفة في المدن الآسيوية كثيراً، ولاسيما في مناطق السهول الغرينية. ويبدو أن تيخيرا كان مُطّلعاً بشكلٍ جيد على التحولات التي طرأت على موقع البصرة. فهو يذكر الموقع الثاني في الصفحة (٣٤) من ترجمة سنكلير، والموقع الأول في الصفحة (٣٥) في الترجمة ذاتها. وقد ذكر الرحّالة فيليب الكرملي أن الموقع الثالث كان أثناء حكم أسرة افراسياب للبصرة، فقد قرَّر والي البصرة، الذي سبق له أن تَمَرَّد ضد السلطان العثماني، نقل موقع المدينة إلى ضفة نهر الفرات، فبدأ بتشييد قصرين كبيرين وعدداً كبيراً من البيوت في هذه المدينة. انظر: Esprit Julien, Voyage d'Orient du Révérend Père Philippe de la Très-Saincte-Trinité, Paris, 1652, (2nd ed.1669), pp. 78-79.

(٢) كان ذلك في سنة (١٥٤٦)، أنظر: Salih Ozbaran, The Ottoman Response to European Expansion: Studies on Ottoman-Portuguese Relations in the Indian Ocean, Isis Press, Istanbul, 1994, p. 160.

أما فيما يخص تقاليد السكان وملبسهم وعاداتهم، فليس هناك ما يُمكن قوله، لأنهم كلهم عربٌ وأتراك، وأساليبهم معروفة جيداً. وجميع النقود الذهبية والفضية متداولة بهذه المدينة بما تساويه قيمتها، ولكن النقود المضروبة في دار السكة مصنوعة من الفضة والنحاس. وتشمل العملات الفضية: اللارينات (١)، وهي نقودٌ طولية الشكل ذات نهايات منحنية تساوي الواحدة منها خمسة وستين مرابطياً؛ والشاهيات (٢)، وهي عملاتٌ مُدوَّرة الشكل تشبه عملتنا سيشيللو (١)، وتساويها في

---

(١) يذكر سنكلير أنها هكذا تُسمّى في مدينة لار، التي قيل إنها سُكَّتْ فيها أولاً. وكانت تساوي في هذا الوقت نحو عشر بنسات. في حين ذكر مصدرٌ آخر أن اللارين أو اللاري (Lāri) كلمة فارسية، وهي نوعٌ من العُملات المعدنية التي كانت تُستخدم في سواحل الخليج والساحل الغربي للهند وجزر المالديف. ويذكر المصدر أن اسم العملة مشتقٌ من مدينة لار الواقعة على ساحل الخليج· أنظر: Hobson- Jobson، p. 386. (Larin),.

(٢) ذكر سنكلير، استناداً إلى رسائل مُرسَلة إلى شركة الهند الشرقية البريطانية من موظفيها في الشرق، أن الشاهي يساوي في ذلك الوقت نحو أربع بنسات إنكليزية، أنظر: Shahi and Shahey؛ in: William Foster, Letters Received by East Indian Company, vol. iii, (1615), London, 1899, p. 326.

في حين قَدَّم لنا يعقوب سركيس تفاصيل مهمةً عن أصل تسمية هذه العملة وقيمتها، إذ يقول: شاهي أو شاهية: نقدٌ نحاسي إيراني يشبه البارة التركية، أو الفلس العراقي العصري. وقد اختلفت قيمته باختلاف الوقت والبلد أيضاً· والشاهية معروفة إلى عهدنا هذا، والكلمة منسوبة إلى الشاه، ومؤداها بالفارسية الملك، فيكون معناها القطعة الملكية أو النقد الملكي. ويُعقّب سركيس على هذا التعريف فيقول: إن كلمة شاهي بالتذكير ليست منسوبة إلى شاه إيران، فإنها كانت من النقود العثمانية. وقد جاء في إسماعيل غالب (ص ٨٠) عن مصادر ذكرها أن تسمية هذه إنما كانت لوجود كلمة (شاه) على نقود من الذهب للسلطان سليم الأول الذي ←

القيمة، وأشكالها جميلةٌ جداً، لكن عيارها أقل من عيار اللارينات.

استولى على مصر ... فكان من الطبيعي أن يُسمَّى ذلك النقد (شاهي)، وهكذا سُمِّيت الأقجات التي ضُرِبت إلى نحو سنة الألف للهجرة (شاهي) أيضاً. وهذا إيجاز ما قاله في كتاب أوننجي عصر هجريدة استانبول حياتي، استانبول، (١٣٣٣)، فرمان للسلطان (سليم الثاني موجه في تأريخ سنة (٩٨٠ / ٢٧٥١م) إلى بكلربكي ديار بكر ودفتر دارها، مضمونهُ جواب الاستئذان بضرب (الشاهي) و(البارة) بعيار بغداد، وهو إنه أمرَ بأنّ يُضرب نقد بعيار شاهي بغداد، على أن يُزاد عليه قيراط، وترفع عنه لفظة (شاهي) ويُسمّى (سليمي). وجاء في هذا الكتاب (ص ١٠٣) فرمان آخر تأريخه في سنة (٩٩١ / ٣٨٥١م) يقضي بقبض ما يرد من أرضروم وآمد وبغداد وحلب من الشاهي الناقص الوزن والعيار. وكذلك جاء في تأريخ نعيما (٣: ٣٦٨) في أخبار سنة (١٦٢٥) في زحف الردار حافظ أحمد باشا إلى بغداد قوله: وكان ضيق بسبب قلة النقود، ففتحت دار الضرب في قلعة الإمام الأعظم (أبي حنيفة)، وشرع في ضرب شاهي بغداد. وجاء في براءة تضمين الكمرك للمدعو(سفر) من الأرمن على إثر فتح السلطان مُراد لهذه المدينة في سنة ١٠٤٨ / ٨٣٦١م) أنه يُؤذنُ له فيها بضرب البادشاهي والبارة في بغداد. وقد نقلت ترجمة هذه الوثيقة إلى العربية في مجلة غرفة تجارة بغداد، العدد (٥)، ٤٤٩١٠٠٠ وكان (الشاهي) مُستعمَلاً في بغداد في سنة (١٦٦٤)، وهو من ضربها. فقد جاء في رحلة تيفينو(الجزء الثالث، ص ٢١٢- ٢١٣) أن الشاهي يُسمّى (بغدادياً) لأنّه يُضرَب في بغداد ووزنه درهم، وفي مجلة المشرق (العدد ١٣، ١٩١٠، ص ٦٥٩)، في رحلة القس خدر الكلداني من الموصل إلى روما في سنة (١٧١٩)، في كلامه عن هذه المدينة وكان فيها في سنة (١٧٢٧)، أن الجولية هي البغدادية (بالتأنيث) السالكة في الموصل، وهو يرى أن قيمة كل منها تساوي الأخرى. هذا ما كان من أمر الشاهي العثماني، أمّا (الشاهية) بالتأنيث فهي – كما جاء في المثنى – نقدٌ نحاسي إيراني (إنتهى كلام الأستاذ يعقوب سركيس). أنظر: مباحث عراقية في الجغرافية والتأريخ والآثار وخطط بغداد، القسم الثالث، ص ٥٥- ٧٥.

(١) سيشيلو «sexillo: لم نعثر على تعريف لها حالياً».

لا تُوجَد في هذه المدينة مبانٍ جديرة بالذكر، باستثناء بعض الحمّامات العامة، وهي نظيفةٌ جداً ومُربحة. والقانون يسمح للرجال بدخول تلك الحمّامات حتى الظهيرة، وللنساء من الظهيرة حتى مغيب الشمس. وإذا ما سَوَّلت لأحد نفسه ارتكاب الحماقة وخرق هذا القانون، فسيُعاقب بقسوةٍ بالغة. وتجري القناة الصناعية، كما ذكرت، بإتجاه شمالي المدينة، ومنها تُسقى حقول واسعة وعدد هائل من بساتين النخيل. وقد أَكدَّ لي المسنّون أنها كانت فيما مضى صالحةً للملاحة إلى حد مدينةٍ تقع على بُعد ثلاثين فرسخاً نحو الداخل، ولكن كمية المياه التي تتدفق من القناة قليلة. ومع ذلك، فلا تزال القناة مشهورةً بكونها من عمل الإنسان.

تبجيل المسلمين للمسيح

في أحد الأيام اصطحبوني إلى تلك القناة بمسافةٍ تزيد عن ثلاثة فراسخ بقليل لرؤية الشيخ أو السيد (١)، الذي يحكم مساحاتٍ شاسعةً من المنطقة التي مَرَّرتُ بها فيما بعد. وكان هذا يُدعى الشيخ محمّد بن راشد (٢)، وهو رجلٌ يستحق مرتبةً أفضل

---

(١) وَرَدَ في النص تعبير اللوَرَدَ (Lord)، والمقصود به كما ترجمناه في أعلاه.

(٢) وَرَدَ في نسختي ستيفنس وسنكلير بصيغة. (Xeque Mahamed eben Raxet) وربما يكون هذا الشيخ أحد أبناء الشيخ راشد المغامس الذي كان أميراً مُستَّقلاً يحكم البصرة، ويَسكُ النقود باسمه في منتصف القرن السادس عشر، وهو الذي أرسل ابنه ووزيره إلى السلطان سُليمان القانوني باستانبول ومعهما مفاتيح البصرة التي قدّماها إليه بعد أن انتزع بغداد من الفرس في سنة (١٥٣٥).

لمظهره وهيبته، وتَحدَّثَ معي حديثاً مُطّولاً عن طريق المترجم [١]، وأبدى سروراً كبيراً بهذا الخصوص، لأنّه لم يرَ إفرنجياً قبل ذلك قطْ، كما يُسمُّون المسيحيين الأوروبيين في أوروبا. وتساءل عن ملبسي ولغتي وعاداتي التي يبدو أنها أثارت اهتمامه جداً. وبعد أن دعاني إلى مأدُبةٍ باذخة وتناولت معه وجبةً من لحم دجاج سيء الطهي – لم يكن له أدنى طعم – استأذنته بالإنصراف.

وصعوداً مع مجرى النهر، الذي كان منظرهُ ساراً جداً حقاً، كُنتُ أرى المحمّديين [٢]، الذين كانوا معي في القارب يتسلقون مكاناً معيناً ويُصلّون بخشوع كبير جداً. ونظرتُ إلى حيث كانوا يَتطلَّعون بصلاتهم، فشاهدتُ عند الشاطيء منزلاً صغيراً أشبه بالصومعة، وتساءلت عمّ يكون. فقالوا أنه مكرّسٌ لعيسى بن مريم، أي يسوع بن ماريا. وأروني مساحاتٍ شاسعةً من الأراضي والكثير من بساتين النخيل التي أُوقفت لدعمه ولخدمته. وقد أثار هذا الأمر دهشتي، لأنَّي لم أكن أعرف أبداً أن المسلمين يكرّسون له معبداً [٣]، مع أني أعرف أنهم يُبجِّلونه كثيراً ويُسمُّونه روحُ الله،

---

(١) هذه أحدى العبارات التي تُشير إلى أن عربية تيخيرا أضعف من فارسيته. وفيما بعد، سنلاحظ أن تركيته أضعف من عربيته.

(٢) يستخدم ستيفنس تعبير (المحمّديون) للإشارة إلى المسلمين، أما سنكلير فيستخدم تعبير (المور).

(٣) يبين هذا التعبير الجميل والحذر جداً حالة من حالات التأمل المنصف تجاه المسلمين، ولكن سنكلير يذكر أنه غير ذي أهمية ويقتبس الدكتور كايسرلنغ عبارة تيخيرا هذه، ويضيف: لا شك أن طوائف مسيحيةً تَشكَّلت هناك منذ تأسيس المسيحية. ويقول أيضاً: من المُدهش إنه لم يذكر يهود هذه المدينة، الذين بلغ عددهم في وقت بنيامين التطيلي ألفي شخص. ومع ذلك، إذا ←

أي نَفَسُ الله.

الفصل الرابع

مغادرتي البصرة بطريق الصحراء، ويوميات طريقي حتى وصولي إلى مشهدِ علي، ووصولي إلى مدينة في المكان ذاته

عندما وصلتُ مدينة البصرة أبقَ في منزل سانتو فونتي، وهو تاجرٌ بندقي أتيتُ برفقته من هرمز، لأواصل هذه الرحلة معه. وكان معنا سيدٌ محترم من الهند، يُدعى دييغو [١]، دي ميلّو دي سان بايو، وآخر برتغالي اسمه خوان بنتو [٢]، وهو رجلٌ ثري

أخذنا بنظر الإعتبار أن عدد العوائل اليهودية التي سكنت هناك منذ عشرين سنةً فقط قد انخفض من ثلاثة الآف عائلة إلى خمسين ألف شخص فقط، فمن المحتمل جداً أن عددهم في بداية القرن السابع عشر كان مقارباً أيضاً، وغير جدير بالإهتمام لدى تيخيرا في أن يذكر شيئاً عنهم.

Dr. Kayserling, p. 170, n.

(١) مما يدعو للاستغراب أن هذا الاسم وَرَدَ بصيغة جيمس في ترجمة ستيفنس.

(٢) يذكر سنكلير أن خوان بنتو(Juan Pinto) هذا قد يكون خوان بنتو(João Pinto) الذي وَرَدَ اسمه في ملاحظةٍ هامشية برسالةٍ ملكية مُؤرَّخة في (١٥) كانون الأول، سنة (١٦٠٦)، الذي تزوج ابنة بيلشيور دياز دا كروز (Belchoir Diaz da Cruz)، وغرق في خليج البندقية، حينما كان يحمل مراسلاتٍ من الهند إلى الملك. أنظر:

Sinclair, p. 32. n.

وقد نُشِرَت مجموعة المراسلات تلك في كتاب:

Raymundo Antonio de Bulhو Pato, Documentos remettidos da India; au Livros das

←

جداً، وكانت علاقتها بفونتي أقوى من علاقتي به.

عندما بدأت أتهيأ للمغادرة، فَهِمتُ أن علينا أن ننتظر ما لا يقل عن أربعة أو خمسة أشهر، بسبب انخفاض منسوب المياه في نهر دجلة حينئذ، وسيزداد انخفاضاً كل يوم حتى عيد الميلاد، عندها يبدأ بالإرتفاع مع بداية تساقط الأمطار التي لا يمكن لأحدٍ أن يبحر من دونها بسبب كثرة المستنقعات وإنتشار اللصوص الذين يَتحيَّنون الفُرص لمهاجمة القوارب، وهم غالباً ما يفعلون ذلك· ولا يمكن للبحّارة سحب القوارب في المياه الضحلة مثلما يفعلون خلال معظم الرحلة التي تستغرق في أوقات الفيضان ما بين خمسة وثلاثين إلى خمسين يوماً، وفي المياه الضَحلة نحو ضِعف هذه المدة· وقد حَدَثَ هذا لقافلةٍ (١)، من القوارب كانت قد غادرت البصرة قبل خمسة وعشرين يوماً من وصولنا، واستغرقت ثلاثة أشهر للوصول إلى بغداد، بعد تكاليف باهضة وقلقٍ كبير.

وبينما كُنتُ في حيرةٍ من أمري، بدأت إحدى القوافل بالإستعداد لرحلةٍ بريّة عبر الصحراء العربية، بطريقٍ غير مُحدَّد، وغير مطروق حتى الآن إلّا قليلاً. ولأنّ الشكوك كانت تساورني بخصوص السفر عبر النهر، فقد سألت عن تلك القافلة وعن إمكانية

---

mançōes, 1880.

(١) على الرغم من أن هذه الكلمة تُستخدم بشكلٍ عام (كما يستخدمها تيخيرا هنا) مرادفةً لكلمة القوافل، فإن كلمة (caravans) كانت تُستخدَم غالباً من لدن الكُتّاب البرتغاليين لقوافل السفن والزوارق· أنظر: Hobson-Jobson, p. 109 (Cafila),.

اللحاق بها. ومع أن المجموعة زعمت وجود مصاعب كثيرة إلّا أنني قَرَّرتُ القيام بالرحلة مع هذه القافلة، لأنَّ السفر معها يناسبني كثيراً. فاتفقتُ مع قائد القافلة، وهو عربيٌّ مسلم يسكن بالقرب من البصرة يُدعى الحاج محمّد بن فلاح العدساني [١]. وكان التجار البرتغاليون والبنادقة يَثقُّون جداً بوسيطي مصطفى، وهو يهودي مُرتد [٢]، تَحوَّل إلى تركي [٣]. وبهذه الطريقة اتفقنا على أن يوصلني إلى بغداد، مع فراشي وأمتعتي الشخصية القليلة مقابل خمسين دوكة، بضمنها العناية الطبية والطعام، الذي كان قليلاً وشحيحاً طوال الرحلة، مثل طعام السكان· ومع ذلك، فقد احتفظت بحقيبتي ببعض الكعك الطازج وبعض علب السفرجل المحفوظ المُربى، الذي استهلكه الدليل معي، لأنّه هو الذي وفّره. ولتغطية نفقاتي، أحضرتُ معي ثلاث بالات من صبغة النيلة، وقد وافق دليلي على نقل الأخيرة مُعفاةً من كل التكاليف والضرائب مهماً كان نوعها. فقد وجدت أن تلك أرخص طريقة، ولا تُكلف كثيراً، وتجنبني المتاعب التي تَعرَّض لها الآخرون في تسديد المُستحقّات المُترتِّبة عليهم وعلى بضائعهم.

---

(١) وَرَدَ اسمه في ترجمتي ستيفنس وسنكلير بصيغة (Agi Mahamed ben Falah Atsany)، في حين وَرَدَ في ملخص السيد جعفر الخياط بإسم حجي محمّد بن فلاح العرفاني· أنظر: مشاهدات تكسيرا في العراق سنة (١٦٠٤): مُلخَصة عن الترجمة الإنكليزية، ص ١٣٧. وكلمة العرفاني بعيدة اللفظ عن العدساني.

(٢) كلمة مرتد (Renegado) وَرَدَتْ في ترجمة ستيفنس، وهي مفقودة من ترجمة سنكلير.

(٣) المقصود هنا إنه تحول إلى مسلم، إذ كانت كلمة تركي في ذلك الوقت مرادفة لكلمة مسلم.

وعندما كنت أتأهّب للرحيل، قَرَّر دييغو دي ميلّو مصاحبة المجموعة نفسها من دون انتظار سانتو فونتي الذي لم يَتمكّن من المغادرة بالسرعة المُمكنة، لأنّه جلب بضائع كثيرةً معه. وقد وافقت على مطلب دييغو العاجل، الذي كان يتخذ الإستعدادات الضرورية للذهاب مع مصطفى المذكور أعلاه، ثم شرعنا بالرحيل. وفي كل ترتيباتي كنتُ مَديناً للتاجر البندقي (جيرونيمو بون تيمبلي).

الرحلة البريّة إلى بغداد

إلى الجنوب من البصرة ثمةَ مكانٍ كبير مفتوح ومستوٍ يُدعى المشراق [١]، يُستخدم مَحلًّا للتسوق ومعرضاً عاماً. فضلاً عن ذلك، ففي أيام الجُمع المُقدَّسة لديهم، يلتقي جميع الخيّالة المحمّديون، وهم خبراء وأعدادهم كثيرة. ولكنهم لا يرتادون هذا المكان إلّا لمشاهدة هذه الفعالية، ومن خلال الإلتقاء بالجوامع قليلاً؛ فهُم لا يَتوقَّفون عن مزاولة أعمالهم أو متابعة تجارتهم في ذلك اليوم، مُقللين من حُرمة يوم الجمعة.

الخميس، ٢ أيلول؛ بعد أن عانقنا أصدقاءنا الآخرين الذين تَمنّوا السلامة لنا، غادرنا هذا المكان أو المنطقة المنبسطة؛ إذ بدأت القافلة بالاصطفاف إستعداداً للرحيل. وقضينا تلك الليلة وحدنا، فكانت أول ليلة سيئة نمر بها، بانتظار دليلنا الذي لم يكن قد أرسل كُلَّ بضاعته بعدُ. وفي مساء اليوم التالي، الجمعة، ٣ أيلول، أتبعنا الباقين: أنا

(١) من محلات البصرة الجديدة.

على الجمل، وصديقي [١]، على ظهر الحصان.

حقول الملح

بعد أن قطعنا مسافةَ نصف فرسخ تقريباً خلال بساتين النخيل دخلنا سهولاً قاحلةً، عُرضة للفيضان، ومُغطّاةً بالملح بفعل حرارة الشمس المرتفعة جداً في تلك المناطق، وبفعل مياه بحر الخليج الفارسي التي تغمر تلك الأراضي في بعض المفاصل [٢]، مع أنها تبعد أكثر من عشرة فراسخ. وعليه، فقد أصبحت تلك الأراضي مهجورةً بعد أن كانت خصيبة فيما مضى.

البصرة القديمة

واصلنا رحلتنا بمحاذاة حاجز ترابي يبلغ ارتفاعه ستة أو سبعة أشبار، وعرضه أربعة أشبار، ويبعد أربعة فراسخ عن موضع توقفنا الذي كان يدعى الدريهمية، الذي يقع عند منتصف خرائب مدينة البصرة الثانية [٣]. ويمكن رؤية بعض آثار هذه

---

(١) وَرَدَتْ في ترجمة ستيفنس بصيغة الجمع، إذ ذكر ما نَصّه: ... ورفاقي على الحصان، في حين وَرَدَتْ في ترجمة سنكلير بصيغة المفرد التي اعتمدناها في ترجمتنا.

(٢) يبدو أنه يشير إلى تيارات مدّ وجزر ربيعية تحدث في شهر آب، حينما تكون في أقصى مداها في الخليج العربي. أنظر: Persian Gulf Pilot, p. 292.

(٣) الزبير الحالية، أو بالقُرب منها، وهي أول مدينة إسلامية تَأَسَّست بعد معركة القادسية. وقد وصفها الرحّالة نيبور قائلاً: تقع مدينة البصرة القديمة، التي اشتهرت في ظل حكم الخلفاء الأولين، على بعد ميلين جنوبي غربي المدينة التي تحمل اليوم هذا الاسم. ونجد هنا بقايا سور ←

المدينة، فضلاً عن الجامع الكبير [١]، وبقايا متراسٍ، وجزء من خندقها. وتبدو هذه المدينة عظيمةً لكُلِّ من يشاهدها. فقد شاهدنا هناك بعض الآبار ذوات المياه الصالحة للشرب، وأراضٍ مزروعة بغلال القمح والشعير والفواكه. وكان مسارنا اليوم بالإتجاه الجنوبي. ثمّ توقّفنا هنا يومي السبت والأحد ٤-٥ أيلول، ثم بدأنا نشعر في العراء بحرارة الشمس، وهي مُعتدلة في ذلك المكان وخلال ذلك الموسم.

الإثنين، ٦ أيلول: إنطلقنا برحلتنا بعد أن أرهقنا التشاجر مع العرب وكلاء سيد تلك الأراضي الشيخ محمّد بن راشد، الذي تَعرَّفتُ به كما ذكرت في أعلاه. وهو يفرض الضرائب على السلع التجارية. وحينما رأيت كيف عُومِلَ الآخرون في تلك المناسبة وغيرها، رأيت أن كل ما دفعته للدليل كان أفضل لي لأتخلص من تلك المتاعب.

من أسوار المدينة، يبلغ محيطه فرسخين، فضلاً عن أسوار جامعي علي البرمكي، وسفران، وأضرحة الحسن البصري الشهير، والزبير بن العوام وطلحة، وإبن عبيدة وغيرهم من الحكماء الذين دُفنوا في البصرة. أنظر: كارستن نيبور: رحلة إلى شبه الجزيرة العربية وإلى بلاد أخرى مجاورة لها، ترجمة: عبير المنذر، الجزء الثاني، بيروت، ٢٠٠٧، ص ١٩٠، فما بعد. أنظر أيضاً عن موقع البصرة القديمة: عزة رفعت (تقديم وتحقيق)، مختصر تأريخ البصرة، بور سعيد، (بلا)، ص ٤-٨.

(١) لَعلَّه يشير إلى جامع الإمام علي عليه السلام المشهور هناك والذي لم يبقَ منه في الوقت الحاضر سوى ركنٌ من أركانه الأثرية، أو يشير إلى بلدة الزبير الحالية القريبة من الدريهمية، لأنه لم يذكر في رحلته شيئاً عن البلدة المذكورة، ولا عن القبب التي ربما لم تكن قد أنشئت بعدُ. أنظر: الخياط، المصدر السابق، ص ١٣٧.

بدأنا رحلتنا بالإتجاه الغربي – الشمالي – الغربي عبر أراضٍ منبسطة مهجورة بشكلٍ يدعو إلى الدهشة، وكانت على جهتنا اليسرى جبالٌ شاهقة الإرتفاع تبعد عنا ستة أو سبعة فراسخ، وأعتقد أن طولها يبلغ فرسخين. ويَطلقُ العرب على هذه السلسلة الجبلية اسم جبل سنام [١]، وهي تَسميةٌ مشتقةٌ من السنام الذي شُيِّدت عليه مدينة البصرة الأولى، ويقولون أن كمياتٍ وافرةً من المياه كانت موجودةً فيه، وأن القوافل التي كانت تسلك ذلك الطريق في طريقها من البصرة إلى مكة كانت تستقي من المياه هناك. وتلك الأراضي وكل ما حولها تقريباً منبسطة جداً، بحيث بَدت الجبال وكأنها جزيرةٌ وسط البحر.

البُرجسية

بعد أن قطعنا أكثر من ميلين بقليل، توقفنا مساءً عند بعض الآبار ذوات المياه الباردة العذبة، في سهل ملئ بالحنظل، الذي يَجمعهُ عربُ الصحراء لصنع الدواء بعد خلطه مع حليب الجمل [٢]. وهم يطلقون على هذا المكان اسم البُرجسية، أو كوبروكيا [٣]، أي مكان الدوكات. وهنا اجتمعت القافلة كُلُّها التي كانت تتكوّن من

---

(١) لا يزال هذا الجبل موجوداً حتى الآن. ولكن لا عِلمَ لنا بوجود البصرة الأولى عليه. ولكن يحتمل أن تلك المدينة القديمة كانت على مقربةٍ منه.

(٢) هذه أحدى الإشارات التي تبين أن الرحّالة كان مُلما بمهنة الطب، إن لم يكن مُحترفاً فيها.

(٣) هكذا وَرَدَتْ في النص (Cobrocya). وقد نقلت بعض المصادر الأجنبية، ولاسيما مجلة الجمعية الجغرافية البريطانية، هذه التسمية من تيخيرا. فقد وَرَدَتْ بصيغة (Bragasya). وتضيف المجلة ←

مئة وخمسين جملاً وخمسة وتسعين حماراً وإثني عشر حصاناً على الرغم من قِلة عدد أفرادها. وهنا شاهدنا بعض السكان الذين فرّوا لدى رؤيتنا، وعلمنا أنهم من البدو الفقراء (١)، أو أفقر العرب الذين يتجولون بشكلٍ عوائل في نواحي تلك الصحراء، وهم عُراة أو مكسوين بجلود الحيوانات التي يصطادونها ويعتاشون عليها، مثل الأيائل والغزلان والحُمُر الوحشية والذئاب والأرانب البريّة، إلخ···

وعند الساعة الرابعة عصراً استأنفنا رحلتنا وسرنا بالإتجاه نفسه عبر أراضٍ منبسطة تنتشر فيها الكثير من آبار المياه العذبة السائغة، واجتزنا خرائب (٢)، مبنيين ضخمين كانا فيما مضى مساكن لأولئك الذين يحرثون الحقول التي تُدعى كُلُّها چبيدة (٣). وبعد أن قطعنا فرسخين آخرين توقفنا عند منطقةٍ منبسطةٍ قاحلة عديمة المياه، لإنتظار جملٍ كان قد خرّ وتَخلَّف وراءنا مع حمولته.

قائلة أن البرجسية بئرٌ تقع إلى الجنوب الغربي من مدينة الزبير. أنظر: Royal Geographical Society, The Geographical Journal, issue 7-12, vol. 52, 1918, p. 183.

(١) وَرَدَتْ في النص الأصلي بصيغة (Beduynes mesquines) = (Bedawin Miskin)، أي بدوي فقير، أو مسكين. ويذكر سنكلير أن كلمة فقير تعبير مناسب بالعربية لكلمة عالة.

(٢) خرائب لا اسم لها تبدو في هذا الطريق في خارطة كيبرت.

(٣) وَرَدَتْ في النص بصيغة :(Choabedeh) وچبيدة ناحية تابعة لمحافظة الناصرية، وشمالي محافظة البصرة. وهناك منطقتان بهذا الاسم: چبيدة الشمالية وچبيدة الجنوبية، وهذه تقع في ناحية الزبير في قضاء الزبير بمحافظة البصرة. أنظر: المواقع الأثرية في العراق، بغداد، ١٩٧٠، ص ٦٤.

الرميلة

الثلاثاء، ٧ أيلول: استأنفنا رحلتنا قبل طلوع النهار عبر أراضٍ مستوية جداً، ولكنها جافة أيضاً وكانت الشمس قائضة الحر، والرياح جنوبيةً عاليةً لفحتنا مثل ألسنة النيران. وكان طريقنا طويلاً بسبب عدم وجود الماء، فواصلنا رحلتنا حتى المساء، قطعنا خلالها أكثرَ من خمسة فراسخ ونصف الفُرسخ. وتوقفنا عند منطقةٍ منبسطة يُسمّيها العرب الرميلة، كانت فيها ثلاثة آبار مياهها كريهة الطعم وكثيفة ومالحة قليلاً، بيد أن حاجتنا لها وعطشنا الشديد جعلنا نراها عذبةً سائغة.

في هذا اليوم، خَرَّ جملان من جِمالنا وأنا ثالثهما، فأشترى الدليل، الذي كان بحال أفضل مني، جملاً نشيطاً وحماراً من أحد رفاقنا. ولكنه دفع ثمنهما غالياً فيما بعد. وكان مسارنا بالإتجاه الشمالي – الشمالي – الغربي.

[٧]

رحلة ديللافالية إلى العراق

البصرة في ٢٠ آيار ١٦٢٥

في العاشرِ من آذار كُنّا لا نزال في البحر، لأنَّ البحّارة كانوا يُفتِّشونَ عن مصب نهر البصرة ليُدخِلوا السفينةَ فالمسألة ليست هَينةً إذ أن الأرض هنا واطئة جداً.

يَتكوَّن شط البصرة من إلتقاء النهرين المعروفين: دجلة والفرات. ويُطلَق عليه أيضاً اسم «شط العرب» ويصل إلى البحر في مَصبَّين يبعد الواحد عن الآخر أكثر من إثني عشرَ فَرسخاً، فالفرع الشرقي وهو أوسع حجماً وأكثر أمناً يَطلقُ عليه البحّارة اسم فرع هُرمز لقربه من تلك الناحية أما الغربي فيُسمّى فرع البحرين أو«فرع القطيف» نِسبةً إلى الموضعين المعروفين بهذا الاسم ولا تَمخُر السُفن الكبيرة في هذا الفرع إلّا نادراً. ويحدث الإنقسام إلى فرعين جنوب البصرة فَتَتكوَّن بينهما جزيرة مُثلَّثة الشكل يُسمِّيها الأهلون «الخضر» ... إنها هِبة النهرين للأهلين على مثال دلتا النيل في مصر وهي تَتَوسَّع سنوياً بما يحمله النهر من طينٍ وغِرين.

دخلنا الفرعَ الشرقي وقد ساعدتنا الرياح فَسُرنا بأمانٍ، وكانت الأراضي المُحيطة بنا عامرة بأشجار النخيل على عدوتي النهر، فالأرض هناك خِصبة مِعطاء، ووصلنا إلى موضعٍ فيه جدولٌ عميق (أو خندق) تمخر فيه القوارب المحلية وبعضُ السفن

البرتغالية، ومراكب أخرى مختلفة فتسير إلى البصرة لتقف عند موضع الكمرك، يمتد هذا الفرع إلى داخل مدينة البصرة وهناك يُوجَد جسر من الخشب مُثبتٌ على قوارب مربوطة بسلاسلَ حديد لإعطائه مزيداً من القوة وتقوم إلى الشمال من الجسر بنايةٌ لها تصميم القلعة أو الحُصن غايتها المحافظة على المدينة بالرغم من أن البناء امتدَّ إلى ما بعد هذه القلعة.

أما ماء الخندق فكان يزداد بتأثير المد البحري وتصل السفن إلى الجسر فقط، وقد رأيتُ هناك سفنَ الوالي الحربية، فهي في مأمنٍ عند القلعة المذكورة وبالإمكان سحبها بدون تجذيف وتَتفرَّع من ذلك الخندق قنواتٍ عديدة تمتد إلى داخل المدينة وينتقل الناس بالقوارب في هذه القنوات من بيتٍ إلى آخر ويطلقون على هذه القوارب اسم «دانك» (١)، وهناك عدد من الجسور للسابلة فوق القنوات.

البصرة

البصرةُ مدينةٌ مترامية الأطراف، عامرةٌ بالسكان، رديئة العمران قائمة على أرض مستوية مفتوحة لأنها غير مُسوَّرة ولقد أُحِيطَت بسورٍ مؤخراً بسبب الحروب التي شَنَّها الفُرس عليها، وفي السور أبراجٌ من الطين وقد تَهدَّم بعضُها وللمدينة أبواب تُقفَل، وفيها من الأسواق سوق الصاغة وسوق المنسوجات ومختلف البضائع التي تُروَّج في الأسواق.

---

(١) ضربٌ من السُفن الشراعية.

وتُوجَد أمام القلعة والسوقُ ساحةٌ واسعةٌ تنتشر فيها المدافع من العيار الثقيل بعضُها برتغالية الأصل، كان أهل البصرة قد استولوا عليها وغنموها في مسقط قبل سنين كثيرة عندما كانت سفنهم تَمخَر عُباب البحر لكن البرتغاليين تَمكَّنوا فيما بعد من تدمير تلك السُفن.

هناك ساحةٌ أخرى في البصرة أمام دار الباشا تُعرَض فيها الأغنام وتُباع فيها الحنطة والرز ومختلف الخضروات، وهذه الساحة مفتوحة ليلَ نهار والبضائع معروضة بدون دكاكين ولا أقفال فلا خوف عليها من السُرّاق فالعقاب الذي ينزله الأتراك باللصوص معروف جيداً!

سكان البصرة عربٌ، وفيها عددٌ قليل من الأتراك، والعربية هي اللغة الأكثر انتشاراً في المدينة لكن التركية والفارسية مألوفتان فيها أيضاً؛ أهلها مسلمون سنيون وشيعة. فالناس أحرار في عبادتهم لكن الأذان في المساجد يجري على طريقة السنة، وتُقام الصلوات حسب طريقتهم لأنَّ البصرة خاضعة للسلطان العثماني المالك في اسطنبول.

وفي البصرة عدد من النصارى الكلدانيين الذين يُطلَق عليهم اسم نصارى القديس يوحنا أو الصابئة [١] وليس لي فكرة بعدد بيوتهم وليس لهم من النصرانية

(١) اعتقد السائح مثل سائر الرحّالين الأوروبيين أن الصابئة هم من الفرق النصرانية وقد وهموا في اعتقادهم.

سوى الاسم على ما أظن. فليس لهم كنيسة [١] بل يُصلُّون في بيت كاهنهم الوحيد في البصرة أثناء وجودي، ولا أعلم إن كانوا يذهبون هناك لإتمام المراسيم الدينية. ولا صِيامَ عندهم ولا [قطاعة] بل يتناولون اللحم على مدى الأيام.. وعمادهم نفسه كعماد القديس يوحنا ... وهم يُجلُّونه ويبالغون في إكرامه وفي ظني أنهم بقايا اليهود الذين نالوا العماد من يد يوحنا ولهذا تمسّكوا بهذا الطقس.. يعرفون عند العرب باسم الصابئة يَتكلَّمون فيما بينهم لغةً كلدانية مُحرَّفة تُسمّى المندائية إلى جانب العربية ومنها اسمهم المعروف «مندائي»، بينما يَطلق عليهم الأوروبيون اسم «نصارى القديس يوحنا» ليس لهم أناجيل أقله هنا في البصرة، ولا كُتب أخرى مُقدَّسة، ما عدا كتاب خاص بهم يُسمّونه «السذرا» [يقصد الكنزا] وهم يسيرون بأحكامه في أمور دينهم. لهم حروف خاصّة بلغتهم تختلف عن الكلدانية أو السريانية القديمة والحديثة، وبهذه الحروف يكتبون أسفارهم المُقدَّسة وهم أي العامة لا يعرفون هذه اللغة لا كتابة ولا تكلماً بل يقتصر الكهنة على معرفتها.. يُوجَد بعضهم في الدورق وتُستَر وفي منطقة الحويزة القريبة من البصرة وجماعتهم هناك هي كبرى تجمعاتهم ...

أما عن شؤون البصرة فقد انتعشت فيها التجارة بعد سقوط قلعة هرمز [٢] إذ

---

(١) للصابئة بيت عبادة يُطلَق عليه اسم «المندا» أو«المندى» أو«المشكنة» لكن بساطة بنائه لا توحي للغريب، خاصة المتعود على الكنائس الفخمة أو المساجد الكبيرة بأنه بيت عبادة لجماعةٍ من الناس.

(٢) موضعٌ معروف في الخليج العربي، احتلَّه البرتغاليون في مطلع القرن ١٦ ثم سقط سنة ١٦٢٢م بعد حرب تعاون فيها الفرس والإنكليز ضد البرتغاليين.

ازدادت وفود البرتغاليين العاملين في الهند إليها. ولكثرة وجودهم فقد رأيت اسطولاً دائماً لهم هناك يَتكوَّن من خمس سفن لحماية مصالحهم ضد العدو المشترك أي الفُرس.

نظراً لوجود عددٍ كبير من المسيحيين الأوروبيين في المدينة فقد فَتَحَ الرهبان الكرمليون مبعثاً لهم فيها (١) وجاء من بعدهم الرهبان الأوغسطينيون البرتغاليون (٢) ولكل رهبانية كنيسة خاصّة بها تقيم فيها الشعائر الدينية حسب الطقس الروماني.

إن معبد الآباء الكرمليين مشيدٌ بشكلٍ جميل مع ديرٍ ملاصق له فيه صوامع الرهبان وغرف لعابري السبيل وقد ابتاعوا قِسماً من الأرض بمالهم الخاص والقسم الآخر وهَبَهم إيّاه الباشا. أما عن حفلة افتتاح المعبد فسأتكلم عنها فيما بعد فقد جَرَت الحفلة أثناء إقامتي في البصرة وكانوا سابقاً يقيمون الصلاة في مكانٍ مُؤقتٍ إلى أن انتهى بناء المعبد.

أما الرهبان الأوغسطينيون فإنهم لم يشيدوا ديراً خاصاً بهم وكانوا مترددين كثيراً في هذا الشأن فلم يجسروا على البُنيان خوفاً من سقوط البصرة في قبضة الفُرس، لأنَّ الحرب كانت لا تزال قائمة لذا اكتفوا باستئجار داراً للسكن وإقامة الصلاة فيها وكان الباشا يدفع ثمن استئجارها وقد جعلوا إحدى غرف الدار معبداً وفتحوه للمصلين وكان رئيس الدير مقلداً وظيفة نيابة أسقفية «غوا» ومعه راهب آخر لا غير وكان بين

---

(١) رهبان كاثوليك ينتسبون إلى جبل الكرمل بفلسطين قَدموا إلى العراق سنة ١٦٢٣ وما زالوا فيه إلى اليوم في دير عامر لهم في بغداد.

(٢) رهبان كاثوليك أيضاً ينتسبون إلى القديس أوغسطين.

الديرين منافسة شديدة على الحقوق والرئاسة! ...

كان الباشا يحسن معاملة البرتغاليين وسائر الإفرنج نظراً للمساعدات الجَمَّة التي تَلَّقاها منهم في الحرب ضد الفُرس [١] فخصص راتباً شهرياً أو مساعدة للكنيستين دامت حتى وقت زيارتي للبصرة، كما كان يدفع المبالغ للمراكب الخمسة المستأجرة من البرتغاليين.

في اليوم الحادي عشر من آذار ١٦٢٥م وصلنا قبيل منتصف الليل بقليل إلى موضع إلتقاء النهر الداخلي بشط العرب فعند مدخله يساراً تقوم قلعة معتدلة البناء يقابلها مسجدٌ وبالرغم من الليل البهيم فقد طلبنا الدخول في النهر الداخلي (أي الخندق) والتوغل في المدينة لكن تيار الماء القوي صدنا ودفعنا إلى جهة المسجد هناك رأينا قائد الأسطول البرتغالي العامل في البصرة مع سفنه الخمس وله ثلاث سفن أخرى في النهر الكبير (أي شط العرب) وكان الباشا معهم إذ كانوا يتوقعون هجوم الفُرس.

في صباح اليوم التالي زارني في المركب الأب باسيل الكرملي [٢] يرافقه راهب

---

(١) ذكر لونكريك أن الوالي كان مُتساهِلاً مع الأقليات النصرانية (أربعة قرون: ص ١٣٩) ويؤيد ذلك الرحّالة سبستياني وهو معاصر للأحداث، انظر رحلته التي صدرت عن –الدار العربية للموسوعات– بيروت.

(٢) الأب باسيل الكرملي (١٥٩٦–١٦٥٤) برتغالي الأصل، قَدِم إلى البصرة سنة ١٦٢٣ وأسس فيها مبعثاً للرهبنة وكنسية. استضاف صاحب الرحلة الإيطالي.

فرنسيسكاني إيطالي اسمه بولس كنت قد تَعرَّفتُ عليه في «غوا» وكان آنذاك في البصرة في طريق عودته إلى وطنه.

فلما زادت المياه بتأثير مد البحر طفا مركبنا فدخلنا المدينة ولم تُستَعمَل المجاذيف كما يصنع البعض بل كانوا يجرون المركب بالحبال وكان كوثل المركب متجهاً إلى الإمام [١] لأنَّ ضِيق المجرى حال دون دوران المركب أثناء طفوه فصارت مُقدِّمة المركب في الوراء أما المسافة التي وجب علينا قطعها فهي نحو فرسخ أو أقل.

كانت البيوت المأهولة على جانبي النهر وكانت البساتين متصلة ببعضها. وأخيراً تَوقَّف المركب داخل المدينة من الجانب الشمالي حيث يكثر عدد السكان.

بعد أن تناولت شيئاً من الطعام نَزَلتُ إلى البحر لأبحث عن بيت أَحلُّ فيه فلم أجد شيئاً لائقاً فعدتُ إلى المركب وقضيت فيه ليلتي.

في ١٣ آذار أعدتُ الكَرَّة لكني لم أُوفَق فكلمتُ الخواجا نجم أحد المتقدمين بين الصابئة وكان يعمل شهبندر [٢] في الكمرك ويَتَمتَّع بمكانةٍ اجتماعية حسنة بين قومه وبحالةٍ علمية جيدة وقد شدتني به صداقة أثناء وجودي في البصرة وقدَّم لي خدمات جليلة فذهبت زوجته بنفسها تبحث عن بيت لسكناي حتى وجدت داراً مُلاصِقة لبيتهم فذهبت إليها عند المساء ولم تكن جيدة، لكن الرجل وعدني بأنَّ يَعدُّها على

---

(١) الكوثل: مؤخرة المركب أو السفينة.

(٢) الشهبندر أو الشاهبندر أو الشابندر هو المسؤول عن الموانى، والكلمة فارسية الأصل.

أحسن صورة. في اليوم التالي فعدتُ إلى المركب لاقضي فيه ليلةً أخرى.

في ذلك اليوم أعلن المنادي في المدينة أن يخرج رجلٌ من كُلِّ بيت ومعه سلاحه فيلحق بالجيش ليساعد الباشا في حربه ضد الفُرس فقد وَرَدَتْ أخبار إقترابهم من البصرة.

علاقات الحويزة بالبصرة

في اليوم الرابع عشر من آذار استلمت الدار المُعدَّة لسكناي وفي ذلك اليوم ذهبتُ لزيارة السيد كونسالفو مارتينيز دي كاستيل برانكو معتمد البرتغاليين في البصرة لأُقدّم له رسالةَ التوصية التي أخذتها من نائب ملك غوا، ومن بعض الأصدقاء فأحسن استقبالي وقدَّم نفسه لمساعدتي وأوقفني على أخبار هامة تخص البصرة وبلاد فارس وعن الحويزة.

إن منصور أخا مبارك المتوفى بعد أن أقامه الشاه عباس أميراً على الحويزة قبل أعوام ورسخت قدمه فيها لم يعد يظهر تَعلُّقاً بشاه الفُرس مع انه أحسن إليه، لأنّه يصعب على العرب أن يكونوا محكومين وخاضعين للغير وهم يؤثرون حريتهم على كل شيء آخر ولأجل توطيد هذه الأمنية كان يراسل باشا البصرة التابع للسلطان التركي وعدو الفُرس في الوقت نفسه. وكان سيد البصرة آنذاك افراسياب باشا [١]

(١) الكعبي: زاد المسافر ولهنة المقيم والحاضر، بغداد-١٩٥٨، ص ١٧ وما بعدها.

وهو من أهل البصرة كان في أول أمره آغا سكماني للمدينة [١] ثم اغتصب الباشوية بالقوة وكان يطمح في توطيدها في أسرته، وبالرغم من اعتباره مُتمرِّداً في نظر الحكومة التركية فإنها تَحمَّلته وجاملته وكانت تساعده لأنَّه كان قديراً في تدبير المدينة وسياستها. من جهةٍ ثانية بالرغم من أنه كاد يكون مستقلاً عنها إلّا أنه كان يعترف بها ظاهرياً، ولكي لا تفقد أخيراً خضوعه الاسمي لئلا يرفع راية العصيان، ولم يكن من السهل معاقبته أو عمل شيء لتبديل الأمور في البصرة فهي منطقة نائية عن اسطنبول قريبة من الأعداء، أخيراً كانت كلمته مسموعة في المدينة.

فلما وقفت حكومة الفُرس على علاقات منصور بالبصرة –خلافاً لما كان أمراء الحويزة الذين كانوا يعادونهم ويشنون الغارات عليها كما أنه لم يظهر الإحترام والتعلّق بالشاه كما كان يطمح– فحين استعد الشاه للحرب في حملته على بغداد دعاه للاشتراك بها مع قبيلته وأمر «أمام قلي» خان شيراز أن يمر بالحويزة في مسيرته نحو جبهة القتال ليحث منصور بكل الطرق على المجيء فما كان من الخان إلّا تنفيذ أوامر سيده. فلما اقترب من الحويزة تَوقَّف بضعةَ أيام بانتظار منصور كي يلتحق به حاثّاً إيّاه على السير بركابه وكان منصور يجاوبه بأنه لا يزال يكمل الإستعدادات الضرورية، إلى أن فقد الخان صبره فَذَهَبَ إلى الحرب دون أن يرافقه منصور ووَصَلَ إلى بغداد متأخراً بعد أن كان الشاه قد استولى عليها. أما منصور فلم يَتَحرَّك من مكانه على الإطلاق فاستفسر

(١) قال الكعبي إنه كان كاتباً للجند (المرجع نفسه).

الشاه عن سبب تأخر خان شيراز كل هذه الفترة؟ فأجابه أنه انتظر منصور ليرافقه عملاً بالأوامر الملكية لكنه رَفَضَ المجيء، فلما عاد الشاه إلى أصفهان دعا منصور أكثر من مرة إلى بلاطه فكان يماطل ولم يذهب أبداً فاستشاط الشاه غضباً وكتب إليه يأمره بالمجيء حالاً ويُهدّده بأنه سيرسل مَنْ يقطع رأسه إنْ امتنع عن المجيء، فأجابه منصور قائلاً: إنْ أراد الشاه قطع رأسي فليتفضل بنفسه لأنّه مستعد للدفاع جيداً عن رأسه بالسيف!

وهكذا رفض الذهاب إلى فارس لا بل أضاف: إن كان الشاه ملكاً على فارس فهو ملك الحويزة ولا يعترف به أبداً.

فدعا الشاه حاكم شيراز «إمام قلي خان» وأمره بالتوجّه إلى الحويزة على رأس قوةٍ كبيرة مصطحباً محمد بن مبارك الذي كان في فارس وترعرع في حماية الشاه وعليه أن يخلع منصوراً ويقتله ويُنصِّب محمداً مكانه.

ففي الأيام القليلة السابقة لوصولنا إلى البصرة كان «إمام قلي» قد وَصَلَ إلى الحويزة مع محمد، وعَلِمَ منصور أن قسماً من أكابر قومه ومن عامة شعبه كانوا مع الشاه لتشيعهم وأظهروا إستعدادهم لقبول محمد، فخوفاً من وقوعه بيدهم وتوقعه للمصير المحتوم خرج مع خمسمائة من أخلص اتباعه والتجأ إلى منطقة البصرة حيث استقبلهم الوالي علي باشا بن افراسياب الذي تولّى أمر المدينة بعد وفاة أبيه[1].

---

(١) حَكَمَ البصرة في نهاية حياة أبيه ودام في الحكم طويلاً. قال الكعبي عنه: «أنشأ العَدلَ وقطع ←

إن هذا الرجل (أي علي) اغتصب بدوره الرئاسة واستعدَّ لها قُبيل موت أبيه واستولى عليها بتحريض أصدقائه وأهله وبمساعدة البرتغاليين الموجودين في خدمته.

استقبل علي باشا ضيفه منصوراً بترحابٍ كبير، وأقطعه أرضاً واسعة في ولايته قريبة من حدود الحويزة ليستقر فيها مع أتباعه.

أما شعب الحويزة فإنه قبل محمداً أميراً عليه، وأظهروا إستعدادهم للخضوع للشاه في كل ما يأمر بشرط ألآ يدخل إلى الحويزة قزلباشي واحد[١]، فوافق الخان على هذا الطلب.

جرت هذه الأحداث بعد وصولنا إلى البصرة. فبعد أن ثبت الخان محمداً في الحويزة تَقدَّم في أراضي البصرة، ودخل عن طريق يُسمّى «القرنة»، وفي نيته اقتحام بعض القلاع الحدودية والتوغل في الولاية، لكن الباشا خرج لمقارعته تدعمه ثلاث سفن برتغالية من تلك السُفن التي استأجرها منهم. لذا خَيَّم الخوف على البصرة من إقتراب جيوش الفُرس.

البصرة والفُرس

من الأمور الأخرى التي تُروى عن علاقات الفُرس بالبصرة، أن الشاه بعد ان

الظلم وحسنت سيرته ورفع العلم وأهله ... وكانت أيامه شبيهة بأيام هارون الرشيد». زاد المسافر: ص ١٨-١٩.

(١) كلمة تركية تعني «الرأس الأحمر» وتشير إلى جنود الفرس في ذلك العهد.

استولى على «هرمز» أرسل سفيراً إلى باشا البصرة –وكان آنذاك أفراسياب باشا– قائلاً له: إنه لا يريد من البصرة شيئاً سوى أن تسكّ النقود باسمه، وأن يُذكَر اسمه في خطبة الجوامع وأن يُصلّي الشعب من أجله عِوضاً عن ذكر السلطان العثماني، أي أن يعترف به رسمياً. وأخيراً طَلَبَ أن يَتعمَّم أهل البصرة على طريقة الفُرس. ولقاء ذلك يبقى أفراسياب حاكماً مُطلَقاً على المدينة، يتوارثها أبناؤه من بعده، ولا يتدخل في شؤونه، ويدافع عنه ضد السلطة العثمانية وضد أي تدخل أجنبي، ولا يطلب منه شخصياً ضريبةً ما، ولا من أبناء شعبه، بل يترك لهم الحرية التامة.

كان أفراسياب رجلاً فطناً، يعلم جيداً ما هي أهداف الشاه، فلم يهتم بعروضه، ولم يرد المغامرة بالمنزلة الرفيعة التي وَصَلَ إليها لقاء وعود غير أكيدة. إضافة إلى ثقته بالعون البرتغالي، إذ لا بُد للقوات الفارسية أن تمر بالبحر أو بشط العرب إذا صَمَّمت على مهاجمته، وكانت السُفن البرتغالية موجودة في الممرين المذكورين، بينما لم يكن للفرس قوة بحرية مهمة قادرة على مجابهة سفن البرتغاليين. لذا رفض عرض الشاه وأمر سفيره بمغادرة المدينة حالاً والخروج من منطقته دون تأخر، خوفاً من إتصاله سراً ببعض أكابر المدينة الذين قد تكون لهم ميول إلى الفُرس فيتأثرون به ويؤثرون بدورهم في الشعب.

لقد كان رده حاسماً، وأكَّد بأنه من أتباع السلطان ويفضل الموت هكذا. وهو مستعد للحرب إذا ما أرادها الشاه.

فلما رأى الشاه أن هذه الطرق لم تجدِ نفعاً أمر خان شيراز –وهو أقرب وزرائه إلى

تلك المنطقة، وأقواهم- أن يجهز حملة على البصرة، ويستولي عليها بالقوة. فَتَقدَّم جيش الخان، ولم أعلم أكان الخان نفسه على قيادته أم أناب عنه أحد قواده، وسار في طريق تُستَر وانحدر إلى الحويزة، ودخل ولاية البصرة في الأراضي الواقعة على شط العرب إلى الشرق من مجراه، أي جهة فارس. حدث كل ذلك قبل وصولي إلى البصرة أي في نهاية سنة ١٦٢٣م ومطلع السنة التالية؛ ولكنه لم يحاصر البصرة نفسها كما قِيلَ لنا ونحن في «غوا» ولم يقترب منها، بل اكتفى بمحاصرة قلعة على الحدود تدعى «قبّان»، وكادت أن تسقط بيد الفُرس، وبسقوطها تَتَعرَّض البصرة للسقوط المُؤكَّد. وكان الفُرس يقاتلون بقساوة وقتلوا عدداً كبيراً من أهالي البصرة، لكنهم انسحبوا في آخر الأمر، فقد أمطرتهم مدافع البرتغاليين المُثبَّتة في السُفن بوابلٍ من النيران فألحقوا بهم أضراراً جسيمة، فانكسر القزلباش. كما أنّ فترة الحصار امتدت طويلاً فأنهكت قواهم، فولوا عن المدينة.

في السنة التالية، أي في فترة وصولي إلى البصرة كَرّوا على المدينة، وذلك عندما قَدَموا إلى الحويزة لتنصيب محمد بن مبارك أميراً عليها، وخلع منصور منها. فاتجهوا إلى البصرة وتوغلوا في أراضيها، وكان الوالي الجديد على باشا خارج المدينة وسط عساكره للقتال، تدعمه ثلاث سفن برتغالية. أما في داخل المدينة فقد عَمَّ الخوف لأنَّ عساكر الفُرس كانت عظيمة عِدَّةً وعدداً، أكثر بكثير من جيش البصرة.

في السادس عشر من آذار وردتنا أخبار تَقدُّم الجيشين إلى بعضهما. وفي ذلك اليوم إلتقيت للمرة الأولى بالسيد دون كونسالفو دي سلفيرا القائد العام للقوات البرتغالية

العاملة في البصرة، وقد روى لي أن الفُرس يحاولون نقل سبع قطع مدفعية من أحد موانئهم إلى الدورق، ويقع قرب الحويزة، لاستخدامها في ضرب البصرة، وهذه قضية مهمة ستغير مجرى القتال، لذا قرَّر إرسال سفينتين مع مركب خفيف سريع في محاولة لخطف تلك القطع المدفعية.

في ١٧ آذار قصدني الخواجا نجم، وهو مُطلعٌ على مجريات الأمور لأنّه على علاقة بالباشا، وأخبرني أن جيش الفُرس يُعد ثلاثين ألف مقاتل يرأسهم سبعة «خانات»! لكني أشك في قوله، إذ إن خان شيراز وحده مع جيشه كافٍ لهذه الحرب، ومن المُحتَمل أن يلتحق به أخوه «الخان داود» لقربه منه، وكذلك «خان لوجستان» فهو في تلك النواحي. أما أن يَتحرَّك خانات المناطق النائية لمحاربة البصرة فهذا أمرٌ مُستَبعَد ولا ضَرورةَ له.

وأردف صاحبي قائلاً: إن فيضان المياه يحول الآن دون تَقدُّم الفُرس إلى البصرة، فالنهرُ عريض وقد أغرق أراضٍ شاسعة، والخنادق مليئة بالمياه، وهذه كُلُّها مصدر قوة للبصرة. ولكن عندما ينحسر الماء بعد ثلاثة أشهر فعندئذٍ تكون الطامّة الكبرى ولن تجدي السُفن البرتغالية نفعاً إذا حاول الفُرس عبور النهر بجسرٍ مُؤقت يقيمونه شمال البصرة، أو من جهة الحِلَّة التي هي في قبضتهم الآن، أو من بغداد نفسها؛ فهذه المواضع كُلُّها بعيدة عن مدى مدافع البرتغاليين. وخلاصة قوله إنّ الطرق المؤدية إلى البصرة كثيرة وأعتقد أنها لن تنجو من السقوط في أيدي الفُرس عاجلاً أم آجلاً. وبإمكان هؤلاء الاستعانة بالجيش الموجود في بغداد فيسير إليها على الضفة الغربية من النهر حيث تقوم المدينة، فتلك الجهة وإن كانت صحراوية، لكن بإمكان الجيش بقليلٍ

من المُؤَن أن يقطعها بفترةٍ قصيرة، وهذه الحملة ليست عسيرة على الجيش الفارسي. بينما لا تستطيع البصرة طلب النجدة نظراً لبُعدها، ولكون بغداد في قبضة الفُرس. أما الجهة الوحيدة التي بإمكانها مساعدة البصرة فهي البادية في شخص أميرها «مدلج أبو الريش» (وهذا لقبه ولقب أسلافه). هذا الأمير ومَنْ معه من عشائر هو أمل البصرة الوحيد.

ثم تَطرَّق الخواجا نجم إلى الحديث عن بغداد فقال: إن بكر صوباشي لم يُسلِّم المدينة إلى الشاه أبداً، بالرغم من كونه عاتياً ظالماً، لكن ابنه درويش محمد فعل ذلك دون علم أبيه وبغير رضاه [١]. ولما دخل الشاه المدينة أمر حالاً بقتل بكر صوباشي علنياً، بينما أبقى على الخائن الذي سلَّم المدينة، درويش محمد وإكرامه، ولم يهتم هذا الغبي بمقتل أبيه.

وبعد الإستيلاء على بغداد أرسل قواده إلى كركوك والموَصَلَ فاستولى عليهما [٢] وزحف على البادية فاستولى على الحِلَّة ومنطقة نفوذ «أبو الريش» وعنه وطبار القريبة من حلب، وهَدَّدَ هذه المدينة أيضاً ونصب في عانه حاميةً، ولكن بعد سفر الشاه

---

(١) كان المسؤول عن القلعة، أخذه الشاه إلى فارس وعاش هناك ذليلاً: ثم قتله لمحاولته الهروب، سمّاه المحبي (١:٣٨٢) محمد علي. انظر لونكريك: أربعة قرون: ص ٧٧؛ العزاوي: تأريخ العراق بين احتلالين ٤: ١٧٩-١٨٢ واكتفى العمري بتسميته محمد بك. انظر: زبدة الآثار: ص ٦٢-٦٣؛ هامر: ص ١٩.

(٢) التفاصيل عند هامر ٩:٢٣ وما بعدها.

وانسحاب قواته تحرَّك أبو الريش الذي بقي على ولائه للسلطان، وزحفت قبائله، فاستعادوا طيبة وعانه وقتلوا سبعين قزلباشيّاً كانوا في الحاميات ولم يوقف الزحف إلّا تحرك «ناصر بن مهنا» حاكم «مشهد الحسين» والمنطقة المُمتَدة بين الحِلَّة والبصرة، ولم يكن بمستوى أبو الريش من حيث الزعامة، وكان أحد العاملين المهمين في سقوط بغداد بيد الفُرس نظراً لولائه لهم، فقد تَصدَّى لتحركات «أبو الريش» وقاتله قتالًا ضارياً، فقتل من أتباعه وخَرَّبَ أراضيه.

وأضاف الخواجا نجم أخيراً بأنَّ جيشاً تركياً جراراً تَحرَّك من الشمال بإتجاه بغداد وبلاد فارس، فاستعاد المَوصَلَ وكركوك. لكني لم أصدق هذا الخبر، مع يقيني أنّ هذا الأمر لا بُد أن يحدث لكنه سابق لأوانه، إذ ليس من المُمكن هذا الزحف السريع واسترجاع المَوصَلَ وكركوك بهذه السرعة.

إن هذه الأخبار تُشاع – باعتقادي – لتقوية معنويات الأهالي، وبصورة خاصّة البصرة المحاصرة.

في ١٩ آذار قام رجلٌ من أكابر البصرة اسمه «الشيخ عبد السلام» [١] فَجَمَعَ حوله عدداً من أفراد أسرته وأصدقائه وأتباعه وتوجّهوا إلى الجبهة لنجدة الباشا، وانطلق معه بعض الصابئة نحو مئتين من طائفتهم يحملون البنادق ومختلف أنواع الأسلحة. لكن هؤلاء جميعاً لا يقارنون بقوة القزلباش وإستعدادهم القتالي.

---

(١) هو الشيخ عبد السلام الكواز (زاد المسافر، ص ٣١).

في ٢٢ آذار رأيتُ في الساحة أمام دار الباشا حماراً وحشياً صغيراً، وعَلمتُ أنَّ الباشا يحتفظ به للتسلية ويربيه في بيته. إنه لا يختلف عن سائر الحمير، لكنه أكثر بياضاً، وفي ظهره خط أشقر اللون يبدأ في رأسه وينتهي عند ذيله. وهو سريع الجري، أنشط في القفز من الحمير لأنّه أخف وزناً منها.

في ٢٣ آذار عاد إلى البصرة رجلٌ برتغالي كان في معسكر الباشا، فروى كيف أنَّ القزلباشية انسحبوا إلى أراضيهم، وكان انسحابهم سريعاً بحيث أنهم تركوا عدداً كبيراً من الحيوانات أي المواشي، وكميةً وفيرةً من المُؤَن.

إن هذا الإنسحاب السريع، غير المُتوقّع، لم يكن فراراً أمام جيش الوالي، ولكن لأحد أمرين: فإما أن موقع «هرمز» كان في خطر، أم أن أحداثاً جساماً كانت على وشك الوقوع من طرف العثمانيين، أو من جهة المغول، لأنَّ الفُرس سبق أن تَحرَّشوا بهؤلاء.

في الحادي والثلاثين من آذار عادت إلى البصرة سفينتان برتغاليتان كان القائد العام قد أرسلهما لخطف المدافع الفارسية كما ذكرت أعلاه، لقد عاد البرتغاليون «بخُفَي حنين» إذ لم يجدوا أثراً للمدافع، لأنَّ خبر خروج السفينتين لهذه الغاية بلغ مسامع الفُرس فلم يحركوا المدافع عن الميناء. لكن السُفن المذكورة وَضَعَتْ اليد على ثلاثة قوارب فارسية وأَسَرتها، وكانت مُحمَّلة بالبضائع، وفيها رجلٌ غني من ذوي

الشأن أُخِذَ كرهينةٍ، فَقدَّم للحال فديةً لخلاصه ألف ريـال «أبو طاقة» (١)، لكنهم رفضوا، وقتلوا جميع الأسرى ... ما أفظع هذه الأعمال! لقد اعتاد البرتغاليون على أفعال كهذه، وقد فعلوا في الهند أفظع منها ...

في السابع من نيسان عاد الباشا إلى البصرة مع جيشه بعد أن زال خطر الحرب بانسحاب الفُرس؛ ودَخَلَ المدينة وقتَ الفجر باحتفالٍ مَهيب وعلى أصوات دوي المدافع.

افتتاح كنيسة الكرمليين في البصرة

في الثالث عشر من نيسان كان الأب باسيل فرنسيس الكرملي قد أَكمَلَ تَشيِّيد الكنيسة والدير الخاص برهبانيته في البصرة، فأقام احتفالاً كبيراً بهذه المناسبة، وَزَيَّن الكنيسةَ والديرَ بأحسن ما عنده، وهَرَعَ النصارى من أوروبيين وشرقيين على اختلاف طوائفهم للاشتراك بهذا الإحتفال الشائق بافتتاح كنيسة مريم العذراء «أم الشفاء» (٢).

وأعد في المساء أنواراً كثيرة أشعلها عند حلول الظلام وأوقد ناراً، وأطلق الجنود البرتغاليون عدداً لا يُحصى من العيارات النارية، وطاب للباشا أن يُقدِّر الأب المذكور فأرسلَ إلى الدير نحو خمسمائة من جنوده، فأطلق هؤلاء بدورهم عياراتٍ نارية، بينما

---

(١) من أنواع النقود، عُرِفَ باسم أبو طاقة، بوطاقة، بطاقة. وهو الريـال. الكرملي: النقود العربية وعلم النميات، ص ١٧٤-١٧٥.

(٢) لم يبقَ لهذه الكنيسة أثر، فقد تداعت وهُدِّمت وقامت في مَحلِّها كنائسُ أخرى على مَرّ التأريخ، ثم انتقل الآباء إلى منطقة العشار. انظر عنها: A Cronicle of the Carmelites, op. cit., p. 1213.

أَخَذَتْ مدافع القلعة ترد عليها بدويِّها العظيم. الحقُ يُقال أن المدينة كُلُّها احتفلت بالمناسبة، النصارى والمسلمون على السواء.

وفي مساء يوم الأحد قبل غروب الشمس تَفَضَّل الباشا بنفسه مع بطانته فزار الكنيسة والدير، وعند خروجه تَرَكَ صدقةً لأصحابه. ولا حاجة لذكر احتفاء الأب الرئيس به بالمراسيم اللائقة وتقديم أنواع الحلويات والمُرطّبات على عادة أهل البلد بحيث أرضى الباشا ومَنْ معه فخرجوا مسرورين (١).

وكان في الدير عند زيارة الباشا القبطان البرتغالي وربابنة السُفن وكبار رجال الحربية، وبكلمةٍ واحدة جميع الإفرنج الذين كانوا آنذاك في البصرة ما عداي –مع أسفي الشديد– فقد عاقني المرض عن الحضور.

أقام القُدّاس يوم الإفتتاح رئيس الآباء الأوغسطينيين لأنهم اشتركوا بالإحتفال، وألقى الموعِظة رئيس إقليم مانيلا فقد كان ماراً بالبصرة آنذاك.

أخبار متفرقة

في ذلك اليوم عينه وَصَلَ إلى البصرة قبوجي (٢) من قبل السردار (٣) أي الوزير في اسطنبول الذي تَبوأَ الصدارة العظمى مؤخراً وقد قِيلَ إن سلفه لَقيَ حتفه بأمر

---

(١) عن أخبار زيارة الوالي انظر تفاصيلها في المرجع نفسه ص ١١٢٤—١١٣.

(٢) كلمة تركية تعني البواب، وتُطلَق على حاجب السلطان أو رسوله في مهمةٍ خاصة.

(٣) هو الصدر الأعظم حافظ أحمد باشا، تدرّج في المناصب حتى تَسنَّم الصدراة في سنة ١٠٣٤هـ، مات مقتولاً سنة ١٠٤١ هـ.

السلطان لتقصيره في قضية بغداد. وقد حمل القبوجي المذكور إلى باشا البصرة خلعةً من قبل السردار، وأخبره بأنَّ الجيش العثماني قد زَحَفَ في طريقه إلى بغداد لاستعادتها. وانتشر بين الشعب خبرٌ مفاده إن الجيش التركي قد اقترب جداً بعد ان استرجع المَوَصَلَ وكركوك التي هي مناطق مفتوحة ومُعرَّضَة للإحتلال من قبل أي جيش قوي. لكني رأيت في هذه الأخبار غرابة، لأنَّ السردار الجديد إنْ كان قد تَحرَّك من اسطنبول في تلك السنة نفسها فإنه لا يصل قبل شهر أيار ولو أسرع جداً في تحركه فَلَعلَّه يصل في نيسان، لأنّه يجب أن يمر بحلب ليجمع من هناك المُؤَن الضرورية، ويبلغ المناطق النائية لإرسال المقاتلين، كما عليه أن يُوزِّع المقدار المُقرَّر من علف الخيل كما يفعلون كل سنة. كل هذه الأمور تجعل إقترابه بهذه السرعة من الأمور المُستَحِيلة، والمعروف جيداً من الحملات السابقة أن الجيش التركي لا يصل في نفس السنة التي يخرج بها من اسطنبول، بل يقضي السنة الأولى في حلب وبين النهرين، وفي السنة التالية يَتَقدَّم إلى الحدود الفارسية ليبدأ الحرب، ويحصل أحياناً أنه يصل في فصل الشتاء فعندئذٍ يتوقف عن القتال.

أما أن يكون هذا السردار الجديد قد أمر بالتحرك من اسطنبول في نفس السنة وليس في السنة السابقة فهذا أمر معقول، لأنّه لم يبلغني أبداً أنه قد وَصَلَ إلى حلب أو إلى مكان آخر، فيكون السردار الجديد حالما تسنم الصدارة، واعتقد في شهر آذار أو ما قبله بقليل، وكان يعلم بأنَّ البصرة في خطر، قد عَمَلَ فوراً على إرسال القبوجي ليقوي معنويات والي البصرة. وهذا أسرع بالسير سالكاً الطرق القصيرة المباشرة نظراً لأهمية رسالته فوَصَلَ بهذا الوقت إلى البصرة كما ذكرت.

مهما يكن من أمر فإني لا أصدق قرب وصول السردار وجيشه كما أُشِيعَ بين الشعب، وانتظر أن تُبرهِن الأيام على جلية الأمر.

في الثالث والعشرين من نيسان انتشر في البصرة خبرٌ جديد مفاده أن الشاه أمر بإلحاح الخان الحاكم في بغداد، وصديقه أمير البادية ناصر بأنَّ ينهبا بأية طريقة مُمكِنة القافلة التي كانت تستعد للرحيل من البصرة بإتجاه حلب، أو في الأقل أن يَحولا دون خروجها. وكان التجار قد أعدوا كل شيء للرحيل فداخلهم الخوف من هذه الإشاعة وامتنعوا عن السفر فعلاً، وبعثوا رسولاً باسمهم وباسم أكابر البصرة إلى الأمير ناصر يستوضحونه الخبر ويسألونه بصريح العبارة إنْ كان يسمح لهم وللقافلة بالمرور بسلام؟ ولقد اعتقدتُ بصحة هذه الأخبار لأنَّ الشاه يهمه كثيراً أن تكون التجارة مع الهند تحت إشرافه. فبعد أن استعاد ميناء هُرمز فقد هذا الموضع أهميته التجارية وانتقلت الحركة التجارية إلى البصرة حيث لا تصل يد الشاه لإفتقاره إلى القوة البحرية التي بإمكانها أن تقف بوجه القوة البرتغالية فتحول دون وصول البضائع إلى البصرة. لذا كان مُصمِّماً على محاربة البصرة ليحرم البرتغاليين من الحصول على موطئ قدم لهم في المنطقة ويضطرهم من ثم إلى العودة إلى أحد موانئه دون أن يعيد إليهم ميناء هرمز، ولأنه لا يستطيع إيقاف التجارة بين الهند والبصرة فعلى الأقل يمنع وصولها إلى حلب.

أما لو نظرنا إلى هذا الخبر من زاوية أخرى، أعني بالنسبة إلى الأمير ناصر، فيظهر الخبر لا أساس له ولا يمكن أن يُصدَّق؛ لأنَّ الأمير ناصر يستفيد كثيراً من القوافل المُسافرة بين حلب والبصرة. وهو وإنْ كان قد انحاز إلى الشاه في حملته على بغداد لأمرٍ

في نفسه، لكنه كعربي وإنسان حر لا أعتقده يوالي الشاه ويعمل ضد مصالح بني قومه؛ كما له في الوقت الحاضر وكلاء في البصرة يجمعون الضرائب والأتاوات، وماذا يستطيع الشاه أن يفعل في البادية بدون مساعدة ناصر؟!

أخيراً، كان الأمير ناصر متألّماً بسبب الأضرار التي ألحقها به «أبو الريش» وكان الأجدى له أن يُسويَّ أموره مع «أبو الريش» ومع السلطان القوي الذي ينتفع منه، لئلا يخرب أموره. فليس من مصلحته أن يُعرّض نفسه لأخطارٍ جديدة لأجل الشاه، فهذا –أي الشاه– لا يقدر أن يلحق به ضرراً ولا خيراً يُنتَظَر منه. اللهم إلّا إذا صار سيد المنطقة كُلُّها أي بعد أن يستولي على الأرض كُلُّها إلى حلب، وهذا ليس بالأمر الهين ولا يَتَحقَّق بسهولةٍ وسرعة، وأنَّ الأيام ستجلو الأمور وتُظهِر الخفايا!

*****

في التاسع من أيار [١٦٢٥] وَصَلَ إلى البصرة قبوجي آخر من قبل السردار أيضاً فاستُقبِلَ باحتفالٍ فخم، وأطلقت المدافع عياراتها إكراماً له. وهذا بدوره حَمَلَ إلى الباشا خلعةً جديدة، وخبراً مفاده أنه تَرَكَ الصدر الأعظم وهو في ماردين، فهو إذا وشيك الوصول إلى بغداد، بعد أيامٍ قليلة، وأكَّد خبرَ استعادة المَوَصَلَ وكركوك، وهذا الخبر مُحتَمل الوقوع إذا كان الصدر الأعظم فعلاً في ماردين. وأضاف القبوجي أنَّ السردار بارَحَ ماردين وبدأ بالتَقدُّم. فانتشرت الأخبار والإشاعات في البصرة.

إني لم أتأكَّد من صحة الأخبار إذ ليس لي صديق مهم بين الأتراك، ولم أحصل على معلوماتٍ أوفر من القائد العام البرتغالي لأنّه كان يكتفي بترديد الأخبار نفسها.

مهماً يكن فإن هذه الأخبار – حسب اعتقادي – ترفع معنويات باشا البصرة وأهاليها.

* * * * *

في الحادي عشر من أيار تَحرَّكَت القافلة التي كانت منذ أيام قد استعدَّت للسفر وخَيَّمت خارج المدينة ببضعة فراسخ، فسارت بإتجاه حلب بعد أن تَلقَّت التطمينات اللّازمة من قبل الأمير ناصر. وأعتقد بالأحرى أن التجار علموا بأنَّ الأمير ناصر قد تصالح مع الأمير «أبو الريش» وعاد إلى إطاعة السلطان والولاء له، فالبادية والحالة هذه بخير وأمان. كما أنّ خبر وصول الجيش العثماني قوّى معنوياتهم.

كُنتُ أنا أيضاً قد أتممتُ الإستعدادات اللّازمة للرحيل ومبارحة البصرة، لكني لم أسافر مع تلك القافلة، بل أعددتُ كُلَّ شيء لحسابي الخاص مُستقلًّا عن القافلة، فأخذتُ عدداً من الجمال، ودفعتُ أجر الأعراب الذين وافقوا على مرافقتي، لكن علي آغا سيد البصرة ورئيس الشرطة الأعلى أوعز إلى رئيس الجمالين المدعو حاج أحمد الأسود ألآ يرحل قبل مضي ثلاثة أيام.

لقد كنت أخشى الحر، فالمناخ يزداد حرارةً يوماً بعد يوم، وخِفتُ ألآ نجد ماءً في الطريق، لذا كُنتُ أريد الرحيلَ بأسرع وقتٍ، فالتجأتُ إلى السيد كونسالفو مارتين معتمد البرتغاليين وطلبتُ منه أن يَتوسَّط لي ويستأذن «علي آغا» أو يستفسر منه عن سبب منعه لنا، فإن لم يكن لديه من مانع مُحدّد فليدعنا نمضي بسلام فقام الرجل بالمهمة بطيبة خاطر، لكن «علي آغا» أشار عليه أن نَتذرَّع بالصبر أسبوعاً واحداً حتى تبتعد القافلة وتَتَوغَّل في البادية، لأنّه كان يَتَوجَّس شرّاً من رئيس الجمالين الحاج أحمد،

فقافلتنا الصغير أَخفُّ حملاً من القافلة الكبيرة، وصاحبنا الحاج أحمد أدرى من غيره بمفاوز البادية وطرقاتها، فقد يسبق القافلة الكبيرة ويخبر الأمير ناصر أو غيره من أعراب البادية بوصولها، بل لَعلَّه يخبر القزلباشية أنفسهم بتحركها فتصبح فريسةً سهلةً للنهب مما يلحق الضرر بها وبنا على السواء. فالأفضل إذا التريث والإنتظار قليلاً ... أنا شخصياً كُنتُ أثق بالحاج أحمد الذي اخترته دليلاً لقافلتي، فقد مدحه الخواجا نجم وغيره. لكن طالما هذه هي مشيئة ولي الأمر فلتكن، ولا بأس أن أَتريَّث لبعض الوقت.

إن هذه الأمور أكَّدت ما سبقَ أن ذكرتهُ أعلاه عن تعاون الفُرس والأمير ناصر من أجل إلحاق الضرر بالقافلة. وقد لاحظتُ أنَّ «علي آغا» صاحب الخبرة الطويلة في الحكم والإدارة كان فعلاً مُتخوّفاً وقلقاً على مصير القافلة.

*****

في الثالث عشر من أيار وَصَلَ إلى البصرة قبوجي آخر من قبل السردار يحمل خلعةً أخرى، وقِرداً، وفَرماناً بتثبيت الباشا على البصرة؛ لأنّه لم يكن قد حصل على تأييد السلطان حتى ذلك الوقت.

أما أخبار زحف الجيش، فقد شاع كالعادة بين أفراد الشعب بأنه قريب جداً يكاد يكون عند أبواب بغداد. لكني عَرَفتُ الحقيقة من تجار أوروبيين كتبوا رسائلَ من حلب ووصلت إلى البصرة مع أحد مرافقي القبوجي نفسه، مفادها أنَّ السردار – كما توقعت – لم يصل بعد إلى حلب، ولَعلَّه يختصر الطريق فيسير مباشرة نحو«بين

النهرين» ثم بغداد دون المرور بحلب، أو لَعلَّه لم يَتحرَّك بعد! إذ لن تقوم الحرب في هذه السنة ١٦٢٥ ضد الفُرس من أجل بغداد، فالطريق بعيد ويستغرق وقتاً طويلاً، فإن سارت الأمور سيراً حسناً فستنشب الحرب في السنة القادمة إنْ لم يحدث ما يُغيِّر مسيرة الأمور، لكني مُتيقنٌ بأنَّ الحرب لا مَفرَّ منها!

* * * * *

وافتنا أخبار أخرى في تلك الرسائل، منها: أن أمير صيدا تَمَرَّد على السلطان وَهَجَمَ على طرابلس وَخَرَّبَ بيوتها وَطَرَدَ واليها. لكن والي حلب هَرَعَ إلى هناك فاسترجع طرابلس وأعاد واليها ... وهناك أخبار أخرى من أوروبا ...

* * * * *

عاد إلى البصرة يوم أمس الأمير «زنبور» (١) صاحب الدار التي نَزَلتُ فيها. فقد كان خارج المدينة، إذاً عليَّ أن أترك الدار لأصحابها بأسرع وقتٍ رغم أن الرجل تَمَهَّلَ علينا تلبية لرجاء الخواجا نجم صديق الطرفين، مع العلم أنه لم يطلب منا مَبلغاً بل نزلنا في بيته مجاناً. لا بد إذا من الرحيل. لذا حَملتُ أمتعتي إلى دير الآباء الكرمليين وتَركتُ مريم تيانتين (وهي ماريوجا) وأوجينيا وبعض الخدم في بيت الخواجا نجم، وحَلَلتُ في الدير ريثما يُؤذَنُ لي بالسفر. لقد طلب «القبوجي» مني أن يرافقني في السفر فَرحَبتُ به.

---

(١) لم أعرف عنه شيئاً.

من حلب في ٥ آب ١٦٢٥

بعد أن حصلت على إذن من آغا البصرة بالرحيل، أرسلتُ أمتعتي خارج المدينة مساء الحادي والعشرين من أيار إلى موضع يُسمّى «المشراق»، حيث كانت الجمال، ثم ذهبت أنا أيضاً مع أتباعي. وبعد أن قطعت كل علاقاتي بالبصرة، ودفعت الرسوم المفروضة عند المغادرة، وبدأنا الرحلة بعد منتصف الليل في ٢٢ أيار. وما أن سرنا قليلاً حتى دخلنا البادية، وكانت الأرض في أول الأمر سبخة ثم تَحوَّلت إلى رملية قاحلة لا أثر فيها للنبت إلّا بعض الأشواك التي تلتهمها الجمال.

في ٢٣ أيار سرنا ستة فراسخ فوصلنا إلى «كويبدة» التي يعتبرها الأعراب قلعةً. وكان شيخها يجمع الأتاوة من القوافل العابرة واسمه الشيخ عبد الله. توقفنا خارج هذه القرية بانتظار القبوجي الذي زار الباشا، لأنّه طلب منا أن يرافقنا في طريق عودته إلى اسطنبول.

في ٢٥ أيار لم يعد رئيس الجمالين الذي ذهب لاصطحاب القبوجي، فأصابنا الملل من الإنتظار في ذلك المكان، خاصّة بعد أن هَبَّتْ علينا عاصفةٌ رملية. فأرسلت خادمي ميخائيل إلى البصرة ليواجه الأب باسيل والسيد كونسالفو معتمد البرتغاليين والخواجا نجم ويستفسر منهم عن سبب تأخر رئيس الجمالين، ويطلب منهم أن يَحُثُّوه على السير دون تباطؤ. وإذا كان عنده ما يمنعه من السير لأمورٍ خاصّة به أو لأعمال تَتَعلّق بالقبوجي فليأمر الجمالين بالرحيل، فأنا مُستعدٌ للسفر من دونه، أو بعكس ذلك أعود إلى البصرة.

وفي ٢٧ أيار عاد ميخائيل ليخبرني بأنَّ القبوجي أَكملَ إستعداداته للسفر وأنه سيلحق بالقافلة حالاً، وحمل إليَّ رسالةً من صديقٍ إيطالي هو الأب أورسينو الدومينكي الذي كُنتُ قد تَعرَّفتُ عليه في اسطنبول قبل عشرة أعوام؛ ويخبرني في رسالته بأنّه كان في أرمينية ويعرب عن سروره لوجودي في البصرة، ويطلب أخيراً أن أنتظره ليسافر معي فهو كثيرُ الشوق للعودة إلى الوطن.

إني لا أثق بقول القبوجي، فهؤلاء القوم لا يلتزمون بالكلام، لكني تَريثتُ رَغَمَ ذلك في كويبدة.

في ٣٠ أيار وَصَلَ أخيراً رئيس الجمالين أحمد ومعه الأب المذكور أعلاه ... ولم يأتِ القبوجي. إذا علينا ان نَتَحلّى بالصبر. أعتقد أنه ينتظر بزوغ القمر الجديد، فعادة القوم إنهم يُفضِّلون الرحيل مع القمر الجديد.

صباح الثالث من حزيران وَصَلَ القبوجي أخيراً، وقبل أن نرحل دفعنا ضريبةً أخرى!

والجدير بالذكر اننا دفعنا الضرائب في الطريق الصحراوي أربع مرات! ولا أعلم أكان دليلنا يخدعنا أم أن هذه هي العادة الجارية. فقد دفعنا أولى الأتاوات للشيخ عبد الله صاحب كويبدة فاستوفى خمسة قروش [١]، عن حمل الجمل الواحد من البضائع الجيدة مقارنة بالأقمشة الهندية، أما البضائع الأخرى والأحمال المتنوعة فيُقدَّرها مقارنةً

(١) القرش هنا ترجمة لكلمة بياسترا الإيطالية.

بالتبغ فيأخذ مبلغاً أقل من السابق لا أتذكره بالضبط.

الأتاوة الثانية يستوفيها شيخٌ عربيٌ آخر في البادية اسمه «ابن خالد»، ويأخذ عن كل حِمل مهماً كان خمس لاريات [١] وتساوي نحو قرشٍ واحد، كما يأخذ شاهية أيضاً [٢]، مع العلم أن القرش في البصرة يساوي ثمان شاهيات وثلث، بينما في البادية يساوي ثمان شاهيات فقط!

الأتاوة الثالثة تُدفَع إلى شيخٍ عربي ثالث يُلقَّب بالأعور وكان يستوفي عن كل حمل مهماً كان ست شاهيات. ومثل الأتاوة تدفع لشيخٍ آخر هو ابن عم الأعور المذكور!

إن شيخ كويبدة عبد الله أبى أن يأخذ الأتاوة مني لأني حَملتُ إليه رسالتين، واحدة من باشا البصرة والأخرى من المُعتَمد البرتغالي فهو صديقه، وكلاهما أثنيا عَليَّ وأوصيا بي خيراً. أما الأتاوات الأخرى فقد دفعتها إلى وكلاء الشيوخ المذكورين أعلاه المجتمعين في كويبدة، فأعطونا كتباً تثبت استلامهم المبالغ المُقرَّرة لئلا يطالبنا بها أتباعُهم في الطريق.

وفي الرابع من حزيران غَيَّر شيخ كويبدة رأيه فَطَلَب مني الأتاوة بالرغم من امتناعه السابق عن أخذها، لا بل استوفى عشرة قروش عن الصندوقين، وهو أعلى

---

(١) هي أجزاء القروش.

(٢) نقد نحاسي يُنسب إلى السلطان الذي كان يُقال له البادشاه، الذي كان مسكوكاً في البلاد العثمانية، وبالعكس فهو فارسي. اختلفت قيمته باختلاف الزمن والبلاد.

مبلغ يُؤخَذ عن حمل!

في الخامس من حزيران بارحنا كويبدة قبل بزوغ الشمس، فوصلنا عند الظهيرة قرب آبار يطلقون عليها اسم «الغنيمات»، وهناك وجدنا عدداً من البدو نازلين في تلك الديار. لقد خِفتُ في بادئ الأمر من هؤلاء الرجال، ولكن عندما اقتربنا منهم رأيناهم مساكين مسالمين، فأنزلنا الرجال واسترحنا.

بلغنا هناك أنّ قبضة من قطاع الطرق قد أعدوا العدة لمهاجمتنا وقد سبقونا في البادية، فللتأكد من هذا الخبر عاد رئيس الجمالين إلى الكويبدة ليستطلع الأمر فهناك تَتَجَّمع عادة عيون العشائر، وفي الليل رجع إلينا مُوكِّداً صحةَ الخبر ونصحنا بالعودة إلى القرية، ولا أعلم مدى أمانة الرجل في كلامه. فعدنا في اليوم التالي ونزلنا في العراء خارج القرية، ثم دُعينا للدخول إليها لنكون في مأمنٍ من اللصوص ونضيع أثارنا على جواسيسهم وكأننا غَيَّرنا خطتنا وعَدلنا عن السفر، وفعل القبوجيان مثلنا.

جديرٌ بالذكر أن القبوجي الأول، ذاك الذي حَمَلَ الخلعة من السردار إلى والي البصرة اسمه سرفانلي إبراهيم آغا، وقد رافقه قبوجي آخر اسمه محمد آغا كان في خدمة السردار السابق، وقد أرسله في مهماتٍ عديدة منها إلى البصرة ثم الإحساء والمناطق المجاورة، وها هو الآن في طريق عودته.

في ١٣ حزيران نَشَبَ نقاشٌ حاد مع رئيس الجمالين، فقد أراد اصطحاب بعض الأعراب بحُجَّة إرشادنا في الطريق، لكنه في الواقع كان يريد استنزاف المزيد من أموالنا فعارضته بشدة، لأنَّ الطريق معروف، أما قوله إنهم سيساعدوننا على قطاع

الطرق فكلامه هراء إذ لم يكن لهؤلاء الرجال القدرة القتال والمقاومة. فطال النقاش حتى هَدَّدته بالعودة إلى البصرة والعدول عن السفر، وهذا يعني بالنسبة إليه إعادة المال الذي استلمه مني. عندئذٍ رَضَخَ للأمر الواقع أمام عنادي. فغادرنا كويبدة في الليل ومررنا من جديد بالغنيمات. وفي ١٤ حزيران أكملنا السير إلى منتصف النهار أيضاً فنزلنا قرب مياهٍ مُرّة المذاق. هناك هَبَّتْ علينا رياحٌ حارّة شديدة اقتلعت خيامنا ومَزَّقتها بحيث اضطررنا في الليالي التالية إلى النوم في العراء ... وهكذا سارت الأمور في الأيام اللاحقة.

[٨]

رحلة لابولي لاغوز سنة ١٦٤٩

وصلنا يوم الأحد الثاني من آيار سنة ١٦٤٩ إلى مصب نهر البصرة الذي كان منسوب مياهه منخفضاً فلا تدخله سوى السُفن الصغيرة، وطوال يومين بقينا نُبحِر شمالاً في مياه هادئة حتى وصلنا إلى البصرة في يوم السبت الثامن من آيار / مايو من السنة ذاتها [١]، بعدَ أن أمضينا شهرين وثمانية أيام في رحلتنا من الهند الشرقية حتى هذه المدينة.

علي باشا أمير البصرة

تقع مدينة «البصرة» في الصحراء العربية، على بُعد (٣٠) درجةً شمالي خط العرض، عند مصب نهري «الجنّة الأرضية» دجلة والفرات [٢]، اللَّذين يلتقيان

---

(١) هذا يعني أن الرحّالة بدأ رحلته من الهند في الأول من آذار مارس سنة ١٦٤٩م.

(٢) تؤكد الروايات القديمة على أن هذا المكان (أي ملتقى نهري دجلة والفرات عند القرنة) هو موقع الجنة الأرضية. ويُقدِّم المُؤرخ تشارلز تومسون، بعد أن يصف مختلف الآراء عن موقعها، إشارة تضع عدن على موضع إلتقاء نهري دجلة والفرات، الذي يُسمّى «شط العرب»، الذي يبعد عن البصرة رحلة يومين، وبعد نحو خمسة فراسخ يتفرَّع مجدداً إلى جدولين يصبان في الخليج العربي.

Charles Thompson, Travels [of the Late Charles Thompson] Containing His Observa-tions…,
←

ببعضهما على بُعد مسيرة يوم واحد على الحصان شمالي هذه المدينة، فيكوِّنان نهراً عريضاً [١] يصبُّ في «الخليج الفارسي». وتحمل هذه المدينة اسم «باشوية»، وهي اليوم إمارةٌ خاضعةٌ لعلي باشا [٢] الذي زَعزَعَ أجدادُه أركان حكم السلطان التركي بكل سهولة [٣]، بسبب بُعد المسافة بينهم وبين «الباب العالي» [٤] والسلطان. وكان هذا

---

vol. iii, (London, 1767), pp, 21-23.

ولتفاصيل أكثر عن موقع الجنة الأرضية والآراء التي قِيلت بشأنها يمكن مراجعة كتاب العراق وملاحظات شرقية في رحلة توماس هربرت سنة ١٦٢٨، ترجمة وتحقيق: أنيس عبد الخالق محمود، المؤسسة العربية للدراسات والنشر، (بيروت، ٢٠١٣)، ص ٥٩-٦٤.

(١) المقصود هنا شط العرب.

(٢) هو حاكم البصرة علي باشا افراسياب الذي تتضارب المصادر بشأن مدة حكمه. فقد ذكره ابن الغملاس ولم يُفصِّل فيه، فقال: «... وفي سنة ١٠٤٩هـ [١٦٢٣م] وُجِّهت [ولاية البصرة] إلى مِير ميران علي باشا. وفي سنة ١٠٦٤هـ [١٦٥٤م] ترك الولاية ... وذهب إلى استانبول (البصرة: ولاتها ومتسلموها من تأسيسها حتى نهاية الحكم العثماني) الدار العربية للموسوعات، (بيروت، ٢٠٠٨)، ص ٦٧. ويذكر لونكريك أن ولايته للبصرة بدأت منذ سنة (١٦٢٤)، واستمرَّت خمساً وعشرين سنة، أي إلى سنة (١٦٤٩). ستيفن هيمسلي لونكريك، أربعة قرون من تأريخ العراق الحديث، ترجمة: جعفر خياط، ط٤، مطبعة المعارف، (بغداد، ١٩٦٨)، ص ١٣٧. بينما يذكر الدكتور فاضل بيات أنه تُوفيَ في سنة (١٠٦٤هـ/ ١٦٥٤م). الدولة العثمانية في المجال العربي: دراسة تأريخية في الأوضاع الإدارية في ضوء الوثائق والمصادر العثمانية حصراً (مطلع العهد العثماني – أواسط القرن التاسع عشر)، مركز دراسات الوحدة العربية، (بيروت، ٢٠٠٧)، ص ٣٢٢.

(٣) الحديث هنا عن حاكم البصرة أفراسياب (١٥٩٦-١٦٢٣)، الذي استطاع أن يكوِّن أسرةً مستقلةً في البصرة عن الباب العالي العثماني.

(٤) الباب العالي مبنى كبير فخم، لا يفصله عن سراي السلطان إلّا شارع. أُنشئ في عهد السلطان ←

الأمير يَرسل في كل سنة ما بين عشرة خيول أو إثني عشر حصاناً إلى السلطان العثماني (١)، وعدداً مُماثلاً إلى شاه القزلباش (٢) لكي ينعم بالسلام مع هذين العاهِلين. وكان الأتراك حذرين من التوجّه إلى البصرة لئلا يُسلِّم «علي باشا» هذا الموقع إلى الفُرس (٣).

العثماني محمد الرابع (١٦٤٨-١٦٨٧)، خُصص جناحٌ منه لإقامة الصدر الأعظم مع أسرته وحرسه، وخُصِّصت بقية أجنحته لإجتماع كبار موظفي الدولة الذي يقومون بتصريف أمور البلاد، ثمَّ غدا اسم هذا المكان يُطلق بالتدريج للدلالة على الصدر الأعظم بالذات. حلاق وصبّاغ، المعجم الجامع في المصطلحات العثمانية، ص ٣٣.

(١) كان السلطان العثماني حينذاك هو محمَّد الرابع المشار إليه في الهامش أعلاه.

(٢) المقصود به الشاه عباس الثاني الذي تَكرَّرت الإشارة إليه في أكثر من مرة في هذه الرحلة.

(٣) يذكر لونكريك أن علي باشا أخبر استانبول بتوليه الحكم بعد وفاة والده وأعلن ولاءه لها ثمَّ طلب المعونة. إلّا أن أمله بالمعونة كان ضعيفاً؛ فقد قطع الإيرانيون طريق دجلة والفرات. ولكن وصلت قوة غير منتظمة تتكوّن من خمسة آلاف من أتباع والي الحويزة الفارين من إمام قلي. وما أن حَلَّ آذار / مارس (١٦٢٥) حتى كانت البصرة تنتظر هجوم الخان، وكانت قوة علي باشا صغيرة، لكنه استعان بخمس سفن برتغالية مُسلَّحة، وأعلن التجنيد في المدينة التي تعالت أصوات الوطنية فيها. وجنَّد أشرافُ البلد القوات المتطوعة، فمشت إلى معسكر الباشا وفي عدادها الصابئة المسالمون ... غير أن مخاوف هذه الحملة القصيرة إنتهت فجأة حينما انسحبت القوات الإيرانية وتَركَتْ كُلَّ شيء دون أن تطلق طلقةً وأحدة؛ فأُنقذت البصرة في هذه المرة. وفي سنة (١٦٢٩) حاول إمام قلي خان انتزاع المدينة مرة أخرى، فاضطر علي باشا هذه المرة إلى طلب المساعدة من قبائله، وعَمَدَ إلى كسر السدة، فغمرت المياهُ البطائح أميالاً عِدة. وفي الوقت ذاته سمع الإيرانيون بوفاة الشاه، فانسحبوا وأصبح علي باشا حراً في تسيير حكومته كيفما يشاء. لونكريك، أربعة قرون ...، ص ١٣٢ [المترجم].

سُكّان البصرة

لم يكن جميع أهل البصرة من المسلمين، بل كان معظمهم من الصابئة الذين سَنتحدَّث عنهم لاحقاً. كما كان فيها الكثير من الهنود والفُرس والأرمن الذين يهتمون بالتجارة. ولكن لا يُسمح إلّا للمسلمين بالإنخراط في جيش الباشا. وهم يرتدون بدلات تشبه البدلات التي يرتديها الأتراك.

سلَّمتُ على هذا الأمير عند عودته من لعبة سباق الجري، وهو نوعٌ من سباق الخيل يقومون فيه برمي عصا خشبيةً دون حديد باليد اليُمنى. لكن «علي باشا» لم يكن يرمي العصا إلّا بيده اليسرى، لأنّه أحد الخيّالة أصابه في جنبه.

علي باشا وتنبؤات المنجمين

يُعدُّ هذا الأمير أسعد الأمراء حَظّاً في العالم؛ فكُلَّما أصابته شِدّةٌ كان العون يأتيه من السماء. وهو لا يقيم في البصرة وإنما في البادية تحت ظل الخيام. وبذلك فهو يتبع تنبؤات المنجمين الذين أشاروا عليه أن يسكن خارج المدينة وأن لا يرى رعاياه إلّا نادراً إذا ما أراد أن يعيش هانئاً.

علي باشا يَتَخلَّص من هجوم فارسي وآخر تركي بأُعجوبة

في هذا المكان ساورتني رغبةٌ لرؤية هذا الأمير، الذي يَدلُّ مظهره على أنه يعيش حياةً تعيسةً وسعيدةً في آن واحد. وسأروي حادثتين خرج منهما بقدرة السماء؛ فحفظ حياته وثرواته وشرفه.

الأولى هي تسلُّم مُعتَمَد بلاد فارس، (الذي كان يقود أربعين ألفاً من القُزلباش) (وكان مُرابطاً على الضفة الأخرى للنهر ليستولي على الموقع)، أمراً بالعودة إلى «أصفهان» فوراً بسبب وفاة الشاه [١]، فغادر بسرعةٍ ودَفَنَ مدافعه. وما إن علم «علي باشا» بانسحاب الفُرس الذين كان يَترقَّب هجومهم، حتى قام بالإستيلاء على مدافعهم بعد أن اكتشف المكان الذي دفنوها فيه.

أما الحادثة السعيدة الثانية لهذا الأمير فقد حَدَثَتْ بعد إستيلاء السلطان مُراد [الرابع] [٢] على بغداد؛ إذ تَوجَّه نحو البصرة بجيشٍ قوامه مئة وخمسون ألف مقاتل ليقضي على هذا الأمير ويشعل النيران ويُسفِك الدماء في كُلِّ مكان، وليعيد البصرة إلى طبيعتها [٣] تحت سيطرة الإمبراطورية العثمانية [١]. وذلك حينما كتبت له «الملكة

---

(١) المقصود به الشاه عباس الصفوي (الأول)، الذي حكم بين (١٥٧١-١٦٢٩).

(٢) السلطان مراد الرابع (١٦٢٣-١٦٤٠): هو السلطان العثماني الثامن عشر، تولّى السلطة وكان عمره أحدى عشرة سنة. عانت الدولة العثمانية في المرحلة الأولى من حكمه عدم الاستقرار واستمرار الاضطرابات والفُوضى الداخلية التي تجاوزت العاصمة إلى أطرافها. وانتهزت الدولة الصفوية هذه الفوضى فاستولت على بغداد، وحاولت الدولةَ العثمانية أن تستردها، فَبَعثَتْ جيشاً بقيادة الصدر الأعظم «حافظ باشا»، فحاصر المدينة وضيَّق الخناق عليها ولكن دون جدوى، فعزله السلطان. وبعد عدة محاولاتٍ توجّه السلطان على رأس حملةٍ كبيرة لانتزاع بغداد من الصفويين، وتَحقَّق له ذلك في أواخر سنة (١٦٣٨)، وقبيل وفاته في سنة (١٦٤٠). المعوش، موسوعة المصطلحات التأريخية العثمانية، ص ٢٨٥-٢٨٦.

(٣) تكشف لنا هذه الرحلة خبراً في غاية الأهمية عن نِية السلطان مراد الرابع، بعد استيلائه على بغداد في سنة (١٦٣٨)، في التوجّه إلى البصرة للقضاء على علي بن آفراسياب وإجباره على ←

السلطانة» (٢) تطلب منه العودة إلى «القسطنطينية» (٣) بسرعة، لأنَّ أخاه «إبراهيم»، الذي كان السلطان يُشدِّد الخناق عليه، طمع بالسلطة، فاضطر إلى تغيِّير قراره والعودة إلى «القسطنطينية».

إعلان الطاعة والولاء للدولة العثمانية [المترجم].

(١) التسمية الصحيحة من الناحية التأريخية «السلطنة العثمانية» أو«الدولة العلية العثمانية».

(٢) هي السلطانة كوسم، والدة السلطان مراد الرابع (عاشت بين ١٥٩٠-١٦٥١) (دولتلو عصمتلو مهبيكر كوسم والد سلطان علية الشأن حضرتلري). أحدى أقوى النساء نفوذاً في السياسة العثمانية. أما عن لقب الملكة السلطانة، أو السلطانة الوالدة، فهذا اللقب يُطلق على أم السلطان الجالس على العرش، وعرَّفتها المصادر التأريخية بلقب «مَهد علياي سلطنت»، أي مهد السلطنة العالي. وكان يُطلق عليها في البداية لقب «خاتون» استمراراً للتقاليد السلجوقية. ومنذ القرن السادس عشر بدأت تُعرف باسم «سلطانة». وقد حملته السلطانة «حفصة» والدة السلطان سُليمان القانوني. ولم تحصل على لقب «والدة السلطان» من أمهات السلاطين البالغ عددهم ٣٦ سلطاناً إلّا ٢٣ سلطانة. أما الأمهات الأخريات فقد توفين قبل أن يعتلي أبناؤهن سدة العرش. ووالدة السلطان هي أكثر السيدات نفوذاً داخل السراي وأكثرهن إتصالاً بمَنْ في خارجه. والسلطانة التي يعتلي ابنها العرش تنتقل من السراي القديم إلى سراي طوب قابي في موكب يُعرَف باسم «والدة آلاي»، أي موكب السلطانة الوالدة. ومنذ تلك اللحظة تصبح أوسع السيدات نفوذاً داخل الحرم الهمايوني وعلى امتداد حكم ابنها (لطفي المعوش، موسوعة المصطلحات التأريخية العثمانية) مكتبة لبنان ناشرون – صائغ، (بيروت، ٢٠١٢)، ص ١٧٧.

(٣) التسمية الصحيحة من الناحية التأريخية للعاصمة العثمانية بعد سنة (١٤٥٣)، هي استانبول. ولكن معظم الكُتّاب الأوروبيين يستخدمون تسمية «القسطنطينية» للدلالة على عاصمة الإمبراطورية الرومانية الشرقية.

دير الكراملة الحُفاة والوكالات التجارية في البصرة

في البصرة ديرٌ للكراملة المُبشَّرين الإيطاليين [١]، يمارسون فيه شعائرهم الدينية بكل حرية، كما هو الحال في بلاد فارس والهند الشرقية. كما أنَّ للبرتغاليين وجود فيها، كما تُوجَد وكالتنا تجاريتان لشركتي «لندن» و«أمستردام» لتأمين إيصال الرسائل من

(١) بعد سبع سنوات من ذلك، أي في سنة (١٦٥٦)، مَرّ الرحّالة الإيطالي الأب فنشنسو بهذا الدير واستُقبل استقبالًا حاراً من الآباء الكراملة فيه. وقال: «لقد أعجبنا بدير الكراملة الذي يُعدُّ من بيوت البصرة الحديثة، وفيه مختلف المرافق الضرورية الخاصّة بالأديرة. وهناك فناءٌ تحيطه أروقة، وفي وسطه حديقةٌ عامرةٌ بالأزهار. وكانت كنيسة الدير على اسم العذراء مريم عليها السلام». ثمَّ يقول: «يعاني الرُهبان كثيراً من أجل صيانة الدير لأنَّ مواد البناء رديئة، فهي من الملاط والآجر المفخور قليلاً. وهذه المواد تتأثر بالأمطار كثيراً، على الرغم من قلتها في هذه المناطق». رحلة فنشنسو إلى العراق في القرن السابع عشر، ترجمها عن الإيطالية: بطرس حداد، منشورات مركز جبرائيل دنبو الثقافي، (الموصل، ٢٠٠٩)، ص ٧٥-٧٦. كما تَحدَّث الرحّالة الفرنسي السيد جان دي تيفينو عن وجود دير للمبشرين الكراملة في البصرة، وكان فيه عند زيارته له في ١٧ تشرين الأول / أكتوبر (١٦٦٥)، رجل ديل إيطالياً واحداً هو«الأب سيفيرين». رحلات جان دي تيفينو، ص ١٣٨. وحينما مَرّ الرحّالة الفرنسي الأب كاريه بالبصرة في سنة (١٦٧٠) وزار الدير الكرملي، ذكر أن الآباء الكراملة كانوا أول مَن أصيبوا بالطاعون الذي كان يجتاح المدينة حينذاك، لأنَّ كنيستهم كانت ملاذاً لفقراء المسيحيين. وكان رئيسهم الأعلى الأب المبجل «سيفيرين» أول من لقي حتفه، وتبعه إثنان من رفاقه، ثمَّ الأب الزائر العام، المبجل دون «هيرونيموس اليسوعي»، وكان رجل دين كرملياً من جنوا، عُرف بشدة التقوى حينما جاء لزيارة أديرة المبشرين في البلدان الشرقية التي مَرَرنا بها في رحلتنا من الهند حتى مدينة البصرة، التي كان ينوي العودة منها براً إلى أوروبا. رحلات الأب بارثيلمي كاريه، ص ٨٢-٨٣.

بلاد الهند إلى أوروبا عبر البر عن طريق الحِلة [١] ودمشق وحلب.

ديانة الصابئة وكتاب آدم

يُعرف «الصابئة» لدى العرب باسم «المندائيين»، أي «تلاميذ أو أتباع يحيى»، الذي نُسمِّيه نحن «يوحنا المَعمَدان». ويتراوح عددهم ما بين أربعة عشر ألفاً إلى خمسة عشر ألف شخص داخل البصرة وضواحيها، في المناطق الخاضعة للشاه أو«علي باشا» [٢]. وهناك قلعةٌ خاضعةٌ لبكلربك [٣] بغداد أو الحِلَّة من مدن السلطان.

---

(١) وَرَدَتْ في النص بصيغة (Elle)، وقد ذكرها الأستاذ يعقوب سركيس بصيغة «إل»، وقال: كانت البصرة ... ميناءً يُزود دمشق وحلب وإل التي ترد إليه من الهند وبطريقها من الشرق البعيد [=الأقصى] بالبن اليماني (مباحث عراقية في الجغرافية والتأريخ والآثار وخطط بغداد) القسم الثاني، شركة التجارة والطباعة المحدودة، (بغداد، ١٩٥٥)، ص ٢٧٤-٢٧٥.

(٢) تَركَّزَ الصابئة المندائيون في نواحي ميسان بعد هجرتهم من فلسطين مروراً بمدينة حران. وهم «الصابغة» (المُعمَّدين) أسلاف المندائيين (أو الصُبّة) الحاليين. وقد وَرَدَ ذكر الصابئة القدامى في القرآن الكريم، وأفرادها أتباع النبي يحيى بن زكريا عليه السلام. والصباغة (أي التعميد) عملهم الديني الأهم. ويرى «ماتسوخ» أن وجودهم في جنوبي وادي الرافدين يرجع إلى بداية القرن الثاني الميلادي، وذلك من خلال تحليل النصوص المكتوبة. ويُفترض أن المندائيين هاجروا إلى بلاد وادي النهرين في السنوات الأخيرة من حكم الملك الفرثي أردبان الثالث (١٢-٣٨م)، المُعاصر للسيد المسيح عليه السلام. وقد أعطى ابن النديم وصفاً مطوَّلاً عن هذه الطائفة التي يُسمّى أفرادها «صابئة البطائح»، ولا يزال بقايا منهم موجودين حتى اليوم [المترجم].

(٣) البكلربك مصطلحٌ تركي، يرادفه بك البكوات أو مير ميران (أمير الأمراء): لقبُ أُطلق على حُكّام الولايات في العهد العثماني إلى جانب لقب الباشا. حلاق وصبّاغ، (المعجم الجامع في المصطلحات العثمانية) ص ٤٥.

الصابئة: مهنتهم، صفاتهم، اللَّون الأزرق، وكتبهم

يَمتَهن معظم الصابئة مهنة الصياغة [١]. وهم شجعانٌ وأشداء، ويرتدون الملابس العربية ولحاهم طويلةٌ كاليونانيين. ولا يرتدون كُلَّ ما يمتُّ بصِلة إلى اللون الأزرق. ومعرفتهم بالخالق مُستَمدةٌ من ثلاثة كتب. أولها يُسمّى «كتاب آدم» [٢]، وهو أقدم الكتب، والثاني يُسمّى «ديوان» [٣]، والثالث هو «القرآن».

كتاب آدم

كتاب آدم سميكٌ للغاية، ويَرجع تأريخه إلى خمسة عشر ألف سنة، وهو مكتوبٌ باللغة الصورية، وهي أولى اللغات جميعاً، ولا يعرفها سوى رؤساؤهم وشيوخهم

---

(١) كانت محلّات الصاغة الصابئة منتشرةً في سوق السراي والسوق المُطل على شارع النهر ببغداد؛ إذ كانوا يعرضون التُحف الفنية الفضيّة الجميلة التي تُظهر براعتهم في هذه المهنة [المترجم].

(٢) المقصود بكتاب آدم كتاب الصابئة المندائيين «كنزا ريا»، أي «الكنز العظيم»، الذي يعتقد الصابئة أنه يجمع صُحف آدم وشيت وسام، ويقع في (٦٠٠) صفحة. وينقسم على قسمين: القسم الأول يتضمن سفر التكوين وتعاليم الحي العظيم والصراع الدائم بين الخير والشر والنور والظلام، وكذلك هبوط الروح في جسد الإنسان. أما الثاني فيتناول قضايا النفس وما يلحق بها من ثوابٍ وعقاب. للتفاصيل: رشدي عليان، «أصحاب الروحانيات أو الصابئة المندائيون»، المورد، المجلد (٥)، العدد (٢)، بغداد، ١٩٧٦، ص ٧١ [المترجم].

(٣) كتاب ديوان من المصادر الحديثة المنشورة عن الدواوين المندائية، ولا سيما تلك التي تَتَعلَّق بالملفات التي تحتوي على رسومات تحقيق الديوان (ملكوثا أليثا)، الذي يضمُّ تفسيراً للنصوص الطقسية الدينية اللازمة لتكريس رجل دين (أي يصبح ترميذا) [المترجم].

ورُهبانهم: وتعلُّمها مُشابه لطريقة تعلُّم اللغة اللاتينية (١).

وفحوى هذا الكتاب أن في العالم الآخر إلهٌ واحدٌ جالسٌ على العرش، خَلَقَ جبريلَ من نورٍ، وأن المَلَكَ جبريل ابنُه، الذي أنجب شياطين الظلام، فتزاوج الأبالسة الأخيار والأشرار، وتناسلوا فيما بينهم مثلنا.

ولديهم معابد ومنازل يسكنون فيها، وهي أجمل من منازلنا بكثير. ولدى جبريلٌ الكثير من الأولاد تناسلوا من نور. فعندما أراد الله أن يخلق الكون بقدرته، نادى جبريل وقال له: «يا ولدي جبريل اخلق الكون». فَخَلَقَ جبريلُ الكون على النحر الذي هو عليه، فاستقرَّ. وبعد أن خلق جبريل الكون العجيب كما أُمر، خَلَقَ الله آدم وحواء لترافقه، ولم يكونا قد اكتشفا بعدُ كونهما رجلاً وإمرأة، ولكنهما عرفا ذلك بعد أن ارتكبا الخطيئة، فبانا على حقيقتهما بعد أن أكلا الفاكهة؛ ثمَّ وُلد الطفل الذي كانت أمُه صبيةً منذورةً لخدمة الرب.

---

(١) اللغة المندائية هي اللغة الخاصّة بالصابئة المندائيين. يصنفها اللغويون بأنها أحدى اللغات الساميّة، ويعدّونها الفرع النقي للغة الآرامية الشرقية (العراقية)، عِلماً أن الآرامية الشرقية هي لغة بلاد ما بين النهرين التي تشتمل على اللهجتين الشمالية الآشورية والجنوبية البابلية. وهذه اللغة مُهدَّدة بالانقراض، إذ لا يَتحدَّث بها من المندائيين البالغ عددهم في جميع أنحاء العالم نحو ستين ألف نسمة أكثر من مئة شخص، يشكل رجال الدين نحو ٤٠٪ منهم، بمقتضى أن الطقوس الدينية المندائية التي يمارسونها تتمُّ باللغة المندائية [المترجم].

الكتاب المُسمّى ديوان

في هذا الكتاب الكثير من الصور التي يُقدِّسونَها؛ وفيه صُوِّر فيها الربُّ جالساً على عرشه، وبجواره مَلَكٌ يزن الحسنات والسيئات؛ لأنهم يَدّعون أن جسدَ البشر يُفنى لكن روحه تبقى خالدة. فبينما يعاني المرء من سكرة الموت، تقوم الشياطين بفصل روحه عن جسده، وتقودها إلى طريق ضيِّق مليء بالأفاعي والأسود والنمور لتفترسها إذا كانت مُحمَّلة بالذنوب، وإلّا فإنها تمرُّ عبر طريقٍ آخر؛ فتذهب الروح أمام الله، فيزن عملها مَلَكُ الميزان ليرى إنْ كانت حسناتها أثقل من سيئاتها، وهذا ما تَعتَقِد به الديانات الأخرى. لكنهم يؤكدون أن جميع الصابئة سيكونون من الناجين.

وقد تَضمَّنت رسومهم أيضاً المَلَكَ «جبريل»، الذي يَدَّعون أنه ابن الله، خَلَقَهُ من نور. فبعد أن خلق «جبريل» الكون بناءً على أمرٍ من أبيه، ذَهَبَ ليقول له أنه حزينٌ ونادمٌ على معاناته في صنع الجبال العالية، وتثبيت المياه في أماكنها، وهو يرى مجيء الأشرار من كُلِّ طائفةٍ من البشر وقد تأثّروا بشيوخهم المُسلمين والمسيحيين واليهود والفُرس والوثنيين وغيرهم عِبر الزمن، يصبحون مكروهين أمام الله بسبب قسوتهم وطِباعهم الفاسدة. فيجيبه الربُّ أن لا يحزن أبداً: «يا ولدي جبرائيل إنَّ كُلَّ مَنْ يأتي من مندائيي يحيى ناجون». وهذا القول عنوانٌ واضحٌ لتمسكم بطائفتهم لأنهم يفترضون أن اللعنة لا تُصيبهُم في معتقدهم.

وهناك صورتان لسفينتين تمثلان الشمس والقمر أيضاً يُؤكِّد الصابئة أنَّ الملائكة تأتي في كل صباح حاملةً الصليب إليهما، ليكون صارياً لهما. ومن دون هذا الصليب لا

تستطيع الشمس أو القمر الدوران في فلكهما، لأنَّ النور كُلُّه متأتٍ من الصليب.

ويعتقدون أيضاً بوجود سبع طبقات من المكان الذي نَحنُ فيه حتى مركز الكون. الأولى من حجر، والثانية من فِضّة، والتالية من الفِضّة الخالصة وبعدها من النحاس، ومن ثمَّ من الذهب، وبعدها من الحديد، ثم من القصدير، وآخرها من الرصاص.

القرآن؛ اعتقادهم بيحيى وعيسى؛ القرآن وعيسى

ويرى الصابئة أن القرآن كتابٌ مُقدَّسٌ، ففيه ذكرٌ لعيسى الذي نسميه «يسوع»، وأنه «روح الله»، التي تعني «حبيب الله» الذي لم يمت أبداً، وقد صَلَبَ اليهودُ شبيَهَه بدلاً عنه. كما يعتقدون أن بعد هذه الحياة جنّةَ نعيمٍ وعذاباً أليماً، وأن أرواح المُعذَّبين لا تَذوق الماء من عين الجنّة في العالم الآخر، وأن من بين المُعذَّبين مَن لم يحافظ على وعد مُحَمَّد (١) – مع أنه سيشفع لهم في النهاية – ومن بينهم «تيمورلنك»، الذي دَمَّر دينَ الصابئة تقرّباً [إلى الله]، وأَحرَقَ كتبهم، وهدمَ معابدهم؛ فأخذ الصابئة، منذ أن اضطهدهم «تيمورلنك»، يَتحدَّثون عن الأسرار الخفية لعقيدتهم بطريقةٍ ما، لئِلا يَتعرَّضوا للبطش التام.

(١) الإشارة هنا إلى الآية الكريمة: ﴿لا إكراه في الدين﴾، (صدق الله العظيم)، البقرة، (٢٥٦).

البرتغاليون يدّعون إنشاء كنيسة للصابئة المسيحيين في البصرة

يُعتَقَد أن أعمال الاضطهاد الأخيرة أزالت عن الصابئة ضلالتهم، ووضعتهم على طريق الخلاص، فجعلتهم يَتعرَّفون على الإنجيل من خلال البرتغاليين الذين برزت قوتهم في «الخليج الفارسي» بعد سيطرتهم على «مضيق هرمز» (١). ولأنّ هؤلاء البرتغاليين أصدقاء باشا البصرة، فقد سَمَحَ لهم بإجبار الصابئة على بناء كنيسة لهم في البصرة وذلك بفرض غراماتٍ مالية باهظة وعقوبات جسدية إن لم يعملوا في أيام الآحاد.

الصابئة يعودون لديانتهم بعد فقدان البرتغاليين لمضيق هرمز

قام رجال الدين البرتغاليون بتعليم الصابئة، وتقديم المأكل والمَشرَب والمَلبَس لأولادهم الفقراء. ولكن بعد أن أَفَلَ نجمهُم بفقدانهم مضيق هرمز (٢) لم يشهد أحد

---

(١) سيطر البرتغاليون على مضيق هرمز في سنة (١٥٠٧) بقيادة ألفونسو ألبوكيرك في عهد الملك البرتغالي مانويل الأول (١٤٩٥-١٥٢١). للتفاصيل: محمَّد حميد السلمان، الغزو البرتغالي للجنوب العربي والخليج (١٥٠٧-١٥٢٥)، مركز زايد للتراث والتأريخ، (العين، ٢٠٠٠)، ص ١٧٢-١٩٢. وثمّة بحثٌ قيم للمؤلف نفسه عن النفوذ البرتغالي في البصرة، وهو بعنوان: «البصرة في مرحلة السيطرة البرتغالية على البصرة (دراسة في المصادر)»، مجلة آداب البصرة، العدد (٦٣)، المجلد الثاني؛ (البصرة، ٢٠١٢)، ص ٦٢٩-٦٤٨.

(٢) انتهى الإحتلال البرتغالي لجزيرة هرمز في سنة (١٦٢٢). للتفاصيل: محمَّد حسن العيدروس، سقوط الحكم البرتغالي في الخليج العربي (١٦٢٢-١٦٥٠)، دار المتنبي للطباعة والنشر، (الإمارات، ١٩٩٧)، ص ٤٤-٥٣.

قسوةً كالتي تعرض لها الصابئة، فعادوا جميعاً إلى دينهم الأول، أو اعتنقوا الإسلام، ولم يبقَ على المسيحية سوى أربعة أشخاص إلتزَمَ معظمهم بعدم الإشتغال في يوم الأحد إلتزاماً تاماً. وهم ليسوا مسيحيين أبداً، مع أن البرتغاليين يطلقون عليهم تسمية «مسيحيي القديس يُوحنا المَعمدان».

البرتغاليون يعرضون على الصابئة الإقامة في جزيرة سيلان

بَذَلَ البرتغاليون محاولات للتعامل مع هؤلاء القوم، إذ عَرَضَ عليهم نائب الملك لبلاد الهند «دون فيليب ماسكارجيناز» (١) الإقامة في جزيرة «سيلان» (٢)، وكانت العقبة في أنهم يريدون اتّباع شيوخهم والمُحافظة على شعائر دينهم. فَتطوَّعت من البصرة جموعٌ غفيرةٌ منهم ليخدموا في الجيش البرتغالي، وبدت ملابس البرتغاليين ملائمةً لهم لأنّه بشرتهم بيضاء وأجسامهم متناسقة.

يوحنا يُعمِّد عيسى

يُروى أنّ الصابئة يعتقدون أن عيسى من أقارب يحيى، ولدته أمه بمعجزة بعد أن

---

(١) دون فيليب ماسكارينياس، (Don philippe Mascaregnas): نائب الملك البرتغالي في جزيرة سيلان (١٦٤٥-١٦٥١).

Denis Louis Cottineau de Kloguen, Historical Sketch of Goa, (New Delhi, 1988), p. 26.

(٢) التسمية الحالية هي سريلانكا. أما التسمية القديمة فهي سيلان. دولة جزرية تقع في شمال المحيط الهندي، وجنوب شبه القارة الهندية، ولها حدود بحرية مع كل من الهند من جهة الشمال، ومع جزر المالديف من جهة الجنوب الشرقي.

أُوحي إليها أن تذهب لتشرب الماء من «نهر الأردن». وعندما شربت منه نفخ الربُّ عيسى في جسدها[١].

الصابئة يكرهون اللون الأزرق

ولما جاء عيسى إلى «نهر الأردن» ليُعمِّده يوحنا كالآخرين، شعر أحبار اليهود بالحسد تجاه القديس يوحنا، فعملوا على تعكير مياه النهر بصبغة بالنيلة، وهي صبغةٌ زرقاء تكثر في بلاد الهند الشرقية، يَطلق عليها البرتغاليون اسم «أنديكو»؛ فَتَضَرَّع يوحنا إلى الرب، ونَزَلَ من السماء ماءٌ صاف، فعَمَّد يحيى ابن خالته عيسى. ولهذا السبب كان الصابئة يكرهون هذا اللون الذي كاد أن يمنع التَعميد حتى الآن، وهم لا يستخدمونه كغطاءٍ أبداً ولا يطيقون النظر إليه، حتى أن لمسَه يُعدُّ إثماً[٢].

الصابئة يتنازعون مع أسقف روماني

منذ عِدة سنوات حَدَثَ نزاعٌ بين الصابئة وأسقف روماني من المبعوثين إلى الهند حاول إقناعهم لبس اللون الأزرق دون تردد. فكان جوابهم أن ذلك من صلاحيات

---

(١) يقول الرحّالة جان دي تيفينو أن الصابئة «لا يعترفون سوى بالقديس يوحنا ووالده القديس زكريا وأمه القديسة أليصابات. ولا يعرفون عن المسيح عيسى سوى أنه خادمٌ للقديس يوحنا». رحلات جان دي تيفينو، ص ١٦٧.

(٢) يقدم الرحّالة جان دي تيفينو تفسيراً آخر لكراهية الصابئة للون الأزرق، فيقول أن أحدهم أخبره «أن السبب في مقتهم ذلك اللون هو أن غائط الكلب يُستخدم في صنع تلك الصبغة، وأنهم يَعدُّون الكلبَ حيواناً نجساً». رحلات جان دي تيفينو، ص ١٦٩.

شيخهم الأكبر أو مُعلِّم «عيسى»، وهو ابن خالة وصديق وتلميذ نبيّهم الكبير «يحيى»، ولا بُدَّ لهم من الثبات على هذه العقيدة والإلتزام بها حتى الموت، وعدم خرقها تحت ذرائع تُقدَّم كنصائح طبية لإقناعهم بلبس هذا اللون المكروه، وحتى لأساقفتهم الذين لا بد أن يكونوا قُدوةً للآخرين.

قصة النِيلة وتعكير اليهود للمياه

قصة النِيلة وتعكير اليهود للمياه سياسةٌ ابتدعها شيوخهم لإبعادهم عن الاختلاط بالعرب المسلمين أو بالمسيحيين الذين يرتدي معظمُ رجالهم ونسائهم الملابس الزرقاء، لمنعهم من لمس هذا اللون أو الإقتراب من النسوة العربيات اللواتي يُلوثنَ شفاههن السُفلى، ويزينّ أيديهن بوشمٍ بهذا اللون. وهذا ما لاحظته لدى جميع النسوة في البادية، اللواتي يضعن الوشم على ذقونهن وأذرعهن. وقد انتقلت عادة الوشم إلى حُجاج «أورشيلم» [=القدس]؛ إذ كُنَّ يضعن علامة الصليب الأزرق على أذرعهن.

النبي يحيى، ابنُ زكريا واليصابات

يعتقد الصابئة اعتقاداً راسخاً أن يحيى ابنُ زكريا واليصابات بلا منازع [١]، وهو

---

(١) هو النبي يحيى بن زكريا عليه السلام، الذي وَرَدَ ذكره في سورة مريم، الآية ٧: ﴿يا زكريا إنّا نُبشرك بغلامٍ اسمه يحيى لم نجعل له من قبل سميّاً﴾ (صدق الله العظيم). أما يوحنا المعمدان فهو الاسم الذي يطلقه النصارى على النبي يحيى [المترجم].

ثمرة القِبلة الوحيدة لأبيه وأمه دون أن يعرف أحدهما الآخر [١]. ويُعدُّ يحيى من أعظم الأنبياء السابقين واللّاحقين على مَرّ التأريخ، بل وتَفوَّق على جميع الأولياء السابقين واللّاحقين له. وعندما تَزوَّج كان له من الأولاد ثلاثة ليسوا من زوجه، وإنما من مياه «نهر الأردن» [٢]، وقد أعطاه الربُّ إياهم ورفعهم. وقد تَغذّى على المَعرفة وعلى حُبّ الإله الواحد. ومات في «شُوشتَر» [٣] الواقعة على بعد خمسة أيام بالقافلة من البصرة، التي لم يبقَ فيها الآن سوى السهل الخاضع لسيطرة الشاه؛ إذ يُؤكّدون أن أحد فروع «نهر الأردن» يمرُّ من وسط ضريحه.

طقوس الصابئة وشعائرهم واختيار رهبانهم

سياسة شيوخهم لإبعادهم عن العرب

لا يأكل الصابئة ولا يشربون مع مَن هم من غير دينهم، حتى أنهم لا يستخدمون

---

(١) عن هذه النقطة يقول سبستياني أن الصابئة يعتقدون أن اليصابات وزكريا أنجبا القديس يوحنا بالمُعانقة فقط (وليس بالنكاح). رحلات سبستياني إلى العراق في القرن السابع عشرة، ترجمها عن الإيطالية: بطرس حداد، شركة الديوان للطباعة، (بغداد، ٢٠٠٤)، ص ١٣٥.

(٢) يقول السيد سبستياني أن القديس يوحنا (يحيى) أَنجَبَ بحسب روايتهم أربعة أولاد ولدوا في مياه نهر الأردن، فقامت إمرأةٌ على تربيتهم، فَعدّوها زوجته. رحلات سبستياني إلى العراق، ص ١٣٥.

(٣) مدينة يسميها العرب تستر، وتقع على بعد (٦٠) كيلو متراً شمال الأحواز، وبخطٍ مستقيم [المترجم].

الإناء الذي يشرب أو يأكل فيه غير الصابئي [١]. وإذا ما طَلَبَ منهم المسلمون أن يشربوا ماءً، فيقدّمونه لهم، ثمَّ يكسرون الكأس الذي قدَّموا به الماء، لئلا يستخدمه صابئيٌّ للشرب؛ فهو عندهم إثمٌ عظيم. وهذه سياسةٌ يستخدمها شيوخهم لإبعادهم عن الاختلاط بالعرب.

ضرورة أن تكون أُمُّ الكاهن أو القرباني عذراء

ليس بمقدور الصابئي أن يصبح كاهناً أو قُربانياً إذا لم يُفتح سجل والدته. ويتولّى الكهنة ترقية الصابئي إلى درجة «الشيخ الكبير»، أو«الكاهن» بعدة وفاة والده، شريطة أن تكون والدته عند زواجها عذراء. وبخلافة فإنه لن يصبح «شيخاً كبيراً» أو«قربانياً بسيطاً». فإذا مات الكاهن ولم يُخلف ولداً من أمهاتٍ عذراوات، يتمُّ انتخاب أقرب أقربائه المولود من عذراء. عندها يحظى بالبركات في احتفالٍ عام [٢].

ويختار الكاهن بنفسه الشيوخ الآخرين والرهبان الإعتياديين لهذا الإحتفال. ويصوم سبعة أيام يَتلقّى خلالها البركات من «الشيخ الأكبر». وبعد سبعة أيام يصبح قُربانياً. ويتفاخر هؤلاء الشيوخ أن بمقدورهم، من خلال قراءة كتبهم، فكَّ العُقَد

---

(١) تَحدَّث الرحّالة الفرنسي السيد جان دي تيفينو عن شيء مماثل حينما قال: «يحرص هؤلاء القوم (الذين يعتقدون أن كل مَن ليسوا من دينهم مدنَّسون) على عدم الشرب من الإناء الذي يشرب منه غير الصابئي. ولو وقع بأيديهم مثل هذا الإناء فسيكسرونه حتى لا يتلوث أحدهم لو شرب به». رحلات جان دي تيفينو، ص ١٦٩.

(٢) ذكر الرحّالة الإيطالي السيد سبستياني أن هذا الانتخاب يتمُّ دون مراسيم خاصّة. رحلات سبستياني إلى العراق، ص ١٣٢.

وربط الشياطين.

ويُقيم شيخهُم الأكبر على بُعد ثلاثة أيام من البصرة شمال أراضي «علي باشا».

حادثة النخلة التي حَمَلَت رُطباً في غير أوانه

قِيل أن أحد المسلمين طلب دليلاً قبل خمسمئة سنة، يَثبُت صدق دينهم في مدينة البصرة، فقام شيخهم الكبير بتلاوة صلواته. وسرعان من أثمرت نخلةٌ في غير أوانها، وأنتجت الرُطَب أمام مرأى المُسلِم، الذي قال بأنه يريد أن يأكل منه. وقرأ الشيخ صلواته، فانحنت النخلةُ، ومَدَّ المُسلم يده ليقطف الرطب، فرفعته النخلة. وَوَجَدَ المُسلِم نفسه مُعلَّقاً من يده، فَتَوسَّل بالشيخ أن يعطف عليه وقال أنه لن يضطهد الصابئة أبداً وأنه سيكون صديقاً لهم. فَتَضَرَّع الشيخ إلى الله أن يرحمه، فانحنت النخلة وأنزلت المُسلِم إلى الأرض دون أذى.

التعميد والقرابين الثلاثة

التعميد

بعد أن يُحدِّد الصابئة مكاناً في النهر، يقومون بالإغتسال في يوم الأحد بحضور الكاهن أو شيوخ المرتبة الأولى على الشكل التالي: ينزل الكاهن إلى الماء، ثمَّ يجلب له رجلٌ طفلاً، فَيُغطِّسه في الماء ثلاث مرات، ويُردِّد في كُلِّ مرةٍ عبارة: «باسم الحي الأول

والآخر، سيد الكون والجنّة، وسيد الخلائق أجمعين»[١].

أعياد التعميد الكبيرة

لدى الصابئة ثلاثة أعياد كبيرة في السنة[٢] يُجدِّدون فيها تعميدهم، ويعتقدون

---

(١) يُفصِّل جان دي تيفينو في الحديث عن طقس التعميد أكثر فيقول: «... فيحمل رجلٌ الطفلّ إلى ضفة النهر لأنه يعتقدون أن التعميد لا يتمُّ إلّا بالماء الجاري. وعلى هذا الأساس تراهم يعيشون دوماً قرب الأنهار ولا يسكنون الأماكن الخالية من الأنهار. فيذهب أحد كهنتهم مع الرجل الذي يحمل الطفل، وحينما يصلان إلى ضفة النهر يتلو الكاهن هذا الدعاء: «باسم الحي العظيم؛ البركةُ لجميع المؤمنين؛ ولجميع المندائيين المصبوغين في الماء الحي، الذين للحي يشهدون؛ والأعمال الصالحة يعملون؛ وبمنداهيتي يعترفون؛ وللثلاثة أبناء جيل الحي المتألق يخشعون». ثمَّ يقوم برشّ قليل من الماء على رأس الطفل الرضيع ويُردِّد الدعاء ذاته مرةً أخرى، ثمَّ يرشّ الماء مرةً أخرى على رأس الطفل، يُردِّد بعدها الدعاء ذاته للمرة الثالثة، ويرشّ الماء للمرة الثالثة على رأس الطفل. وبعد أن يتمُّ ذلك يحمل الطفل ويغطسه ثلاث مرات في النهر». رحلات جان دي تيفينو، ص ١٦٥-١٦٦.

(٢) وهذه الأعياد هي: (١) البروناية، أي عيد الربيع، ويُسمّى بالعامية «بنجة». ويكون خلال الأيام الخمسة الأخيرة للسنة المندائية (إذ تَتكوّن سنتهم من ٣٦٠ يوماً، وتُضاف خمسة أيام إلى نهايتها). وفي هذه الأيام الخمسة تتمُّ الطقوس ليلاً ونهاراً. وهذا العيد هو أول أعيادهم، ويكون في ٢٢-٢٣ آذار / مارس. وهناك العيد الصغير، وهو يومٌ وأحد، ويكون في شهر تشرين الثاني / نوفمبر؛ (٢) العيد الكبير: ويُسمّى «عيد الكرصة»، أي الإختباء في البيوت، إذ يبدأ مع اختفاء ضياء اليوم الأخير للسنة وبداية نهار اليوم الأول للسنة الجديدة. وفي اليوم الثاني يخرج الناس لمعايدة بعضهم بعضاً؛ (٣) يوم الأحد هو اليوم المُقدَّس لدى الصابئة. وهناك أيام محددة تجري فيها طقوس التعميد (يوم التعميد الذهبي) «دهفة ديمانا»، ويوم «كنشيوز هلي»، وهو يسبق مساء العيد الكبير. قيس مغشغش السعدي، «الصابئة المندائيون ←

بعدها بأنهم مُطهَّرون من الخطايا. ويُجدِّد المتزوجون تعميدهم أيضاً. لكن الشيخ لا يُغطسهم في الماء وإنما يستمعون إلى صلواته أعلاه في أثناء الإغتسال لا غير. وعادةً ما يتمُّ التعميد عند المساء وعند الصباح، ولا مانع من أدائه في كُلِّ يوم[١].

قُربان الخبز والخمر والزيت

لدى الصابئة ثلاثة قرابين. أولها نوعٌ من القُدّاس يتمُّ بالطريقة الآتية: يأخذ الشيخ عجينةَ الطحين والزيت والخمر المُعتَّق المصنوع من الزبيب، ويُنقّعها بالماء لبعض الوقت، ويصنع منه فطيرة. وبعد أن تُشوى يأكل منها قليلاً ويُوزِّع الباقي على مساعديه[٢].

تاريخاً ولغة»، ميزوبوتاميا، العدد ١٧-١٨، (بغداد، ٢٠٠٩)، ص ٣٤٩ [المترجم].

(١) التعميد هو الركن الأساسي وهو فرضٌ واجبٌ على كُلّ صابئي مندائي، ويهدف إلى فتح باب الخلاص والتوبة وغسل الذنوب والخطايا والتقرب إلى الله. ويتمُّ هذا الطقس في الماء الجاري، ويكون في يوم الأحد على رأس السنة المُقدَّسة. ويُعطى للمُتعمّد الاسم الديني (الملواشة) الذي يرافقه مدى الحياة [المترجم].

(٢) يقول سبستياني عن هذا القُربان أنهم يستعملون خبزاً معجوناً بالخمر والزيت، ويصنعون الخمر من الزبيب بعد نقعه، ويستخدمونه للكأس أيضاً. ولا يتلون الكلام الجوهري، بل يُردِّدون بعض الصلوات والبركات، ثمَّ يقتسمون الخبز فيما بينهم ويشربون الخمر. وعلى ذلك علَّق الأب الدكتور بطرس حداد بالقول أن الرحّالة خَلَطَ هنا بين الطقوس المندائية والأسرار المسيحية، وذلك من قناعته في أن المندائية فرقةٌ نصرانية، فقارن الخبز المُقدَّس لديهم بالقربان المُقدَّس، أو القُداس في المسيحية. والفرق بين هذا وذاك جوهري. رحلة سبستياني إلى العراق (الكتاب)، ص ١٣٣.

قُربان الدجاجة

القُربان الثاني يقوم به شيخٌ أو صبيٌّ أمه عذراء [كذا]، على الرغم من عدم كونه منذوراً لهذا العمل من الشيخ الكبير أو الكاهن. فيأخذ دجاجةً ويغسلها بالماء الصافي، ثمَّ يديرها نحو الشرق، ويضع السكين على حُنجرتها، وينظر إلى السماء، ويُردِّد العبارات التالية: «باسم الحي هذا اللحم خالصٌ لكل مَنْ يأكله»(١).

قربان الخروف

القربان الثالث هو قُربان الخروف؛ إذ يقوم شيخٌ بذبح خروف من حنجرته، ويتلفظ بالعبارات ذاتها التي تفوَّه بها على قربان الدجاجة، وذلك بعد أن يقوم بتنظيف المكان، ويُغطِّيه بسعف النخيل(٢). وقبل أن يمدد الخروف يقوم المُضحِّي بالتمنطق بقطعة من القماش الأبيض لإخفاء عورته التي يُسمّيها الأوروبيون «الأعضاء المُخجِلة»، ومن ثمَّ يجثو على ركبتيه، وقد لَفَّ رأسه بعمامةٍ بيضاء كالعرب.

---

(١) يضيف سبستياني إلى ذلك بقوله أنهم يقومون بطقس التضحية وهم في حلل خاصّة، فينحرون الدجاجة من رقبتها ولا يتركونها إلّا بعد أن يجري دمها كله. رحلة سبستياني إلى العراق (الكتاب)، ص ١٣٣.

(٢) وَرَدَتْ لدى سبستياني بالعكس، فالضحية تُوضَع فوق السعف وليس تحته. رحلة سبستياني إلى العراق (الكتاب)، ص ١٣٣.

مراسيم زواج الصابئة

مراسيم الزواج

بعد أن يتمّ الإتفاق بين الطرفين يجري اختيار الكاهن، أو«الشيخ الكبير»، الذي يُسلِّم على الزوجة، فيذهب لوحده إلى غرفة خطيبة المستقبل، ويسألها إنْ كانت باكراً أم لا. فإنْ أجابت بالنفي يعود إلى رفاقه ويستدعي شيخاً عادياً ويطلب منه أن يتولّى إتمام الزواج. حينذاك يواجه الشيوخ العاديون صعوبةً في تزويجها. أما إذا أجابت بأنها باكر، فيقوم الكاهن بحجزها، ويعود إلى رفاقه كما ذكرنا، ويَستدعي زوجته ويأمرها بالذهاب لزيارة الفتاة التي ادّعَت أنها باكر، لتشاهد وتَتَلمَّس وتحكم وتقدِّم تقريرها في ضوء ذلك. وبعد ذلك يذهبون إلى مكانٍ محددٍ عند النهر للتعميد. وبعد أن يتلو الكاهن وهو على الضفة بعض الصلوات يدخل إلى النهر ويقترب الخطيبان منه ليُعمِّدهما. بعد ذلك يأتيان إلى بيت الخطيب. وبالقرب من الباب يَتَوجَّه الخطيب وخطيبته سبع مرات إلى حد عتبة باب الدار دون أن يدخلا. فيعودان إلى الشيخ الذي يقرأ لهما بعض الأدعية التي تبعد عنهما عُقَد الزواج. بعدها يدخلان البيت، ويضطجع الخطيبان على سرير أو سجادة يستخدمانها فراشاً، وظهرُ أحدهما بظهر الآخر [١]؛ وعند ذاك يُزوّجهما الكاهن، ويَتَمنّى لهما في طقوسه يوماً هانئاً؛ إذ يأمرهما أن يُكملا

---

(١) عند هذه النقطة: «إلى أن يتلامس الكتفان، ثمَّ الرأسان»، لدى سبستياني، كتاب رحلاته، ص ١٣٤.

زواجهما بالتعارف على بعضهما ليتكاثر نسلهما.

ثمّة سببان يحملان هؤلاء الشيوخ على اتّباع هذه الطريقة في الزواج، وهي إجبار الفتاة على الإلتزام بالواجبات المفروضة عليهن لئِلا يذهبن إلى كاهنٍ عادي لتتزوج، وهو إثمٌ كبير، وذلك لمصلحتها. وبخلافه، فالعار من ذلك الزواج، لأنَّ أولَ مولود لا يمكن أن يكون كاهِناً أو قربانياً للدجاجة أو الخروف أو الخبز والخمر والزيت.

وبحسب شريعتهم لا يستطيع الصابئة الزواج بأكثر من إمرأة واحدة، لكنهم يستطيعون الزواج ثلاث أو أربع نساء في بلدان المسلمين[١].

الإبحار إلى بابل (=بغداد)

مغادرة البصرة

أبحرتُ من البصرة على متن «دانق» [٢] – وهو نوعٌ من القوارب الخشبية

---

(١) عند سبستياني أن الصابئة يسمحون بتعدد الزوجات، لكن لوغوز يربط ذلك بوجودهم في بلاد المسلمين.

(٢) يظهر من خلال وصف الأب كاريه (١٦٧٤) أن الدانق يشبه البَلم الذي لا يزال يُستخدَم في نهر دجلة، فهو يقول عنه بأنه «قاربٌ صغيرٌ وضيقٌ جداً وواطئ، يبلغ طوله نحو ثلاثين قدماً». رحلات الأب بارثيلمي كاريه، ص ٢٢٧–٢٢٨. ويصفه جان دي تيفينو أيضاً ويقول عنه: «عندما يريدون تزفيت الدانق بالقار، يقومون بعمل فرنٍ داخل الأرض على بعد عشر خطوات أو إثنتي عشرة خطوةً من الدانق، يكون الجزء العلوي منه أشبه بمرجل يَصبُّون فيه القار، والنار من تحته. وعندما يُوشَك القار على الذوبان، وقبل أن يتحوّل إلى سائل، يَتقدّم رجلٌ وبيده مَضرب خشبي ويغمسه فيه، ويلقي رجلٌ آخر بعض هذا القار عليه، ثمَّ يوضع الماء على ←

يَستخدِمه العرب للتنقل في نهري دجلة والفرات – فقد خشيتُ الذهاب عبر البر إلى بغداد بسبب وجود السُّراق في البادية الذين لا يسمحون لأي مسافرٍ بالمرور عبر هذا الطريق دون أن يسرقوه. وكان على متن دانقنا عددٌ كبيرٌ من المسافرين، من بينهم تاجرٌ بنغالي من قبيلة «كاتري»، وإثنان من إنكشارية حماية بغداد، ودرويشٌ من «التبت» (١)، وثلاثة تجار نساطرة من «نينوى» وأحد اليونانيين الكفرة. وبدأنا نَمخُر عُبابَ النهرِ صعوداً بقوة الأذرع، ونستخدم الأشرعة عند هبوب الرياح.

في اليوم الثاني (٢) لإبحارنا دخلنا في وسط بادية، وشاهدنا أعداداً كبيرةً من العرب في الخِيام على إمتداد النهر مع مواشيهم الكثيرة. ودفع التيار دانقنا مع مَنْ كانوا يقومون بسحبه؛ ولم نتَمكَّن من الوصول إلى الضفة الأخرى من النهر إلّا بشق الأنفس. فتَوقَّفَ دانقنا عند حافة قلعة تشرف على نهر صغيرٍ يأتي من بلاد فارس،

القار الذي يُحمل إلى الدانق، ثمَّ يُمزج القار بقطعةٍ خشبية دون أن يعلق بها. ومَن يعمل على الدانق يأخذ القار بيده وينثره مثل الجص على الدانق، ثمَّ ينشره على المركب بواسطة أسطوانة غير مدوَّرة تماماً. وبهذه الطريقة يتمُّ طلاء الدانق كله من الخارج. وهذه السفن متينةٌ للغاية، إذ يبلغ سَمك جوانبها نحو قدم، وجميع ألواحها مُسمّرةٌ بمسامير ضخمة كالمسامير المُستَخدَمة في البوابات بفرنسا، ولها صارٍ ضخم. والحقيقة أن هذه السفن ثقيلةٌ للغاية، ولا سيما وسط الماء، حينما لا يكون استخدام الشراع ممكناً، إنْ لم تكن هناك رياحٌ تدفعها من الخلف. ومع ذلك، فهُم يحمّلونها حمولات ثقيلةً جداً، مع أن غاطسها في الماء لا يزيد عن نصف قدم». رحلات جان دي تيفينو، ص ١٣٢-١٣٣.

(١) التبت منطقة ودولة سابقة في آسيا الوسطى، تُسمّى أحياناً «سقف العالم»، عاصمتها لاهاسا.

(٢) الأحد، ٢ آيار / مايو.

ويَصبُّ في «نهر البصرة» (١). وهذه القلعة التي تقع في شرق النهر مقرٌ لإقامة «علي باشا».

القرنة مكان إلتقاء دجلة بالفرات

في اليوم الثالث (٢)، وصلنا إلى مكانٍ يلتقي فيه نهرُ دجلة بنهر الفرات. فيأتي الفرات من الجهة الغربية للبادية، بينما يأتي دجلة من الجهة الشرقية. وعند حافة نقطة الإلتقاء ثمّة قلعةٌ جميلةٌ تُسمّى «القرنة» (٣)، تعود ملكيتها إلى «علي باشا»، وفيها حاميةٌ

---

(١) سبق أن ذكرنا أن المقصود بنهر البصرة شط العرب. أما النهر الصغير القادم من بلاد فارس والذي يصبُّ في شط العرب فهو نهر الكارون.

(٢) الإثنين، ٣ آيار / مايو.

(٣) يذكر الشيخ فتح الله بن علوان الكعبي في رسالته زاد المسافر ولهفة المقيم والحاضر أن القُرنة كانت قلعةً صغيرة. فلما تولّى البصرة علي باشا ابن افراسياب زاد فيها وجعلها قلعةً كبيرةً فسُميَّت «العَليّة» على اسمه، ثمَّ زاد تَشييِّدها وإتقانها حسين باشا بن علي باشا وجعلها ثلاث قلاع حصينة. فلما طوى بساط افراسياب استرجعت هذه القلعة اسمها القديم وهو القرنة. وكانت سلطة أسرة افراسياب قد استمرَّت من سنة (١٥٩٦) إلى سنة (١٦٦٧). ميزوبوتاميا، مطبعة إيلاف، (بغداد، ٢٠٠٥)، ص ٢٠٤ [المترجم].

القُرنة مدينة مشهورة في البصرة، وهي نقطة إلتقاء نهري دجلة والفرات. مَرّ بها العديد من الرحّالة الأجانب ووصفوها. ومن هؤلاء الرحّالة البرتغالي السيد بيدرو تيخيرا الذي قال عنها عند مروره بها في شهر حزيران / يونيو(١٦٠٤)، إنها: «آخر نقطة من بلاد ما بين النهرين، وتقع على بعد ثلاثة أيام شمالي مدينة البصرة، وتُوجَد فيها قلعة للأتراك تُسمّى «القُرنة»، أي «النقطة»، وهي تشرف على القناتين. وهنا يَتَّحد النهران ليصُبا مياههما بين شواطئ مستوية على كلا الضفتين». رحلة بيدو تيخيرا، ص ٢٨-٢٩. أما الرحّالة الفرنسي السيد جان دي تيفينو ←

فقد مَرّ بها في أواخر سنة (١٦٦٥) وقال أنها تبعد يومين شمالي البصرة. وفيها قلعة متينة البناء تَتَحكَّم بحركة نهري دجلة والفرات. رحلات جان دي تيفينو، ص ١٥٣. أما الرحّالة الفرنسي الأب كاريه، الذي مَرّ بالمنطقة في شهر أيلول / سبتمبر (١٦٦٩)، فقال عن القُرنة أنها موقع بالغ الأهمية بسبب وقوع نقطة إلتقاء نهري دجلة والفرات في هذا المكان، الذي يحمي مدينة البصرة، وهو بوابة الأمان لحماية بغداد، وغيرها من المناطق التركية. رحلات الأب بارثيلمي كاريه، ص ٥٠. وحينما مَرَّ بها الرحّالة الأسكتلندي السيد أبراهام بارسونز في يوم الخميس، ١٠ تشرين الثاني / نوفمبر (١٧٧٤)، قدَّم معلوماتٍ أكثر تفصيلاً عن هذه المدينة وقال أنها «مدينةٌ كبيرةٌ تقع عند آخر نقطة لبلاد ما بين النهرين، فتكون على ضفاف كلا النهرين، الفرات ودجلة. وهي النقطة التي تقابل «النهر العربي العظيم» (شط العرب). وعلى هذه النقطة تمَّ بناء دار للـگـمارك ... وهذا الموقع جميلٌ للغاية، ويعتقد الأتراك حق الإعتقاد أن هذه المنطقة هي المكان الذي كان يعيش فيه والدانا. وكانت مقدمة مركبنا في نهر دجلة، بينما كانت مؤخرته في نهر الفرات، ووسطه في النهر العظيم، حيث يلتقي النهران، لأنَّ طول المسافة التي زدنا فيها من سرعة المركب كان (٤٥) قدماً فقط، وطول مركبنا ثمانية أقدام. وتبعد القُرنة عن الحِلة نحو(١٨٠) فرسخاً إنكليزياً. ومن خليج البصرة إلى مصب النهر العظيم في «الخليج الفارسي» نحو أربعين فرسخاً، كما يُقال. ولا بُدَ من الإشارة إلى عدم وجود أية مساكن على شاطئ بلاد ما بين النهرين على طول هذا الطريق، بدءاً من الحلة، ولا أية مساكن تركية على شاطئ بلاد كلدة. ويبلغ عرضُ «النهر العظيم» عند نقطة القُرنة هذه نحو ميل واحد.

في هذا المكان جَرَتَ العادة على تأدية طقس؛ إذ يقوم أحد البحّارة على مقدمة المركب بسحب ماء من نهر دجلة، ويقدمه للربّان والمسافرين في أكواب. ثمَّ يقوم بحّارٌ آخر من مؤخرة المركب بسحب الماء، فيقدمه كما فعل سابقه، ولكن هذا الماء من نهر الفرات. ثمَّ يقوم بحارٌ ثالث بسحب ماء من جانب وسط المركب، حيث يلتقي النهران؛ ويشرب الجميع من هذه الأكواب الثلاثة، وكأنها بُدعة. ثمَّ يوضع لوحان، ويضع كُلُّ شخصٍ هدية. وبهذه الطريقة جَمَعَ رفاقنا الفقراء (٨٥) قرشاً تركياً، أي ما يعادل عشرة باونات وإثني عشر شِلناً وستة بنسات، فأخذوها وهم في غاية الإمتنان. وهم يستحقونها بجدارة، لأنهم تعبوا كما لم يكدح أحد من قبل، وهذا ←

عسكريةٌ لإخضاع عرب المناطق المجاورة.

وفي الرابع من الشهر [١] توجهنا شمالاً. وفي السابع من الشهر [٢] وصلنا بالقرب من قلعةٍ صغيرة تعود لعلي باشا نفسه الذي يجبي منها بعض الرسوم.

أمر يدعو للسرور.

وجمع الأشجار والأعشاب هنا خضراء، ولا يبدو أن هناك مكاناً في الأرض أجمل من موقع القُرنة هذا؛ فليس من الغريب أن يعتقد الأتراك أنها كانت الجَنّة، لأنني أنا تصورتُ ذلك، مقارنةً مع كل الأماكن التي رأيتها لحد الآن. فأمامها «النهر العظيم» دون أدنى تعرُّج، ويمتد إلى مد البصر، ويغسل نهرا دجلة والفرات ضفافها، وتلوح بلاد فارس وشبه الجزيرة العربية لأكثر من ثلاثين ميلاً عنها، وكلاهما يزهو بجمال الطبيعة حتى في هذا الفصل المتأخر من السنة، مباركان بجوٍ لا يمكن أن يكون أنقى منه، مثل أجواء بلاد آشور وكلدة وما بين النهرين.

أما من ناحية المُؤن، فلا تُوجَد أماكن تضاهي هذا المكان إلّا القليل، سواءً في الجودة أو رخص الأسعار. فالجانب الفارسي من هذا النهر، الذي هو على مرمى البصر الآن، فيه وفرة من الأشجار أكثر من جانب شبه الجزيرة العربية، ولكن لا تُشاهِد فيه أية قرية، بينما رأينا الكثير من القُرى في جانب شبه الجزيرة العربية، نحو العمق كثيراً. والسبب في ذلك كما علمتُ هو أنهم يخشون بناء القرى بالقرب من ضفة النهر (باستثناء الأماكن القريبة من القلعة)، لئِلا يقوم الفُرس بنهبها ليلاً، فنادراً ما يكون العرب والفرس هناك في وفاق. رحلة ابراهام بارسونز من حلب إلى الخليج العربي (١٧٧٤-١٧٧٥)، ترجمة: أنيس عبد الخالق محمود، المؤسسة العربية للدراسات والنشر، (بيروت، ٢٠١٣)، ص ١١٥-١١٧.

(١) الثلاثاء، ٤ آيار / مايو.

(٢) الجمعة، ٧ آيار / مايو.

أمير البصرة يستولي على العزير

في التاسع من الشهر [١] توقَّفنا في مكانٍ صغير يُدعى «العزير» [٢]، يقول العرب عنه أنّ النبي «حزقيال» [٣] مات عند قلعة فيه، شيّدها السلطان فيما سبق. لكن أمير البصرة انتزعها من الأتراك عندما استولى «الشاه عباس» على بغداد.

وخلال العاشر والحادي عشر والثاني عشر من الشهر [٤] كان الذباب يضايقنا كثيراً ويسلب راحتنا.

في الثالث عشر من الشهر وصلنا إلى «أبو صُدورة»، وهي قلعةٌ صغيرةٌ خاضعةٌ

---

(١) الأحد، ٩ آيار / مايو.

(٢) تقع قرية العزير في منتصف الطريق تقريباً بين القُرنة وقلعة صالح. ويقول عنها علي الشرقي «أنها بلدةٌ ميسان الشهيرة ودجلتها دجلة البصرة أم البطائح». انظر مقالهُ: «أشهر مدن البطائح الحالية»، لغة العرب، الجزء (٩)، السنة (٥)، (١٨٨٧) ص ٥٣٥-٥٣٩. أما لوريمر فيقول أن العزير سُميت نسبةً إلى ضريح مشهور للنبي العزير، له قبة ويتصل بفنائه صفٌ من منازل اليهود (سابقاً)، ويقع على الشاطئ الأيمن لنهر دجلة في منتصف الطريق بين القُرنة وقلعة صالح، على بعد نحو ثلاثين ميلاً بطريق النهر من كل منهما. وتقع العزير داخل حدود أهوار دجلة وتدخل ضمن حدود محافظة العمارة. والعرب المجاورون له من قبيلة آل بو محمَّد. وتوجد فيه بعض الأشجار والحدائق ولكن لا توجد هناك قرية ما. ج. ج. لوريمر، دليل الخليج: القسم الجغرافي، الجزء الأول، مطابع علي بن علي، الدوحة، (بلا)، ص ٢٣٧.

(٣) كان النبي حزقيال أحد المَسبيِّين إلى بابل مع بقية اليهود الذين تم إجلاؤهم عن القدس سنة (٥٩٧ ق. م.). وهناك اختاره الله ليكون نبياً. وعندما تَحقَّقت نبوءاته بدمار القدس في سنة (٥٨٦ ق. م.) أقبل الناس عليه ليستمعوا إلى أقواله بلهفةٍ وصدق [المترجم].

(٤) الثلاثاء والأربعاء، ١٠، ١١، ١٢ آيار / مايو.

لسيطرة «علي باشا» نفسه.

في الرابع عشر من الشهر وصلنا إلى قلعةٍ صغيرة أخرى تقع على تخوم إمارة البصرة، فأقمنا فيها يوماً واحداً، ثمَّ واصلنا إبحارنا طوال عشرة أيام في النهر المُمتَد وسط البادية، دون أن نشاهد أية قرية، وإنما كانت هناك أعدادٌ كبيرة من خيام العرب.

محاورة بين درويش من التبت وإبراهيم بك

كان الدرويش المُبحِر على دانقنا يراقبني وتآلف معي، ولا سيما منذ وصولنا إلى البصرة. وذات يوم، عندما نزلنا إلى اليابسة وذَهَبَ كلٌّ منا لجمع الحطب لطهي الرز وخَبْز الخبز، تعقّبني بعد أن رآني لوحدي، فقال لي: «إبراهيم چـلبي، مع أن «الريِّس» (١) لم يخبرني أنك فرنسيٌّ أبداً، إلّا أنني عرفتك من خلال سلوكك وطبعك. وسأكون مُمتَناً لو سمحت لي بالإطّلاع على الإنجيل والتوراة. لا تخشَ مني. فأنا لستُ عثمانياً (٢). كما أن أبناء بلدي يحبون ديانتكم ويُقدِّرونها». فَردَدتُ عليه قائلاً: «إنك تثق بي كثيراً، ولكنني أقول لك بينما أنت تعرفني فإنني أجهل مَنْ تكون، ومن أين أتيت، وإلى أين تذهب، ولا حتى لماذا طلبتَ مني كتب موسى وعيسى، وأنت تعلم أن المسيحيين ليسوا أحراراً بالتَحدُّث عن الدين فوق الأراضي الخاضعة للسلطان

---

(١) الريِّس مصطلح أُطلع على أمير البحر، ومن ثمَّ أصبح القُبطان، معوش، موسوعة المصطلحات التأريخية العثمانية، ص ١٥٧.

(٢) المقصود بالعثماني هنا مسلم.

أبداً. كما أقول لك أنني كنتُ أظنك من التتار دائماً، فلا شيء يميزك عنهم إلّا عمامة رجال الدين المسلمين. لذا فإنني لا أستطيع البوح لك بشيء، فغالباً ما لا تعبِّر الملابس عن حقيقتنا».

فردَّ عليَّ قائلاً: «أترغب في أن تعرف مَنْ أكون؟ لقد أمضيتُ خمسَ عشرة سنةً في حياة الدراويش، وأستطيع القول أنني راضٍ لو أنعم الله عليَّ أن بالبقاء عليها طوال حياتي. وبلادي هي «التبت»، الواقعة على حدود بلاد الصين التتار، وقد قضيتُ شبابي في «كمبالو» (١)، وهي أجملُ مدينةٍ رأيتها. ولكي تعيش فيها لا بد أن تكون لك مِهنة مُحدَّدة. وقد رأيت أن كُلَّ ما يشغل الناس دون طموحي، وإنني لا بد أن أتمسَّك بحريتي. فالإنسان لا يُفكّر إلّا بالدين وينسى كُلَّ شيء. ولا بد للعاقل أن يبحث عن راحته دون أن يُسبِّب الأذى للآخرين مُطلقاً. ولا بد أن يستخدم حماقة المجانين بما يسعدنا وينفعنا. أما عني أنا، فإنني أرى أن معظم الناس يعيشون في جهلٍ، والمُتعلِّمون قِلّةٌ، ومعظمنا نبدو لهم علماء. لقد اضطهدني والداي في شبابي حينما أرادا إجباري على الزواج ليجعلاني عبداً مُطيعاً للنساء، فانسحبتُ من طغيانهما بذريعة العِبادة، ولم أشعر بأنني سعيد الحظ إلّا بعد أن فوَّضتُ أمري إلى الله والكون. أما أصدقائي الذين تزوّجوا فوجدتُهم تُعساء نادمين، غير راضين ليلاً ونهاراً. إنهم يُظنّون أن عذاب الرجل سَبّبه المرأة، وأن الله ما منحه إيّاها إلّا لتعكر سعادته. وقد شجّعني ذلك في

(١) كمبالو هو الاسم القديم لبكين، عاصمة الصين.

John Pinkerton (ed.), A General Collection of the Best and Most Interesting Voyages and Travels in Various Parts of Asia, vol. I, (London, 1819), p. 583.

الانخراط بميليشيا «الخان الكبير» أو«شاه جهان» (١)، لأنَّ رواتبهم جيدة للغاية. لكن المذابح البشرية جعلتني أصرف النظر عن هذا الأمر تماماً، كما أن شروط الجندية بالغة الصرامة. فعليهم الطاعة دون خِيار أبداً، ولو صدرت الأوامر إليهم عليهم أن يبذلوا كل ما بوسعهم للمحافظة على سلطة الخان.

وقد شَجَّعني ذلك على الإنضمام إلى البوذيين الصينيين، إذ يَتولَّى «براهما» الهنود إدارة شؤون المعابد. وهم يعيشون حياةً رائعةً، ولهم تماثيلٌ يعزون إليها الكثير من المُعجِزات. كما أنهم يعيلون المجانين، ويُقدّمون لهم كل ما يريدون.

لكن الرحمة نَزَلَتْ عليَّ عندما عرفتُ أنْ ليس ثمّة إلّا إلهاً واحداً، وأن العقاب سيطالني عندما أتحدّث مع هؤلاء القوم في معتقدهم الباطل. وكان بمقدوري أن أصبح مُفتياً أو قاضياً، لكنني لم أبتغِ من صلواتي أن أحصل على ما حصلوا عليه، ولم أرتبط بشيء منذ خمس عشرة سنة. فدرستُ وتأمَّلتُ الربَّ والكون، وبدأت أترقَّبُ الموت بفارغ الصبر، وكنت آكل وأشرب دون أن يقلقني الغد. وهناك إلتقيت بالمسلمين، وعَثرتُ على مُستقري، لأنني كنتُ أعيش حياةً خارجةً عن المألوف، وحظيتُ بتقدير العظماء والباشاوات والخانات والبكربكات الذين يعتقدون

(١) شاه جهان إمبراطور مغولي، وأحد حُكّام الهند خلال القرن السابع عشر، حَكَمَ بين (١٦٢٧–١٦٦٦). اسمه غياث الدين خُرَّم بن جهانكير، وشهرته شهاب الدين محمَّد شاه جهان، أي «ملك العالم». أشهر آثاره «تاج محل»، وهو ضريح زوجته «ممتاز مَحَل». للتفاصيل:
Catherine Ella Blanshard Asher, The New Cambridge History of India, Vol I: 4 Archi-tecture of Mughal India, (Cambridge, 2003), p. 368.

بقدسيتي. وهذا الأمر في غاية الغرابة. فقُمتُ بست رحلاتٍ إلى «مكة»، وفي كُلِّ مرة كنتُ أعود بالمال دوماً. ودائماً ما كُنتُ آتي وأذهب إلى هذا المكان المُقدَّس. وقد لاحظتُ قليلاً من المسلمين في دانقنا يقدرونني عندما يقدمون الطعام لي، ويسألوني باستمرار فيما إذا كُنتُ بحاجةٍ إلى أي شيء. فكم هو لطيفٌ أن تعيش على كدّ الآخرين. وأقول لك إنك لو عشتَ مثل هذه الحياة فسوف تفتنك. ولديَّ ثلاث نسخ من القرآن مكتوبة بحروفٍ من ذهب أهداها لي ثلاثة ملوك، وهم كلٌ من الشاه، و«شاه جهان»، و«كاظم شاه» (١). ولديَّ تعليقات على نسخة القرآن التي أهداني إياها ملك «سمرقند». ولديَّ كُتب «آريوس» (٢) و«أرسطو» (٣). وأراد شريف مكة (١) أن

---

(١) لم نقف على ترجمة له.

(٢) آريوس (٢٥٦-٣٣٦م)، مُؤسِّس مذهب الآريوسية في الديانة المسيحية، الذي يقول أن السيد المسيح ليس إلهاً، وإنما «مولوداً» من الله الأب، وبذلك فهو لا يشاركه طبيعته، بل تقوم بينهما علاقة تبني. ولِدَ أريوس في قورينا (ليبيا الحالية) في سنة (٢٧٠م؟)، لأبٍ اسمه أمونيوس من أصلٍ ليبي، ودرس اللاهوت بمدرسة الإسكندرية اللّاهوتية، وتأثر بالفكر الإفلاطوني، ومن ثمَّ درس بمدرسة أطاكيا متأثراً بالمنطق الأرسطي، إذ كان زميل دراسة لبعض الأشخاص الذين أرتقوا فيما بعد إلى درجات الرئاسة الكهنوتية. وهم الذين عضّدوه ودفعوا به للمُضي في طريق الكفاح لنشر أفكاره. للتفاصيل:

Athanasius of Alexandria, History of the Arians, (London, 2013).

(٣) أرسطو، أو أرسطوطاليس (٣٨٤-٣٢٢ ق. م): فيلسوف يوناني، تلميذ أفلاطون ومعلم الإسكندر الأكبر، وأحد عظماء المفكرين. تغطي كتاباته مجالات عدة، منها الفيزياء والميتافيزيقيا والشعر والمسرح والموسيقى والمنطق والبلاغة واللغويات والسياسة والحكومة والأخلاقيات وعلم الأحياء وعلم الحيوان. وهو أحد أهم مؤسسي الفلسفة الغربية.

Ackrill, J. L., Aristotle the Philosopher, (Oxford-New York, 1981).

يساعدني، وعَرَضَ «علي باشا» أن يُوفّر لي شيئاً من الراحة مقابل ما في حقائبي؛ فقَبلتُ ذلك. وكان الجميع يتسابقون في ما يُقدّمونه. حتى أنت نفسك، المعروف بين المسلمين بأنك كافرٌ أو شخصٌ لا ربَّ له، وليس له دين أبداً، ألَم تعرض عليَّ عندما كُنّا في الدانق عمامةً مناسبةً لتكون صديقي؟ ولكنني أعدتها لك فلربما كنتَ بحاجةٍ إليها. ولم يكن هذا ما أريده منك. فالدراويش يبدون لك حمقى، لكنهم أكثر حِكمةً من أولئك الأشخاص أنفسهم. وكان الأمل يحدوني دوماً بالذهاب إلى بلاد الفرنجة، فإذا ما ذَهبتُ إلى بولونيا فسأصطحبك معي؛ فأنا مشتاقٌ لرؤية الإنجيل والتوراة، ولا أخشى إلّا أن يعاملني الأمراء المسيحيون بعنفٍ بسبب ديانتي التي لا أغيِّرها حتى لو عرضوا عليَّ تيجانهم.

هناك دراويش آخرون بينكم يَتَّخذون لقبَ «بابا»، ولكنهم ليسوا أحراراً في القيام بكُلِّ ما يريدون، فهم مُرغَمون على طاعة رؤسائهم الذين أقنعوهم باتّباعهم وطاعتهم طاعةً عمياء، وهو ما يُفضّلونه على السلوك المعقول. وليس من المَسموح لهم التَعرُّف بالنساء. وكلُّ ما هو طبيعي إثمٌ كبير لديهم. لكنني أستطيع أن أتزوج وأن أتَعرَّف على نساءٍ حُرّات، وأستطيع أن أذهب وأن أَتوقَّف أينما يَحلو لي. فقد وضعتُ عمامةَ درويش لتحجبني عن الجميع. ولديَّ ما يكفي من كتب اللاهوت والتنجيم والطب، ولكنني لم أشعر بالسعادة بعد، لأنني لم أعقد مقارنةً بين التوراة والإنجيل

(١) كان شريف مكة حينذاك زيد بن محسن، وكانت ولايته بين (١٦٣١-١٦٦٦).

والقرآن، فهي كُلُّها من إيحاء روح الله وأحدها يفسِّر الآخر. إنني أعلم بأنك تظنُّ أن الأمر خارج إمكانيتي، ولا أقول لك أنني أريد أن أمتلك قدراً من الدين مساوياً للمعرفة. فتعصُبك دفعك لإجراء الخِتان وكلانا في أقصى طرفي الأرض سنعيش محظوظين. فلديك صفات جميلة للغاية أكثر مني كدرويش. فأنتَ مُعافى، وشكلك وسيم، وتعرف اللغات. ولَعلَّك تفهم لغة الطير؛ فما تريد أكثر من ذلك؟ فرجائي أن تعتقد بأنني سأكون محظوظاً برفقتك، وأنك تقدِّم خدمةً مفيدةً للرب والكون الذي سخَّر لك معرفته».

«جوابي الصحيح يا درويش، يا مَن اسمه عزيزٌ عليَّ كعيوني، يا معدنُ الحكمة، يا مَن زادَك الله ورعاً وهناءً وتحرراً، وأنعم عليك بالصحة، وحَقَّق رغباتك. أقول لك أن حياتك سعيدةٌ بعيدةٌ عن القلق، لأنك لا تملك شيئاً، ولا تخشى أن تفقد شيئاً أبداً. اعلم بأنّك لم تعمل شيئاً لعموم الناس ولا حتى الأقربين، وسأهدي لك نسخةً عربيةً للإنجيل والتوراة. فعند قراءته ستأسف على ضياع الخمس عشرة سنة دون فعل شيء، حينما كنتَ تعيش ذليلاً على كدّ الآخرين. والأكثر من ذلك، لو كان ثمّةَ اختلافٌ واضحٌ في عقيدتنا وحماستنا للدين يمكن أن يغضبك، فنحن لسنا أكثر من الهنود أو الفُرس الذين يَتَمتَّعون بمطلق الحرية في أراضي «علي باشا».

يقول المسلمون أنّ عيسى روح الله، ويقول المسيحيون أنّ روح الله لا تنفصل عن جوهره اللا متناهي. وإنك تعتقد أن البوذيين يخدعون الصينيين كما يفعل «البراهما» الهنود. ولن أتحدَّث عن علماء المسلمين، فأنتَ تعرفهم أكثر مني، فضلاً عن إنك

تعرف عددهم، ولكن احذر أن تكون مثل طائر الليل الذي قَلَّما يُشاهَد في وضح النهار، لأنَّ الضوء الساطع أغشى بصره الضعيف.

ثمّة رجالٌ عظامٌ بين المسيحيين أنعم الله عليهم بالفضيلة الفريدة، من الصعب أن نعرفهم، كُلٌ منهم يريد أن يظهر خلاف ما هو عليه.

أما عن مظهري، فإنني في سن يَفرضُ عليَّ التصرُّف برزانةٍ ووقار أكثر من البحث عن مظاهر الجمال. ولم أعد قادراً على تحمُّل هذا الكبرياء، لكنني أعرف أن معظم الأشياء كاملةٌ بذاتها، فضلاً عن إقترابها من الله. لكن أيها الدرويش الواقعي الذي يسرُّني اسمه: إن كمال الكائنات مسألةٌ نسبية؛ فما يبدو لك جميلاً في هذه البلاد يبدو قبيحاً في أوروبا، لا سيما إذا أقمت فيها قليلاً. فالأحباش يتصوّرون الله أسود اللون، والهنود يتصوّرونه زيتوني اللون، أما أبناء بلدك وبلدي، الذين يبالغون في تجسيد الطبيعة الإلهية، فإنهم لا يعترضون عن كونه أبيض اللون أبداً. وعندما كُنتَ في الصين وبلاد التتار الكبرى شاهدتَ رجالهم لا يُحلِقونَ لحاهم كالعثمانيين والعرب ويدعُونها تطول، بينما يحلق الهنود والفُرس لحاهم ليبدون أجمل. وقُلت لي بأنني أَتكلَّم لغة الطير؛ فهذه العبارات ذكرها مُحَمَّد في القرآن (١) تكريماً لدعاء سليمان (٢)، فضلاً

(١) يخطئ الرحّالة، كغيره من الأجانب، في اعتقاده أن الرسول الأعظم هو مَن كتب القرآن. والصحيح أن تكون العبارة: «ذكرها الله في القرآن»، أو«ذكرها الله في القرآن على لسان محمَّد».

(٢) دعاء سليمان: «قال ربِّ اغفر لي وهَبْ لي مُلكاً لا ينبغي لأحدٍ من بعدي إنك أنت الوهّاب) (صدق الله العظيم). القرآن الكريم، سورة ص، آية ٣٥.

عن إنك حكيمٌ للغاية باعتقادك أن اللغات تجعلنا أكثر معرفة؛ فهي وسيلة التخاطب بين البشر، لكنها لا تجعلنا نعرف طبيعة الأشياء، ودائماً ما أعتقد أن هذا الإختلاف ناجمٌ عن جهلنا بالأمور، يجعلنا نصرُّ على أن الله والعقول التي تدعم عرشه لم يذكروا سوى اسماً واحداً. فالربُّ لم يدعُ «آدم» بغير اسم آدم أبداً. وحينما تَتَذَّكر الشعوب التي تعرفها سترى كم اسماً أطلقوها على الذات الإلهية. فالهنود يُسمُّونه «رام»، والقزلباش والمغول يُسمُّونه «خدا»، والعثمانيون والعرب يُسمّونه «الله»، والأرمن يُسمّونه «آستويواس»، واليونانيون يُسمّونه «تيوس». فماذا تُمثِّل لك معرفة هذه الأسماء المختلفة؟ ويَعتقد الصُمّ أو البكم بأنه ربٌّ خالدٌ، لا حد له، وهو مالك كل شيء. فالحقيقة واحدةٌ، وهي أن البشر يختلفون في التعبير ولكنهم يَقصِدون اسماً واحداً.

فإذا قَرَّرت أن تعتنق الدين المسيحي فانصحك بالذهاب إلى أوروبا، وسأرافقك وستلقى الترحاب الحار من الأمراء الذين ستجدهم يحترمونك أكثر من رعاياهم؛ فهُم مهتمون بكُلِّ ما هو جديد، وأعلمُ جيداً أن ذلك لا يهمّك في شيء. فاللقاء والتَحدُّث إلى الملوك شيءٌ عاديٌ للرحّالة. وأنت لا تهتم بالمآدب الكبيرة لترى وجوههم أو اهتمامهم. فإن اعتنقتَ المسيحية تعال إلى «كامبلو دي يورب» في «باريس»، وستعرف أخباري وتقابلني إن كنتُ في فرنسا.

عند ذاك قام بتدوين الطريق والعنوان الذي يمكن أن يَعرف به أخباري، وأخذ الهدية التي وعدته بها، وهي كتب موسى والإنجيل، ليهتدي إلى دين سيدنا المسيح عيسى.

[٩]

رحلة فنشنسو إلى العراق في القرن السابع عشر

عندما وصلنا إلى حدود ولاية البصرة راعني في قرية بريدي، وقعُ حادثٍ طريف، لكنه كاد أن يَتطوَّر ويَتحوَّل إلى نزاعٍ بين رجلين. أحدهما تاجر والآخر إسكافي. وكان الإسكافي قد حمل عدداً كبيراً من «البوابيج» وهي الأحذية التركية ليبيعها. فحدث في هذه البقعة أنّ التاجر فقد حذاءه، أو أخفاه بطريقةٍ ما، فطلب من الإسكافي حذاءً، فذكر الرجل سعراً لكن التاجر رَفَضَ ذلك السعر، وأضاف، أن الحياة الجماعية في المركب وحراجة الموقف تحللان عليه أخذ الحذاء دون مقابل. فانقسم المسافرون بين مؤيدٍ لهذا أو لذاك، وبعد جدالٍ طويل طلب التاجر أخذ الحذاء كأمانة،، فيعيده إذا ما عَثَرَ على حذائه ولا فيستملكه، لكن الإسكافي رَفَضَ الاقتراح، أخيراً ذهبا ليحتكما عند الإنكشاريين، فلما وصلا إليهم شاهدا الهراوات بأيديهم وهم على إستعداد تام لإستعمالها ... فامروا بالعمل كما يريد التاجر، وهكذا كان إذ رَضَخَ الإسكافي لأمرهم وقرأ على العدل السلام.

في اليوم الخامس من أيلول [١٦٥٦] وصلنا إلى المنصورية، حيث يلتقي دجلة بالفرات فيكوِّنان نهراً واحداً يُسمّى شط العرب. وتجري مياه دجلة في جهة ومياه الفرات في الجهة الأخرى من هذا الشط، وبالإمكان ملاحظة المياه العَكِرة في الجهة اليمنى، بينما ترى مياه الفرات أكثر نقاءً. وشط العرب عريض جداً، يكاد أن يكون

بحيرة عظيمة، بحيث أن الشخص الواقف على هذه الضفة لا يستطيع التَعرّف على الأشخاص الواقفين في الجهة الثانية.

هناك في البقعة الواقعة عند ملتقى النهرين، قلعتان قريبتان من ضفاف الفرات، لهما مظهر القوة والحَصانة لكثرة ما فيهما من الأبراج العالية والجدران العديدة فوقَ الأسوار، فهما والحالة هذه تصلحان لمقاومة هجمات البدو نظراً لإفتقارهم إلى المدافع والأسلحة النارية، لكنهما لن تقفان أمام الأسلحة الحديثة.

إنّ الأراضي الواقعة على ضفتي النهر جميلة للغاية وخِصبةٌ جداً، ويكثر فيهما الرز وأنواع البقول، كما تكثر هناك أشجار النخيل. ويستقطر القوم من ثمر النخيل شراباً كحوليا قوياً جداً هو العَرق. وثمر النخيل طيبُ المَذاق، يتناوله الأهالي طِيلة أيام السنة.

وعند المساء مررنا بقلعتين أُخريين، تُسمّى الأولى «قلعة المدينة» El Medina والثانية الفتار Elphatar. وفي صباح اليوم التالي وصلنا إلى تورنيس Tornes وهي مدينةٌ واسعة لا بأسَ بها، مربعة التخطيط، لها سور وخمسة عشر بُرجاً من كل جانب، يحيط بسورها فرع من النهر غزير الماء. هناك أوقفونا عن السير يوماً كاملاً لتأدية الرسوم وأنواع الضرائب التي تُجمَع باسم والي البصرة. وقد تم خلال توقفنا هناك إصلاح شراع المركب ...

كانت جماعةٌ من المسافرين تحمل قطعةً كبيرة من النحاس مُدوَّرة الشكل مثقوبةَ الوسط، عليها نقوش واسم الجلالة بأحرفٍ كبيرة، وكانت القطعة محمولة على بيرق،

وقالوا إنها شعار طائفتهم، ولها قوة منح الشفاء للمرضى، لذا كانوا يبجلونها ويُكثرونَ من لثمها والتبرك بها، وينقلونها معهم في أسفارهم. وعندما نَشَبَتْ مشاجرة بين طرفين يهرع أحدُ الحاضرين فيضع البيرق بين المتخاصمين ويستحلفهما على التوقف عن النزاع، فيكفان إكراما لهذا البيرق المبارك.

... كُنتُ أحملُ بعضَ العقاقير الطبية فاستنفدت منها كثيراً، وأفدت بها الآخرين.

إن الصحراء الواقعة قرب الخليج غير مطروقة، رمالُها دقيقةٌ جداً وخفيفة للغاية، كما أنَّ الشمس تحرقها في فصل الصيف، فما أن تهب الريح الشرقية، في أواخر شهر آب، وفي أيلول خاصّة، حتى تتعالى كمياتٌ هائلة من تلك الرمال وكأنها ضباب، فتعكر صفاء الجو، وتجعل التنفس صعباً وثقيلاً. وقد اختبرنا بأنفسنا هذه الظاهرة ... فَلمّا هَبَّت الريح اظلمَّت الدنيا، وضاق صدرُنا كثيراً ...

مررنا في الصباح، قبل وصولنا إلى البصرة، بموقعٍ يُسمّى العين، ويظهر أنَّ هذه القرية كانت فيما مضى أجمل مما هي عليه الآن، فقد فقدت أهميتها، لكن أراضيها لا تزال صالحة للزراعة وخصبة، نظراً لكثرة المياه هناك، ولا تزال بعض أبنيتها قائمة. كما تُوجَد جزيرة صغيرة مقابل القرية عليها أبنية وأشجار كثيرة، وقد قِيلَ إنَّ الوالي يأتي إلى هذا المكان طلباً للراحة وممارسة الصيد نظراً لكثرة الغابات هناك.

عندما وصلنا إلى المرفأ، نظرنا فإذا بسفن الهولانديين والإنكليز والبرتغاليين والأتراك راسية هناك في الشط، ففرحنا جداً لمشاهدتها، فقد ارتحنا لوجود سفن تقلنا إلى الهند.

ولما وصلنا إلى القنال لم يعد بإمكان الدانك التقدم بسبب الجَزر، فمنعنا الربان عن النزول إلى اليابسة وأمرنا أن نعد أمتعتنا لنمر كُلًّنا سوية أمام مركز جباية الرسوم. ثم ذهبنا إلى دير الكرمليين (١) في البصرة، فاستقبلنا الإخوة الرهبان بمظاهر الفرح والمحبة.

لقد أعجبنا ديرُ الكرمليين، الذي يُعدُّ من بيوت البصرة الحديثة، وفيه مختلف المرافق الضرورية الخاصّة بالأديرة. هناك فناء تُحيطهُ أروقةٌ، وفي وسطه حديقة عامرة بالأزهار ... وكانت كنيسة الدير على اسم العذراء مريم عليها أفخر السلام، وكان هيكل الكنيسة مُزيَّنٌ بالقاشاني الإيراني، وفيه رسوم مختلفة، منها شعار الرهبانية [الكرملية] واسم سيدنا المسيح واسم مريم العذراء، وفي الجهة الشمالية من الهيكل كان رسم مزهرية جميلة تعلوها نقوشٌ عربية متداخلة موشَّاة بماء الذهب.

هناك في الطابق الأرضي غرف الاستقبال، أما الطابق الأعلى ففيه صوامع الرهبان تعلوها السطوح التي يَنامُ فوقها الرهبان في الصيف، لأنَّ الحرَ لا يُحتَمل داخل الغرف.

يعاني الرهبان كثيراً من أجل صيانة الدير، لأنَّ مواد البناء رديئة، فهي من الملاط والآجرُ المفخور قليلاً، وهذه المواد تتأثر كثيراً بالأمطار، بالرغم من قِلة هطول الأمطار في تلك الأصقاع.

---

(١) قَدِمَ الكرمليون إلى العراق سنة ١٦٢٣، وما يزالون فيه إلى اليوم، نصري: ذخيرة الأذهان ٢: ١٩٥ و Rabbath, op. cit., I, p. 388.

البصرة

تُعتَبر مدينة البصرة من أقدم المُدن في المنطقة العربية. وقد طبقت شهرتُها الآفاق لأسبابٍ عديدة، فهي موطنُ رجالٍ مشهورين كابن سينا مثلاً (١)، وهي قِبلة الكثيرين من مختلف القوميات لأنها محطةٌ مهمة على الخليج العربي، ولها أهمية بالغة في نظر المسلمين لأنها من أُولى المدن التي خضعت للفتح الإسلامي (٢). أما عماراتها فليست على جانبٍ كبيرٍ من العظمة، وليس فيها ما يجذب النظر، وتتناثر دورها بين غابات النخيل.

تقع البصرة بالقرب من خط الإستواء، وفي نهاية الأرض العربية الصحراوية وبدء الأرض العربية الصخرية (٣). وهي على حدود المملكة الإيرانية من جهةٍ، ومن الجهة الأخرى الأرض الخاضعة لأمير القطيف، ومما يزيد من أهمية موقعها هو النهر، خيراتُها وافرةٌ نظراً لوجود البحر، حدائقُها كثيرةٌ، حقولُها شاسعةٌ، نخيلُها وفيرةٌ، تأتيها البضائع من مختلف البلاد: من بلاد العرب ومن فارس وتركية، ومن الهند بنوعٍ خاص، إذ تصلها السُفن مُحمَّلة بمختلف منتوجات الهند. وتكثر في البصرة أنواعُ المأكولات، وهي من أحسن الأنواع وأطيبها.

للبصرة مأخذٌ واحدٌ، ألآ وهو الحر الشديد الذي يُعذِّب سكانها، أضف إليه،

---

(١) ابن سينا (٩٨٠-١٠٣٧) ولد في أخشنة قرب بُخارى وتُوفيَ في همذان. فكلام صاحبنا وهم.

(٢) المعروف أن البصرةَ شُيِّدت في صدر الإسلام فهي لم تخضع لفتح.

(٣) يميز الكاتب Arabia petrea, Arabia deserta.

الرمال الُحيطة بها التي تهجم عليها مع هبوب الرياح الشرقية، فَيتَعكّر صفاء الجو، ويلجأ كثيرون عند ذاك إلى النهر ويرمون بأنفسهم فيه، تَخلُصاً من الحر والرمال، ويصرفون نهارهم في الماء ...

لا تمطر السماء في البصرة إلّا نادراً، قد تبلغ ثلاث مرات خلال أشهر الشتاء، ولكن عندما تهطل فإنها قوية جارفة، تُهدِّم المنازلَ، لأنَّ معظمها مُشيَّدٌ بالجص واللبن. أما في الفصول الأخرى، فإنّ النهر يسقي الحقول ولولاه لاحترقت الأرض.

كان وصولنا إلى البصرة في مطلع شهر أيلول [١٦٥٦]، وكان المناخ حاراً ...

كانت في منطقة البصرة، قبل قرونٍ كثيرة، تَنتَشر بيوت الصابئة، على نحو مبالغ بها ميل طولاً وعرضها أقل من ذلك بقليل، وتَتكوَّن هذه المنطقة من جُزرٍ متعددة، يقطنها إلى اليوم جمعٌ غفيرُ من أبناء هذه الطائفة. يتكلمون لغةً قديمةً خاصّة بهم.

بعد أن خضعت هذه المنطقة لحكم السلطان، أخذ يُعيِّن حُكاماً لإدارتها حسبما يشاء، وكما تَتطلَّب مصالحه. لكن بُعد هذه المنطقة الشاسع عن اسطنبول جعلها في حالةٍ قلقةٍ مستمرةٍ، فكان السلطان يخشى فقدها، بينما كان ولاة [البصرة] يتمنَّون إدخالها تحت سيطرتهم ... وكان الصابئة ينشدون الحرية، فلا يخضعون لأحدٍ عن طيبة خاطر، لهذا كانوا يبدّلون ولاءهم حيث يجدون فائدةً أكبر. وكان العرب المجاورين للصابئة يميلون إلى السلطان العثماني أكثر مما للحكم الإيراني. لذا أخذ الباب العالي يسند ولاية البصرة إلى شخصٍ عربي يتوقع منه ولاءً وخضوعاً. وبقدر ما كان الوالي يشبع جَشَعَهُ بقدر ذلك كان يزداد خضوعاً للسلطان.

انطلاقاً من هذه الفكرة، أسند الباب العالي ولاية البصرة إلى شخصٍ عربي، فكان خاضعاً ومولياً فترةً طويلة من الزمن، كما كان يُؤدّي الرسومَ المُقرَّرة في مواعيدها. لكن الطموح كان ينمو في نفسه، ورغبة السلطة تَتَحكَّم في داخله، كما كان عرب المنطقة يَحُثُّونه على الإستقلال، كما وعده البرتغاليون بمساندته، أخيراً أخذ العاهل الإيراني يساعده لتحقيق أمنيته. وفي تلك الفترة كان والي بغداد [١] قد قَرَّر نقض نير الطاعة عن كاهله وإعلان استقلاله، فأخذ يبني الحصون والقِلاع، ويجمع المريدين لتقوية مركزه، حتى حان الوقتُ فأَعلَنَ عصيانه. ودامت هذه الحالة في عهد الذين خلفوه، إذ حاولوا، هم بدورهم، الحفاظ على استقلالهم [٢].

إنَّ لحاكم البصرة الحالي [٣]، طريقته الخاصّة في دعم مركزه وتقوية استقلاله. فهو بعد أن درس الأوضاع، رأى أنَّ الشاه الإيراني لا يُحرك ساكناً، ولا يفتش عن العظمة والمجد. والبرتغاليين مخذولين، بينما كان نجم السلطان العثماني في تصاعد، إذ أنه استعاد شيئاً من سابق مجده بعد أن استرجع بغداد. لذا أَخذَ الوالي يحاول أرضاء كافّةَ

---

(١) هكذا في الأصل، والأصح والي البصرة، لأنَّ الكلام يدور عن هذه المدينة.

(٢) يتكلم فنشنسو عن آفراسياب الديري الذي حَصَلَ على ولاية البصرة عن طريق الشراء، ثم استقلَّ في إدارتها، وخلفه من بعد ابنه علي باشا (الكعبي: المرجع المذكور. لونكريك: المرجع نفسه. الأعظمي: تأريخ البصرة ص ١٢٨-١٣٠).

(٣) هو حسين باشا ابن علي باشا، أجمع المؤرخون على ذم سيرته وإدارته. انظر المراجع المذكورة آنفاً، وكلشن خلفا ص ٢٤٨. علي الشرقي: آل أفراسياب وخراب الجزائر في مجلة لغة العرب ٤ (١٩٢٧) ص ٥٧٥-٥٧٨، العزاوي: تأريخ العراق بين احتلالين ٥: ٤٧-٥١.

الأطراف لإكتساب حمايتهم جميعا. فيرسل هدايا إلى الشاه الإيراني مُظهِراً الولاء دون الخضوع، ويبعث الهدايا الثمينة إلى الوزراء وكافّة ذوي الكلمة النافذة في اسطنبول.

وحدث في السنوات القليلة الماضية، أن الجيش كان عاطلاً عن الخارجية، وكان والي بغداد أحد المحاربين المخضرمين، وهو مرتضى باشا (١). فأشار الباب العالي عليه، بأنَّ الفرصة سانحة لتأديب البصرة، خاصّة وأنَّ الشعب العربي في البصرة أخذ يَتشَكَّى من أميرها. فأعدَّ جيشاً قوياً وقام بحملةٍ جارفةٍ على البصرة، إذ أَرسَلَ الجيش في طريقين، سَلَكَ قسمٌ منه طريق البر، وانحدر القسم الثاني في دجلة والفرات.

كانت الحملةُ شديدةً للغاية، فانكسرَ الأمير منذ الهجوم الأول، فطابت نفس مرتضى باشا بهذا الإنتصار السريع، ورؤيته للناس يسرعون إلى خدمته، والأموال تهطل عليه بغزارةٍ كالمطر، والحظُ وقد ابتسم له، فَقرَّر البقاء في البصرة والإحتفاظ بها تحت سلطته. وهكذا أظهر علامات التحرر والإستقلال، يدفعه الطَمعُ، فَتأَسَفَ العرب لما حدث، وَجدَّوا في طلب الأمير القديم، الذي كان بدوره يعد العُدَّةَ للرجوع ويجمع المريدين، فقد أَعلَنَ رفضه الخضوع للغريب، فَشَنَّ الهجمات، حتى أَجبَرَ مرتضى على التَقهقُر، فانسحب يَجرُ أذيالَ الخيبة والخُذلان.

---

(١) كان مرتضى باشا برتبة سلحدار، ووالي الشام والروم، ثم صار والياً على بغداد سنة ١٦٠٣هـ وبعد سنتين نقل إلى حلب. أما حملته على البصرة فكانت سنة ١٠٦٤هـ وقد نجحت في أول الأمر، وإذ أساء التدبير انقلب عليه جيشه وأهل البصرة فعاد إلى بغداد يجر أذيالَ الفشلِ، وعلى إثر ذلك رجع حسين باشا إلى البصرة وتَولَّى أمرها من جديد.

ما أن عادَ الأمير إلى الحكم حتى ركبه عفريتُ الطَمَع فقد كان بأمس الحاجة إلى الأموال ليبذلها في كسب ولاء الشيوخ، وتوطيد دعائم حكمه، وإقامة علاقاتٍ سِريَّة، وعقد صداقاتٍ جديدة، وتكديس الأموال، والإستعداد لحملاتٍ قادمة. فأخذ يتَذرَّع بمختلف الوسائل والحِيل من أجل انتزاع الأموال، ووضع ضرائبَ جديدة مختلفة، وقادَهُ طمَعُه إلى القيام بأمورٍ لا تُليق بمنزلته. تُدخلُ على الأمير أموالاً طائلةٌ، تُجمَع من الرسوم والضرائب العادية، إلى جانب الهدايا الكثيرة التي يرسلها المُريدون الخاضعون له، إضافة إلى رسوم التجارة والحَجّ. ففي كُلِّ عامٍ تسير قوافلُ الحُجّاج إلى مكةَ [المكرمة]، وهؤلاء الحُجّاج ليسوا من أبناء المنطقة فحسب بل يأتي الكثيرون من إيران والهند، فَيَتجمَّعون في البصرة لينطلقوا من هناك إلى مكة. ويَدفعُ كُلُّ واحدٍ منهم إلى الأمير رسماً مُقدَّماً قدره قطعتين من «زكيتو» (١) مقابل المُحافظة على حياتهم وإرسال جنود لحراستهم في الصحراء. إنّ هذا الرسم يُكوّن في نهاية الأمر مَبلغاً كبيراً من المال.

وقد رأينا لدى وصولنا البصرةَ، واحدةً من تلك القوافل، فكان عدد أفرادها كبيراً، وهي أشبه ما تكون بالجيش العرمرم، وقد قَدَّر الحاضرون عدد الحُجّاج بأكثر من خمسينَ ألف حاج، وكانت القافلة تضم أعداداً من المرضى والمُقعَدين والشيوخ،

---

(١) ذكر بعضهم أنّ هذه الكلمة هي تحريف لكمة «سكة» العربية. والتركيتو نقدٌ من الذهب، كان يساوي في البندقية إثني عشرَ فرنكاً فرنسياً، وفي البلاد الشرقية كان يساوي سبعة فرنكات إلى تسعة (ريجارد كوك: بغداد مدينة السلام) ترجمه فؤاد جميل ومصطفى جواد (بغداد-١٩٦٧) ج ٢ ص ٤٠، العزاوي: تأريخ النقود العراقية (بغداد-١٩٥٨) ص ١٣٢.

وسيفارق الكثير منهم الحياة أثناء السفر، وكانت إمارات الفرح على مُحيَّاهم وهم على أتم الإستعداد لمُلاقاة ربهم، لأنهم يعتبرون مَنْ يموت في طريق الحج سعيداً. إنّ هذا العدد الهائل من الحُجّاج، يعطينا فكرةً عن واردات الأمير.

إنّ سُمعةَ أمير [البصرة] الحالي سيئةٌ جداً، فقد أذن بفتح البيوت العامة في المدينة، وهذا أمر ينافي تقاليد العرب، وهي بيوت الغناء والطرب والرقص ومختلف الأمور المُشينَة، بينما يَتدَّرع [الأمير] بالتقوى المُزيَّفة، فيذهب كُلَّ يومٍ إلى المسجد الكبير، الذي شَيَّده على نَفقتِه، وهذا العمل ليس من عادة العظماء، والجامعُ المذكور واسعُ الأرجاء، مُزيَّنٌ بالنقوش والزخارف الفارسية. وهكذا يحاول تغطية أعماله الشريرة بتقوى كاذبة وتَعبّد مُزيّف مليء بالرِياء ...

تَجمَعُ البصرةُ أقواماً مختلفةً من كُلِّ فجٍ عميق، ففيها الأتراك والفُرس والعرب والغُرباء واليهود والأرمن والصابئة [ونصارى] من مختلف الطوائف المسيحية. ويُمارس هؤلاء كُلُّهم شعائرهم الدينية بحُريةٍ. ويظهر أن الأمير يَميل بنوعٍ خاص إلى الأوروبيين. وقد أظهر شعوره هذا في مناسباتٍ عديدة. وكان ينظر إلى الآباء الكرمليين نظرةَ ودٍ واحترام ويُلبي طلباتهم، وقد زار ديرنا أكثر من مَرةٍ، وكانت زيارة أصدقاء، فكان يعاملهم [على قدمِ المُساواة] كالدراويش المُسلِمين. وعندما أَتيتُ إلى البصرة كان رئيس دَيرنا هناك على علاقةٍ جيدة بالأمير، وكان قد أوصاه ألّا يَمر اسبوع دون أن يزوره، وكان الأمير يستقبله ببشاشةٍ واحترام، ويُجلِسهُ إلى جانبِهِ، ويفتح له قلبَه ويُسِّره في الأمور التي تَشغلُ فكره ويطلب رأيه فيها. فالرجل، والحَقُ يُقال، يعيش على أعصابه، لأنّه يخشى على الإمارة أن تُنتَزَع منه. وقد طَلَبَ أَكثَر من مرةٍ

وضعَ تخطيطٍ للمدينة، وطريقة تحصينها جيداً على مثال ما تمَّ تطبيقه في مالطه، وكان يَستَفسِر عن مدى مقاومة هذه التحصينات لعساكر السلطان. كما كان يُريد تحصين القرنة وتقويتها، كي يعيش فيها بأمانٍ وسلام. وقد باشرَ فعلاً ببناء مُخطَّطَين لمدينةٍ بالقرب من النهر، ثم تَوقَّف عن البناء، وبالإمكان مشاهدة ذلك. وقد قِيلَ لي أنَّ سبب توقفه عن البناء هو قِلة الجص الذي يُجلَب من أطراف الخليج، وإفتقارهم إلى الحَطَب الذي يشعل عند فخر اللبن، لذا نرى الناسَ في هذه الجهات يجمعون رَوثَ الحيوانات ويخلطونه بالتبن ثم يُعرَّض للشمس ليجف ويَستَعملونَه كوقودٍ عند طبخهم للطعام.

وصَلتْ إلى البصرة قبلنا بقليلٍ، قافلةٌ من الصبيان والفتيان من روسيين ويونانيين ومجريين وبولنديين، وكان الأتراك قد جمعوهم وأتوا لعَرضِهم في سوق النخاسة، فترى الكثيرين يأتون إلى السوق لرؤية هذه البضاعة، ويشترون ما يريدون ويتساومون على الثمن وكأنهم في سوق الغنم ...

*****

مغادرة البصرة

طابَ لنا البقاء في البصرة ... لكن الواجب كان يدعونا إلى الهند. وإذ تأكَّدنا من وجود سفينةٍ هولندية جميلة اسمها فليلاند ذهبنا إليها ... وذلك في الحادي عشر من أيلول، فركبنا قارباً جميلاً مَفروشاً بالسجاد الثمين، وسارت من حولنا قوارب أخرى تحمل رؤساء السُفن الذين أبوا على أنفسهم إلّا أن يودعونا إلى السفينة بالطبول والزُمّارات والبيارق الخَفَّاقة ... فسارت الزوارقُ في الشط والناس على ضفافه

ينظرون إلينا ... ومما جَلَبَ نظري كثرةَ السلاحف على حافّة النهر ... وعندما وَصَلَتْ الزوارق قرب السفينة، أطلَقتْ مدفعيتُها بعضَ العيارات النارية تَحيةً لنا ...

أقلعت السفينة بعد منتصف النهار بقليل، فمررنا بقصرٍ شامخٍ يخص الأمير، لا يبعد كثيراً عن المدينة، ويبدو القصر فَخَماً ومُريحاً.

في اليوم الثالث وصلنا إلى نهاية الشطّ حيث يَصبُّ في الخليج، وكان سفرُنا بطيئاً، إذ لا تَمخُر السفينةُ إلّا في ساعات المد البحري.

هناك عند مَصَبّ الشط في الخليج جزيراتٌ عديدة، تُسمّى إحدى الجُزر باسم أبينا يعقوب، إذ يقول الأهالي إنَّ يعقوب سَكَنَ فيها فترةً من الزمن.. وبعد أن عبرنا جزيرةَ خرق تَركنا المُرشدُ وعاد أدراجه فأبحرنا إلى غومرون (١).

العودة إلى البصرة

... منذ ١٧ حزيران [١٦٥٨] قَرَّرنا السفرَ إلى البصرة ...

وصلنا إليها في ٣ آب ... قبل أيام قليلة وَصَلَ إلى مسقط السفيرُ التركي، وقد وَرَدَته رسائلٌ من بغداد، كان فحواها أنَّ السلطان لم يسر بسفارته، فارتبك جداً وملأ الخوف كيانه، وخافَ على مصيره، وكان مُتردّداً بين أمرين: الرجوع وتوقع المصير المظلم، أو الهروب (٢).

---

(١) هو ميناء بندر عباس.

(٢) السفير هو حسين ابن الأمير فخر الدين المعني، ذكره مُفصلاً زميل فنشنسو وهو سبستياني (ج ←

في هذه الأيام تَفَضَّل الوالي بزيارة دَيرِنا في البصرة ... وعندما دَخَلَ إلى بستان الدَير لاحَظَ قِلة الخُضار فيه، فَسَألَ عن السبب، قِيلَ له إنَّ الماءَ قليلٌ، فأَمرَ بشق تِرعةً على حسابه من النهر إلى الدَير، فتمّ ذلك بوقتٍ قصير [١].

١: ١٩٤-١٩٩) ونوّه به كلشن خلفا ص ٢٥٣ وكانت السفارة على عهد محمد باشا الخاصكي والي بغداد (لونكريك: المرجع نفسه ص ١١٥). عيسى اسكندر المعلوف: تأريخ الأمير فخر الدين المعني الثاني بيروت – ١٩٦٦.

(١) كان الوالي حسين باشا ابن علي المار ذكره.

[١٠]

رحلة تافرنييه

اليوم الخامس والستون، والأخير من بقائنا في البادية، صادفنا خرائبَ بعض البيوت على جانبي الطريق، مما جعلنا نفترض بأنَّ مدينةً كبيرة كانت تقوم سابقاً في هذه البقعة (١).

وأخيراً بلغنا البصرة. وسأصفها في موطنٍ آخر من حديث رحلتي.

وفي أثناء مكوثي في البصرة، الذي دام نحو ثلاثة أسابيع وَصَلَ إليها سفيرٌ من عظيم المغول، كان قد ذهب من القسطنطينية إلى بغداد لتهنئة السلطان على فتحه تلك المدينة (٢) وأخذها في مثل هذا الوقت الوجيز. وقد أهدى الإمبراطور له ثلاثةً من جياد الخيل، وساعةً صغيرة علبتها مُلبَّسة بالماس والياقوت. إلّا أن السفير لعدم معرفته ماهية هذه الآلة الصغيرة، ملأها من الجهة المعاكسة فكسر لولبها. ولما جاء إلى البصرة استدعى الرهبان الكرمليين (٣) وطلب منهم إصلاح ساعته، لأنّه كان يخشى

---

(١) يريد بها خرائب مدينة البصرة القديمة. فهي مما ينطبق عليها قوله إنها «مدينة كبيرة».

(٢) أي فتح مدينة بغداد وسيرد الكلام على ذلك في غير هذا المكان من الرحلة.

(٣) للرهبان الكرمليين في البصرة تأريخ طويل تجد تفاصيله في كتاب Sir H.Collancz: Chronicle of Events between the Years 1623 and 1733 (Oxford: 1927: XXIII +669p).

←

فقدان رأسه إن عاد سيده ولم يرَ الساعة. وقد كُنتُ مقيماً في دار الكرمليين. فهؤلاء لما لم يعرفوا سبيل اصلاحها، طلبوا مني إبداء مهارتي في ذلك. فتناولت الساعة ووضعت لها لولباً جديداً، فصلح حالُها. ولما رأى السفير ما أنا عليه، بالرغم من أن ما صنعته كان شيئاً تافهاً، عَرَضَ عليَّ ما لا يمكن وصفه من الخدمة وحسن الإلتفات. وعلى ذلك فإنّ الرهبان الكرمليين والأغسطينيين، رجوا مني أن أطلب من السفير، نيابةً عنهم، أن يستحصل لهم من السلطان كتابَ أمان يضمن لهم فيه، سلامة بيوتهم و كنائسهم في حالة استيلائه على البصرة. فقمتُ بذلك، ونلتُ بوساطته الأمان التام من الوزير الأول. ولكن الرهبان لم يحتاجوا إليه، لأنَّ الترك لم يقوموا بأية محاولةٍ لأخذ البصرة، لسماعهم أن الفُرس قادمون إليها، هذا إلى أن موسم الأمطار كان على وشك الحلول، مما لا يتيح لجيشٍ ما البقاء في ساحات القتال. ولو أن بغداد ذاتها صَمَدت ثمانية أيام أخرى، لاضطر السلطان إلى رفع الحصار والجلاء عنها.

وبما أنني تَطرَّقتُ إلى ذكر الجياد العربية، عليَّ أن أقول إنَّ منها ما هو غالٍ بل غالٍ جداً. فقد دفع سفير المغول للواحد منها ٣٠٠٠ و٤٠٠٠ ٦٠٠٠ كراون ولغيرها دفع ٨٠٠٠ كراون. ولكن الحصان لم يُباع بأقل من عشرة آلاف. ولهذا عَدَلَ عن شرائه. فلما آب إلى وطنه في بلاد الهند، وقَدَّم لعظيم المغول تلك الخيول التي حملها معه،

وكان أول قدومهم إليها في سنة ١٦٢٣ يَتقدَّمهم باسيليوس البرتغالي، فسعوا في هداية الصابئة. راجع: الآثار الخَطّية للأب أنطون رباط (ص ٣٨٨ – ٣٩٠ – ٤٣٦ – ٤٤٩)، وذخيرة الأذهان لنصري (٢: ١٩٥).وما زال الكرمليون في البصرة إلى هذا اليوم.

وكانت جياداً جميلة جداً أخبر سيده كيف أنه دفع ٨٠٠٠ كراون عن حصان أجمل من أي واحد أتى به، بيد أن صاحبه لما لم يَرضَ أن يبيعه بأقل من عشرة آلاف، تركه. فغضب الملك لتوقف سفيره عن شراء الحصان بمثل هذا المبلغ الزهيد، بينما كان الشراء لواحدٍ من أعاظم ملوك الدنيا، ولامه على ذُلِّ نفسه، وأقصاه عن حضرته بنفيه مدى الحياة إلى مقاطعةٍ نائية عن البلاط ثم كَتَبَ الملك إلى الإنكليز ليشتروا له الحصان، ففعلوا ذلك وجلبوه إلى سوارت بالهند حيث دَفَعَ لهم الحاكم ثمنه. غير أن الحصان ما لبث أن مات في رامبور.

ولن أنسى قط أنه حين كُنتُ في البصرة، حَلَّقتْ في سمائها، في خلال مرتين، سدود من الجراد كانت تبدو من بعيد كأنها السحب، فأظلمت الأرض به. إن الجراد يمرُ بالبصرة أربع أو خمس مرات في السنة، تحملهُ الرياح من البادية التي فيها مولده وهلاكه. ولو لم تدفعه الريح بهذا الوجه لما ترك نبتاً يعيش على الأرض في بعض أقسام كلدية. يطير هذا الجراد فوق بلدان خليج فارس. ولما تأتي المراكب إلى هرمز [١] (Ormuz) في أي وقتٍ من السنة، يجد ركابها دكاكين صغيرة يبيع فيها الناس الجراد المقلي بالدهن لِمَنْ يحب هذا اللون من الطعام. وقد حداني حب الاستطلاع ذات مرة، أن فتحت بطن جرادة طولها ستة إنشات: فوجدتُ داخلها سبعَ عشرة جرادة صغيرة تتحرّك. ومن هذا يمكن أن يحزر بسهولة كيف تتكاثر تلك الحشرات، خاصّة في

(١) جزيرة تقع في خليج فارس، عند المضيق المُسمّى باسمها، وهي على مسافة ميل وثلاثة أرباع الميل من ساحل إيران.

البلدان الحارة.

وهناك عِدة سفن وقوارب تمخر من هرمز، لتجهيز جانبي خليج فارس بالحاجات الضرورية، حيث الناس هناك لا يأكلون الخبز ولا الرز، وقد اتفقتُ مع صاحب أحد هذه القوارب، وكان الإتفاق على أن لا يزيد ما يحمله القارب على نصف وسقة، لأنهم على العموم يحملونها بما هو فوق طاقتها. وفي الأحوال الجوية الرديئة يضطرون إلى أن يرموا بنصف الحمل إنقاذاً للبقية.

ومن البصرة إلى فم نهر الفرات [١] عشرون فرسخاً من الماء العذب. لقد انتظرنا مواتاة الرياح لنا سبعة أيام كاملة، لنتمكّن من الإقلاع بسفينتنا. ثم وصلنا إلى بندر ريك [٢] (Bander-Ric) بثمانٍ وأربعين ساعة. هذا هو المكان الذي يجب أن تنزل فيه إن قصدت بلاد فارس، ما لم تكن مستهدفاً هرمز. يتألف بندرريك من خمسة أو ستة أكواخ صغيرة لصيادي السمك، وهذه الأكواخ عبارة عن أغصان مصفوفة أحدها يقابل الآخر، ومُسقَّفة بمثلها، حيث يسكنون هم وعائلاتهم. ويؤتى إلى بندر ريك بالتمر مُحمَّلاً على الحمير. وقد اضطررت أن أكتري واحداً منها لعدم تيسر الخيل هناك.

وقضينا ستة أيام في الطريق من بندر ريك إلى كازرون (Cazeron) [٣]، وهي بقعة

---

(١) هذا وهم من المؤلف، والصواب أنه شط العرب.

(٢) بُليدة صغيرة على ساحل الخليج العربي، في شمال بوشير [بوشهر].

(٣) بليدة في إيران، نفوسها زهاء ٧٠٠٠ نسمة، وهي بين بوشير وشيراز.

جبلية كثيرة الغابات. وعليك أن تقيم في الحقول لعدم وجود الخانات في الطريق. إن هذا الطريق مؤنس في بعض أقسامه، فهو يمر بضفاف نُهيرات عديدة وخلال أحراش مخضرة تكثر فيها السلاحف التي قتلنا منها كثيراً، فأكلنا بعضه مع البلاو بدلاً من الدجاج، وشوينا بعضه الآخر مستخدمين العصي مكان السفافيد.

وكازرون بلدة صغيرة حقيرة البناء، فيها خانٌ واحد لا يفي براحة الغرباء النازلين فيه. ومن كازرون إلى شيراز مسيرة خمسة أيام. والطريق تمر بأرضٍ جبلية كثيرة الحزون، لم يكن سلوكها ممكناً لولا هِمّة علي قولي خان حاكم شيراز، الذي شق فيها طرقاً لم تكن من قبل، وربط الجبال بالقناطر، ولولاها لتعذر إجتيازها. وفي وسط الجبال فجوة عريضة يمتد منها سهل محيطه نحو عشرين فرسخاً، لا يسكنه غير اليهود، وهؤلاء القوم يشتغلون بحياكة الحرير. وفي هذه الجبال تقع أنظارك على خِيمٍ ينزل فيها الكلدانيون الذين ينتجعون تلك البقاع صيفاً طلباً للهواء البارد وإلتماساً للمرعى الوفير.

ولما إنتهيت إلى شيراز، اتخذت حصاناً لركوبي من هناك إلى أصفهان التي لم أبلغها إلّا بتسعة أيام. الأراضي التي تَمُرُّ بها بين هاتين المدينتين، سهول وجبال تجد فيها البور كما ترى فيها المزروع. فإذا سُرتَ ثلاثة أيام عن شيراز جابهك جبلٌ مائين (Mayen)، ومائين بُليدة ليس فيها ما يستحق الذكر. وبعد مسيرة يومين منها تدخل في سهول ولاية كشكي زرد (Cuscuzar) التي فيها يحفظ ملك فارس خيوله للسباق. وفي اليوم

التالي وصلت إلى يزدي خست (Yesdecas) التي يُصنع فيها أجود الخبز الإيراني [١]، وهي بُليدة تقوم على نشز من الأرض، فيها خانٌ لطيف جداً. وعند قاعدة النشز نهير ينساب في واد ينمو فيه القمح الجيد الذي يصنع خبزاً ويصدر من هذه المدينة. وقد قطعت المسافة من يزدي خست إلى أصفهان بثلاثة أيام إن هذا الطريق كان أول طريق سلكته من حلب إلى أصفهان.

إكمال الطريق من بغداد إلى البصرة والكلام على ديانة الصابئة وهم نصارى يوحنا

في الخامس عشر من آذار، ركبنا سفينةً من بغداد إلى البصرة (Basara) فرأينا نهر دجلة أسفل بغداد، ينشطر شطرين: أحدهما يجري في كلدية القديمة، والآخر ينسابُ في ما بين النهرين. وهذان الشطران يُشكِّلان جزيرةً واسعة تخترقها ترعٌ عديدة.

وعندما بلغنا منقسم دجلة، وقع نظرنا على رقعة مدينةٍ، كانت فيما مضى واسعةَ النطاق، ولا يزال بعض أسوارها شاخصاً، يمكن أن تسير فوقها ست عربات جنباً إلى جنب. وهذه الأسوار مُشيَّدة بالآجُر، يبلغ طول ضلع الأجرة الواحدة عشر أقدام،

---

(١) ذكر المؤلف، في الفصل التاسع من الكتاب الأول من رحلته، مثلاً سائراً بين الفرس، سمعه منهم، مؤدّاه: «من يبتغ السعادة، فليتزوج بإمرأةٍ من يزد، وليأكل خبز يزدي خست، وليشرب خمرة شيراز».

وثخنها ثلاثاً[١] وتروي أخبار هذه البلاد، أن هذه هي خرائب بابل القديمة[٢].

وقد اتبعنا في سيرنا ذلك الشطر من دجلة، الذي يجري وجانب كلدية، خشية الوقوع بأيدي الأعراب الذين كانوا في ذلك الحين في حربٍ مع باشا بابل[٣]، لأنهم أبوا دفع الضريبة إلى السلطان. وقد تمادى بنا السفر على ظهر الماء من بغداد إلى البصرة عشرة أيام. وكُنا في كل ليلة نرسو فوق الماء ونتناول طعامنا في السفينة.وعند بلوغنا قريةٍ ما، كُنّا نبعث بخدمنا إلى الضفة لشراء الطعام الذي نحصل عليه بقيمة زهيدة جداً. أما المدن التي مررنا بها فهي: العمارة[٤] (Amurat) وفيها قلعةٌ مُشيَّدة باللبن. والشطرة (Satarat). والمنصوري (Mansoury) وهي بلدةٌ كبيرة. والمجر (Magar). والعزير[٥] (Gazer). والقرنة (Gorno). ويقترن الفرات بدجلة عند هذه المدينة الأخيرة التي فيها ثلاث قلاع: الأولى في ملتقى النهرين وهي أحصنها، فيها يقيم أمير

---

(١) أبعاد هذا الآجر مُبالغ فيها مبالغة فاحشة! فإن أعظم الآجر المكتشف في العراق، لا يتجاوز طول ضلعه ٥٠ سنتمتراً وثخنه ١٢ سنتمتراً.

(٢) لا يمكن أن تكون هذه الأخربة بقايا بابل، لأنَّ سير المؤلف في نهر دجلة، فهو يصف ما يمر به في طريقه. فأين بابل من هذا الطريق؟ والمرجح عندنا، أنها بقايا مدينة «سلوقية» عاصمة الدولة السلوقية في العراق، وخرائبها اليوم في تل عمر، جنوبي بغداد، على نحو ٢٠ ميلاً منها.

(٣) يريد بذلك باشا بغداد.

(٤) يقول لسترنج إنها «كوت الإمارة». راجع: بغداد في عهد الخلافة العباسية (ص ٨ من الأصل الإنكليزي، وص ١٦ من الترجمة العربية).

(٥) يذهب بعض الباحثين إلى أنّ العزير هو قبر عزرا الكاتب صاحب «سفر عزرا» أحد أسفار التوراة.

البصرة الذي يحكمها. والثانية في جانب كلدية. والثالثة في جانب بلاد العرب. ومع أنه يطالب هناك بالرسوم الجمركية بتمامها فتدفع، فإنهم لا يفتشون أي شخص. ويصل مد البحر إلى هذا المكان. ولما كان أمامنا خمسة عشر فرسخاً إلى البصرة، فقد وصلنا إليها بسبع ساعات لأنَّ الريح والمد ساعدانا على ذلك.

تبعد بغداد عن البصرة مائة وستين فرسخاً، وكُلُ الأراضي الممتدة بينهما تتشابك فيها القنوات وتقسمها على نحوٍ ما يرى في البلاد الواطئة [١]. ولا شك أنّ هذه الأراضي من أحسن ما يمتلكه السلطان، لإشتمالها على مراعٍ واسعة ومروجٍ نضيرة يُربّى فيها عددٌ كبيرٌ من الحيوانات، خاصّة الأفراس والجواميس. ومدة حمل الجاموس إثنا عشرَ شهراً، وهي تدرُ حليباً وافراً جداً، حتى أن بعضها يدر إثنين وعشرين بنتاً [٢] في اليوم، وتستخلص منه مقاديرَ وافية من الدهن. وقد وجدنا ذات مرة في بعض قرى دجلة خمساً وعشرين سفينة موسقة بالدهن الذي يبيعه أصحابه في بلدان الخليج الفارسي، بكلا جانبيه العربي والفارسي. وفي منتصف الطريق بين بغداد والبصرة، أبصرنا عِدّة سُرادقات منصوبة في المروج بمحاذاة ضفة النهر. ولدى الإستفسار سمعنا أن الدفتر دار آت من القسطنطينية لجباية ضرائب السلطان. فمن بغداد إلى القرنة يدفع عن كل رأس جاموس، ذكراً كان أم أنثى، قرشٌ وربع قرش في السنة، فيقوم من ذلك للسلطان في السنة مائة وثمانون ألف قرش. وعلى كلِّ فرس يدفع

---

(١) أي بلاد هولندا وبلجيكا.

(٢) البنت بالباء المثلثة المكسورة (Pint) يساوي ١ / ٨ الجالون.

قرشان، وعلى كُلّ شاة عشرة سوات [١] (Sous). ولولا تحايل أهل البلاد عند دفع الرسوم، لزاد مجموع الضرائب نحو خمسينَ ألف قرش عمّا هي عليه الآن.

ثم إنتهينا إلى القرنة، وهي قلعةٌ عند ملتقى النهرين، في كلتا جهتيها قلعةٌ أصغر منها. ولا يمكن المرور من هناك بدون إذن. وفي قلعة القرنة المُزوَّدة بمدفعٍ، إلتقينا بابن أمير البصرة الذي كان حاكم القلعة. وهنا يسجل حساب الجمارك. ومع أن رجال الجمرك يَمعنون في تحرّي السفن، فإنهم كثيرو اللطف فلا يفتشون أي شخص. وعند قيامهم بهذا الواجب لا يهملون التفتيش عن البضائع المخبأة بين ألواح السفينة أو المُغطّاة بالحطب والعيدان. ولموظفي الجمرك مثقبٌ طويل يَجسُّون به جوانب السفينة لإكتشاف ما قد يكون فيها من بضاعةٍ مُخبّأة. إن البضاعة تسجل في القرنة، ولكن رسوم البصرة تُدفع دائماً في البصرة بحسب القائمة المُعطاة من قلعة القرنة.

وفي اليوم ذاته، دخلنا في القناة التي شُقَّت من الفرات إلى البصرة، فلقينا في طريقنا رئيس المعمل الهولندي الذي كان يَتنزَّه في قاربٍ مُغطّى بالقماش القرمزي، فأخذني معه إلى البصرة.

وتقع البصرة في جانب بلاد العرب الصحراوية، على بُعد فرسخين من خرائب مدينة كانت تُدعى سابقاً طريدون (Teredon) وكانت قديماً تقوم في البادية ويأتيها

---

(١) السو: نقدٌ فرنسي قديم، كان يُضرَب من النحاس أو النيكل، ويساوي ١ / ٢٠ من الفرنك، أي ٥ سنتيمات.

الماء من الفرات من قناةٍ مبنية بالآجر لا تزال ظاهرة للعيان.

ويبدو أنه كان عند هذه الخرائب مدينةٌ كبيرة، يقتلع منها العرب الآجر ويبيعونه في البصرة. وتبعد مدينة البصرة نِصفَ فرسخٍ عن الفرات الذي يُسمّيه العرب بلغتهم «شط العرب». وقد مَدَّ أهل المدينة قناةً تذهب إليه، طولها نصف فرسخ، تسير فيها السُفن من ذات المائة والخمسين طناً، وفي آخرها قلعة ليس لسفينة ما أن تجتاز المكان دون إذن منها. ويبعد البحر عن البصرة نحو خمسة عشر فرسخاً، إلّا أن المد يأتي إلى القناة ويعم النهر مسافةَ خمسة عشر فرسخاً أخرى صعداً إلى ما وراء القرنة. والأرض هناك شديدة الإنخفاض، ولولا السدود المُمتدة بإمتداد حافّة البحر، لتَعرَّضت البقعة للغرق. ويبلغ طول السد أكثر من فرسخ، وهو مُشيَّد بالحجارة تشييداً مكيناً، لا تعمل فيه الأمواج الهائجة، بالرغم من كونه مُعرَّضاً لبحرٍ صاخب.

ولم يمضِ على البصرة أكثر من مائة سنة مذ كانت تابعة لعرب البادية، فلم يكن لها تجارة مع أمم أوروبا، لأنَّ أهلها كانوا قانعين بأكل تمورهم التي تتوفر عندهم بمقاديرَ كبيرة، وهم لا يتغذون بغيرها. وهذه الحالة في المعيشة سائدة على ما وصفنا في كلا ساحلي الخليج: فإذا سرنا من البصرة إلى نهر السند (Indus) وهي مسافةٌ طولها ستمائة فرسخ، أو إذا سرنا والساحل العربي إلى مسقط، وجدنا فقراء الناس لا يعرفون ما هو أكل الرز، بل يَتعيَّشون بالتمر والسمك المُملَّح المُقدَّد بالهواء. والبقر عندهم لا تُطعَم عُشباً، وإذا خرجت إلى الحقول لا تجد من الأعشاب إلّا الشيء الزهيد، أو قد لاتجد شيئاً منها. ولهذا، فإنَّ أصحابها صباح كل يوم، قبل أن يخرجوها إلى الحقول، وبعد أن يعودوا بها إلى الدار، يطعمونها رؤوس السمك ونوى التمر المسلوقين معاً.

وعندما اشتبك التُرك في حرب مع العرب، أخذوا منهم البصرة، غير أن العرب لما كانوا يغيرون دوماً على المدينة وينهبون ما تناله أيديهم من غَنائم وأسلاب، اضطر التُرك إلى عقد اتفاق معهم، كان للعرب بموجبه حرية التنقل في البادية إلى قيد فرسخٍ من المدينة، وعلى أن تبقى المدينة للترك. غير أن هذا الإتفاق لم يَدُم طويلاً، ذلك أنه كان في وسط المدينة قلعة تُعرف بـ«حوش الباشا» [١] (Aushel- Basha) أو ديوان الباشا. وقد بناها التُرك. ولما كانت الحامية من الترك، والأهلون من العرب الذين لم يطيقوا التَحكُّم بهم. فإن هؤلاء العرب كثيراً ما نازعوا التُرك، وبلغ بهم الأمر إلى الضرب، فيبادر عربُ البادية إلى نجدة الأهلين، ومحاصرة الباشا في القلعة. وأخيراً لما لم يمكن عقد إتفاق مثل هذا، لما يتوقع من انتهاز أحد الطرفين المتعاقدين الفرصة لنقضه، فإن علي باشا [٢] الذي كثرت المنازعات والثورات في زمنه فأتعبته وأرهقته، قَرَّر التخلص من هذا العبئ، فباع حكومته بألف قرش لنبيل من أغنياء البلد. فَعَمدَ هذا من فوره إلى تجنيد عددٍ كافٍ من الرجال ليخشاه أهل البلد. إن هذا الرجل العظيم يُسمّى افراسياب باشا (Efrasiabs) وهو جد حسين باشا الذي كان حاكماً لما مررت بها قبلاً. لقد خلع افراسياب عنه النير التركي، ولقَّبَ نفسه بأمير البصرة. أما الباشا الذي باع حكومته، فإنه ما كاد يبلغ القسطنطينية حتى شُنِق. وبعد إستيلاء مراد على بغداد، كان أمير البصرة يَسرُّه أن يتحفهُ دائماً بالهدايا والألطاف، وخصوصاً بجياد

---

(١) هذه التسمية العربية عن الأستاذ يعقوب سركيس.

(٢) تحرف هذا الاسم في الرحلة إلى Aiud.

الخيل التي تشتهر بها تلك البقعة. وعندما استولى الشاه عباس الكبير على مدينة هرمز، أرسل جيشاً قوياً بقيادة أمام قولي خان، حاكم شيراز، للإستيلاء على البصرة. ولما وجد الأمير نفسه أضعف من أن يقاوم هذه القوة الكبيرة، اتفق مع عرب البادية على كسر السد الذي يحجز ماء البحر. فلما فعلوا ذلك طغى ماء البحر وأغرق ما مسافته خمسة عشر فرسخاً إلى البصرة بل أربعة فراسخ مما وراءها. فاضطر الفُرس الذين أَحدَقَ بهم الماء، وكان بلغهم خبر وفاة الشاه عباس، إلى رفع الحصار. ومنذ هذا الغرق، أصبحت أراض وبساتين واسعة مغمورة بكليتها، أو ذات إنتاج زراعي ضئيل، للأملاح التي خَلَّفها ماء البحر وراءه بعد انحساره عنها. وصار للأمير علاقات بأمم أجنبية مختلفة فأنّى تَوجَّهتَ لقيتَ ترحيباً. ويعم المدينة الطمأنينة والنظام. حتى ليمكنك أن تسري طول الليل في شوارعها دون أن يعترض سبيلك أحدٌ. ويجلب الهولنديون إلى البصرة التوابل كل سنة، ويحمل إليها الإنكليز الفلفل وشيئاً من القرنفل. أما البرتغال فلا تجارة لهم معها ويجلب إليها الهنود نسيج قالقوط والنيل وشتى أنواع السلع. وبوجيز الكلام، أن في البصرة تجاراً من مختلف البلدان: من القسطنطينية وأزمير وحلب ودمشق والقاهرة وغيرها من الأصقاع التركية، يقصدونها لشراء مثل هاتيك البضائع التي ترد إليها من جزر الهند، فَتُحمَل على الإبل المُشتراة من هناك، وهي التي يبيعها عرب البادية في المدينة. إن التجار الوافدين من ديار بكر والموَصَلَ وبغداد وما بين النهرين، يشحنون بضاعتهم بطريق الماء في دجلة، إلّا أن وراء ذلك تعباً منهكاً ونفقات طائلة، لأنَّ السُفن التي يُسيِّرها الرجال لا تَتمكَّن من قطع أكثر من فرسخين ونصف فرسخ في اليوم، وليس بوسعها السير ضد الرياح،

مما يضطرهم في الغالب إلى إجتياز الطريق بين البصرة وبغداد بأكثر من ستين يوماً، بل هناك من العقبات ما يُطيل في أمد سفرهم فوق الماء إلى ثلاثة أشهر.

ويستوفي الجمرك في البصرة خمسة بالمائة ولكن موظفي الجمرك أو الأمير نفسه، يَتكرَّمون على أصحاب البضائع عادةً، فلا يتاقضون منهم أكثر من أربعة بالمائة. ومدخول أمير البصرة شيء كثير قد يبلغ ثلاثة ملايين ليرة[١] في السنة. ويَتكوَّن دخله من أربعة موارد: النقود، والخيل، والإبل، والنخيل. والمَوَرَدَ الأخير رأس ثروته لأنَّ البقاع المُمتدَّة من ملتقى النهرين حتى البحر، وهي مسافة ثلاثين فرسخاً، مُغطّاة كُلُّها بالنخيل. ولا يجسر أحد على لمس ثمرة واحدة منها ما لم يدفع عن كل نخلة ثلاثة أرباع الطويلة (Larin) أو تسعة سوات فرنسية. أما الربح الذي يُحصِّله الأمير من النقود، فيرده بالوجه التالي: على التجار الذين يأتون من الخارج أن يحملوا ريالاتهم إلى دار الضرب العائدة للأمير[٢]، حيث تُضرَب وتُحوَل إلى طويلاًت، ومدخوله من ذلك ٨ بالمائة. أما عن خيله فليس في العالم ما يفوقها قابلية للسفر أو يَبزّها في جمال قوامها. وقد يقطع بعضها ثلاثين ساعة دونما توقف، خاصّة الأفراس منها. ولنعد الآن إلى النخيل فهي جديرةٌ بالملاحظة. فهناك أصول فنية في إنماء هذا النخيل تختلف عن غيره من الأشجار. ذلك أن أهل تلك الديار يحفرون حفرة في الأرض، يضعون فيها مقداراً

---

(١) كانت الليرة في زمن تافرنييه، كما وَرَدَتْ أسعارها في رحلته، تساوي نحواً من ٧٥ فلساً.

(٢) عُرِفَت البصرة، في العصور الإسلامية، بكونها داراً للضرب. وفي الخبر المذكور أعلاه إشارة إلى أنها ما زالت على ذلك حتى المائة السابعة عشرة للميلاد.

كبيراً من التمر، بشكلٍ هرمي وينتهي رأس الهرم بنواةٍ واحدة. ثم يُوارى بالتراب فينتج منه النخيل [١]. ويقول معظم السكان، إن من النخيل ما هو فحلٌ وما هو أنثى. وعليه يجب غرسهما الواحدة بجانب الأخرى، وإلّا فإن أنثى النخل لا تحمل ثمراً. ولكن غيرهم يؤكد أن هذه الطريقة ليست ضرورية، وأنه يكفي عندما يطلع الفحل أن تأخذ طلعه فتضعه في قلب (جمار) الأنثى، على بُعدٍ يسير من أعلى ساق النخلة، وإلّا فإن الثمر يسقط قبل نضجه.

وفي البصرة قاضٍ، عَيَّنه الأمير الذي يحكم هناك. وفي المدينة أيضاً ثلاث فُرق من النصارى: اليعاقبة والنساطرة ونصارى القديس يوحنا [٢]. وفيها أيضاً دار لمبعث الكرمليين الإيطاليين، وأخرى للرهبان الأغسطينيين (Austin) البرتغاليين. ولكنهم غادروا البلدة منذ انقطاع البرتغاليين عن المُتاجَرة معها.

ونصارى القديس يوحنا كثيرون جداً في البصرة والقُرى المجاورة لها، وقد كانوا في القديم يقطنون قرب نهر الأردن، حيث اعتمد مار يوحنا الذي نُسبوا إليه. إلّا أنه منذ زمن فتح محمد ﷺ لفلسطين [٣] تعهد لهم بمنع التعرض لهم. ولكن خلفاءه

---

(١) الطريقة الشائعة في غرس النخيل في العراق اليوم، هي أن تقلع الفروخ التي حول أمها وتُغرَس في الأماكن المطلوبة. وتُسمّى فروخ النخل الثال، ومفردها الثالة.

(٢) يريد بهم «الصابئة». ولكن هؤلاء لم يكونوا في وقت من أوقاتهم فرقة نصرانية، فهذا وَهمٌ من المؤلف.

(٣) كذا ما في الأصل. وكلها وكذب وافتراضات ولو كان ذلك صِدقاً لما بقي شرذمة منهم على وجه البسيطة ولكن كل ذلك لحاجة في نفس يعقوب. والصواب أن فلسطين فتحت في أيام الخليفة ←

عملوا على إبادتهم. وللوصول إلى هذه الغاية خرَّبوا كنائسهم وأحرقوا كتبهم واستعملوا كل وسائل القسوة ضدهم [١]، فاضطرهم ذلك إلى الانتكاص إلى بلاد ما بين النهرين وكلدية، وبقوا مدةً خاضعين لبطريرك بابل، ثم انفصلوا عنه منذ مائة وستين سنة [٢]. ثم انتقلوا إلى فارس وبلاد العرب والمدن التي في أنحاء البصرة مثل: شوشتر [٣] (Souter)، ودسبول (Despoul)، و رامز [٤] (Rumez)، والباطنة (Bitoum)، والمناوي (Mono)، وهندجان (Endecan)، وخلف آباد [٥]

أبي بكر الصديق، لا في أيام النبي. طالع هذا الموضوع في كتاب فتوح البلدان للبلاذري (ص ١٣٨ – ١٤٤ طبعة دي غويه).

(١) لم نطلع على حادثة اضطهاد من هذا القبيل في تأريخ الصابئة، وقد حصلت هجرتهم من فلسطين قبل الإسلام بزمنٍ طويل. وكان سبب الهجرة على ما جاء في رسالة حرّان (حاران كاويثة) العداء الشديد بينهم وبين اليهود القاطنين في فلسطين إلى العراق وإيران وعاشوا بعد ذلك بوئامٍ تام مع الإسلام (عن الأستاذ عبد الجبار عبد الله).

(٢) لم نعثر على نصٍ تأريخي يؤيد زعم المؤلف. ولم يكونوا في وقتٍ من الأوقات من أتباع بطريرك بابل.

(٣) بعض الأمكنة التي ذكرها تاڤـرنييه جاءت بوجهٍ مُصَحَّف، لم نستطع معه تحقيق اسمه العربي، فأبقينا اسمه بالفرنجية كما وَرَدَ في الرحلة ذاتها.

(٤) قال ياقوت في معجم البلدان (٢: ٧٣٨) في كلامه على مدينة «رامهرمز»: «إنّ اسمها مختصر من رامهرمز أردشير ... والعامة يسمُّونها رامز كسلاً منهم عن تتمة اللفظة بكمالها واختصاراً». وقد سمّاها ابن بطوطه (تحفة النظار ٢: ٢٢ طبعة باريس) بلفظة «رامز» أيضاً.

(٥) هذه التسمية العربية عن الدكتور مصطفى جواد.

والحويزة (Aveza)، والدچة [١] (Dega)، والدورق [٢] (Dorech)، والمعقل (Masquel)، وكمار (Gumar)، والكاريان [٣] (Garianous)، والبصرة (Balsara)، والنازور (Onezer) والزكية (Zech)، ولوزا (Loza). وهم لا يسكنون مدينةً أو قريةً لا يجري فيها نهر. وقد أكَّد لي غير واحد من رؤساء دينهم أن هؤلاء النصارى يبلغون في كل المواطن المذكورة أعلاه، نحو خمسة وعشرين ألف عائلة بينهم تجار، ولكن معظمهم من أصحاب الحِرف خاصّة الصياغة [٤] والنجارة و الحدادة. وعقيدتهم مشحونة بالخُرافات والأوهام، ويُسمّيهم الفُرس والعرب الصابئة، أي الشعب الذي تَركَ دينه واعتنق ديناً آخر [٥]، أما هم فيُسمّون أنفسهم في لغتهم الخاصّة «مندائية يحيى»، أي أتباع يوحنا، الذي منه، كما يؤكدون، استمدُّوا عقيدتهم وعنه تَلقَّوا كتبهم وتقاليدهم [٦]. ويحتفلون في كُلِ سنة بعيدٍ يدوم خمسة أيام، يذهبون في أثنائها جماعات

---

(١) بتشديد الجيم المثلثة والتسمية عن الأستاذ يعقوب سركيس. وقد أفادنا ان اسم «الدچة» أو«الدكة» وَرَدَ في مخطوط في خزانته، بعنوان «تحفة الأزهار زلال الأنهار» للسيد صامن ابن السيد شدقم (المجلد ٣ ص ١٤ وذلك في حوادث سنة ٩٩٩ هجري (١٥٩٠م).

(٢) عن الأستاذ يعقوب سركيس.

(٣) عن الدكتور مصطفى جواد.

(٤) ما زال الصابئة في العراق إلى يومنا هذا، موضع إعجاب الناس عامّة بإتقانهم صياغة الفضّة وتفننهم في نقشها وتلبيسها بالميناء التي لا يضاهيهُم فيها أحد.

(٥) في كتب اللغة: صبأ، وصبؤ: إذا خرج من دينٍ إلى دين آخر. فهو صابئ.

(٦) الصابئة كما يعتقدون، يتبعون تعاليم آدم. ولديهم كتاب «الكُنزا»، أي صُحف آدم. غير أن تقادم العهد على الرسول الأول للدين، ونشوء بعض المذاهب الزائفة والأديان الوثنية، كُل هذه ←

إلى رؤسائهم ليعمّدوهم على غرار عماد مار يوحنا.

وهم لا يتعمّدون إلّا في الأنهار، في أيام الآحاد فقط. وقبل الذهاب إلى النهر يحملون الطفل المُراد تعميده إلى معبدهم [١] فيتلو فيه الكاهن، صلاةً معلومة على رأس الطفل، ومن ثَمَ يحملون الطفل إلى النهر ويرافقه رهط من الرجال والنساء. فينزل الجميع ومعهم الكاهن حتى الركب في الماء، ثم يقرأ الكاهن صلاةً ثانية معلومة من كتابٍ يحمله بيده. وعند ذاك يرش الطفل بالماء ثلاث مرات قائلاً بلغتهم ما معناه بالعربية «بسم الرب، أول وآخر العالم والجنة، الخالق العالي لكل الأشياء». ثم يقرأ الكاهن صلاةً أخرى في كتابه، بينما الأشبين (العرّاب) يغطس الطفل كُلَّه بالماء. ويعود الجمع بعدئذ إلى بيت أهل الطفل للإحتفال به.

أما أساقفتهم وكهنتهم، فإذا مات أحدهم وخَلَّفَ إبناً، انتخبوا الابن مكان أبيه [٢]. وإن لم يكن له ابن اختاروا الذي يليه في القرابة مِمَنْ هو أقدر وأعرف بأمور

أدخلت تعاليم غريبة في الدين. فجاء يحيى ليُخلِّص الدين من هذه المذاهب الدخيلة، ولم يكن رسولاً بل نبيّاً خاصاً بهم (عن الأستاذ عبد الجبار عبد الله).

(١) ليس من الضروري حمل الطفل إلى المعبد قبل التعميد ولكن «الكاهن» يَقرأ بعض الصلوات خارج النهر قبل مجيء الطفل، ثم يدخل النهر منفرداً ويقف في الماء ويقرأ بعض الصلوات ثم يأتي الشخص المُراد تعميده ويتم تعميده. ولا حاجةَ لأي مرافق: فالشخص الذي يَتعمَّد يذهب منفرداً، إلّا إذا كان طفلاً فيحمله شخصٌ واحد (عن الأستاذ عبد الجبار عبد الله).

(٢) الكاهن لا يُنتَخَب انتخاباً. وليست المسألة مسألة وراثة كما يَتصوَّر المؤلف. بل إن الكاهن يُدرَّس دراسة خاصّة ويُمتَحن ثم يصبح كاهناً بعد أن يقوم برياضةٍ روحية خاصة. وأهم ما ←

دينهم. ويُصلّي المُنتَخَبون عدةَ صلوات على رأس المنتخب، فإن كان المُنتَخَب أسقُفاً، يطوف بعد تولّيه منصبه لتعيين آخرين، وعليه أن يصوم ستة أيام يتلو في أثنائها صلواتٍ معلومة مُكرَّرة على رأس الكاهن المرسوم الذي يصوم أيضاً ويُصلي طوال المدة المذكورة. ولما كان الابن يخلف أباه وَجَبَ عليَّ القول إنَّ نصارى تلك الأنحاء، يَتزوَّج أساقفتهم وكهنتهم كسائر الناس، غير أنه إذا تُوفيت زوجتهم الأولى، لا يُباح لهم التزوج بأخرى ما لم تكن عذراء. هذا إلى أن مَنْ ينخرط في سلك الكهنوت، يجب أن يكون من سلالة الأساقفة، وأمه يجب أن تكون عذراء حين زواجها. ويُطيل أساقفتهم لحاهم، ويُعلِّقون على صدورهم صليباً مُثبَتاً بدبوس (١).

وفي الإحتفال بزواجٍ ما، يذهب الأقارب والمدعوون مع العريس إلى بيت العروس، ويحضر الأسقفُ أيضاً فيسأل العروس التي تكون جالسة تحت مَظلَّة عما إذا كانت عذراء؟ فإن كان الجواب بأنها كذلك، يطلب منها أن تؤيد ذلك باليمين، ثم يعود إلى الضيوف، فيبعث بزوجته مع نساءٍ أُخرياتٍ ماهرات لفحصها فإن وجدنها عذراء حقاً، تعود زوجة الأسقف تعميد الإثنين المُزمع عقد زواجهما. ثم يعودون إلى

يجب أن يستعمله ليكون كاهناً صغيراً (ترميذ) هو أن يحفظ «سيدرة نشماثاً» و«انياني» أو قسماً كبيراً منهما، وأما الكاهن الكبير «الكنزبرا» فيجب أن يكون مُطَلعاً على كثيرٍ من التفاسير والشروح الدينية، ويجب أن يكون قد أتمَّ، أو حَفَظَ كتاب الكنزا وهو كتابهم الرئيسي (عن الأستاذ عبد الجبار عبد الله).

(١) لا صحةَ لهذا القول بتاتاً. فالأساقفة لا يعلقون شيئاً على صدورهم عن (الأستاذ عبد الجبار عبد الله).

البيت، ويقفون في الطريق قبيل وصولهم إليه، فيأخذ العريس بيد عروسه ويقودها سبع مرات من مكان الحشد إلى البيت وبالعكس، والأسقف يتبعهم في كُلِّ مرة، ويتلو صلاةً معينة. ثم يدخلون الدار ويجلس العروس والعرويس معاً تحت مَظلَّة، واضعاً كل منهما ذراعيه قبالة الآخر. ويعود الكاهن إلى الصلاة طالباً منهما أن يحنيا رأسيهما معاً ثلاث مرات، ثم يفتح كتاباً في عرافة المستقبل، ليستطيع أوفق يوم لعقد زواجهما فيخبرهما به. أما إذا لم تجد زوجة الأسقف العروس عذراء، فإن الأسقف لا يواصل مراسم الزواج. فإذا كان الشاب لا يزال راضياً بالفتاة، عليه أن يذهب إلى كاهن أوطأ درجة، ليقوم بالإحتفال. فإذا تمّ الزواج على يد الكاهن، كان ذلك دليلاً على أن العروس ليست عذراء.

وبما أن الكهنة يعتبرون زواج المرأة وهي غير عذراء خطيئة كبيرة أيضاً فإنهم لا يتزوجون من مثل هذه إلّا اضطراراً واجتناباً لما لا تُحمَد عُقباه، إذ يؤدي ذلك أحياناً إلى اعتناقهم الدين الإسلامي. وسبب فحص العروس هو لكيلا يخدع الأزواج، وكذلك لإبقاء الفتيات مُتهيِّبات حَذرات.

أما عقائدهم في خلق العالم [١]، فيقولون إنّ الملاك جبرائيل أَخَذَ على عاتقه خلق العالم على ما أمره الله به. فأَخَذَ معه ثلاثمائة وستة وثلاثين ألف شيطان، وجعل

---

(١) يعتقدون أن الله أراد أن يخلق العالم، فجعله في ماء أولاً. ثم أمر جبرائيل فهبط إليه وجَمَّده وجعله تربة كما هي وقصة خلق العالم عندهم طويلة، وتجدها مفصلة في كتاب «الكنزا» مما لا يتسع له المقام هنا (عن الأستاذ عبد الجبار عبد الله).

الأرض خصبة للغاية، بحيث إذا زُرِعت في الصباح حُصِدَتْ في المساء، وأنّ هذا الملاك علَّم آدم الغرس والزرع وكُلَّ العلوم الأخرى اللّازمة.

وهذا الملاك صَنَعَ الكُرات السبع السفلى، أصغرها يصل إلى مركز الكون بالوجه الذي عليه السماوات. وكُلُها مرسومة الواحدة في داخل الأخرى، وهذه الكُرات تختلف في معدنها: فالأولى التي تلي المركز من الحديد، والثانية من الرصاص، والثالثة من الشبه، والرابعة من النحاس، والخامسة من الفضة، والسادسة من الذهب، والسابعة من التراب.وهذه الأخيرة تحتوي على جميع ما في غيرها من مواد، وهي رأس الكل كما أنها أكثرها خِصباً وثمراً للإنسان وأوفقها لحفظ الجنس البشري. أما الكرات الأخرى فالظاهر أنها صُنِعت لتحطيم البشرية. ويعتقدون أن فوق كل سماء ماء. ويستنتجون من ذلك أن الشمس تسبح في سفينة فوق الماء، وأن صاري تلك السفينة صليب، وأنَّ عدداً كبيراً من الغُلمان والخدم يقودون سفينتي الشمس والقمر. وعدا ذلك، فعندهم صورة قارب يقولون إنه للملاك باكان (Bacan) الذي يُرسله الله لزيارة الشمس والقمر ولرؤية ما إذا كانا يَتحرَّكان حركةً صحيحة أم لا.

أما بخصوص العالم الآخر والحياة الآتية [١]، فيعتقدون أن ليس من عالمٍ سوى

---

(١) بخصوص العالم الآخر يعتقدون أن هناك الجنة ويُسمُّونها «اله دنهودة» وترجمتها «عالم النور» كما هناك نار ويُطلَق عليها اسم «أورا» ويَتصوَّرونها مخلوقاً كبيراً يبتلع الأشرار. وبين الجنة والنار شيء ثالث هو ما يُسمّونه «المطراثي» أي المَطهر. وفي هذا المحل تُعذَّب الأرواح التي ارتبكت ذنوباً بسيطة ويكون عذابها لأمدٍ محدود ثم تنتقل من مواضعها في عالم النور. ويعتقدون أن ←

ذلك الذي يعيش فيه الملائكة والشياطين، فَتستقر معهم النفوس الصالحة والطالحة. وفي ذلك العالم مدنٌ وبيوتٌ وكنائس. وللنفوس الشريرة أيضاً كنائس تصلي فيها وتُرتِل وتحتفل بآلات الطرب، وهي تعيد كما في هذا العالم. وحينما يدنو الإنسان من ساعة الموت، يأتي ثلاثمائة وستون شيطاناً ويحملون روحه إلى مَحَلٍّ ملئ بالثعابين والكلاب والأسود والنمور والأبالسة. فإن كانت الروح لإنسان شرير، مَزَّقته تلك المخلوقات إرباً إرباً، وإن كانت لإنسانٍ صالح، فإن الروح تزحف تحت بطون هذه المخلوقات إلى حضرة الله الجالس على كرسي جلاله لإدانة العالم. وهناك أيضاً ملائكة توزن أرواح البشر في ميزان، فإن ظهر المرء صالحاً تَمَتَّع بالمجد حالاً. وهم يعتقدون أن الأبالسة رجال ونساء، وأنهم يتوالدون، وأن الملاك جبرائيل [١] وهو ابن الله، حَبلَ به من النور، وأن له بنتاً تدعى سوريت (Souret) لها ابنان. وأن بإمرة جبرائيل سبع فرق من الشياطين، هم بمثابة الجنود ورجال العدل، يبعث بهم من مدينةٍ إلى مدينةٍ ومن بلدةٍ إلى أخرى ليعاقبوا الأشرار.

«أورا» الذي يلتهم الأشرار يأتي من عالم الشياطين، وأن عالم النور مملوء بالملائكة الصالحين.(عن الأستاذ عبد الجبار عبد الله).

(١) يعتقدون أنّ الله لم يلد ولم يولد. وأن جبرائيل هو ابن أحد الملائكة الصالحين الذي يُسمّونه «مند أوهي» وليس ابن الله. ولم يكن لجبرائيل بنت، بل له ابن اسمه «إيثاهيل». ولا يعتقدون بأنه يتأثر بالشياطين كما يذكر المؤلف، ولكن هناك خرافات كثيرة بطلها جبرائيل، وحوادثها تدور في الجنة وفي بلد الشياطين، يمكنك الإطلاع عليها في كتاب «الكنزا» (عن الأستاذ عبد الجبار عبد الله).

أما عن الأولياء، فيعتقدون أن المسيح تلمذ إثني عشر حوارياً ليعظوا الأمم. وأنّ العذارء مريم ليست ميتة، إنما تحيا في مكانٍ ما في العالم على الرغم من أنه ليس مَنْ يقول أين هي. ويليها مار يوحنا وهو أعظم أولياء الجنة. ويليه زكرياء وإليصابات، ويروون عنهما كثيراً من الأعاجيب والأقاصيص المُزيَّفة. لأنهم يعتقدون أن هذين أولدا يوحنا بالمُعانقة فقط.ولما بلغ يوحنا مبلغ الرجال زوّجاه فوِلدَ له أربعة بنين، ولدوا فوق مياه الأردن. وهم يعتقدون أن يوحنا حينما ابتغى ابناً، صلّى إلى الله، فسحب له واحداً من الماء. وهكذا لم يبقَ لمار يوحنا من علاقة مع زوجه إلّا أن يعطيها الطفل لتربيه. وأنَّ يوحنا ماتَ ميتة طبيعية، ولكنه أمر تلامذته أن يصلبوه بعد وفاته تَشبُّهاً منه بالمسيح، وأخيراً يعتقدون بأنه ماتَ في مدينة فوستر [١] (Fuster)، وأنه دُفِنَ في جدثٍ بلوري جُلِبَ بأعجوبة إلى هذه المدينة، وأنّ قبره كان في بيتٍ ما قرب نهر الأردن.

وهم يُكرِّمون الصليب [٢] تكريماً بليغاً، ويُسمّون أنفسم به ويعنون كثيراً بإخفاء ذلك عن أعين الترك. وهم يُقيمون حارساً على أبواب كنيستهم في أثناء احتفالاتهم خوف أن يدخلها الترك فيفرضوا عليهم غرامة مُجحِفة. وبعد أن يفرغوا من تكريم الصليب يجعلونه قطعتين ولا يجمعون بينهما إلّا لأداة صلاةٍ ثانية.

---

(١) لعل المؤلف يريد بها مدينة «شوشتر».

(٢) هم يكرمون ما يُسمّونه «دربشة اد يهبه» أي علم يحيى، وهو في تركيبه يشبه الصليب وله كسوة من القز (عن الأستاذ عبد الجبار عبد الله).

إن تكريمهم الصليب بهذا الوجه، مُستمدٌ من كتاب عندهم عنوانه «الديوان» وَرَدَ فيه أن في صباح كل يوم، يأخذ الملائكة الصليب ويَضعونَه في وسط الشمس، فيقتبس ضياءه منها على نحو ما يفعل القمر (١) صورة سفينتين إحداهما تُسمّى «الشمس» والأخرى «القمر»، وفي كل من هاتين السفينتين صليبٌ مزدخر بالأجراس، وإذا خَلت السفينتان من صليبٍ يضمحل النور من الشمس والقمر، وتَتَعرَّض السفينتان للغرق.

وأعظم أعيادهم ثلاثة: أحدها في الشتاء، ومُدته ثلاثة أيام، وهو لذكرى أبوينا الأولين وخلق العالم. والثاني يقع في شهر آب وهو ثلاثة أيام أيضاً ويُعرف بعيد مار يوحنا. والثالث في حزيران ومدتُه خمسة أيام، يُكرِّر فيه الجميع تعميدهم. وهم يُعطِّلون في يوم الأحد فلا يعملون عملاً في ذلك النهار. وليس لهم صومٌ (٢) ولا توبة روحية، ولا كُتب مُنزَّلة، ولهم مما سواها غير كتاب لا يعالج غير السحر (٣)، وهم

---

(١) يعتقدون أن الشيء المُضيء في الشمس أو القمر هو «دربشة اديهبه» مشابه لما يَستعملونه. وعند المغرب يطوى من الشمس فتغيب ويفتح في القمر فيُشرق (عن الأستاذ عبد الجبار عبد الله).

(٢) يصومون عن اللحم ٣٦ يوماً مُقسَّمة بين أيام السنة (عن الأستاذ عبد الجبار عبد الله).

(٣) عندهم كتاب الكنزا، ويعتقدون أنه هو صُحف آدم بنفسها، ويختص بالفاتحة وبالوعظ وبصفات الخالق وكيفية إنشاء العالم. وعندهم كتاب«سيدرة نشماثه» ويعتقدون أنها أُنزِلت على آدم أيضاً، وهي الصلوات التي يقرأها الكاهن في حفلة التعميد وعندهم كتاب «الإنياني» وهو أناشيد تختص بالصلاة اليومية. وجميع هذه لا علاقةَ لها بالسحر. وهناك كتب كثيرة يُسمّونها «الدواوين» و«الشروح» وهي تفاسير لمسائل دينية مختلفة. والكتاب الوحيد الذي فيه شيء من التنجيم، هو الذي يُسمَّونه «أصفر ملواشة» أي «كتاب المروج» ولا يستعملونَه للسحر بل ←

يعتقدون أن كهنتهم في غاية التَمهُّر من هذا الأمر، وأن الأبالسة رهن إشارتهم. وعندهم أن النساءَ جميعاً غير طاهرات، وأنه لا حقَ لهُنَ مُطلقاً بدخول المعبد.

ولهم احتفالٌ ديني يُسمَّونه احتفال الدجاجة[١]، تجري فيه حفلةٌ كبيرة، لا يُقيمها إلّا كاهنٌ مولودٌ من إمرأة عذراء حين زواجها. فعند ذبح الدجاجة يخلع الكاهن رداءَه المُعتاد، ويضع عليه قطعة من الكتان، ويتأزر بثانيةٍ، ويرمي بثالثةٍ على كتفيه كالمنديل، ثم يأخذ الدجاجةَ ويُغطِّسها في الماء ليطهِّرها، ثم يتّجه صوب الشرق ويقطع رأسها ماسكاً بجسمها في يده إلى أن يستنزف آخر قطرة من دمها. وفي أثناء إنهراق دمها يرفع عينيه إلى السماء متوسِلاً. قائلاً بلغته الكلمات التالية: «بسم الله. أرجو أن يكون هذا اللحم مفيداً لَمَنْ يأكله». وهم يتبعون ذلك عند ذبح الشاة، فيغسلونها بالماء وينثرون عليها الأغصان. ويَشترك أكثرُ من واحدٍ من الناس في هذه الحفلة، حتى لكأن الذبيحة قُربان مُقدَّس. وإنْ سألتهم لِمَ لا يجوز شرعاً للرجل العادي ذبح الطيور؟ أجابوك أنه

لحساب طوالع الأشخاص واستنتاج أسمائهم الدينية. والسحر بمعناه المتداول مُحرَّم عندهم (عن الأستاذ عبد الجبار عبد الله).

(١) لا يُسمّى هذا «احتفال الدجاجة» كما ذكر المؤلف. ولا هو«احتفال» بالمعنى المعروف.بل إن أصول الذبح عندهم هي أن يلبس الذابح الرداءَ الديني المعروف بـ«الرسته»، وهو يتألف من قميص وسروال وعمامة وحزام وما يُسمّونه بـ«النصيفة» وجميعها بيضاء اللون. ثم تُغسل الذبيحة بالماء الجاري، ويذبحها الذابح مُستَقبِلاً الشمال لا الشرق، ولا يجوز مس الذبيحة بالأرض ولكن يجوز وضعها على القش المغسول بالماء. أما الشخص الذي يتَولّى الذبح فَكُلُّ رجلٍ سبق أن تَعمَّد، وليس محروماً من ممارسة الحقوق الدينية. ولهم أساليب وأنظمة كثيرة فيما يخص الحرمان (عن الأستاذ عبد الجبار عبد الله).

لا حقَ له بالصلاة عليها، فكيف يذبحها؟ وهذا كل ما يمكن أن يذكروه لك من أسباب.

أما عن الخلاص فيقولون: إنَّ الملاك جبرائيل بعد أن سوّى العالم بأمر الله، خاطب الله:«يا إلهي! انظر، لقد بنيت العالم كما أمرتني، فأوقعني ذلك في مَشقةٍ كبيرة، وكذلك جهد إخواني في رفع هذه الجبال الشامخة التي تبدو كأنها تسند السماء. ومَنْ بإمكانه أن يشق طريقاً للأنهار بين الجبال بلا أتعاب جمّة، ويضع كُلَّ في المكان اللّائق به: يا إلهي العظيم! بمعونة ذراعك القوية أقمنا دعائم العالم على نحوٍ ما ترى، فلا يفكر البشر في شيءٍ ما إلّا وجدوه فيه. ولكن عِوضاً عن الرضا والقبول اللذين نستحقهما بعد إنجاز هذا العمل العظيم، لم أجد إلّا ما يحزن ويُؤلم!». ولما طَلَبَ اللهُ منه عِلَّةَ ذلك، أجاب الملاك جبرائيل:«يا إلهي و أبي! سأقول لك ما يؤلمني. إنني بعد أن صَنعتُ العالم، تنبأت أن سَيَجلِهُ عددٌ هائلٌ من اليهود والتُرك (يقصد به غير المسلمين «البرابرة»)، أو من عَبدة الأصنام وغيرهم من الكافرين، أعداء اسمك الذين لا يستحقون أن يأكلوا أو يَتمتَّعوا بثمار جهدنا». فأجابه الله على هذا: «لا يخامرنَّك الحُزنُ يا بُني! سيسكن في هذا العالم الذي بنيت نصارى القديس يوحنا الذين سيكونون أصدقائي، وسُيخلِّصون جميعاً». عندئذ عَجب الملاك من كيفية تَحقَّق ذلك فقال: «ماذا؟ ألآ يقوم بين نصارى يوحنا خطاةٌ كثيرون؟ وبالتالي ألآ يصبحون أعداءك؟ فختم اللهُ كلامه معه بقوله في يوم الدين، على الصالح أن يُصلّي لأجل الطالح، وهكذا

يغفر لهم جميعاً وينالون الخلاص»[١].

ويَنفُر هؤلاء الصابئة من اللون الأزرق النيلي، بل لا يُلامسونه قط، وسبب ذلك أنَّ بعضَ اليهود حلموا بأنَّ شريعتهم سيبطلها مار يوحنا فأخبروا مواطنيهم بالأمر. فلما فَهِمَ هؤلاء ذلك ورأوا أن مار يوحنا قد استعدَّ لتعميد المسيح، بحثوا في حالة غضبهم عن كميةٍ كبيرةٍ من النيل ورموها في نهر الأردن. فتلوثَّت مياهُ النهر وبَقيت غيرَ طاهرة مُدةً، وكاد يتعرقّل تعميد المسيح، لولا أن الله أرسل ملائكته ومعهم إناء للماءٍ كبير، أمرهم بملئهِ من نهر الأردن قبل أن يُلوثه اليهودُ بالنيل. وكان من ثم أن الله لعن هذا اللون خاصّة.

(١) لم أطلع على هذه القصة. وأرجو أن تُؤخذ بتحفظ (عبد الجبار عبد الله).

[١١]

نص رحلة جان دي تيفينو

الرحلة من بندريق إلى البصرة

رسائل من والي البصرة

الأربعاء، ٢٧ تشرين الأول / أكتوبر ١٦٦٥: في صباح اليوم الذي وصلنا فيه إلى بندر ريق [١] أبحرت سفينةٌ من هناك نحو البصرة. وفي الوقت ذاته وصلت من البصرة سفينتان تحملان إلى الحاكم رسائل من والي تلك الولاية يطلب منه فيها إرسال إثنتي عشرةَ سفينةً مُحمَّلة بالجنود للدفاع عنه ضد الولاة السبعة الذين كانوا يستعدون لمهاجمته بأوامر من السلطان الأعظم [٢]، بسبب عدم امتثاله لبعض أوامر الباب العالي. فأزعجتنا هذه الأخبار كثيراً. ومع ذلك، قررنا الذهاب إلى البصرة مهماً كلف الأمر، واتفقنا مع ربّان إحدى السُفن أن ندفع له خمسة عشر عباسياً عن سعادة الأب رئيس الرهبنة وعني وعن ثلاثة خدم. لكن لابد أن أذكر شيئاً عن تلك السُفن أولاً.

---

(١) بندر ريق، كلمة تتكوّن من مفردتين هما: بندر التي تعني بالإيرانية ميناء، وريق.

(٢) هو السلطان مصطفى الثاني (١٦٤٨ – ١٦٨٧م).

سفن بندر ريق

إنّ هذه السُفن كبيرةٌ وتشبه السُفن المصرية إلى حدٍ كبير، ليس فيها متنٌ، وهي مدوَّرةٌ من الداخل. وكان طول السفينة التي أقَلَّتنا أكثر من ست قامات وعرضُها قامتان. وكذلك عمقها. وفي مؤخرتها غطاءان صغيران على شكل غرفتين صغيرتين واحدة فوق الأخرى؛ وموضعُ مدير الدفة فوق الغرفة الثانية. أما الغرفة السفلية فلا يعزلها سوى حاجز من جريد النخيل وُضِعت فوقه أعمدة بشكلٍ متقاطع. وفي مقدمة السفينة غطاءٌ أيضاً. ومُؤخَّرة السفينة أعلى من مقدمتها، ولكن حافتها حادةٌ مثل المقدمة. والصاري عالٍ وواسع، وعارضته منتظمةٌ، والشراع ضخمٌ. وعلى كل جانب أربعة مجاديف، أي أربعة أوتاد طويلة، رُبِطَ في طرف كلٍّ منها لوحٌ خشبيٌ طوله نحو قدم ونصف القدم وعرضه نصف قدم، بواسطة ثلاثة حبال.

عدم استخدام الحديد في السفن

لكن الغريب في هذه السُفن عدم استخدام أي قطعة حديد في صناعتها. صحيحٌ أن في سفننا مرساة من الحديد، لكن الغريب في تلك السُفن أن كُلُّها من الخشب. ويتمّ تثبيت الألواح الخشبية بعضها ببعض بواسطة حبال صغيرة يتمُّ إدخالها عبر الثقوب الموجودة فيها. ولضمان ربطها بشدة وإبقاء الحبال مشدودةً بقوة، يتمُّ إدخال أوتاد خشبية في هذه الثقوب أيضاً، فتضغُط على الحبال الصغيرة بقوة، لأنها تُوضَع في داخل مفاصل ألواح مزدوجة أو مفتولة بسُمكٍ يبلغ نحو ثلاثة أصابع، يتمُّ تثبيتها بين اللوحين بحبالٍ من النوع ذاته. ومن هذه الحبال يُوجَد حبلٌ عند كل مفصل من هذه

الألواح، من أعلى السفينة حتى أسفلها، وفوقها حزام أيضاً يحيط السفينة للمحافظة عليها. وكل تلك الحِبال مصنوعةٌ من لحاء النخيل، وذلك لأنّه لا يتأثر بالماء. وحتى لا تُثقب السفينة يتمُّ تغليفها بالقار كلياً.

عدم استخدامهم البوصلة

أخيراً، فإن لإستخدام البوصلة في هذه السُفن فائدةٌ كبيرة، لكنهم لا يستخدمونها، فهم يسيرون على مقربةٍ من اليابسة، ويسترشدون بالنجوم في أثناء الليل. ومع ذلك، قال لي البحّارة بأنَّ تكلفة سفينتنا عشرون تومناً. وينبغي أن لا نَستغربَ، فالخشب باهظ الثمن في كل من بندر ريق والبصرة، كما أخبروني بأنَّ الحمولة الإعتيادية لهذا النوع من السُفن هو أربعمئة بالة من التمر، وأن كل بالة تزن إثني عشرَ مَنّاً في تبريز. لذا فإنَّ تلك السُفن تحمل، طبقاً لتلك الرواية، أربعة آلاف وثمانمئة مَنّاً فارسياً، أو ما يعادل (٢٨,٨٠٠) ليرة، أو(٢٨٨) قنطالاً، والقنطال الواحد يساوي مئة ليرة، والليرة الواحدة تساوي نحو نصف كيلو غرام في فرنسا.

الفُرسخ

الخميس، ٨ تشرين الأول / أكتوبر: في هذا اليوم تمّ إبلاغنا بالتوجه إلى السفينة، فذهبنا مشياً على طول الساحل إلى سفينتنا التي كانت تبعد نصف فرسخ، (أو فرسنخ أو پرسنخ)، فكلها تحمل المعنى ذاته. وعند منتصف النهار ركبنا السفينة فوجدناها فارغةً، لأنها كانت مُخَصَّصةً لنقل التمور من البصرة فقط، وكان لدينا حجرة ملائمة، لأنهم يحمّلونها بالسلع بإرتفاع حافة السفينة. وكان على ظهر السفينة ثمانية بحّارة،

فضلاً عن الربّان. فأبحرنا بمجرد صعودنا فيها بمساعدة إثنين من مجموعتنا نزلا إلى البحر حتى بطنيهما وقاما بسحبنا، أما الآخرون فكانوا يجدِّفون. وبعد ثلاث ساعات توقفنا عند مكان في الجهة اليمنى من البر لإبعاد الحصى عن طريقنا. فقام البحّارة بتثبيت خمسين قُفّةً، أو سَلَّة، في مقدمة السفينة ومثل هذا العدد في مؤخرتها، ثمّ رفعوا الصاري وثَبَّتوا الحِبال. وعند الساعة السادسة مساءً أتمّوا العمل وأبحرنا بمساعدة رياح شرقية نحو الجنوب الغربي. وسرعان ما خرجنا من هذا المضيق الطويل الذي يَتَجِّه مَصبُّهُ نحو الجنوب الغربي، مبقين على اتجاه سيرنا ذاته، فاختفى عن أنظارنا مشهد اليابسة على الميمنة، إلّا أننا لا نزال نشاهد اليابسة على المَيسرة حتى اختفت عن نواظرنا بسبب عتمة الليل. وطوال الليل كُنّا نسلك الطريق الجنوبي الغربي حيناً والشمالي الغربي حيناً آخر، وغالباً ما كانت الرياحُ تَضرُب السفينة، لكنها خفيفة وهادئة تقريباً.

بندر ديلام

الجمعة، ٩ تشرين الأول / أكتوبر: عند مطلع الفجر شاهدنا اليابسة القريبة من جهتنا اليمنى، فتوقَّفنا حتى الساعة العاشرة صباحاً تقريباً، عندما هَبَّت عاصفةٌ جنوبيةٌ غربيةٌ أبعدتنا عن الشاطيء قليلاً، فَتوجَّهنا بإتجاه شمالي غربي. وقد ساعدتنا تلك العاصفة على قطعِ شوطٍ مهم من طريقنا، حتى أصبحنا قريبين من بندر ديلام[١] عند

(١) يقع بندر ديلام شمالي بندر ريق في الجانب الشرقي للخليج العربي، وهو أهم مرسىً للسفن الصغيرة في الساحل الشمالي للخليج العربي.

الساعة الواحدة بعد الظهر. وفي نحو الساعة السادسة مساءً وصلنا إلى قطعة أرض صغيرة يُقال إنها تقع في منتصف الطريق ما بين بندر ريق والبصرة. لكن في نحو الساعة السابعة والنصف تَحوَّلت الرياح فجأةً إلى رياحٍ شمالية غربية، فطوينا الشراع وألقينا المَرساة في البحر، وكنا مُنزعجين قليلاً طوال الليل بسبب ذلك.

السبت، ١٠ تشرين الأول / أكتوبر: عند الساعة السادسة والنصف من صباح اليوم التالي رفعنا المَرساة وأبحرنا، مع أن الرياح لا تزال شماليةً غربيةً، فتوجهنا نحو الجنوب الغربي. وفي نحو الساعة الثامنة كان لون مياه البحر قد تَحوَّل إلى أبيض، فسألتُ عن سبب ذلك، فأجابني البحّارة بأنَّ السبب ضحالة مستوى الماء. والحقيقة أن عمق الماء كان لا يزيد عن قامة واحدة، مع أننا كُنّا على مسافةٍ لا بأس بها من اليابسة. ولكن بعد وقتٍ قليل، حينما لاحظتُ بأنَّ عمق الماء أصبح أربع قامات ولا يزال لونه أبيض، سألتهم مرةً أخرى عن السبب، فلم يجيبوني سوى بأنه هكذا دائماً في هذا المكان.

هنديجان

ومع استمرار هبوب الرياح الشمالية المعاكسة لنا، ألقى البحّارة المَرساة. وكان اتجاه اليابسة يَتحوَّل في هذا المكان نحو الشمال، ثمّ يَتحوَّل مُجدَّداً نحو البصرة، مُشكِّلاً خليجاً أشبه بنصف دائرة. وعند المكان الذي رَسونا فيه نزلنا إلى اليابسة، لكنه كان مُعتِماً جداً بسبب كثافة الغيوم. وبعد استفساراتٍ وأسئلة كثيرة عَلِمتُ من الربّان بأننا

أمام مصب نهر يُسمّى هنديجان (١)، كما يقول، ويمر عبر قرية تُسمّى هنديجان أيضاً (٢) تضمُّ عدداً كبيراً من البيوت المُبعثَرة، فعشرون بيتاً هنا وثلاثون بيتاً هناك، كُلُّها منتشرة على ضفاف هذا النهر. وتبلغ المسافة من بندر ديلام إلى قرية هنديجان رحلة ثلاثة أيام.

وقرية هنديجان تابعةٌ لحاكم شيراز، وهذه تبعد عن البحر مسافة خمس أو ست ساعات. ونهر هنديجان قريبٌ من البحر، ويبلغ عرضه نصف عرض نهر دجلة عند البصرة. وهذا كل ما استطعت الحصول عليه من هذا الرجل، وهو ليس قليلاً، لأنَّ الحصول على معلوماتٍ كثيرة منه يستغرق وقتاً طويلاً إذا ما أخذنا بنظر الإعتبار صعوبات الحصول على معلوماتٍ دقيقة عن هذه البلاد. وينبغي أن لا نستغرب من ذلك، فالخرائط التي بحوزتنا مليئةٌ بالأخطاء، ومعظمها قد رُسم استناداً إلى روايات

---

(١) وَرَدَ في النص بصيغة(Endian) :وهو نهر هنديجان الذي يصب مياهه في الخليج العربي.

(٢) منطقة في إيران تُسمّى التميمية وتعرف اليوم بالهنديان، أو كما أطلق عليها الفرس اسم هنديجان، وتقع على نهر زهرة الذي يُسمّيه الفرس نهر الهنديجان. تسكنها عشائر عربية أصيلة من بني تميم. وعَمَدَ الفرس إلى تغيير تسميتها، كما عمدوا إلى تبديل الأسماء العربية للمدن والقرى والمناطق إلى أسماء فارسية. فأبدلت الناصرية إلى أهواز والمُحمّرة إلى خرمشهر وجزيرة النجدي (صلبوخ) إلى جزيرة مينو ومنطقة القصبة إلى رود كنار والأحواز إلى خوزستان. وقد وَرَدَ ذكرها لدى ياقوت الحموي أيضاً، إذ قال إنها: هِنْدُوَان: تقع بخوزستان بعد آسَكَ، بينها وبين أرجان قرية تُعرف بهنديجان، ذات آثار عجيبة وأبنية عالية، وتُثار منها الدفائن كما تثار بمصر، وبها نواويس بديعة الصنعة وبيوت نار، ويُقال إن جيلاً من الهند قصدت ملك الفُرس لتزيل مملكته، فكانت الوقعة بهذا المكان، فغلبت الفرسُ الهندَ وهزمتهم هزيمة قبيحة، فهم يتبركون بهذا الموضع. انظر: معجم البلدان، ج ٥، ص ٨١٤.

أشخاص لا يعرفون اللغة، وواجهوا صعوبةً في التَحقّق منها من أهالي تلك البلاد، فكانوا يتفاهمون بالإشارات أو ببعض الكلمات التي سمعوها من هنا وهناك، فيستبدلون كلمةً بأخرى.

وعند الساعة السابعة والنصف مساءً رفعنا المَرساة واستأنفنا رحلتنا، وكنا نستدير يميناً تارةً وشمالاً تارةً أخرى. لكن الرياح اشتدت عند منتصف الليل، فقام البحّارة بطوي الشراع وألقوا المَرساة في الماء بعمق ست قامات ونصف القامة. وكنا نَتطوَّحُ بشدة طوال الليل، وكنتُ مستغرباً من عدم انشطار السفينة بسبب لطمات الأمواج القوية المُستَمرة.

الأحد، ١١ تشرين الأول / أكتوبر: رفعنا المَرساة في نحو الساعة السابعة صباحاً، ولا تزال الرياح تضربنا من الجنوب الغربي إلى الشمال الشرقي حتى الظهر حينما هدأ الجو. وأخيراً، وفي نحو الساعة الثانية والنصف بعد الظهر، هَبَّت نسائمٌ جنوبيةٌ غربيةٌ هادئة، فرفعنا المَرساة بسرعة واستأنفنا طريقنا نحو الشمال الغربي. ومن الملاحظ أننا، طوال الرحلة، لم نمر بمياه يزيد عمقها على قامتين، أو ثلاث، أو أربع، أو ست قامات كحدٍ أقصى، مع أننا كُنّا بعيدين جداً عن البحر، بحيث كُنّا لا نستطيع رؤية البر إلّا على شكل غيوم. وفي نحو الساعة السادسة مساءً توقفنا لِقلّة الرياح، وألقينا المَرساة وعند منتصف الليل هَبَّت عاصفةٌ شماليةٌ غربيةٌ باردة.

الكارون ـ شوشتر ـ خوزستان ـ أحشويرش

الإثنين، ١٢ تشرين الأول / أكتوبر: صباح هذا اليوم استَمرَّت الرياح لمدةٍ

طويلة ولم تتغير، فرفعنا المَرساة عند الساعة الثامنة والنصف وأبحرنا نحو الجنوب الغربي، ثمّ توقفنا فجأةً. وقُبيل الظهيـرة قام بحارتنا بالتجديف قليلاً. وبعد نصف ساعة هَبَّت نسائم جنوبيةٌ غربيةٌ هادئة، فبقينا نبحر نحو الشمال الغربي حتى الساعة الثالثة عصراً حينما دخلنا نهر الكارون الذي ينبع من الجبال التي تمتد إلى الشمال من مدينة شوشتر، عاصمة مدينة خوزستان، التي كانت تُسمّى مدينة سوسة سابقاً، حيث يقيم أحشويرش.

خواسبيس ـ تيريباري ـ زيماري

ونهر الكارون هو النهر ذاته الذي كان يُسمّيه الأقدمون خواسبيس [١]. وقد تأكَّدتُ من ذلك بنفسي، إذ لا يزال جبلٌ يُسمّى خواسب حتى الآن بالقرب من مدينة شوشتر، ومنه ينبعُ نهر الكارون الذي أَطلقَ عليه سانسون تسميات: تيريباري وتيريتيري وزيماري. لكني لا أعرف إلى أي أساس استند في إطلاق تلك التسميات، فليس بإمكان أي شخص إعطائي أي شيء عنها، مع أني سألتُ الكثيرين، فأجابوني بعدم معرفتهم شيئاً من هذا القبيل.

---

(١) وَرَدَ في النص بصيغة. (Khoaspes) راجع ما وَرَدَ عنه من معلومات في رحلة السير توماس هربرت. انظر: أنيس عبد الخالق محمود، العراق وملاحظات شرقية في رحلة توماس هربرت سنة ١٦٢٨، المؤسسة العربية للدراسات والنشر، بيروت، ٢٠١٣، ص ٥٥–٥٧.

دورقستان ـ قيبان

ومن الجهة اليمنى بإتجاه الغرب ثمّةَ جزيرة تُسمّى دورقستان [١]. ومن الجهة اليسرى بإتجاه الشرق تُرى جزيرة قيبان، ويُسمّى موقعها مُحلّة؟ [٢] وقيبان لأنَّ جميع المنطقة التي تُسمّى قيبان، وهي تشكل حدود مملكة البصرة من تلك الجهة [٣]. وإلى الجهة اليسرى من ذلك المكان جذع نخلة مثبتٌ في الأرض كنقطة دالة عندما يرتفع منسوب المياه، فلا يتجاوزها أحد. وتُسمّى هذه العلامة جيودو، وهذه الأرض، من

---

(١) دورقستان، أودورق: مستنقعاتٌ ضحلة تقع غربي خور موسى تتخللها خلجان صغيرة، وتمتد إلى خور بهمشير الذي يبعد عنها نحو(١٨) ميلاً. ويُشكّل خور سيف النقطة الجنوبية له، وخور سلايك بحري (Silaik Bahri) إلى الغرب مباشرةً من بو سيف. ويبلغ مستوى المياه عند مدخله نحو ستة أقدام، ويُقال إنه يرتبط بنهر القرنة. أنظر: Persian Gulf Pilot: Comprising the Persian Gulf, the Gulf of Oman, and the Makran Coast, Washington, 1920, pp. 276-277.

أما وليم سنكلير فقد ذكر في تعليقه على هذا الموقع أن المقصود به نهر المقطع في الأحواز، أو ربما في الحويزة، ويلفظ دورق، أو الفلاحية. انظر ترجمته لرحلة بيدرو تيخيرا، ص ٢٦، هـ. للتفاصيل: رحلة بيدرو تيخيرا، ص ٣٠. وسبق أن ذكرها ياقوت الحموي أيضاً بصيغة دورقستان، وقال عنها: هذه بُليدة رأيتها أنا، ترفأ إليها سفن البحر التي تَقدِم من ناحية الهند، وهي على ضفة نهر عسكر مُكرم تتصل بالبحر، لا طريق للمراكب الواردة من كيش إلّا إليها، فتمضي على طريق أخرى وهي طريق عبادان، وإذا أرادوا الرجوع لا يهتدون لتلك الطريق بسبب يطول ذكره، فيقصدون طريق خوزستان لأنَّ هورها متصلٌ بالبر فهو أيسر عليهم. انظر: معجم البلدان، ج ٢، ص ٤٨٤.

(٢) وَرَدَتْ في النص بصيغة (Mouële)، ولم نستدل على مكان أو لفظ الاسم بدقة.

(٣) ثمّة سبب وجيه لإعتقاد الرحّالة بأنّ البصرة مملكة، كما سنرى لاحقاً.

كلا الجانبين، خاضعةٌ لوالي البصرة.

الطريق إلى البصرة

يمرُّ الطريق الإعتيادي إلى البصرة من البحر إلى مصب شط العرب، الذي يتمُّ الدخول إليه إبحاراً إلى البصرة، ولكننا دخلنا النهر لأنَّ ملّاحينا (الذين لم يكن لديهم عملٌ في البصرة) لم يأتوا إلّا لتحميل التمور، فخدعونا وأبلغونا بأنَّ علينا أن نذهب إلى قيبان للتزود بالماء العذب والحَطَب، وأن هذا الطريق هو أقصر الطرق نحو البصرة، ولا يمكن للسفن الكبيرة المرور فيه لأنّه ليس عميقاً بما يكفي، فصدّقنا كلامهم بسهولة. لذا، فحينما دخلنا النهر رسونا على عمق قامة واحدة. وعند الجزْر تكون مياه النهر عند هذا المكان قليلة الملوحة جداً، فإذا ارتفعت قليلاً تكون عذبةً حتى في أثناء المد. وحينما حلَّ منتصف الليل [١] وارتفع المدُّ، قام رجالنا بالتجديف، لكنهم لم يستمروا بالتجديف لأكثر من ساعة واحدة، ثمّ ألقوا المَرساة مجدداً. وقد بَدت المنطقة كُلُّها خصبة ومستوية وواطئة وخضراء هنا من جميع الجهات، وشاهدنا الكثير من الأبقار تسرح في المراعي التي تشبه مراعي هولندا كثيراً.

خداع الملاّحين

الثلاثاء، ١٣ تشرين الأول / أكتوبر: في نحو الساعة العاشرة صباحاً نَزَلَ رجَالُنا

---

(١) المفترض أن يُحدد الرحّالة تأريخ اليوم (١٣ تشرين الأول / أكتوبر)، من هنا، لأنه حديثه بدأ عند منتصف ليلة اليوم المذكور.

إلى الشاطيء، وظلّوا يسحبوننا حتى الساعة الواحدة بعد الظهر، حتى أصبحنا أمام قرية يكثر فيها النخيل، فرفعنا الشراع، بعد أن هَبَّت رياحٌ شماليةٌ غربيةٌ لم تستمر طويلاً. وذهب رجالنا إلى اليابسة لسماع أخبار البصرة، بحسب زعمهم، وعادوا مساءً ليقولوا لنا إن الفوضى ضاربةٌ أطنابها في البصرة، وإن الوالي ذَهَبَ بكامل جيشه نحو بغداد، وإن السُفن قد صُودِرت لنقل الجنود، وليس بمقدورهم المضي قُدُما، فقرروا العودة صفر اليدين إلى بندر ريق. وكان هذا كله كذباً في كذب، فالواقع أنهم كانوا لا يريدون الذهاب إلى أبعد من ذلك، وكانت ينوون أخذ حمولتهم من المكان الذي نحن فيه، ولهذا استدرجونا إلى هذا المكان، حيث تكثر التمور بكمياتٍ كبيرة. ومع ذلك، كان علينا أن نتظاهر بتصديق كل أكاذيبهم، وأن نحاول العثور على سفينةٍ أخرى تنقلنا إلى البصرة.

الأربعاء، ١٤ تشرين الأول / أكتوبر: في اليوم التالي أرسلنا خدمنا للعثور على سفينة، فَتمكّنوا من العثور على سفينةٍ صغيرة، تَعهَّد لنا رجالها بنقلنا إلى المدينة خلال أربع وعشرين ساعةً مقابل ست عباسيات، فأعطيناهم المبلغ.

سفنٌ على نهر الكارون ـ تزفيت الدانق

إنّ هذه السُفن ذات قَعرٍ مُسطَّح، ويبلغ ارتفاعها نحو قامة واحدة، وعرضها قامة ونصف القامة، وطولها نحو خمس قامات. ومقدمتها واطئة جداً ومؤخرتها مرتفعة، وقمّتها عالية أيضاً، وطرفاها مدببان مثل طرفي زوارق الجندول في البندقية. وهذه السُفن ليست مجلفظةً، وإنما مطليةً بالقار من الخارج فقط، بالطريقة التالية:

عندما يريدون تزفيت الدانق (وهو اسم هذا النوع من القوارب باللغة العربية)، بالقار، يقومون بعمل فرنٍ داخل الأرض على بُعد عشر خطوات أو إثنتي عشرة خطوةً من الدانق، يكون الجزء العلوي منه أشبه بمرجلٍ يصبّون فيه القار، والنار من تحته. وعندما يُوشك القار على الذوبان، وقبل أن يَتحوَّل إلى سائل، يَتقدَّم رجلٌ وبيده مضربٌ خشبي ويغمسه فيه، ويلقي رجلٌ آخر بعض هذا القار عليه، ثمّ يُوضَع الماء على القار الذي يُحمل إلى الدانق، ثمّ يُمزج القار بقطعةٍ خشبية دون أن يَعلَق بها. ومَن يعمل على الدانق يأخذ القار بيده وينثره مثل الجص على الدانق، ثمّ ينشره على المركب بواسطة أسطوانة غير مُدوَّرة تماماً. وبهذه الطريقة يتمُّ طلاء الدانق كُلَّه من الخارج [١].

---

(١) وَرَدَ وصف الدانق لدى رحّالة آخرين، ومنهم رالف فتش الذي ذكر أن أهل مدينة هيت يقومون بطلاء قواربهم من الخارج بالقار بسمك بوصتين أو ثلاث بوصات حتى لا يَتسرَّب الماء إلى داخلها، وتُسمّى تلك القوارب دوانق. انظر: رحلة رالف فتش من حلب حتى البصرة؛ ضمن ترجمتنا: رحلات بين العراق وبادية الشام خلال القرن السادس عشر، المؤسسة العربية للدراسات والنشر، بيروت، ٢٠١٣، ص ١٦٢. انظر أيضاً ما ذكر بيترو ديللافاليه مشاهدته في البصرة: وينتقل الناس بالقوارب في هذه القنوات من بيت إلى آخر، ويطلقون على هذه القوارب اسم دانك انظر: رحلته، ترجمة: بطرس حداد، بغداد، ٢٠٠١، ص ١٢٩– ١٣٠. وقد وَرَدَ ذكره أيضاً في رحلة سبستياني، الذي زار العراق سنة (١٦٥٦)، ووَرَدَ في التعليق الذي كتبه الأب بطرس حداد، الذي يكتبه بصيغة دانك، ما يأتي: الدانك ضربٌ من السفن الشراعية، يجمع على دوانيك، وجمعها دوانيج ... انظر: رحلات سبستياني إلى العراق في القرن السابع عشر، ترجمها عن الإيطالية: بطرس حداد، المورد، المجلد التاسع، العدد الثالث، بغداد، ١٩٨٠، ص ١٧٧. والمعروف أن الدانق يعني مقداراً قليلاً من الحبوب، إلخ. ولكن الدكتور هيلموت ريتر، في مقال له نشر في مجلة العالم الإسلامي الألمانية مقالاً عن وسائط النقل النهري ←

وهذه السُفن متينةٌ جداً، إذ يبلغ سُمك جوانبها نحو قدم، وجميع ألواحها مُسمَّرةٌ بمسامير ضخمة كالمسامير المستخدمة في البوابات بفرنسا، ولها صارٍ ضخم. والحقيقة أن هذه السُفن ثقيلةٌ جداً، ولاسيما وسط الماء، حينما لا يكون استخدام الشراع ممكناً، إن لم تكن هناك رياحٌ تدفعها من الخلف. ومع ذلك، فهُم يُحمِّلونها حمولاتٍ ثقيلةً جداً، مع أن غاطسها في الماء لا يزيد على نصف قدم.

أبحرنا على إحدى هذه السُفن في نحو الساعة الثالثة والنصف عصراً، وكانت مليئةً بنوعٍ من القصب الأخضر الطويل جداً، له رأس رفيعٌ في طرفه، وتُصنع منه حصرانٌ جميلةٌ جداً. وكان طاقمنا يَتكوَّن من بحّارين إثنين وربّان، فبدأ البحّاران بسحبنا على البر وبقيا يسحباننا حتى الساعة السادسة والنصف، حينما وصلنا أمام قرية إلى جهتنا اليسرى، فرسونا بالقرب منها، وأفرغ رجالُنا كُلَّ القصب ثمّ ذهبوا إلى القرية ولم نرَهم إلّا في اليوم التالي.

في نهري دجلة والفرات، ووصف الدانق بأنه قاربٌ مطلي بالإسفلت ذو جؤجؤ عالٍ، يُستخدم بين القُرنة وعلي الغربي. انظر: Hellmut Ritter, Der Islam, Strasburg, 1919, vol. Ix, p. 138.

ويظهر وصف الأب كاريه للدانق (١٦٧٤) مُشابهاً للبلم الذي لا يزال يُستخدَم في نهر دجلة، ويقول عن الدانق بأنه قارب صغير وضيق جداً وواطئ، يبلغ طوله نحو ثلاثين قدماً. قارن وصف البلم الذي أورده موبرلي، إذ يقول: الأبلام طويلة ونحيفة، تشبه إلى حد ما الجندول البندقي، ويبلغ طولها نحو عشرين قدماً، وعرضها ثلاثة أقدام، وهي تُستخدَم لنقل المسافرين والبضائع الصغيرة.

John F. Moberly, Official History of the Great War, The Campaign in Mesopotamia, vol.I, p. 130.

كوت معان

وهذه القرية كبيرةٌ، وفيها قلعةٌ مُربَّعةٌ فيها ثمانية أبراج، في كل زاوية برجٌ، وفي وسط كل جبهةٍ برجٌ، وكلها مبنيةٌ بالطين غير السميك، حتى أن إطلاقةً مزدوجةً من البندقية كفيلةٌ بهدمها وتسويتها بالأرض. وهذا المكان يُدعى كوت معان[١]، أي قلعة معان التي تُصنع فيها الكثير من الدوانق. وتمتد بلدة قيبان من هناك حتى مصب نهر الكارون. وتُسمّى الأراضي الواقعة على ضفتي النهر، المُمتَدة على طول تلك المسافة، قيبان، وتربتها جيدة جداً، فلو زُرعت فستنتج أي شئ، ولكنها مُهملةٌ بسبب كسل السكان الذين اكتفوا بتمورها، إذ تُوجَد في هذه المنطقة غاباتٌ كثيرةٌ من النخيل.

دورقستان ـ كوت شمال

الخميس؛ ١٥ تشرين الأول / أكتوبر: غادرنا كوت معان عند الساعة الثامنة والنصف صباحاً، وانتقلنا إلى الجهة الأخرى من النهر حيث تَوجّه ملاحونا إلى الشاطيء لسحبنا، وكان اتجاه سيرنا شمالياً غربياً. وفي هذا المكان يتّسع النهر بشكلٍ كبير، وأعتقد أن عُرضه هنا بعُرض نهر السين في باريس، بيد أنه عميقٌ جداً، وتنتشر فيه الكثير من الجُزُر.

---

(١) وَرَدَتْ في النص بصيغة (Koutmian)، وربما يكون الاسم كوت معان أو كوت ميان. للتفاصيل عنها انظر: Dejanirah Couto, Atlas Historique du Gulfe Persique (XVIe- XVIIIe siècles), 2006.

وفي نحو الساعة الحادية عشرة توقّفنا عند قرية تقع عند ضفة النهر، على جهتنا اليسرى، وغادرناها عند الساعة الواحدة بعد الظهر. وفي نحو الساعة التاسعة والنصف مساءً شاهدنا طرف جزيرة دورقستان، على جهتنا اليمنى، وهي تمتد من هنا حتى البحر. وتَوقّفنا أمام قلعة تُسمّى كوت شمال، وهي تقع على اليابسة، بالقرب من طرف تلك الجزيرة على الجهة ذاتها. وهذه القلعة كبيرةٌ جداً، ولوالي البصرة قصرٌ فيها، قِيلَ لي بأنه جميلٌ جداً. ويقول البعض بأنه يحتفظ بكنزه فيه· ومقابل هذه القلعة، إلى الشمال قليلاً لكن في الجهة الأخرى من النهر، ثَمّةَ قلعةٌ مربعةٌ أخرى، لها برجٌ في كل زاوية·

الجمعة، ١٦ تشرين الأول / أكتوبر: غادرنا هذا المكان عند الساعة السادسة صباحاً، وكانت الرياح غربيةً، فنشرنا أشرعتنا وتَوجَّهنا نحو الشمال الغربي. وعند الساعة الحادية عشرة والربع مَرَّرنا بالقرب من قلعةٍ مُربَّعة تُسمّى كوت منيثيل (١)، كانت على جهتنا اليسرى، وتحيطها ثمانية أبراج، برجٌ في كل زاوية، وبرجٌ في كل واجهة، وبالقرب منها جدولٌ صغير. وإلى الأبعد قليلاً شاهدنا بيتاً من القش يعيش فيه موظفو الكمارك الذين لم يزورونا، وإنما أمروا ربّان سفينتنا بنقلنا إلى كمرك البصرة.

غادرنا نهر الكارون ودخلنا قناةً تُدعى الحفّار التي كانت على جهتنا اليسرى، أو إلى الجنوب الغربي منا. وعند ذلك المكان لا يزيد عرض النهر على قامتين، وأقل من

(١) وَرَدَتْ بصيغة (Kout-Mnethel)، ولم نَتحقَّق من صحة لفظ الاسم، فكتبناه كما وَرَدَ في النص.

ذلك في أماكن أخرى، لكنه عريضٌ جداً عند الوسط. وقد قام الإنسان بحفر هذه القناة لربط شط العرب بنهر الكارون. والأرض على كلا جانبي القناة صالحةٌ للزراعة، لكنها غير مزروعة إلّا بالنخيل الذي ينتشر فيها بكثرة. وفي هذه القناة تعرجاتٌ كثيرةٌ، وهي عميقةٌ جداً وقد دفع ملاحونا السفينة نحو الأمام بالأوتاد.

كوت منيشيل ـ الحفّار وكوت حفّار

وفي الساعة الثانية عشرة وثلاثة أرباع الساعة بعد الظهر شاهدنا، على جهتنا اليُمنى، قناةً تلاشت مياهُها في الحقول. وبعد ذلك بقليل شاهدنا على يسارنا قناةً أخرى تصبُّ في نهر الكارون بالقرب من كوت منيشيل كما ذَكَرتُ في أعلاه. بعد ذلك، ذهب ملاحونا إلى الشاطيء ليسحبونا، وهناك تتسع قناة الحفّار كثيراً جداً، ليبلغ عمقها عند نهايتها أكثر من سبع أو ثماني قامات. وفي نحو الساعة الرابعة شاهدنا عن يميننا قناةً تلاشت في الحقول. وبعد نصف ساعة مررنا بين قلعتين مربعتين، في طرف كل منهما برجٌ، وبرجٌ وسط كل جهة، واسمهما كوت حفّار أي قلعة حفّار، لأنهما تقعان في طرف قناة الحفّار التي يقع مصبها جنوباً بمسافة ستة فراسخ من هنا إلى البصرة، ونحو إثني عشر فرسخاً عن البحر. ثمّ دخلنا النهر المُكوَّن من إلتقاء نهري دجلة والفرات، الذي يُسمِّيه العرب شط العرب، أي نهر العرب[1].

---

(١) إن تسمية هذا النهر باسم شط العرب لم تظهر إلّا في النصف الثاني من القرن الحادي عشر الميلادي، وإن أول من أطلق عليه اسم شط العرب هو الرحّالة الفارسي ناصر خسرو(١٠٠٣-
←

جزيرة چادر

توجهنا يميناً، ثمّ توقفنا إلى الشمال الغربي، وكانت جزيرة چادر إلى يسارنا. وبعد أن هَبَّت نسائمُ جنوبيةٌ، نشرنا شراع سفينتنا. وعند الساعة الخامسة والنصف مساءً شاهدنا، على جهتنا اليسرى، طرف جزيرة چادر التي تمتد عبر القناة التي تصل البحرين بمصب شط العرب. وفي هذه الجزيرة يكثر النخيل، مع أن التربة غير صالحة للزراعة. ولكن من قناة البحرين حتى أمام قناة الحفّار أو فوقها بقليل، تكون الأرض قاحلةً، ربما لأنها منخفضةٌ جداً وتغمرها مياه البحر كلياً عند ارتفاع المدّ.

وبعد جزيرة چادر شاهدنا، على جهتنا اليسرى، القناة المؤدية إلى مينائي القطيف والبحرين، فهي تجري بإتجاه الجنوب وتمرُّ بين جزيرة چادر والبصرة. وهي عريضةٌ جداً، ويبلغ عمقها أكثر من ثماني قامات، لكن هناك صخوراً كبيرةً في كثير من أماكنها. ومن هناك حتى البصرة يبلغ عُرض النهر ضِعف نهر السين في باريس بمرتين ونصف المرة، لكنه عميقٌ جداً في كل الأماكن.

١٠٦٥م). فقد قام هذا الرحّالة برحلةٍ مستفيضة في كل من إيران ومصر وسوريا والعراق وفلسطين، ودَوَّنَ مشاهداته عن هذه البلاد في رحلته تلك والتي ترجمها الدكتور يحيى الخشاب ترجمة مختصرة سنة (١٩٧٠) بعنوانها الأصلي نفسه (سفر نامة). انظر: سليم طه التكريتي، السيادة العربية على شط العرب منذ أقدم العصور، آفاق عربية، العدد (٣، ٤)، بغداد، ١٩٨٠، ص ٢١٠ [خالد عبد اللطيف حسين].

جزر البورين والبوشاصي والفيّاضي

عند الساعة السادسة وثلاثة أرباع الساعة شاهدنا، على جهتنا اليمنى، بدايةَ جزيرةٍ طويلة تُسمّى (البورين)، وبعد قليل شاهدنا، في الجهة ذاتها، جزيرة البوشاصي، وبعد قليل أيضاً شاهدنا، على جهة اليسار، جزيرة الفيّاضي. وجميع هذه الجزر كبيرةٌ ومليئةٌ بالنخيل. ومع ذلك، فالقناة عريضةٌ وعميقةٌ في كل مكان. وبدأت رياحٌ خفيفةٌ تهبُّ على هذه المنطقة، فكانت تدفعنا نحو الأمام بصعوبة بالغة. ومع ذلك، فقد اقتربنا من الشاطيء الذي كان على جهتنا اليسرى.

وفي نحو الساعة الثامنة والنصف أخذ ملاحونا مجاديفهم وبدأوا بالتجديف حتى الساعة العاشرة وثلاثة أرباع الساعة ليلاً، حينما توقّفنا بالقرب من الشاطيء أمام قلعة الوالي التي بدت جميلةً جداً، وفيها الكثير من الأروقة التي تحتوي على شبابيك ومنافذ لإدخال الهواء العذب خلال فصل الصيف. والحقيقة أن هذه القلاع بُنيت لغرض الراحة فقط، وليس فيها تحصيناتٌ كبيرة.

السبت، ١٧ تشرين الأول / أكتوبر: غادرنا هذا المكان عند الساعة السادسة صباحاً. وبعد نصف ساعة دخلنا قناةً على جهتنا اليسرى بإتجاه الجنوب الشرقي. وكانت على جهتنا اليسرى قلعةٌ فسيحةٌ من جهة القناة، لكنها مُهدَّمةٌ كلياً من جهة البحر. وعند ارتفاع المدّ يبلغ عُرض القناة ضعف عُرض نهر السين بمرةٍ ونصف المرة، ولكن عند الجزْر فلا تعدو أكثر من جدولٍ بائس مليء بالوحل.

الوصول إلى البصرة

تقع مدينة البصرة على ضفتي هذه القناة، التي تنتشر عليها البساتين من كلا الجانبين، والبيوت إلى الخلف. فبقينا نسير على طول تلك القناة حتى الساعة الثامنة صباحاً، حينما وصلنا إلى الكمرك الذي يقع جنوبي المدينة بقليل. وبعد فحص أمتعتنا ذهبنا لنُقيمَ في دير الآباء الكراملة الحُفاة الأجلّاء الذي لا يبعد كثيراً. وفي ذلك الوقت لم يكن هناك سوى رجل دين إيطالي واحد هو(الأب سيفيرين).

من بندر ريق إلى البصرة في يوم واحد

عندما تكون الرياح طيبةً يكثر التردد من بندر ريق إلى البصرة خلال أوقات النهار، مع أن الرحلة قد تستغرق ثلاثة أسابيع أحياناً. ولم نشاهد في البصرة أية إستعدادات للحرب، سوى أن والي البصرة، بعد أن منع والي بغداد أية سفينة من التوجّه إلى البصرة، فرض بالمقابل حظراً على جميع المراكب الموجودة في البصرة والمُحمَّلة ببضائع إلى بغداد.

أخبارٌ كاذبة من بلاد فارس

وقد انتشرت في البصرة شائعاتٌ مفادها أن الملك الفارسي [١] قادمٌ لمحاصرتها، فتساءل مني كثيرٌ من الناس من ذوي المنزلة الرفيعة عن أحوال الكمرك، فأخبرتهم إلّا

---

(١) هو الشاه الصفوي عباس الثاني، حكم بين (١٦٤٢ – ١٦٦٦).

ينزعجوا من تلك الشائعات، وأكَّدتُ لهم عدم وجود أية إستعدادات في بلاد فارس لشن الحرب، وهذا هو الواقع. فحدثوني عن قلقهم من أخبار عن وجود عشرين قرصاناً فرنسياً في البحر أوقعوا الرعب والهلع في نفوس التجار.

الهولنديون يثيرون الفرنسيين – القراصنة الفرنسيون – الخوف من الفرنسيين

وكان الهولنديون هم مَن نشروا هذه الأخبار عن عَمدٍ بهدف دفع التجار إلى نقل أموالهم على متن السُفن الهولندية، دون المُحمَّدية. وانتشر هذا الخبر انتشار النار في الهشيم وصدّقه التجار بسرعة، وأصبح معلوماً في كُلِّ مكانٍ هنا أن الفرنسيين قادمون لتأسيس تجارةً في الهند، فَتصوَّروا بأنَّ جميع سفننا سفن قرصنة. فقبل ثلاث سنوات جاءت سفينتان للقراصنة إلى ميناء مُخا لا تحمل سوى النقود إلى سورات لجلب البضائع، وكان ذلك في نهاية شهر آب / أغسطس. وقد نَهَبَ الفرنسيون جميع السُفن ثمّ فروا. فلو كان لديهم ذكاءٌ أكثر بقليل في هذه البحار فلربما حققوا المزيد، لأنهم قد يَتمكَّنون من المجيء إلى الخليج الفارسي وانتظار سُفن البصرة هناك في نهاية شهر تشرين الأول / أكتوبر، إذ ستكون مُحمَّلة حينذاك بمبالغ كبيرة من الأموال للمتاجرة في الهند، وكان بمقدورهم أن يكونوا سادة الهند بسهولة، ومن ثمّ سادة مبالغ طائلة من الأموال السائلة، التي لا ينافسهم فيها أحدٌ، لاسيما أن الهنود الذين يستخدمونهم على سفنهم غير قادرين على معارضتهم، ولو حصل ذلك فبمقدورهم [الفرنسيون] محقهم بسهولةٍ، لكنهم لم يفعلوا ذلك.

أخيراً، فقد أشاعوا في عموم تلك البحار ذُعراً مُرعباً؛ فقد أصبحت كلمة فرنسي كافية لزرع الخوف في نفوس الجميع.

الفصل الثامن: وصف البصرة، موقع البصرة

تقع مدينةُ البصرة، عاصمةُ المملكة أو الباشوية التي تحمل ذلك الاسم، في أقصى أطراف شبه الجزيرة العربية التي تقع إلى الغرب منها، بالقرب من بلاد العرب السعيدة، التي تقع إلى الجنوب بمسافة يومين من المكان الذي يندمج فيه نهراً دجلة والفرات على ضفاف شط العرب، الذي يَتكَوَّن من اندماج النهرين المذكورين معاً. وتبعد البصرة ثمانية عشر فرسخاً عن البحر، وتقع على خط العرض (٣٠)، أو(٣١) درجةً و(١٠) دقائق شمالاً، وتنحرف البوصلة هناك نحو(١٣) درجةً ونصف الدرجة من الشمال نحو الغرب. ومن هناك حتى الهند تنحني دائماً بنحو(١١) درجةً وثلث (ويقول البعض نصف) الدرجة من الشمال نحو الغرب. وتبعد عن بغداد يومين براً. وعادةً ما تَستغرق المسافة التي تقطعها السُفن الكبيرة القادمة من بغداد نحو البصرة، عبر النهر، ما بين خمسة عشر إلى ستة عشر يوماً، وثمانية عشر يوماً على الأغلب، ولكن السُفن المُتوجّهة من البصرة إلى بغداد تستغرق ما بين خمسين إلى ستين أو حتى ثمانين يوماً في هذه الرحلة، إذ يقوم رجالٌ بسحبها فقط.

محيط البصرة ـ بوابتا البصرة

والبصرةُ مدينةٌ كبيرةٌ ومُحاطةٌ بأسوار ترابية، ويبلغ محيطها نحو ست ساعات سَيراً على الأقدام، إلّا أنها تضمُّ الكثير من المساحات الخالية التي لا تُوجَد فيها بيوت

أو بساتين. ولها بوابتان، بوابة الشرق، وبوابة الغرب، أي بوابةُ بغداد التي يَتوجَّهون منها إلى بغداد.

جودة موقع البصرة

وموقع هذه المدينة ملائمٌ جداً من وجهة نظري، ويمكن أن تكون أغنى مدن العالم وأجملها. ولاشك أن العيش سيكون فيها أهنأ إذا ما تمّ الإعتناءُ ببنائها قليلاً وزُرِعَت فيها الحدائق على إمتداد ضفة القناة القادمة من شط العرب وتخترق المدينة كلها. ولو سُمِّدت الأراضي المحيطة بها وزُرعت بالنخيل، فأعتقد أنها ستنتج أي شيء، بسبب الحر الشديد والتربة الرمادية، التي بدت لي خصبةً جداً، إذ ترطِّبها مياه النهر مرتين يومياً حينما ترتفع مناسيب مياه البحر الذي يبعد أربعة أيام ونصف اليوم عن البصرة.

وفرة النخيل فيها

ومقابل البصرة ترتفع مناسيب المياه إلى قامة ونصف القامة، لكنها ليست مالحةً كما أخبرني البعض. ولا ينمو فيها أي شيء باستثناء النخيل الذي ينمو بكثرة في الأراضي الملحية، إذ يكثر النخيل، ولاسيما في الأراضي المُحيطة بالبصرة، أكثر مما هو عليه في أي بلدٍ في العالم. ولكي يثبتوا لي أنه مالحٌ حقاً قالوا إن التربة لو حُفرت بعمق قامة أو قامتين فسيرون الماء المالح، ولكن قد لا ينطبق الشيء ذاته على الأماكن كلها.

الخضار والفواكه في البصرة

ومهما يكن، فمن المُؤكَّد أن هذه المنطقة تنتج، منذ شهر تشرين الثاني / نوفمبر

فصاعداً، أنواعاً كثيرةً من الأعشاب، مثل الهندباء، والسبانخ، وغيرها من الخُضار. وينمو المشمش اللذيذ جداً في بساتين كثيرة، ويستمر طوال شهري حزيران / يونيو وتموز / يوليو، كما يكثر العنب في شهري تموز / يوليو وآب / أغسطس. أما في شهر تشرين الأول / أكتوبر فينمو البطيخ والرقي والرمان والليمون. والحقيقة أن أياً من هذه الفواكه لا يمكن حفظها بسبب الرياح الجنوبية التي تهبُّ خلال ذلك الموسم الحار الرطب.

ميدان البصرة

تُوجَد الكثير من الأماكن العامة الجميلة في البصرة، من بينها الميدان الذي يقع مقابل قصر الوالي، وهو واسعٌ جداً، وفيه إثنا عشر مدفعاً، أو مدفعاً قديماً، وُضِعَت فوق حمّالات بالقرب من القصر. كما تُوجَد الكثير من الأسواق الجميلة في هذه المدينة.

ميناء البصرة مناسبٌ لجميع الدول

وسبق لي أن قلتُ إن هذه المدينة يمكن أن تكون أغنى مدينة في العالم بسبب التجارة التي يمكن أن تتم فيها مع كل أرجاء المعمورة· فميناؤها جيدٌ وآمنٌ جداً، ويبعد إثني عشر فرسخاً عن البحر بدءاً من مياه شط العرب العذبة، وهو عريضٌ وعميقٌ جداً، فيمكن للسفن الضخمة دخوله دون خطر. وتأتي إليه جميع السلع الأوروبية عبر البحر المتوسط، فما أنْ تصل إلى حلب حتى تُنقل بسهولة إلى ألبير التي لا تبعد سوى أربعة أيام عن حلب، فتُنقل منها عِبرَ نهر الفرات، وتصل في غضون عشرة أيام إلى الرضوانية التي لا تبعد عن بغداد سوى يومٍ واحد، لتُنقل منها عبر نهر

دجلة وتصل البصرة خلال خمسة عشر أو ستة عشر يوماً.

وبقليلٍ من الكد والمثابرة يمكن أن يكون نهر الفرات صالحاً لملاحة السُفن الكبيرة من خلال كري الجداول في بعض الأماكن التي تخنق حركةَ المرور بسبب الصخور الكبيرة، وهذا هو السبب في عدم وصولها أبعد من الرضوانية، وهي سَهلٌ يقع على مسافةٍ قريبة من نهر الفرات، حيث تُوضَع البضائع على البر وتُحمَّل على ظهور الجِمال لتُنقَل إلى بغداد، فيتمّ نقلها من هناك عِبر نهر دجلة. ولكن المراكب الصغيرة تستطيع النزول من البير إلى البصرة عبر نهر الفرات.

مرفأ البصرة العظيم

أمّا البضائعُ القادمة من بلاد فارس فتصل عبر كمبرون [١] وكنج، في حين تصل البضائع الهندية عبر الخليج الفارسي بسهولةٍ. وينطبق الشيء ذاته على البضائع القادمة من البحر الأحمر وبلاد العرب السعيدة؛ إذ تُشحن من ميناء القطيف الذي لا يبعد عن البصرة سوى ثمانية أيام. وبهذه الطريقة يتمُّ تبادل جميع أنواع البضائع من بلدٍ لآخر، فيحلُّ رخاءٌ لا محدود في ذلك المكان البصرة.

ومع أن الوضع الحالي ليس على هذا النحو، لكن الكثير من السُفن ترسو هناك، لاسيما بعد تدمير ميناء هُرمز الذي كانت تتمُّ فيه جميع عمليات المتاجرة في تلك البحار. فمنذ ذلك الحين أخذت الكثير من السُفن ترتاد البصرة وهي مُحمَّلة بالبضائع

---

(١) بندر عباس الحالية. وَرَدَتْ في النص بصيغة كومورو.

الهندية. وحينما تأتي السُفن خلال الموسم (كما يُسمّيه أهل المنطقة)، الذي يبدأ في شهر تموز / يوليو، تبقى هناك حتى نهاية شهر تشرين الأول / أكتوبر. وحينما ينقضي الموسم لا تستطيع السُفن الخروج من النهر بسبب الرياح المُعاكسة، ولاسيما في الموسم الذي تبدأ فيه حركة الإبحار إلى الهند وتستمر حتى بداية شهر مايس / مايو.

المواد المُحمَّلة من البصرة

عندما وصلتُ البصرةَ شاهدتُ خمسةَ عشرَ مركباً فيها، بعضها هولندية وبعضها الآخر مُحَمَّدية، وهي لا تشحن سوى التمر الذي يُحمِّلونَ منه كمياتٍ كبيرةً يُجهِّزون بها أنحاء الهند كافة، ويحققون بها أرباحاً طائلة، كما يُحمِّلونَ بعض الخيول التي تَدرُّ عليهم مبالغَ طائلةً من السيولة النقدية التي يتاجرون بها في الهند. وخلال أشهر الموسم الأربعة تمتلئ البصرة بالأجانب القادمين من الهند عبر البحر والقادمين من بغداد لشراء السلع الهندية أيضاً. لذا، فخلال ذلك الوقت ترتفع أسعار البيوت إلى معدلاتٍ أعلى من أسعارها خلال الثمانية أشهر الأخرى التي لا يبقى أحد فيها سوى أهل المدينة.

رياح السموم في البصرة

وطوال ثلاثة أشهر من السنة، تموز، آب، وأيلول (يوليو، أغسطس، وسبتمبر)، يشتد الحرُّ في هذه المدينة بشكلٍ لا يُطاق، ولاسيما عندما تهبُّ الرياح الجنوبية الشرقية. وفي شهر تموز / يوليو من هذه السنة ١٦٦٥، مات في البصرة أربعة آلاف شخص خلال ثلاثة أسابيع بسبب رياح السموم التي تَحدَّثتُ عنها سابقاً. فخلال هذه

الأوقات الحارّة ينام الناس فوق سطوح المنازل دون إدراكٍ للأخطار التي يسببها الهواء المُؤذي في ذلك الوقت بسبب الحرّ المُفرِط، فيضطرون إلى شرب الماء في كل لحظة، مع أن الماء ضارٌ وكريه الطعم لأنّه من مياه شط العرب الذي يخترق المدينة عبر قناةٍ ضيقة، وهي مياهٌ موحلةٌ جداً ومليئةٌ بالأتربة. وليس بمقدورهم الحصول على مياه سوى تلك المياه الرديئة، إذ لا تُوجَد سوى بِركة مثيرة للقرف. لذا، فهناك حاجةٌ لتنظيف الضِفاف من الأتربة في أماكن مختلفة، لجمع المياه في بِركٍ صغيرة ليَتمكَّن السقّاءون من الحصول على المياه في أي وقت، لأنَّ القذرين يقضون حاجاتهم ويغسلون ملابسهم في تلك القناة، فتكون المياه قذرةً وضارّة جداً.

الخمر ممنوع في البصرة

على الرغم من كثرة العنب حوالي البصرة، إلّا أنهم لا يصنعون الخمر أو البراندي أبداً، فكلاهما ممنوع وتَترَتَّب عليه عقوباتٌ صارمة. وبين وقتٍ وآخر يسمح الوالي للآباء الكراملة بصنع شيء منه، لكن مقابل مبالغ مجزية من أجل الحصول على الترخيص. وهذا هو سبب عدم قيامهم بصنع كميات كبيرة منه، لكنهم يجلبونه من شيراز للإحتفال بعيد القُداس ولترفيه الفرنجة المُقيمين معهم عندما يسلكون ذلك الطريق.

وكان الوالي يعتزم إعمار المدينة ضمن حدود القلعة المُطِلَّة على النهر بإتجاه نهاية القناة، لكنه عَدَل عن هذه الفكرة لئلا يقوم الإنكليز والهولنديون بهدمها بمدافعٍ ضخمة بذريعة إثارة استيائهم. والمُؤكَّد أن إعمارها هناك أفضل، لا من أجل الدفاع

والإفادة من مياه النهر فحسب، وإنما من أجل رسو السُفن بالقرب منها أيضاً.

الدمامل والأورام المُنتَشِرة في البصرة

يستفحل في البصرة مرضٌ شائعٌ جداً خلال أشهر تموز، آب، وأيلول (يوليو، أغسطس، وسبتمبر)، وهو نوع من أنواع الدمامل أو الأورام الخبيثة التي تظهر بين الأفخاذ والرقبة وأجزاء كثيرة من الجسم؛ فما إن تَشفى في مكانٍ حتى تظهر في مكانٍ آخر مرات عدة. ولو أخذنا الطريقة التي يصيب بها المرضُ الناس بنظر الإعتبار، فإنني أعتقد أنه أحد أنواع الطاعون. ومع ذلك، فقد أَكَّد لي الأهالي أن أي شخص لم يمُت بسببه، وأن معظمهم قد أصيبوا به بسبب تناول التمور بإفراط في هذه المدينة، ولاسيما الفقراء. وقَبلَ أن أصلَ البصرة بشهرٍ واحد توفي قبطانٌ يونانيٌ لدى الآباء الكراملة بالقرح أو الدمامل. فبعد أن شفيت من فخذه (إذ ظهرت فيه أول الأمر)، ظهرت مُجدداً في حنجرته، فأخذت تنمو بدرجةٍ كبيرة نحو الداخل حتى خنقته.

خطورة الجو عندما ينتهي الحر

عندما ينتهي هذا الحر الشديد في البصرة (عند نهاية شهر أيلول / سبتمبر عادةً)، ينبغي على المرء أن يَتدثَّر جيداً، لأنَّ الهواء يكون حينذاك خطراً، فترى أفواه الكثيرين وقد إعوجَّت بسبب النوم في الهواء الطلق خلال ذلك الوقت، ابتداءً من نهاية تشرين الأول / أكتوبر حتى كانون الثاني / يناير، حينما يكون الجو بارداً في الليالي والأصباح، ولكنه لا يستمر إلى ما بعد شروق الشمس بساعتين أو ثلاث ساعات.

الأوزان والنقود في البصرة

فيما يخصُّ الأوزان في البصرة، فهي (البطمن)، الذي يُعادل عشر (منّات تبريزية). (والعطّاري)، ويساوي ثلث (البطمن)، أو أربعة (منّات تبريزية). والكيل الذي يُسمّى (الملك)، ويساوي ثمان وأربعين (أوقية).

وأعلى النقود قيمةً في البصرة (الچيكين البندقي) الذي يساوي سبعة (عباسيات) ونصف العباسي، لكنه نادرٌ جداً، ويشتريه بهذا السعر الراغبون بالسفر إلى الهند، أو يرسلون أموالهم إلى هناك. وهم يرغبون بشراء القروش أو الريـالات، سواء أكانت قديمةً أم جديدة· فالقديمة بثلاثة عباسيات ونصف العباسي، والجديدة بثلاثة عباسيات. أمّا قرش أبو كيل فهو نادرٌ أيضاً، ويُعادل خمسة عشر شاهياً بصرياً. والعُملة الأكثر تداولاً هي فئة الخمسة شاهيات الفارسية، التي تُعادل خمسة شاهيات ونصف الشاهي بصري. وهذه الشاهيات قطعٌ نقديةٌ فضيةٌ رقيقةٌ جداً، قام الوالي بسَكِّها، كما أمر بسكّ قطعٍ من فئة شاهيتين، وأخرى من فئة نصف شاهية، وكلها من الفضة. كما قام بسك (المانجور) [١]، وهي عملاتٌ نحاسيةٌ قِيمة كُلٍّ ثلاثين منها شاهياً واحداً، وكل ستة منها پارة واحدة، التي تساوي كُلَّ خمسٍ منها شاهياً واحداً. وهناك أيضاً عُملاتٍ نحاسية قيمتها ثلاثة مانجور.

---

(١) المانجور (Mangours): اسم لعملة صغيرة مُتداولة في مصر، اسمها الحقيقي فلور (flore). انظر: Wyndham Beawes Joseph Chitty, Les Mercatoria: A Complete Code of Commercial Law, vol. 2, London, 1813, p. 362.

والي البصرة

بعد أن تَحدَّثتُ عن مدينة البصرة، لابد أن نذكر شيئاً ما عن والي البصرة[١] الذي لا يتمُّ تغييره كالعادة كُلَّ ثلاث سنوات (مثل بقية الولاة في تركيا)، وإنما بشكلٍ وراثي. فكُلُّ والٍ يشتري حق الوراثة لابنه عن طريق تقديم الهدايا الثمينة. وحالياً هو الرابع من عائلته، فلأربع سنوات خلت كان السلطان الأعظم يرسل له حق وراثة الولاية لابنه عن طريق القبوجي. وهو يدفع سنوياً ضريبةً قدرها نحو ألف قرش إلى الباب العالي، يُنفقُ القسمُ الأكبر منها على السلطانات ورئيس الخصيان وغيرهم من الرجال المهمين في السراي، الذين يضطر إلى المحافظة على علاقاتٍ وثيقة معهم، لأنّه لا يستطيع ضمان وضعه إلّا عن طريق الهدايا. ومع ذلك، ونظراً لأنّه لم يُطع السلطان الأعظم بالطريقة التي تناسبه، فقد أُرسلت الأوامر مرّات عِدة إلى والي بغداد للإلتحاق مع الولاة الآخرين لعزله· وحينما حَصَلَ ذلك، شَعَرَ بعدم قدرته على شن الحرب ضدهم واشترى السلام لنفسه.

وما جَعَلَ هذا الوالي لا يثق بقواته أن الجنود كُلُّهم من الفارّين الأتراك من حلب وبغداد، مِمَّنْ يتَحيَّنون فرصةَ عودتهم مجدداً إلى بلدهم، أو من العرب الذين سُرعان ما يُفسدهم المال. ولو لم يكن الأمر كذلك، (أي لو كان هؤلاء الرجال مُخلصين له)، لكانَ من السهل عليه مقاومة كُلَّ الولاة المجتمعين ضده.

---

(١) هو حسين باشا الذي تولّى ولاية البصرة في سنة (١٦٥٠)، بعد وفاة والده علي باشا.

إثنان من أعمام الوالي يطلبان عزله ـ ثورة في البصرة ـ مقتل مرتضى باشا

وقبل أربع عشرة سنةً ذهب إثنان من أعمام هذا الوالي [١]، بعد مقتل أخيهما والد هذا الرجل، إلى القسطنطينية، وطلبا من السلطان الأعظم ولاية البصرة لأحدهما وولاية القطيف والإحساء للآخر. وقد لبى السلطان الأعظم طلبهما، وأمر مرتضى باشا [٢]، الذي كان والي بغداد حينذاك، بعزل والي البصرة ووالي القطيف والإحساء، اللذين كانا مطيعين للسلطان الأعظم، وتنصيب هذين الأخوين العربيين بدلاً منهما. وفي الحال، تَقدَّم مرتضى باشا مع هذين الأميرين نحو الجزيرة التي استُقبل فيها استقبالًا مُفرحاً من الجميع. ثمّ زَحَفَ نحو البصرة التي استُقبل فيها استقبالًا مفرحاً كذلك. والحقيقة أن والي البصرة لم يُطل البقاء فيها، لاسيما بعد أن أَدرَكَ أن شعبه. الذي سَئِمَ طغيانه. تَخلَّى عنه، وفَرَّ إلى مدينة دورق الفارسية. فأصبحَ مرتضى باشا سيد البصرة دون أن يضرب ضربةَ سيفٍ واحدة، بينما كان بمقدوره أن يكون ملكاً في الوقت المُحدَّد لو تَصرَّفَ بشكلٍ أفضل قليلاً. فعند وصوله نَصَّبَ أحدَ الأميرين العربيين والياً، ولكن بعد يومين، بعد أن اصطحبهما معه إلى خارج المدينة، بحُجَّة التنزه، قام بشنقهما. وقد أثار هذا التصرف استياءً شديداً لدى أهل البلاد بأسرها،

---

(١) أعمام حسين باشا هما كل من حمدي بك وفتحي بك، وقد حصلا على فرمانين من استانبول بتعيين أحدهما والياً على البصرة والآخر والياً على القطيف والإحساء، التي كانت تابعةً يومذاك لإمارة البصرة اسمياً فقط [خالد عبد اللطيف حسين].

(٢) مرتضى باشا، والي بغداد في سنة (١٦٥٣).

فكان لابد له أن يُقدِّم تفسيراً لذلك، وبأنه تَصرَّفَ بناءً على أوامر من السيد الأعظم للقيام بذلك، وبمرور الوقت سيكسب صداقة كُلَّ القوات غير النظامية في البصرة، ومن ثمّ سَيوطّد أقدامه، فلن يعد بمقدور أحد إزاحته من حكمه. ولكن نظراً لعدم اكتفائه بقتل هذين الرجلين، عاد إلى المدينة واستدعى الأعيان والوجهاء واستولى على ممتلكاتهم، وأَمرَ بشنق خمسة عشرة أو عشرين منهم أمام الملأ، مما أثار غضب الجنود الذين ثاروا كُلُّهم ضده، فاضطر إلى الفرار بسرعة، حاملاً معه ما استطاع من ثروات البصرة. ومنذ ذلك الحين زار القسطنطينية مرتين، وفي كلتيهما أُعيدَ إلى والي بغداد. ولكن بعد أن استُدعِيَ إلى الباب العالي للمرّة الثالثة وَصَلَ إلى حد الموَصَلَ ولكنه لم يجرؤ على التقدم أكثر لئلا يُقتل. فَقرَّر الهرب إلى بلاد فارس، وفي الطريق -كما لو أن النحس كان له بالمرصاد- تَعرَّفَ عليه بعض الأكراد حينما كان يمر بكردستان، وقطعوا رأسه.

كان هذا الرجل جورجياً، ومع أنه اعتنق الشريعة التركية [١]، لكنه كان مسيحياً في قرارة نفسه، حتى إنه لم يُختن أبداً، خلاف ما كان يقول للأتراك. وكان هدفه الوحيد أن يصبح سيد إحدى الولايات ومن ثمّ قهر السلطانَ التركي بعد مدةٍ قصيرة. على هذا الأساس، كان كريماً تجاه كل الجنود الذين اشترى محبتهم وصداقتهم التي فقدها بسبب أعماله الوحشية. وحينما شارفت حياته على الإنتهاء أراد تسليم بغداد للشاه

(١) المقصود الشريعة الإسلامية.

الفارسي، لكن الشاه رَفَضَ العرض، لأنَّ وضعه لا يَسمحُ له بشن الحرب. أخيراً، فقد كان مطواعاً لبعض الوقت لعواطف الجنود والناس بحيث كان بمقدوره تحقيق أشياء عظيمة لو تَصرَّفَ بقليلٍ من الحكمة.

لنعد إلى والي البصرة· فبعد مدةٍ قصيرة من القضاء على مرتضى باشا، قام الرعايا باستدعاء الوالي الشرعي، فعاد واستقبله رعاياه كما استقبلوه سابقاً. وفي اليوم الذي غادر فيه مدينة دورق وَصَلَتْ أوامر من الشاه الفارسي إلى حاكم المدينة بحجزه. وقِيل إنّ الشاه كان قد عزم على إرسال جيش مع الوالي ذاته لتنصيب نفسه سيداً على المدينة، إلّا أن الأمر وَصَلَ متأخراً بعض الشيء، لأنَّ أمره قد إنتهى.

الفصل التاسع: تتمة وصف البصرة، القطيف، الإحساء، والصابئة: أحوالهم ومعتقداتهم

قيبان – القرنة

إن وضع والي البصرة مهمٌ جداً، فإلى جانب مدينة البصرة، تمتد سلطته إلى الجانب الفارسي، فتشمل جميع منطقة قيبان التي تُحادِد البصرة، ودورق، التي تبعد ثلاثة أيام عن البصرة، وهي آخر مدينة فارسية على تلك الجهة. أما على جهة بغداد، فهو يُسيطر على الجزيرة، التي تبعد يومين عن البصرة، ويروي نهر الفرات أحد جوانبها، بينما يروي نهر دجلة الجانب الآخر. ويلتقي هذان النهران مع بعضهما عند نقطةٍ في تلك الجزيرة، تبعد يومين شمالي البصرة، عند مكانٍ فيه قلعةٌ متينة البناء تُدعى القرنة، تَتَحكَّم بحركة نهري دجلة والفرات.

القطيف والإحساء

ومن جهة بغداد تروي الجزيرةَ قناةٌ صناعيةٌ تمّ شقّها بين نهري دجلة والفرات، وتبعد خمس ساعات شمالي البصرة، وأحد عشر أو إثني عشر يوماً جنوبي بغداد. وهذه الجزيرة خِصبةٌ جداً ومأهولةٌ بالسكان، وتنتشر فيها الكثير من القرى الكبيرة. والحقيقة أنها لا تتبع والي البصرة كُلياً، لأنَّ قسماً منها (الواقع على جهة القناة) خاضعٌ لحكومة بغداد. ولكن نظراً لأنَّ القلعة (التي تقع على طرف الجزيرة، عند نقطة إلتقاء النهرين)، وكُلُّ ما على تلك الجهة خاضعٌ لوالي البصرة، فهو بمأمنٍ نسبي من مباغتات والي بغداد الذي لا يستطيع مهاجمة البصرة ما لم يسيطر على الجزيرة أولاً. إلى جانب ذلك، فإن سلطة والي البصرة تمتد إلى ميناء القطيف ومدينة الإحساء في بلاد العرب السعيدة، اللَّذين كانا سابقاً تحت سيطرة والٍ [١] خاضعٍ للسلطان الأعظم أيضاً. ولكنه احتلَّ ميناء القطيف منذ إثنتي عشرة سنةً. ومنذ ذلك الحين، وحينما كان يُفكّر باحتلال الإحساء أيضاً، أرسل إلى هناك شيخاً عربياً [٢] مع كثيرٍ من العرب الذين فَرَّ

---

(١) حاكم الإحساء هو مُحمّد باشا بن علي باشا الذي لجأ إلى السلطان العثماني وشكا إليه حسين باشا، فصدرت الأوامر من الباب العالي بإعادته إلى منصبه، إذ عَهَدَ السلطان إلى والي بغداد أن يجمع جيشاً من قطعات بغداد، ديار بكر، حلب، الموصل، الرقة، شهرزور، لإعادة باشا محمّد حاكم الإحساء إلى منصبه. لونكريك، أربعة قرون من تأريخ العراق الحديث، ط٦، مطبعة الأديب، بغداد، ١٩٨٥، ص ١٤٢، ١٤٥. خالد عبد اللطيف حسين.

(٢) هو الأمير براك من قبيلة بني خالد الذي أرسله حسين باشا لإحتلال الإحساء، فلم يجد براك صعوبةً في ذلك، غير أنه رأى أن من المناسب أن يحتفظ بالإحساء لنفسه بدلاً من العودة [خالد ←

والي الإحساء عند وصولهم، وتركهم يدخلون المدينة بحُريةٍ، فنهبوها. ولكن فيما بعد استهزأ الشيخ العربي من والي البصرة، قائلاً إنه لم يحتل المدينة من أجله وإنما لنفسه هو، واستدعى والي الإحساء وسَلَّمَ له المدينة مقابل مبلغ المال الذي دفعه له ذلك الوالي.

الوالي يَشنُّ الحرب

أخيراً، في شهر تشرين الثاني / نوفمبر من السنة الماضية، (١٦٦٤)، وحينما رأى والي البصرة انهماك السلطان الأعظم بحربٍ مع الإمبراطور [١]، واعتقاداً منه أن الحرب سَتَستَمر طويلاً، أَرسَلَ على ظهر السُفن جيشاً كان قوامه، كما تأكّدَ لي، ما لا يزيد على خمسة أو ستة آلاف رجل، مع بعض المدفعية، مع أن الأنباء التي انتشرت في كُلِّ مكان تُؤكِّد أن عددهم كان سبعة أو ثمانية أضعاف الرقم المذكور. وبعد أن نزل ذلك الجيش عند ميناء القطيف، وَزَحَفَ من هناك نحو الإحساء، التي لا تبعد سوى ثلاثة أيام، سُرعانَ ما سَيطَر عليها دون أية مقاومة. أمّا والي الإحساء فقد فَرَّ إلى القسطنطينية مع إقتراب الجيش، وعَرَضَ شكواه إلى السلطان الأعظم، الذي أمر فوراً ولاة كلٍّ من حلب، أورفا، ديار بكر، المَوصَلَ وبغداد وبعض الولاة الآخرين،

عبد اللطيف حسين].

(١) هو إمبراطور آل هابسبرك فردريك الثاني (١٥٢٩-١٥٩٥)، الذي كان يخوض حرباً ضد الدولة العثمانية خلال السنوات (١٦٥٧- ١٦٦٢)، والتي إنتهت بهزيمة الأتراك العثمانيين في معركة القديس جوثارد بقيادة القائد الإيطالي رايموندو مونتيكوتشولي الذي أجبرهم على الدخول في عَقد معاهدة سلام مع النمسا، عُرفَ باسم سلام فاسفار. وشُنَّت هذه الحرب بعد حصول ترانسلفانيا على استقلال شبه ذاتي شَجَّعها على مهاجمة الدولة العثمانية.

وعددهم ثمانية، بالإلتحاق به وإعادة والي الإحساء إلى ولايته وطرد والي البصرة منها وحرمانه من كُلِّ شيء.

ومع ذلك، لم يخف والي البصرة من ذلك كله، وبدأ كما لو أنه عازمٌ على الدفاع· والحقيقة أنه، تَحسُّباً لهذا الموقف، قام بتحصين الإحساء من خلال إرسال عددٍ كبيرٍ من المدافع، وإرسال رسائل إلى الباب العالي في الوقت ذاته لإبلاغ السلطان الأعظم بإلّا يشغل نفسه بهذا الغزو؛ لأنّه على إستعداد لدفع ضرائب عن مكتسباته الجديدة مساوية للضريبة التي كان يَتلَّقاها سابقاً. وكان من المُؤكَّد أن التركي الأعظم إذا لم يعقد السلام حالاً مع الإمبراطور فإنَّ هذا الوالي سيتمادى في غزواته ولن يكتفِ بأقل من السيطرة على مسقط.

البضائع الهندية في مسقط

والآن، ومع أن دولة الإحساء لا تشمل سوى مدينتي القطيف والإحساء، إلّا أنها كبيرةٌ جداً وشاسعةٌ جداً، وفيها الكثير من القرى الكبيرة· ولكن الثروات الرئيسة لهذه البلاد تعتمد على المتاجرة بالبضائع الهندية التي تُنقَل من مسقط إلى ميناء القطيف، ومنها تُنقَل إلى الإحساء، ثمّ تُوزَّع إلى أنحاء بلاد العرب السعيدة كافّة، ولاسيما مكة، حيث تلقى رواجاً جيداً حينما تأتي القوافل من كُلِّ حدبٍ وصوب لأداء فريضة الحج هناك.

القطيف ـ جزيرة البحرين

يقع ميناء القطيف في بلاد العرب السعيدة، مقابل جزيرة البحرين، التي تُسمّى

خطأً (بحريم) [١]، وهي لا تبعد سوى سبعة فراسخ عنه، مع أنها غير خاضعة للسلطان التركي لأنها تحت هيمنة الشاه الفارسي.

وتشتهر هذه الجزيرة كثيراً بصيد اللؤلؤ خلال أشهر حزيران، تموز، آب، وأيلول (يونيو، يوليو، أغسطس، وسبتمبر). ونستطيع أن نحكم على سِعتها من خلال العدد الكبير من السُفن التي ترسو فيها، والتي يتراوح عددُها ما بين ألفين إلى ثلاثة آلاف سفينة.

وفي مدينة البحرين مدينةٌ وحصنٌ يبعدُ عن المدينة فرسخاً ونصف الفُرسخ. وعلى الرغم من وجود مياه صالحة للشرب فيها، بَيد أن الصيادين لا يحصلون على مياهٍ عذبة من هناك، فهم يستسهلون استخراجه من قعر البحر، حيث تُوجَد ثلاث عيون لمياهٍ صالحة للشرب، لكنها ليست في مكانٍ واحد، وإنما هنا وهناك، وجميعها لا تبعد أكثر من فرسخين عن المدينة.

طريقة غريبة في استخراج الماء العذب من قاع البحر

وقد حدَّثني وكيل الملك البُرتغالي في كنج السيد (مانويل منديز هنريكيز) كثيراً عن الطريقة التي يستخرج بها الصيادون هذه المياه، وهي تتم بالطريقة الآتية:

تقترب السُفن من المكان الذي تُوجَد فيه العيون التي يَتعرَّفون عليها من خلال

---

(١) هذا التصحيح من ضمن التصحيحات المُتعدِّدة التي أجراها الرحّالة على تسميات المدن في رحلته، وقد صَحَّح لفظها من بحريم إلى بحرين.

طبيعة الجزيرة. فحينما يرتفع الماء تجد مياهاً على ارتفاع قامتين في تلك الأماكن. ولكن حينما تنحسر المياه لا يزيد ارتفاع تلك المياه على ثلاثة أقدام، وفي أحيانٍ كثيرة لا تجدها سوى أرض جرداء، لأنَّ البحرين مُحاطةٌ بالكثبان الرملية التي تمتد لمسافات شاسعة جداً، والأماكن المنبسطة فيها قليلة، فلا تستطيع السُفن إجتيازها. ولكن بين تلك الكثبان قنواتٌ جافّةٌ تبقى فيها السفن. وأيّاً كانت العواصف التي تَهبُّ من البحر تبقى السُفن في تلك القنوات آمنةً سليمة. وعند إقتراب السُفن من تلك العيون ينتظر الصيادون حتى تنخفض المياه، ثمّ يقومون بتثبيت مجدافين في الرمال، واحدٌ على كل جهة من جهتي العين التي يعتزمون استخراج الماء منها، ثمّ يقومون بربط حبلٍ مشدود تحت الماء من أحد المجدافين إلى المجداف الآخر. وعلينا أن نعرف أن العرب يمسكون الجَرّة دائماً من منتصفها فوق كل عين من هذه العيون، لإبلال الجزء العلوي الذي تُوجَد فيه فوهتها، الذي يُسمّى العنق الخزفية، فيضعون الطرف الأوسع على فوهة العين ويدخلونه في الرمل لأكثر من أربع بوصات· كما يقومون بطلي كل جانبٍ بالجصّ والقار بحيث لا يَتسرَّب الماء المالح إليها. وحينما تنكسر أنصاف الجِرار هذه أو تُبلى يقومون باستبدالها بأخرى. وبعد أن قام الصيادون بتثبيت المجاديف وربط الحبال يغطس رجلٌ في البحر مُمسِكاً بقِربةٍ مُغلقة؛ فيُغطس رأسه ويقذف نفسه تحت الحبل المشدود، حتى لا ترفعه قوة المياه العذبة المُتدفّقة من الجَرَّة إلى الأعلى مجدداً، لأنها تتدفق بعنفٍ شديد. ثمّ يقوم باطباق فوهة قِربته بفوهة الجرة الضَيّقة المفتوحة، فتمتلئ على الفور بالمياه العذبة. وحينما تمتلئ يغلقها مرةً أخرى ويحملها إلى السفينة حيث يفرغ المياه العذبة، ثمّ يغطس مجدداً حتى يسد حاجة السفينة من المياه العذبة. وقد أخبرني

هذا السيد البرتغالي أن هذه العملية تتم بسهولةٍ كبيرة، وأن الفضول دفعه للذهاب وملء إحدى القِرب هناك.

طريقة صيد اللؤلؤ

وإذ أتَحدَّث عن البحرين سأروي هنا الطريقة التي يُصطاد بها اللؤلؤ، كما رواها لي (مانويل منديز هنريكيـز) نفسه، الذي كان حاضراً فيها:

حق الملك الفارسي في اللؤلؤ

يبدأ الصيد في نهاية شهر حزيران / يونيو تقريباً ويستمر حتى نهاية شهر أيلول / سبتمبر. وخلال هذا الوقت ترى حول البحرين أكثر من ألفين أو ثلاثة آلاف سفينة للصيادين، كُلُّهم من العرب الذين يدفعون ضريبةً إجباريةً للأمير بوصفهم رعاياه من أجل السماح لهم بالصيد. إلى جانب ذلك تَدفَع كُلُ سفينة إلى سلطان البحرين أو حاكمها خمسة عشر عباسياً في كُلِّ سنة، ولا يقبض الشاه الفارسي أي بنس من هذه العائدات، فهي تخصُّ المساجد فقط، باستثناء تلك اللآلئ التي تَزن نصف مثقال أو أكثر فتكون له. ومع ذلك، فإنه يُقدِّم هديةً قيّمةً للصياد الذي يجلب له المزيد. ولكن لو تناهى إلى أسماعه أن أحدهم ينوي بيع لؤلؤةٍ خارج ممتلكاته، حتى لو كان في نهاية العالم، فسرعان ما سيعلم بذلك، وسينتقم منه بقتل جميع أفراد أسرته وأقربائه حتى الدرجة السابعة، ذكوراً كانوا أو إناثاً.

ولكل سفينة من هذه السُفن غطّاسون يغطسون إلى أعماق البحار لإلتقاط المحار أو الأصداف، وآخرون لسحبهم، فليس الجميعُ غطّاسين. وتَبتَعد السُفن عن البحرين

مسافة خمسة عشر، أو عشرين، أو ثلاثين فرسخاً، على طول الساحل، وعندما تصل إلى مكانٍ يعتقد الصيادون بوجود صيد وفير فيه يقومون بإلقاء المَرساة في الماء بعمق خمس قامات، ويغطس غطّاسان، من كلا الجانبين، لإلتقاط الأصداف. وتشمل إستعداداتهم خلع الملابس كُلياً وإلتقاط قطعةٍ من قرن معقود على شكل زوج من الكمّاشات، كما مثّلها لي السيد البرتغالي، والتي يعلّقونها دائماً حول رقابهم بعصابةٍ من القماش الرث. وقبل أن يقفزوا إلى الماء يضعونها على أنوفهم بما يشبه زوج من النظارات، فتبقى مناخيرهم مغلقةً لا يدخل الماء إليها.

وإلى جانب هذه العُدّة يُجهِّز كل غطّاس نَفسَه بحَجَرةٍ كبيرة يربطها بحبلٍ طويل، وبسلةٍ مربوطة بآخر، ويُمرّر الحبل الذي رُبطت به الحَجَرة بين أصابع إحدى قدميه، ويُمسك السَلَّة بيده، ويترك طرفي الحبلين على ظهر السفينة، ويغطس في الماء. وسرعان ما يَسحبه الحَجَر إلى الأعماق. وحينما يصعد يفكُّ من قدمه الحبل الذي رُبطت به الحجارة، بعد أن يسحبه زملاؤه وهم على ظهر السفينة. ومن دون إضاعة وقت يقوم بإلتقاط كُلَّ المحارات التي يراها ويضعها في سلته، وحينما تمتلئ يصعد مرة أخرى. ويقوم الباقون بسحب السَلّة، بينما يلتقط هو نَفَساً قليلاً ويدخن غليوناً من التبغ. وبعد أن ينجز ذلك يعاود الغطس إلى الأعماق بالطريقة ذاتها، صعوداً ونزولاً من الساعة الثامنة حتى الحادية عشرة صباحاً، ثمّ يذهب للغداء مع زملائه، فيتناول

(البيلاو) [١] والتمور وهو طعامهم الشائع. وعند منتصف الظهيرة تقريباً يذهب إلى الغطس مُجدداً ويستمر بعمله حتى الساعة الثالثة بعد الظهر، فلا ينزل بعدها إلى الماء الذي يكون حينذاك بارداً جداً.

وعندما يجمعون كميةً لا بأسَ بها من تلك المَحّارات يقومون بتفريغها على بعض الأكوام الرملية، ويفتحونها هناك. ويَحمل كُلٌّ منهم أداةً حديديةً لذلك الغرض. وفي الوقت ذاته لا يرفع رئيس السفينة عينيه عنهم أبداً لئلا يختلسوا لؤلؤةً؛ فإن لم يُراقبوا جيداً فسيختطفونها في فمهم ببراعة حالما يفتحوا المحارة. وإذا طلب منهم الرئيس فتحها على ظهر السفينة فسيكون الأمر أسوأ، فلو وجد أي منهم لؤلؤةً جميلةً فسيرمي المحارة بخفّة في قبضة يده دون أن يلحظه أحد. وحينما يَتقرَّر تنظيف السفينة يتأهب لتنظيفها بنفسه ويرمي كل القواقع والأسماك في البحر، (لأنهم لا يعرفون ما يفعلون باللؤلؤة الأم)، وسيخفي اللآلئ التي ألقاها، ثمّ يذهب لبيعها في المدينة مقابل مبلغٍ زهيد. والأسوأ من ذلك كله أنه لن يستمر بمزاولة عمله، فما إن يحصل هذا الصنف من الناس على مبلغٍ قليل بمثل هذه الأساليب، حتى يصبح إقناعهم باستئناف الصيد مُستحيلاً، طالما استمروا بذلك.

عائدات والي البصرة ـ حجاج مكة

لنعُد الآن إلى والي البصرة: فعائداته هائلةٌ، وقد تأكَّدتُ أنها تبلغ ما لا يقل عن

---

(١) البيلاو طعام شرقي من الرز واللحم والتوابل [خالد عبد اللطيف حسين].

ثمانمئة ألف قرش، مع أنه ليس مُتعسّفاً في فرضها. وتدرُّ عليه دار الكمرك في البصرة مبلغاً محترماً، لأنّه لم يؤجّرها بالإلتزام كما هو شائع في تلك المناطق، وإنما يُكلّفُ مسؤولاً أو شاهبندر (١)، كما يُسمُّونه، ويدفع له راتباً، ويكون مسؤولاً عن كُلِّ ما يَستلم. إلى جانب ذلك فهو يفرض على كُلِّ نخلةٍ نصف شاهية في السنة. وهذا القسم من عوائده يعهد به إلى رجلٍ يدفع له خمسين ألف قرش سنوياً. فضلاً عن ذلك فهو يحصل على مبلغٍ كبير من الفُرس الذين يذهبون إلى مكة سنوياً، لأنهم يمرون جميعاً عِبر البصرة، فيبيع لهم الجِمال التي هم بأمس الحاجة إليها بالسعر الذي يروقه. وإلى جانب ذلك فهم يدفعون له خمسةً وثلاثين چيكينا عن الشخص الواحد، كما يَرسِل معهم قوةَ حمايةٍ مُكوَّنة من ثلاثمئة جندي تنتظرهم عند مكة وتعود بهم إلى البصرة. فهؤلاء الحُجّاج يدفعون المال طوعاً ليأمنوا شَرَّ اللصوص العرب. وخلال خمسة وعشرين يوماً يذهبون من البصرة إلى مكة، وحينما يعودون يشتري جِمالهم بسعرٍ منخفض جداً، ويبيع لهم الخيول بسعرٍ مرتفع جداً، لإعادتهم إلى ديارهم. ويأخذ المبلغ ذاته من التجار الذين يشترون خيولهم منه في أثناء الموسم لنقل سلعهم، ولابد لهم أن يشتروها بالسعر الذي يحلو له، لأنَّ بيع الخيول ممنوع لأي شخصٍ مهماً كان خلال ذلك الوقت، كما لا يجـرؤون على بيع أي شئ في أي وقت آخر من دون رخصة منه، والتي لا يمكن الحصول عليها من دون هديـة.

---

(١) شاهبندر: بندر كلمة إيرانية والجمع بنادر. المكان الذي ترسو عليه المراكب بالمرساة أو ميناء أو مدينة ساحلية يرأسها (شاهبندر)، أي رئيس الميناء [خالد عبد اللطيف حسين].

والحقيقة أن والي بغداد قام بمحاولةٍ سيئة وغير ودّية، لأنّه دعا، من خلال رسائل، الفُرس الراغبين بالتوجه إلى مكة بالمجيء والمرور عن طريق بغداد، واعداً بمنحهم حرية المرور بأمانٍ مقابل خمسة وعشرين چيكينا للشخص الواحد. لذا تَوجَّه القسم الأعظم منهم -لتوفير خمسة عشر چيكينا- عن طريق بغداد، ولم يذهب عن طريق البصرة إلّا نفرٌ قليل.

الطريق من البصرة إلى مكة

هذا هو الطريق الإعتيادي الذي يسلكه الحُجّاج للذهاب من البصرة إلى مكة؛ فهُم يبدأون رحلتهم من البصرة عن طريق بوابة الشرق، ويذهبون إلى جامع علي [١] الذي يبعد ثلاثة أراغش [٢] عن البصرة، حيث تُوجَد مياهٌ مَجّةٌ في خندق القلعة التي تنتصب في المكان الذي بُنيت فيه مدينة البصرة حينذاك [٣]. والطريق إليها من البصرة جانبيٌ، تنتشر على جانبيه مياهٌ مالحة. ومن هناك يذهبون إلى جبل سنام [٤] الذي يبعد

---

(١) جامع علي يُسمّى بيار علي [خالد عبد اللطيف حسين].

(٢) الأرغش :(Argasch) وحدة طول ألمانية تساوي ثلاثة أميال، أو خمسة كيلو مترات.

(٣) عن موقع مدينة البصرة القديمة انظر ما ذكره الرحّالة بيدرو تيخيرا الذي زار المنطقة ووصفها وصفاً دقيقاً.

(٤) يقع جبل سنام إلى الجنوب الغربي من محافظة البصرة بالقرب من مدينة صفوان. ويقول الرحّالة بيدرو تيخيرا إنّ التسمية مُشتقَّة من السنام الذي شُيِّدت عليه مدينة البصرة الأولى، ويقول أيضاً إن كميات وافرةً من المياه كانت موجودةً فيه، وإن القوافل التي كانت تسلك ذلك الطريق في طريقها من البصرة إلى مكة، كانت تستقي من المياه هناك. وتلك الأراضي وكُلُّ ما ←

عن البصرة خمسة أراغش من جهة الجنوب، فهناك مياهٌ عذبة. ومن جبل سنام إلى قناة الحفّار حيث تُوجَد بئرٌ مياهُها صالحةٌ للشرب على بعد ستة أراغش. وفي هذا المكان يَتزوَّدون بالماء لرحلةِ سبعة أيام مقبلة، إذ لن يجدوا ماءً ولا مسكناً خلالها. وبعد رحلة سبعة أيام يجدون بئراً مياهها صالحة للشرب، فيتزودون بها لمدةِ ستةٍ أيام مقبلة يصلون في ختامها إلى عنزة، وهي بئرٌ ذات مياه عذبة يَتزوَّدون منها مرةً أخرى لمدة ثلاثة أيام مُقبِلة يصلون خلالها إلى نجد التي تُوجَد فيها قلعتان تقابل إحداهما الأخرى ويسكنهما العرب. فيتزوَّدون بالمُؤَن والأطعمة مقابل النقود، ولكن المياه غير صالحة للشرب هنا. ومع ذلك، عليهم أن يَتزوَّدوا بها لمدة خمسة أيام مقبلة. وحينما تنتهي تلك الأيام الخمسة يجدون بئراً تساعدهم على قطع يومين آخرين، بعدها يجدون بئراً أخرى ذات مياه مَجّة· ولكن عليهم أن يتزوّدوا منها لمدة أربعة أيام مقبلة، يصلون في ختامها إلى بئرٍ تُسمّى حرم بكلرلر. وفي هذا المكان يخلع جميع الحُجّاج ملابسهم ولا يتركون شيئاً يغطي أجسادهم باستثناء قطعة قماش لستر العورة.

جبل عرفات ـ شعاب حفّار

وبعد أن يَتزَّود الحُجّاج بالماء لمدة سبعة أيام مُقبِلة يواصلون سَيرهم إلى جبل عرفات الذي يقضون ليلتهم فيه برمي الجمرات على الشيطان. وفي صباح اليوم التالي،

حولها تقريباً منبسطة جداً، بحيث بدت الجبال وكأنها جزيرة وسط البحر. انظر ترجمتنا: رحلة بيدرو تيخيرا من البصرة إلى حلب، ص ٤٨.

يرتدون ملابسهم مرةً أخرى بعد أن يَضحّوا.

وهناك آبار على جبل عرفات يأخذون منها ما يكفي من المياه للوصول إلى مكة التي لا تبعد سوى رحلة يومٍ ونصف اليوم. ومن مكة يذهبون إلى وادي فاطمة، وهو المكان الذي يُوجَد فيه ضريح فاطمة، الذي يبعد رحلة إثني عشر يوماً، يجدون خلالها آباراً ولكن في مناطق خالية من السكان. ومن وادي فاطمة يذهبون إلى المدينة التي تبعد خمسة أيام، ويعودون من المدينة إلى شعاب حفّار في غضون خمسة وثلاثين يوماً، ومن هناك إلى البصرة.

يمتلك والي البصرة الكثير من البيوت الريفية الجميلة، من بينها بيت يقع مقابل فتحة القناة الصغيرة للبصرة، على الجانب الآخر من شط العرب.

رعايا والي البصرة ـ الكراملة

ورعايا والي البصرة من العرب والصابئة، ولكن إلى جانب هؤلاء هناك بعض الفُرس والهنود الذين يعيشون في عاصمة الولاية. ولهؤلاء الأخيرين معابد هناك (١). ولا يعيش أي إفرنجي هناك، بإستثناء الآباء الكراملة المُبجَّلين، الذين لهم ديرٌ يعلوه شعار الصليب. ولديهم في ذلك الدير كنيسة لا تقتصر خدماتها على الفرنجة فحسب، وإنما تمتد لتشمل الأرمن والنساطرة، الذين يرتادون المدينة خلال الموسم أيضاً. فهُم يذهبون إلى هناك لأداء الصلاة، ولكنهم لا يُرتِّلون القُدّاس فيها. ويحصل الوالي دائماً

(١) وَرَدَ في النص بصيغة باغود (Bagods)، وهي كلمة برتغالية تعني المعبد في بلدان الشرق الأقصى.

على بعض الهدايا من أولئك الرهبان الطيبين هديةً للدير. أما الفرنجة الآخرون، مثل البرتغاليين والإنكليز والهولنديين، فلا يأتون إلى البصرة إلّا خلال الموسم، ويغادرون بسفنهم عند نهايته.

دهاء الهولنديين في حرق القرفة

وقبل وصولي البصرة بيومين كان الهولنديون قد أحرقوا كميةً كبيرةً من القِرفة لأنَّ التجار امتنعوا عن إعطائهم السعر الذي طلبوه عنها، مما أثار غضبهم فَصرَّحوا علنا بأنهم سيحرقونه، وهو ما قاموا به فعلاً في وكالتهم التجارية، وقد إلتهمت النيران كميةً كبيرةً منه بحيث كانت رائحته تُشم من كل المناطق المجاورة.

الحرية في البصرة

وخلال الموسم يلقى جميع الفرنجة والأجانب الآخرين استقبالًا حسناً في البصرة، ولا يجرؤ أي شخصٍ على مضايقتهم أو الإساءة إليهم. وقد يرتدي كُلُّ واحدٍ منهم عمامةً بيضاء أو خضراء أياً كان دينهم. وقد عَلِمتُ بأنهم غالباً ما يبتزون الفرنجة الذين يَتخلَّفون بعد إنتهاء الموسم.

الصابئة أو مسيحيو القديس يوحنا- تعميد الصابئة

لابُد أن أذكر هنا شيئاً عن الصابئة، الذين يُسمُّونَ مسيحيي القديس يوحنا أحياناً، ولكن هذا خطأ فادح لأنهم أقرب إلى الكُفّار منهم إلى المسيحيين. فقد أكَّد لي أحدهم -كان قد اعتنق الكاثوليكية الرومانية وكان أحد الذين ذهبوا إلى روما قبل بضع سنوات- أنهم مزيجٌ من المسيحيين والأتراك = المسلمين، واليهود والكُفار.

والحقيقة أن تسمية مسيحيين أطلقت عليهم بسبب التعميد الذي يقومون به إحياءً لذكرى تعميد القديس يوحنا لمُخلِّصنا. وينطبقُ الشيء ذاته على الأتراك حينما يَتحدَّثون عن الدين اليهودي في مسألة الختان. ولكن التعميد هنا بالاسم فقط، لأنهم لا يُعمِّدون باسم الثالوث الأقدس، ولا يقومون به في أيام الآحاد، وإذا ما ولِدَ الطفلُ في أي يوم آخر فسينتظرون إلى يوم الأحد [١] حتى لو كان مُهدداً بالموت. فيُحمَل رجلٌ الطفلَ إلى ضفة النهر لأنهم يعتقدون أن التعميد لا يتمُّ إلّا بالماء الجاري. وعلى هذا الأساس تراهم يعيشون دوماً قُرب الأنهار ولا يسكنون الأماكن الخالية من الأنهار. فيذهب أحد كهنتهم مع الرجل الذي يحمل الطفل، وحينما يصلان إلى ضفة النهر يتلو الكاهن هذا الدعاء [٢]: (باسم الحي العظيم؛ البركةُ لجميع المؤمنين؛ ولجميع المندائيين المصبوغين في الماء الحي، الذين للحي يشهدون؛ والأعمال الصالحة يعملون؛ وبمنداهيتي يعترفون؛ وللثلاثة أبناء جيل الحي المتألق يخشعون). ثمّ يقوم برشّ قليلٍ من الماء على رأس الطفل الرضيع ويردد الدعاء ذاته مرةً أخرى، ثمّ يرشّ الماءَ مرةً أخرى على رأس الطفل، يُردِّد بعدها الدعاء ذاته للمرة الثالثة، ويرشّ الماءَ للمرة الثالثة على رأس الطفل. وبعد أن يتمَّ ذلك يحمل الطفل ويُغطِّسه ثلاث مرات

(١) للمزيد من التفاصيل عن هذا الطقس، راجع: كنز ربا (الكنز العظيم)، الكتاب المقدس للصابئة المندائيين، ترجمه إلى العربية من المندائية يوسف متي وصبيح مدلول الزهيري، وأعدّ صياغته الأدبية عبد الرزاق عبد الوأحد، بغداد، سنة ٢٠٠٠ [خالد عبد اللطيف حسين].

(٢) الكتاب الخامس عشر، مواعظ للمندائيين [خالد عبد اللطيف حسين].

في النهر، وهذا كل ما يخصُّ طقس التعميد.

وهم لا يكتفون بالتعميد مرةً واحدة في حياتهم، وإنما غالباً ما يُكرِّرون هذه الطقوس كُلَّ سنة في غضون خمسة أيام، فكُلُّ شخصٍ، كبيراً كان أم صغيراً، شاباً أو كهلاً، ذكراً أو أنثى، يَتعَّمد ويُكرَّر التعميد.

الأسرار المُقدَّسة للصابئة – خبز القربان

وللصابئة أربعة أسرار مُقدَّسة فقط، وهي: التعميد، والقُربان، والرهبنة، والزواج. وهم لا يعترفون بالتوثيق ولا بمسحة الزيت المُقدَّس، ولا بالتوبة. وفيما يخصُّ سر القربان المُقدَّس، فهو قربانٌ بالاسم ليس إلا. أمّا التعميد فلا يزيد عمّا ذكرتُ، فلا يردِّدون عبارات التكريس على خبز القربان المُقدَّس، وإنما بعض الأدعية فقط. وهم يصنعون خبز القربان المُقدَّس بنقع الطحين بالخمر والزيت. وفي ما يَخصُّ خمر النذور، فهم يستخدمون الخمر المُستَخرَج من العنب المُجفَّف = الزبيب المنقوع بالماء، فيعصرونه ويستخدمون الخمر ذاته لإبلال الطحين الذي يصنعون منه القُربان.

كهنة الصابئة

وفيما يخصُّ الرهبنة، فلديهم طبقةٌ دُنيا وطبقةٌ عُليا من الكهنة، ولكنهم لا يقيمون طقوساً كبيرة لترسيمهم، لأنَّ الأبناء يتبعون آباءهم في الكهانة، شريطة أن يبلغوا السادسة عشرة أو السابعة عشرة من أعمارهم. وفي حال فشل الأبناء يأتي أقرب الأقرباء. وهذا كُلُّ ما يخصُّ طقس النذور، ويتلو الكاهن عليه بعض الأدعية ليصبح كاهناً، وهذا يكفي.

زواج الصابئة

وفيما يخصُّ الزواج، فلمباركته يأخذ الكاهنُ قَسَمَ العروس بأنها عذراء بحضور إمرأة تُستَدعى لهذا الطقس، فتجعلها تُقسِمُ بما يشاء. ولابد لزوجة الكاهن أن تَتَقصَّى عنها وتُقدِّم عنها تقريراً، ثمّ يقوم الكاهن بتعميد العريس والعروس، ثم يجعل كُلاً منهما يدير ظهره نحو الآخر، مُردداً بعض الأدعية عليهما، فيُعقَد الزواج. ولُكلِّ رجلٍ أن يتزوج إمرأتين، سواء من العلمانيين أو من الكهنة. ولكن جميع نساء الكهنة لابد أن يُكنّ عذراوات عندما يتزوجن.

الصابئة لا يعرفون ما الإنجيل ـ أعياد الصابئة ـ عيد بنجيا

والصابئة لا يعرفون ما الإنجيل، ويكون قُدّاسهم كُلُّه من بعض الصلوات وفي تناول خبز القربان المُقدَّس المصنوع بحسب طريقتهم، وفي تناول الخمر المصنوع من العنب المُجفَّف. وهم لا يَتلونَ القُدّاس في البصرة لعدم وجود كنيسة لهم فيها. ولا يعملون في أيام الآحاد، ولديهم ثلاثة أعياد في السنة، واحدٌ في مطلع السنة الجديدة ويستمر ثلاثة أيام، وهو بمناسبة خلق آدم. والثاني في بداية الشهر الرابع، ويستمر ثلاثة أيام أيضاً، وهو عيد القديس يوحنا. أمّا الثالث فيكون في بداية الشهر السابع، ويستمر خمسة أيام، وهو بمناسبة تعميد القديس يوحنا لمخلِّصنا. وجميع الصابئة يَتعمَّدون خلال تلك الأيام الخمسة مرةً واحدة في كُلِّ يوم، وهم يسمون العيد الأخير

عيد بنجيا (١) [البنجا].

اعتقادهم بالمسيح عيسى ورأيهم بالحياة الأخرى

وهم لا يعترفون سوى بالقديس يوحنا ووالده القديس زكريا وأمه القديسة أليصابات· ولا يعرفون عن المسيح عيسى سوى أنه خادمٌ للقديس يوحنا. أمّا فيما يخصُّ العالم الآخر فهم لا يعترفون بالأعراف، وإنما بالجنة والنار فقط، وهم يقولون إنّ الأشرار سيمرون، بعد موتهم، فوق صراطٍ ضَيِّق تحرسه الأسود والثعابين وبعض الحيوانات المُفتَرِسة الأخرى التي ستلتهمهم، في حين سيمر الأخيارُ عبر الطريق ذاته، لكنهم سيجتازون تلك الحيوانات، مباشرةً نحو الجنة، التي يَتَخيَّلون -مثل الأتراك [يقصد المسلمين]- أنها مادية، بعد أن استعاروا منهم الكثير من الخرافات التي تُشكِّل جزءاً كبيراً من معتقدهم.

اللحم الذي يأكله الصابئة - كهنتهم هم القصّابون

ولا يَأكُل الصابئةُ أي لحمٍ باستثناء لحم الحيوان الذي ذبحه صابئيٌّ، ولو مَسَّه أي شخص من غير دينهم فسيعدّونه نجساً، ولن يأكلوه. ويقوم كهنتهم بذبح الدجاج والخِراف والسمك، فيخلعون ملابسهم عند قيامهم بذلك، ويرتدون زوجاً من السراويل الداخلية البيضاء يُمرَّر بها حزامٌ من الحبال، ويَلفُّ جسده بقميصٍ داخلي

(١) عيد بنجيا أو البروناية: هو عيد الخليقة العلوي، ذكر تكوين عالم النور والأرواح الأثيرية، وفيه يحتفل الصابئة باكتمال النبات في شهر آذار / مارس [خالد عبد اللطيف حسين].

أبيض فيه حبلٌ أيضاً، ويرتدون عمامةً بيضاء يتَدلّى طرفها على كتفهم اليسرى، ومنشفةً بيضاء حول رقابهم على شكل إزار (١)، وغيرها من الأسمال التي تُصنَع منها عصّابةٌ مشابهةٌ للعصّابات المُستخدَمة في ربط الذراع بعد إراقة الدماء. ومجموع هذه القطع كُلُّها سبعُ قطع. وبعد أن يرتدوها يقومون بغسل قدمي ومنقار الدجاجة التي يريدون ذبحها مثلاً، لأنهم يقولون إنها تأكل القاذورات ودائماً تمشي عليها، ثمّ يذبحونها قائلين بلغتهم: بسم الحي العظيم إنّ هذه لفائدة مَن يأكلونها. ويفعلون الشيء ذاته مع الخِراف، سوى أنهم لا يغسلونها، قائلين إنها تأكل العشب فقط وليس القاذورات. وينطبق الشيء ذاته على الأسماك. وتمتد سلطة القيام بتلك المهمة إلى أبناء الكهنة حالما يبلغون السادسة عشرة أو السابعة عشرة من العمر، شريطة أن يكون آباؤهم قد مارسوا تلك الوظيفة. وبخلافه لا يُسمح لهم بممارستها، وقد دفعني الفضول لمشاهدة هذا الطقس السار.

الصابئة لا يسمحون لغيرهم بالشُربِ من إنائهم ويشمئزون من اللون الأزرق

يحرصُ هؤلاء القوم (الذين يعتقدون أن كل مَنْ ليسوا من دينهم مُدنَّسون) على عدم الشرب من الإناء الذي يشرب منه غير الصابئي. ولو وقع بأيديهم مثل هذا الإناء

---

(١) وَرَدَتْ الكلمة في النص الفرنسي بصيغة (étol)، وفي النص الإنكليزي بصيغة (Stole)، وتعني بطرشيل، وزنار، وروب، وكلها مترادفات لمسمى وأحد للتفاصيل انظر: قاموس المصطلحات الكنسية، مادة (بطرشيل).

فسيكسرونه حتى لا يَتلوَّث أحدهم لو شرب به. ولهم خرافةٌ غريبةٌ أخرى وهي أنهم يمقتون اللون الأزرق، مثلما يمقت اليهود لحمَ الخنزير لسببٍ تافه جداً. فهم يقولون إن اليهود حينما علموا، من خلال كتبهم، بأنَّ التعميد سيُهدِّم شريعتهم لجأوا إلى الحِيلة، فقاموا بإلقاء كمية كبيرة من صبغة النيلة في نهر الأردن لإفساد الماء حينما علموا أن القديس يوحنا بصدد تعميد سيدنا. ولكن الربّ أرسل ملاكاً يحمل إناءً مليئاً بالماء النقي النظيف من مكانٍ آخر في نهر الأردن قام القديس يوحنا بتعميد سيدنا عنده. وهذا رأيُ العامّة، لكن أحدهم أخبرني أن السبب في مقتهم ذلك اللون هو أن غائطَ الكلب يُستَخدَم في صُنع تلك الصبغة، وأنهم يُعدّون الكلب حيواناً نجساً.

هرويز والكرخة

ومعظمُ الصابئة صاغةُ ذهبٍ، وكلهم فقراء جداً. ويعيش عددٌ كبيرٌ منهم في البصرة حول القناة، كما يعيش البعض منهم في قرى الجزاير. ولكن القسم الأعظم يعيشون في هرويز [١] وشوشتر، وهما مدينتان خاضعتان للملك الفارسي في إقليم خوزستان. وتبعد المدينة الأولى = هرويز أربعة أيام عن البصرة، ويرويها نهر الكرخة الذي يصبُّ في نهر دجلة فوق المكان الذي يَتّحد عنده بنهر الفرات بقليل. أمّا الثانية، وهي مدينة شوشتر، فهي المدينة الرئيسة في خوزستان، وتبعد ثمانية أيام عن البصرة، ويرويها نهر الكارون، كما ذكرتُ سابقاً.

---

(١) ربما الحويزة.

إن الصابئة جهلةٌ بشكلٍ متطرف، وحكماؤهم لم يدرسوا دينهم بإمعان، فليس لهم سوى كتابين، تمّ تدوينهما قبل مدة ليست طويلةً. ومع أنهم يذكرون أن تأريخهما يعود إلى عصر آدم، لكن الحقيقة أن المُحمَّديين وورثتهم أحرقوا كتبهم القديمة وكنائسهم. ودليلاً على غباء هؤلاء الناس فقد أجابوا سؤالي عن عدد الأشهر في سنتهم قائلين إنهم لا يعرفون ذلك وإنَّ عليَّ أن أسأل شيخهم، وينطبق الشيء ذاته على أي شيء آخر.

قربان الدجاجة لدى الصابئة ـ سنة الصابئة

الإثنين، ٢ تشرين الثاني / نوفمبر: في هذا اليوم من السنة الحالية، (١٦٦٥)، حينما شاهدتُ قربان الدجاجة، وجَّهتُ لهم أسئلةً كثيرةً جداً، وعلمتُ أخيراً أن سنتهم تَتكَوَّن من (٣٦٦) يوماً، أي إثني عشر شهراً يتكوَّن كل شهر منها من ثلاثين يوماً، إلى جانب ستة أيام إضافية. وعلمتُ أيضاً أنهم يَعدُّونَ ذلك اليوم، الثاني من تشرين الثاني / نوفمبر، العشرين من شهرهم الأول. لذا فإن سنتهم تبدأ في الثالث عشر من تشرين الأول / أكتوبر. وبَذلتُ ما بوسعي لأعلمَ شيئاً عن أعمارهم، لكنني لم أفلح. إلى جانب ذلك، فقد علمتُ أن عيدهم الأول يبدأ في هذه السنة، والعيد الثاني يبدأ بعد ثلاثة أشهر، بعدها بثلاثة أشهر يبدأ العيد الثالث.

الفصل العاشر: الرحلة من البصرة نحو الهند

مغادرة البصرة على ظهر السفينة هوپول

الجمعة، ٦ تشرين الثاني / نوفمبر: أَبحرتُ من البصرة على متن سفينةِ شخصٍ أرمني تبلغ حمولتها مئتين وستة أطنان، وتُسمّى هوپول. وكانت هذه السفينة تحمل

ثمانية عشرة مدفعاً، وعلى متنها واحد وثلاثون بحّاراً، منهم ستة وعشرون بانياسياً(١)، والخمسة الباقون مُحَمَّديون. وليس على متنها فرنجةٌ باستثناء القبطان الذي كان من ليغورن، ونائب ضابط مسؤول عن المدافع وهو من مواليد طولون، وبحّاران أحدهما بندقي والآخر يوناني مـن كاندي = كريت. وهذه السفينة إنكليزية الصنع، وكانت مُلكيتها تعود سابقاً إلى رئيس سورات الإنكليزي الذي يملك ثلاث سفن أخرى أيضاً، وكانت تحمل حينذاك ثمانية وعشرين مدفعاً. ولكن بسبب الحرب الدائرة بين الإنكليز والهولنديين، ولإدراك الرئيس أنه غير قادر على حماية تلك المدافع من الهولنديين الذين كان لديهم سفنٌ كثيرةٌ في الهند الشرقية حينذاك، قام ببيعها قبل نحو سنة للأرمن، فاشترى أحدهم، وهو الخواجة أمين، الذي ذكرتُه سابقاً، إثنتين منها، وكانت هذه السفينة إحداهما، وقد اشتراها بستة عشر ألف روبيةً، وهي تعادل ثمانية آلاف قرش، ورفع الأعلام الأرمينية عليها.

وهذا القُبطان يحمل ثلاثة أجوزة [جوازات] سفر، أحدها برتغالي، وآخر إنكليزي، وثالث هولندي. وكانت السفينة لعدة سنوات سابقة تحت قيادة قبطان

---

(١) البانياس (Banias): فئةٌ من التجار الهندوس ممَنْ يزاولون عدداً من الوظائف الشرقية المركنتيلية ومن المشتغلين بالتجارة خارج الهند. وهم أيضاً مجموعة من الصيارفة الذين يُشار إليهم في بعض الروايات بكلمة بانياس، أو بانيانس. والكلمةُ مشتقة من المفردة السنسكريتية فانيجي. انظر: Scott C. Levi, The Indian Diaspora in the Central Asia and its Trade 1550-1990, Brill, Netherlands, 2007, p. 105.

يوناني يُدعى (القبطان فسكولو)، وهو رجلٌ ذو خبرة كبيرة في تلك البحار، وله مهارة عالية في الأرصاد، لكنه تُوفي في البصرة في شهر أيلول / سبتمبر من السنة الحالية (١٦٦٥) بسبب إصابته بإلتهاب في حنجرته، فعيّن الأرمن بدلاً عنه رجلاً من ليغورن يدعى برناردو كان في ما سبق ربّاناً في السفينة ذاتها. وكان هذا بحّاراً جيداً، ولكنه لا يعرف كيف يبدأ رحلةً ولا يجيد الرصد. والحقيقة أنه لا يعرف القراءة ولا الكتابة، ولم يتلقَ سوى تعليمٍ بسيط من خلال الرحلات الكثيرة التي قام بها في تلك البحار.

وكان الأرمن يريدون ترئيس أحد الإنكليز، وهو ملاّحٌ جيد كان قد أنهى خدماته في سفنٍ أخرى، ولكنه رفض الوظيفة بسبب اندلاع الحرب حينذاك بين الإنكليز والهولنديين، ولأن الهولنديين أخبروه بأنهم لا يستطيعون حمايته من بوارجهم التي ستوقعهُ في الأسرِ لا محالة، إذا ما تقابلت مع سفنه. وإلى جانب هذا القبطان لدينا ملاّحان مُحَمَّديان، أحدهما يقودنا حتى جزيرة خرج، والآخر إلى سورات مسقط رأسه.

حمولة السفينة هوپول

كانت هذه السفينة مُحَمَّلة بصبغة النيلة والأقمشة والسلع الهندية التي لا يمكن أن تباع في البصرة، فكان علينا تفريغها في خرج لتُنقل إلى بلاد فارس. إلى جانب ذلك، كانت تحمل على متنها كميةً كبيرةً من التمور، وعشرة خيول، وبعض صناديق الزجاجيات، وبعض المرايا البندقية الكبيرة، وعدة أكياس كبيرة من النقود.

أجرة السفر من البصرة إلى سورات

وعند سفرنا من البصرة إلى سورات دفعنا أربعين عباسياً، أو عشرة قروش، ريـال للشخص الواحد. ولكن المرور في السُفن المُحمَّدية لا يكلف أكثر من خمسة عشر عباسياً. واستأجرتُ أيضاً من مسؤول المدفعية حُجرةً صغيرةً لي في زاوية حُجرة المدفع، بسعر أربعين عباسياً ثمناً للرحلة من البصرة إلى سورات. وكان طولها ستة أقدام وارتفاعها نحو ذلك وعرضها أربعة أو خمسة أقدام، لذا فهي ملائمةٌ لراحتي؛ فهنا سريرٌ من الألواح الخشبية ارتفاعه قدمان عن سطح السفينة، وفيها حُجرةٌ كافيةٌ لأمتعتي، ولكنني لا أستطيع النوم فيها ليلاً لعدم وجود مكان مناسب للشمعة.

وحرصتُ على أن أحمل معي جَرّةً كبيرةً ملأتها بماءٍ صالح للشرب، فهي مفيدةٌ جداً ولا يمكن الإبحار من دونها. وهذه الجَرَّة مُغطاةٌ بسدَّادةٍ خشبية وتُغلَق بقفل، وهي مُفيدة جداً حينما يشحُّ الماء على ظهر السفينة عندما يلجأ كلَّ شخصٍ إلى جرّته. ومع أن القبطان تزوَّد بمخزونٍ جيد من الماء العذب، بيد أن لدينـا سبباً وجيـهاً لنخشـى مـن شحّة المياه، فإلى جانب العدد الكبير من الناس لدينا على ظهر السفينة عشرة خيول وبضعة خِراف وماعز ودجاج. كما أخذتُ احتياطياً من البسكويت وغيره من المستلزمات الضرورية الأخرى، مع ما أكلتُه وأكله القبطان والفرنجة الثلاثة الآخرون الذين كانوا على متن السفينـة.

مغادرة السُفن من البصرة – شط العرب

السبت، ٧ تشرين الثاني / نوفمبر: قضينا أربعة أيام بين البصرة ومصب شط

العرب. ولأننا كُنّا طوال يوم السبت، الثاني من تشرين الثاني / نوفمبر، أمام البصرة، فقد قَضَّينا ذلك اليوم في تنظيف السفينة وشرب البراندي مع وكيل صاحب السفينة الذي مكث في البصرة وأرسل بديلاً عنه ليرافقنا إلى سورات، حيث يقيم سيده. فقضينا طوال ذلك النهار حتى الليل في الشرب بالسلامة إن شاء الله [١]، مع ضجة المدافع. وأخيراً، بعد أن غادر التاجر، رفعنا المَرساة لكن لمدةٍ قصيرة جداً، لأننا اضطررنا لإلقائها ثانيةً عند انتصاف الليل بسبب عدم استطاعتنا التقدم إلّا بمساعدة تيار المد. لذا كان علينا البقاء خلال الجزْر قبل أن نرفع المَرساة مجدداً عند ارتفاع المد. وقد اضطررنا إلى سلوك هذا المسار لا بسبب تَجدُّد القمر الذي لم يَتغيَّر حتى يوم السبت، السابع عشر من تشرين الثاني / نوفمبر، أو بسبب الرياح الجنوبية الشرقية التي تهبُّ خلال ذلك الوقت فحسب، وإنما لبضعة أيامٍ أيضاً، بعد تجدد القمر، مع أن الرياحَ أخذتْ تميل نحو الشمال الغربي، فيمكن أن تفيد وجهتنا بسهولةٍ. إلى جانب ذلك، فقد أدى الخلاف الذي نَشَبَ على ظهر السفينة إلى تأخيرنا كثيراً، لأنَّ القبطان كان له رأي والبحّاران كلاهما كان لهما رأيٌ وجميع التجار أدلوا بدلوهم أيضاً، مما تَسبَّبَ بإرباكٍ كبير، فكان أحدهم يَتَحدَّث بالأرمينية، وآخر بالهندية، وثالث بالفارسية، ورابع بالتركية، وخامس بالبرتغالية، حتى إن أحدهم لم يفهم ما يقوله الآخر، مما أوقع فوضى بينهم، مثل الفُوضى التي أرسلها الرب على بُناة برج بابل [٢].

---

(١) كتبها الرحّالة بلفظها العربي: (Selemet in Schalla).

(٢) راجع بهذا الخصوص ما ذكره الرحّالة توماس هربرت. انظر: ترجمتنا، العراق وملاحظات ←

جُزُر بوشالي والفيّاضي والبورين

إن كُلَّ ما تَصوَّرتُه جديراً بالملاحظة في هذه الرحلة حتى وصولنا إلى البحر هو عبورنا بين البصرة وجزيرة الفياضي، واضعين تلك الجزيرة على جهتنا اليسرى، فضلاً عن جزيرتي بوشالي والبورين. وكان رجلان من رجالنا يقومان بتغطيس قضيب، لمعرفة عمق الماء بالقامة، وغالباً ما كانوا يجدون عمقه ثلاث أو أربع أو خمس قامات.

الإثنين، ٩ تشرين الثاني / نوفمبر: في هذا اليوم لامَسَتْ سفينتُنا اليابسةَ عند رأس جزيرة چادر التي تقع بإتجاه النهر المتجه إلى البحرين؛ إذ لا يتجاوز عمق الماء هناك أحد عشر قدماً، أو قامتين إلّا قدماً واحدة. والسفينة تحتاج ما لا يقل عن ثلاثة عشر قدماً لتغطس في الماء. فأجبرنا ذلك على انتظار ارتفاع مدّ الماء مُجدَّداً ليحملنا. حينذاك غادرنا الجزيرة الواقعة على جهتنا اليمنى. وفي نحو الساعة السابعة مساءً مررنا أمام مصب قناة الحفّار التي كانت على جهتنا اليسرى، وهناك لاحت لنا جزيرةُ قيبان التي تمتد من ذلك المكان حتى البحر.

جزيرتا چادر وقيبان

الثلاثاء، ١٠ تشرين الثاني / نوفمبر: رفعنا المَرساة قبل بدء تيار الجزْر بساعةٍ واحدة قبل طلوع النهار، وواصلنا رحلتنا بين جزيرة چادر وجزيرة قيبان، وهناك وجدنا الماء أَقلَّ ملوحةً. وعند هذا المكان ينتهي مشهد النخيل، وتبدو الأرض على

شرقية ...، ص ٢٣.

كلا الجانبين سهولاً مستويةً وجرداء وواطئةً جداً، بحيث تغرق كلها عند ارتفاع المد. وبعد نحو ساعتين من شروق الشمس قذفتنا المياه بعيداً جداً نحو اليابسة جنوباً حتى لامست مُؤخَّرةُ السفينة الشاطيء، وهذه حالةٌ لا يمكن تجنبها في هذا المكان؛ إذ تضطر جميع السُفن إلى الجنوح نحو الساحل. ومع ذلك، ومع أننا كُنّا قريبين جداً من اليابسة، لم يكن غاطس السفينة يتجاوز قامتين عند مؤخرتها وثلاث قامات عند مقدمتها، فقذفنا تيار الماء نحو الأمام بسرعة كبيرة. في الوقت ذاته بذل رجالنا ما بوسعهم للخروج من القناة مُجدداً، ونجحنا أخيراً في تحقيق ذلك بمساعدة قاربنا الذي كان يسحبنا. وقد شاهدنا السُفن المُحمَّدية الثلاث التي غادرت البصرةَ في يوم مغادرتنا، وقد عانت كُلُّها المصيرَ ذاته، إذ قذفها تيار الماء إلى الشاطيء كما قَذَفَ سفينتنا. وكان المسار الذي سلكناه من البصرة حتى وصولنا إلى البحر جنوبياً غربياً حينما كانت الرياح جنوبية شرقية، ثمّ تَحوَّل إلى شمالي غربي، وقد حرصنا دائماً على الإبقاء أن يكون مسارنا شرقياً وجنوبياً شرقياً، أو جنوبياً وجنوبياً شرقياً.

في نحو الساعة التاسعة صباحاً هَبَّتْ علينا نسائمُ شماليةٌ غربيةٌ خفيفةٌ، جعلتنا ننشر الميزان وشراع الميزان العلوي، ثمّ انطلقنا نحو الجنوب والجنوب الغربي بسرعةٍ، مُسرِعينَ بقدر تزايد برودة الرياح. والماء باردٌ جداً عند هذا المكان. وفي نحو الساعة الثالثة والنصف مساءً ألقينا مرساتَنا بالقُرب من مصب النهر لأنَّ رجالنا لا يغامرون بالإبحار في أثناء الليل لئلا تجنح السفينة، لأنَّ عمق مياه النهر هناك لا يزيد على قامتين عند انخفاض المد، وفَعلَتْ السُفن الأخرى كما فعلنا. وعند منتصف الليل تقريباً تَوقَّفت الرياح.

موسم الإبحار

الأربعاء، ١١ تشرين الثاني / نوفمبر: في اليوم التالي رفعنا المَرساة في نحو الساعة السادسة والنصف صباحاً. وبعد أن نشرنا شراع المُقدِّمة العلوي إنطلقنا نحو الجنوب والجنوب الشرقي. ولكن حينما وجدنا الجو أسرعَ من الساكن بقليل، تَقدَّمنا نحو الأمام قليلاً. ومع ذلك، بدأنا نفقد مشهد اليابسة من جميع الجهات، وأصبح عمق المياه تحتنا بين خمس إلى ست قامات. وفي نحو الساعة التاسعة ألقينا المَرسَاة بانتظار المد، لأنَّ عمق الماء كان قليلاً حينذاك. وفي نحو الساعة الحادية عشرة بدأ المد يتصاعد فرفعنا المَرساة. وفي الوقت ذاته هَبَّت رياحٌ شماليةٌ غربيةٌ، فنشرنا جميع أشرعتنا وتتبعنا مساراً جنوبياً شرقياً تارةً وجنوبياً تارةً أخرى وجنوبياً غربياً تارةً ثالثة بحسب عمق المياه التي كانت لا تزيد على ثلاث قامات أحياناً، أو أربع قامات أحياناً أخرى. وعند الساعة الواحدة والنصف كان عمق الماء أربع قامات ونصف القامة. وبعد نصف ساعة أصبح عمقها خمس قامات. ولكن في الوقت ذاته بدأت الرياح تتلاطم جنوباً، فاضطررنا لطوي الأشرعة وألقينا المَرساة. فمن الخطير جداً الإبحار من هذا النهر خلال الأيام الأولى من شهر تشرين الثاني / نوفمبر بسبب الرياح الجنوبية التي تَهبُّ في ذلك الموسم وتستمر طوال شهر تشرين الثاني / نوفمبر، فتقذف جميع السُفن التي تبحر متأخرةً جداً.

الخميس، ١٢ تشرين الثاني / نوفمبر: أشرقت الشمس وكانت الرياح جنوبيةً شديدةً. وفي الوقت ذاته كانت السماء من جميع الجهات مُلبَّدةً بضبابٍ كثيف، فكان من الصعب علينا رؤية السُفن الأخرى التي كانت قد رفعت مراسيها للتو وشرعت

بالإبحار بمساعدة قواربها. وقد فعلنا نحن الشيء ذاته رغماً عن إرادة القبطان الذي كان متخوّفاً من هبوب عاصفة، وكان يريد البقاء عند المرسى. فبدأ قاربنا يسحبنا، وكانت السفينة تَتَجّه نحو الشرق والجنوب الشرقي، في مياهٍ كان عمقها خمس قامات. وفي نحو الساعة الثامنة والنصف رفعنا الشراع العلوي الأمامي وانطلقنا بإتجاه شرقي وشمالي شرقي، وبعد قليلٍ بإتجاه شمالي وشمالي شرقي. وفي نحو الساعة التاسعة نشرنا أشرعةَ الميزان بينما كان قاربنا لا يزال يسحبنا. وفي نحو الساعة التاسعة والنصف تغيرت الرياح إلى شرقية، فرفعنا أشرعتنا حالاً وحوّلنا سفننا نحو الجنوب الشرقي، وألقينا مراسينا بعد ربع ساعة في مياه عمقها ثلاث قامات. وفي ذلك اليوم سُمح لكل منا بما لا يزيد على مقدارين من الماء يومياً، (كُلٌّ مقدارٍ يساوي نحو ثلاثة پنتات ونصف پنت) [١] أحدهما لغلي الغلاّية والآخر للشرب. وفي نحو الساعة العاشرة والربع رفعنا المَرساة وقام قاربنا بسحبنا، ونشرنا أشرعة الميزان والشراع الرئيس العلوي وشراع المُقدَّمة العلوي، مع أن الرياح لم تستقر، فكانت بإتجاه حيناً وباتجاه آخر حيناً آخر، فحوّلنا اتجاه سفينتنا نحو الشمال الشرقي. وبعد قليل بدأت الرياح تَتجَّه نحو الجنوب الشرقي فغيّرنا اتجاهنا شرقاً، وأخيراً تَحوَّلت إلى جنوبية، وهكذا. وعند

---

(١) كلمة (Pint)، وهي وحدة قياس سعة رومانية، تختلف قيمتها باختلاف الأزمنة والمناطق، وطبيعة المواد المُقاسة. والكلمةُ مُشتقَّة من كلمة (sexarius) اللّاتينية التي تعني اللعبة السادسة. وفي ما يخصُّ المواد الصلبة فإن البااينت الوأحد يُعادل (١٢) بوشل (مكيال للحبوب) لكل (٦٤٠) بوصة مُكعَّبة، أو(١٥٢) لتراً. أمّا في ما يخصُّ المواد السائلة، أو المشاريب، فإن البااينت الواحد يساوي (٥٤) لتراً مكعباً.

الساعة العاشرة وثلاثة أرباع الساعة توقفنا.

الجمعة، ١٣ تشرين الثاني / نوفمبر: في هذا اليوم ساد رأي ملاّح جزيرة خرج والتجار على رأي القبطان، بحيث وافق على رفع المَرساة عند الساعة السابعة وثلاثة أرباع الساعة مع أن رأيه كان مغايراً. والحقيقة لم يكن هناك سبب لرفع المَرساة لأنَّ الرياح كانت تهبُّ بشدة من الجنوب الشرقي، كما أن المياه كانت منخفضةً من جميع الجهات، إذ كان عمقها أربع قامات حينذاك، ولكن بسبب المد والجزْر كان لدينا سبب للتوجس من الإرتطام باليابسة ومغادرة البحر، وكان التجار يريدون الإبحار وسط العاصفة. وأخيراً، ومع كل تلك الأسباب، قام رجالُنا بسحبنا، وقمنا نحن بنشر الأشرعة الأمامية العلوية ولكن بلا مسارٍ مُحدَّد. وقد فعلت السُفن الأخرى الشيء ذاته. وحينما رسونا بعد ثلاثة أرباع الساعة رَسَتْ هي أيضاً. وتَحدَّث هذه المضايقات حينما تَتَجَّمع سفنٌ كثيرة مع بعض بحيث لو رُفِعَتْ إحداهن مرساتها أو ألقتها تفعل الأخريات الشيء ذاته، فلو أبحرت السُفن وحَدَثَ خطأٌ ما، فسينحي الجميع باللَّائمة على القبطان الرئيس لكونه لم يفعل كما فعل الآخرون الذين من المفترض أنهم يفهمون صنعتهم.

السبت، ١٤ تشرين الثاني / نوفمبر: في صباح هذا اليوم شاهدنا سفينةً محمَّدية قادمة من البصرة كُنّا قد تركناها خلفنا. وبسبب الرياح الجنوبية الشرقية العنيفة التي استَمرَّت طوال يوم أمس بشكل متواصل رفعنا المَرساة عند الساعة التاسعة صباحاً، وشرعنا بالإبحار بعد أن نشرنا شراع الميزان والشراع الرئيس العلوي وشراع المُقدِّمة

الأمامي، مُتجهينَ نحو الشرق والشمال الشرقي. وعند الساعة التاسعة والنصف بدأت الرياح تَتَحوَّل إلى جنوبية غربية، فغيّرنا اتجاه شراع الميزان والشراع الرئيس العلوي وشراع المقدمة الأمامي وتَوجَّهنا نحو الشرق والجنوب الشرقي. وعند الساعة العاشرة استدرنا ثم تَوجَّهنا بإتجاه غربي وشمالي غربي لتفادي الإرتطام. وكُنّا نفعل ذلك كُلَّ نصفَ ساعة، حتى الحادية عشرة وثلاثة أرباع الساعة حينما بدأت الرياح تتلاطم بإتجاه الجنوب، فألقينا مرساتنا في مياه عمقها ثلاث قامات. وكُنّا نقوم باستدارات صغيرة بسبب انخفاض مستوى المياه من جميع الجهات، والتي لا يزيد عمقها عن ثلاث أو أربع قامات في الأغلب. واستَمرَّت الرياح في ذلك المنعطف طوال اليوم، بَيد أن الغيوم كانت تَتَكدَّس بعكس اتجاهها من الشمال الغربي إلى الجنوب الشرقي. ومن الساعة الثامنة حتى العاشرة ليلاً أمطرتنا السماء بوابلٍ من زخّات المطر. وأخيراً، تَغيَّرت الرياح بعد منتصف الليل إلى رياح شمالية غربية عنيفة.

الأحد، ١٥ تشرين الثاني / نوفمبر: مُنذُ فجر هذا اليوم أبحرت بقيةُ السُفن وبقينا نحن في المرسى مما سبب استياءً شديداً للتجار، فتشاجروا مع القبطان الذي أجابهم بأنَّ السُفن الأخرى مُتَّجهة إلى كنج، وأن هذه السفينة مُتَّجهة إلى خرج القريبة، لذا سيكون هناك وقت كاف للإبحار عند منتصف النهار، فلا داعي للعجلة والإقتراب من اليابسة لئلا تقذفنا الرياح بعيداً جداً. ومع ذلك، ومن أجل استرضائهم، أَمرَ برفع المَرساة في نحو الساعة السابعة صباحاً، ولكنه أبحر بمساعدة الشراع الأمامي والشراع الأمامي العلوي والشراع المربع. فانطلقنا نحو الجنوب الشرقي. وكانت السفينة تسير بسرعة أربعة أميال ونصف الميل في الساعة. وفي نحو

الساعة السادسة مساءً اتجهنا نحو الشرق. وفي نحو الساعة السابعة اتجهنا نحو الشمال الشرقي، ثمّ قُمنا بطوي جميع أشرعتنا باستثناء الشراع المربع وشراع الأمامي العلوي، وكان عمق الماء هناك خمسة عشر قامةً. وفي نحو الساعة العاشرة طوينا جميع أشرعتنا باستثناء الشراع المُربَّع.

جزيرة خرجو

الإثنين، ١٦ تشرين الثاني / نوفمبر: تَوقَّفت الرياح في نحو الساعة الثانية بعد منتصف الليل، وبدأت تهبُّ مجدداً عند الساعة السادسة صباحاً ولكن ليس بقوة رياح يوم أمس. وبعد نحو نصف ساعة نشرنا جميع الأشرعة وانطلقنا بسرعةٍ نحو الجنوب الشرقي. وبعد وقتٍ قصير لاحت لنا جزيرة بندر ريق على جهتنا اليسرى. وفي نحو الساعة التاسعة والنصف أصبحت جزيرة خرج أمامنا، وعند منتصف النهار تقريباً أبحرنا بالقرب من جزيرة خرجو التي كانت على جهتنا اليسرى[١].

وتَمتدُ هذه الجزيرة بشكلٍ طولي من الشمال إلى الجنوب، وهي صغيرةٌ وتتكَوَّن أرضها من رمالٍ بيضاء، وهذا سبب كونها مهجورةً، وهي قريبةٌ من جزيرة خرج

---

(١) جزيرة خويريج أو خرجو: جزيرةٌ صغيرة منخفضةٌ أرضها رملية، يبعد ساحلها الجنوبي مسافة ميلين ونصف الميل (نحو أربعة كيلو مترات) عن الساحل الشمالي لجزيرة خرج. ويبلغ طولها من الشمال إلى الجنوب نحو ثلاثة أميال، وعرضها نصف ميل. انظر: مصطفى عبد القادر النجار ومُحمّد وصفي أبو مغلي، جزيرة خارج من جزر الخليج العربي، البصرة، ١٩٨٣، ص ٢١ [خالد عبد اللطيف حسين].

وتقع مقابلها مباشرةً، ولكن مستواها أوطأ بإتجاه بندر ريق. حينذاك قُمنا بطوي الميزان وشراع الميزان وتَوجَّهنا جنوباً.

جزيرة خرج

وعند الساعة الواحدة وجدنا عمق الماء ثلاث عشرة قامةً. وبعد نحو نصف ساعة لاحت لنا جزيرةُ خرج من جهة اليمين، وواصلنا تقدمنا بإتجاه جنوبي وجنوبي شرقي، في منطقةٍ كان عمق الماء فيها ست قامات. وعند الساعة الثانية والنصف كان عمق الماء ثماني قامات، فحوّلنا اتجاه سير السفينة نحو الجنوب الغربي. وعند الساعة الثانية وثلاثة أرباع الساعة ألقينا المَرساة إلى الشرق من الجزيرة، بإتجاه نقطة فيها تَطلُّ إلى الجنوب الشرقي، في منطقة كان عمق الماء فيها عشر قامات. وهناك وجدنا إحدى السُفن الثلاث التي تركتنا عند المرسى، لتفرغ بعض البضائع، ولكن السفينتين الأخريين بقيتا في البحر.

تَمتدُ جزيرةُ خرجٍ بشكلٍ طولي من الجنوب الشرقي إلى الشمال الغربي، وهي ضيقةٌ جداً، ويبلغ محيطها نحو ثلاثة أو أربعة فراسخ، وتَبعدُ عن بندر ريق نحو إثني عشر فَرسخاً، وعن البصرة نحو خمسين ميلاً. وبعض هذه الجزيرة جبليٌ وبعضها الآخر سهليٌ. وهي تَنتجُ القمحَ والشعير والتمور والأعناب اللذيذة، وفيها المياه العذبة أيضاً، التي تنبع من جبل تنتشر فيه الكثير من العيون القديمة، التي يبلغ عمقها عشر قامات أو إثنتي عشرة قامةً، محفورةٌ بالصخر من قمتها (كما يُقال). وهناك سلالم للنزول إلى قعرها. ويذهب جميع أهل الجزيرة إلى هناك لإستنشاق الهواء النقي في موسم الصيف.

وتمرُّ المياه من أعماق تلك العيون، ومن هناك تجري تحت الأرض في سهل. وبالقرب من تلك العيون مسجدٌ على جبلٍ. وفي الجزيرة كُلِّها ما لا يقل عن مئة وخمسين بيتاً (كما يُقال)، ولكنها مُبعثَرة شمالاً وجنوباً. وللصراحة فهي ليست أكثر من أكواخٍ بائسة. ومع ذلك، فلكُلٍّ منها بئر ماء.

صيد اللؤلؤ

وبالقُربِ من تلك الجزيرة يَتمُّ اصطياد اللؤلؤ بالطريقة ذاتها التي يُصطادُ بها في البحرين. وقِيل لي إن ما يزيد على مئة قارب صيد تُرى في موسم الصيد، وأقصد أشهر (مايس، حزيران، تموز، وآب) (مايو / يونيو / يوليو / أغسطـس).

وملكُ بلاد فارس سيدُ هذه الجزيرة، وله حاكمٌ عليها تابعٌ لحاكم بندر ريق. وأهلُ هذه الجزيرة كُلُّهم صيادون، ويعيشون على الأسماك المُملَّحة والتمور فقط. وعادةً ما تقصد السُفن المُتَّجهة إلى البصرة هذا المكان لإستئجار ملاّح يقودها إلى البصرة، وتعيده بعد أربعة أشهر إلى الجزيرة ذاتها، فتتركه فيها. وهناك تركنا نحن ملاّحنا الذي استأجرناه منذ أربعة أشهر. ولكن عملنا لم يقتصر على إيصاله إلى شاطيء الجزيرة، إذ إن مهمتنا الرئيسة إفراغ البضائع العائدة لخواجة أمين، وهي صبغة النيلة والملابس وغيرها من البضائع الهندية التي حملناها في السفينة ولم يتمُّ تصريفها في البصرة، على الرغم من سوء تصرف الوكيل الذي أصرَّ على إعادة تحميلها وإرسالِها إلى خرج لتُنقَل منها إلى بندر ريق، ومنها إلى أصفهان.

إلى جانب ذلك، كان علينا أن نصطحب بعض التجار الأرمن مع أموالهم، الذين

كانوا ينتظرون في هذه الجزيرة للذهاب إلى الهند. فخلال السنوات الأخيرة كان الأرمن الذين لا يدفعون الكمرك عند كنج يسلكون الطريق المباشر من شيراز إلى بندر ريق التي لا تُوجَد فيها دار للكمرك، ومن هناك يَمرُّونَ بجزيرة خرج، حيث ينتظرون فرصةَ مجيء بعضُ السُفن القادمة من ذلك الطريق، التي قد تحملهم هُم وأموالهم. ومع ذلك، فخلال الموسم الماضي نزل بعض الأرمن على الشاطيء عند عودتهم من الهند لتفادي دفع الرسوم عند كنج، فاحتكم محصِّل الضرائب إلى القضاء في أصفهان، مطالباً إياهم بدفع الرسوم الكمركية التي يُعتقد أنها كلّفتهم جزءاً مهماً من أموالهم التي كان عليهم أن يدفعوها في كنج، كما طالب بتأسيس دار للكمارك في بندر ريق.

الوصول إلى جزيرة خرج – خدعة هولندي

تبقى السُفن الواصلة إلى خرج على الجهة الغربية من البحر لئلا تقذفها الأمواج في الممر الضيق الواقع بين جزيرتي خرج وخرجو.

وما إن وصلنا إلى المَرسى حتى وَصَلت خمس أو ست ترنكينات (وهي القوارب التي وصفتها سابقاً) إلى مركبنا لتنقل جميع البضائع المُتوجِّهة إلى بلاد فارس، واستَمرَّت تلك العملية من الساعة الخامسة حتى الساعة السابعة والنصف مساءً. وقد انخدع رفاقنا بالتجار الأرمن كثيراً، بعكس توقعهم، فلم يجدوا أحداً نتيجة خدعة لقبطان السفينة ماسولیباتام الهولندي، الذي حَدَّثهم عن تجارته. ولأنَّ هذه السفينة قد انطلقت من البصرة قبل انطلاقنا بيوم، فقد وصلت إلى جزيرة خرج قبلنا بيومين من وصولنا إليها. فانتهز القبطان الفرصةَ، وأخبر التجار الذين كانوا ينتظرون

سفينتنا أنها لن تأتي هذه السنة، فَصدَّقوه وأخذوا أموالهم إلى سفينته. وكل ذلك تمَّ بسبب خطأ الوكيل، الذي بَقي في البصرة واحتجز السفينةَ في الميناء لاسبوعين إضافيين، للحصول على بعض السلع التي لم تُدفع عنها أجرة شحن تزيد على مئة قرش، وعن المسافرين الكثيرين في كُلٍّ من خرج، كنج، وكمبرون، الذين ركبوا في سفن وصلت إلى تلك الموانئ قبلنا.

وحينما أنزلنا جميعَ البضائع، وبدأَ الرجل يَهتمُّ بها، غادرنا عند السابعة وثلاثة أرباع الساعة، ونشرنا الشراع بأقصى ما يمكن، وانطلقنا بكل قوتنا بإتجاه الجنوب والجنوب الشرقي، بمساعدة رياح مؤاتية جداً. وعند الساعة العاشرة تَوقَّفنا حتى منتصف الليل، إذ هَبَّت رياحٌ شرقية خفيفة، ولكنها مؤاتية كالسابقة، فحملتنا جنوباً.

الثلاثاء، ١٧ تشرين الثاني / نوفمبر: في نحو الساعة الثانية أو الثالثة من فجر اليوم التالي أبحرنا بمحاذاة جزيرة ريشهر [١]، التي كانت على جهتنا اليسرى. وهذه الجزيرة قريبة جداً من اليابسة، وتُشكِّل ميناءً صغيراً يُسمّى بندر ريشهر، ويبعد يوماً

(١) تقع ريشهر على رأسٍ يمتد من الخليج العربي، وما لبثَتْ أن تدهورت أحوالها خلال القرن السادس عشر، ولكنها ظهرت على الخرائط البرتغالية الخاصة في القرن السادس عشر وأوائل القرن السابع عشر على أنها مكانٌ كبيرٌ يقع شمال غربي هرمز، وكانت لا تزال تُعرَف على أنها مركز للغوص وصيد اللؤلؤ في سنة (١٦٢٣). وفي سنة (١٦٤٥) حاول حاكمها أن يضع الترتيبات اللّازمة لإقامة شركة أوروبية في منطقته. ب. ج. سلوت، عرب الخليج في ضوء مصادر شركة الهند الشرقية الهولندية (١٦٠٢- ١٧٨٤)، ترجمة: عايدة الخوري، المجمع الثقافي، أبو ظبي، ١٩٩٣، ص ٣٤.

واحداً عن بندر ريق. وعليها حصنٌ كان البرتغاليون يشغلونه فيما مضى.

كوچر

وعند الفجر سبقتنا السفينتان، وكانت إحداهما قد انطلقت نحو خَرج قبلنا بخمسةِ أيام. وبُعيد الساعة السابعة والنصف أصبحنا جنوبي جزيرة كوچر، التي كانت على جهتنا اليسرى، وهي جزيرةٌ كبيرة جميلة. وعند الساعة الثامنة لمحنا رأس إحدى السفينتين اللتين سبقتانا، أما السفينة الثانية فكانت على مسافةٍ مُعيَّنة، فساعدتنا في تحديد مسارنا لبضع ساعات، فظننا بأنَّ قبطانها كان يُفكِّر أن يصل معنا. وكُنّا نخشى أن يكون قُرصاناً، ولكنه اندفع باتجاهنا أخيراً. وفي نحو الساعة العاشرة توقفنا. وعند الساعة الثانية عشرة وثلاثة أرباع الساعة تَحوَّلت الرياح إلى جنوبية، فدفعتنا نحو الشرق. وعند الساعة الثانية والربع استدرنا نحو الجنوب الشرقي. وعند الثالثة وثلاثة أرباع الساعة كانت الرياح تَهبُّ نحو الجنوب الغربي، فاستدرنا نحو الجنوب والجنوب الشرقي. وأخيراً هدأت الرياح، فبقينا عائمين حتى المساء وتَوقّفنا.

الأربعاء، ١٨ تشرين الثاني / نوفمبر: مع إقتراب النهار، هَبَّت رياحٌ شرقيةٌ وجنوبيةٌ شرقيةٌ خفيفةٌ دفعتنا نحو الجنوب والجنوب الغربي. وفي نحو الساعة التاسعة والنصف، بدأت تهبُّ بقوة من الجنوب، فاستدرنا نحو الغرب والجنوب الغربي. وفي نحو الساعة العاشرة وثلاثة أرباع الساعة تَحوَّلت إلى جنوبية وجنوبية غربية، فاستدرنا نحو الشرق. وبعد منتصف النهار بنصف ساعة تباطأت كثيراً. وفي نحو الساعة الخامسة مساءً توقفنا. وفي نحو الساعة التاسعة والنصف نشرنا الشراع الأمامي

وشراع المقدمة، ولكن قبل مسافة بعيدة وجدنا أن عمق الماء سبع عشرة قامة. وعند الساعة العاشرة مساءً تَحوَّلت الرياح إلى شرقية وجنوبية شرقية، وأخذت تهبُّ بقوة شديدة، فدفعتنا نحو الجنوب والجنوب الغربي، وكان عُمق المياه حينذاك ثلاث عشرة قامةً.

خليج نابان

الخميس، ١٩ تشرين الثاني / نوفمبر: بعد منتصف الليل عبرنا خليج بردستان الذي كان على جهتنا اليسرى. وهذا الخليج خطرٌ جداً؛ فذاتَ ليلة ارتطمت به بضع سفن برتغالية كانت مُحاطةً باليابسة (عندما ظَنَّت أنها بعيدة بمسافةٍ كافية عنه). فأبحرنا ضمن حدود ثلاثة أو أربعة فراسخ عنه، وحينما انبلج الصبح رأيناه أمامنا. وفي نحو الساعة التاسعة والنصف تَحوَّلت الرياح إلى جنوبية وجنوبية شرقية، فدفعتنا شرقاً. ومع إقتراب منتصف النهار شاهدنا سبعة ترانكينات. وبُعيد الساعة الواحدة والنصف تَحوَّلت الرياح إلى جنوبية وجنوبية غربية، فدفعتنا نحو الجنوب الشرقي، وأصبحنا قريبين من خليج نابان [١]، الذي كان على جهتنا اليسرى، فاقتربنا منه ببطء شديد. ولكن مع إقترابنا منه أكثر فأكثر رأيناه عادياً جداً، ورأينا على جهة البحر تِلالاً صخريةً شديدةَ الإنحدار، تنتشر على مقربة منها أعدادٌ كبيرةٌ من النخيل. فاستأنفنا

(١) الصحيح أن التسمية نابام، وهو موضعٌ في الخليج العربي، لا يبعد عن بندر عباس كثيراً. انظر: چي. وايزجربر، مسقط في عام ١٦٨٨ (تقارير ورسومات انجلبرت كامبفر)، وزارة التراث والثقافة، مسقط، ١٩٨٤، ص ٢٢.

مسارنا بالقرب من تلك التلال الصخرية حتى الساعة الخامسة حتى أدركنا نهايتها، حيث تلتقي باليابسة. وفي هذه المنطقة المُنبَسِطة قريةٌ تُدعى نابان، التي سُمِّي ذلك الخليج نسبةً إليها. وكان عمق الماء في هذا المكان لا يزيد على سبع قامات، فمستوى المياه منخفضٌ على إمتداد هذا الساحل، فرسونا وتَوقَّفنا مقابل الجهة الغربية. وفي نحو الساعة العاشرة مساءً تَحوَّلت الرياح إلى شمالية شرقية، فدفعتنا نحو الجنوب والجنوب الشرقي.

الجمعة، ٢٠ تشرين الثاني / نوفمبر: عند انبلاج الصبح، أدركنا السُفن الثلاث التي انطلقت من البصرة معنا. وكانت إثنتان منها على مسافةٍ لا بأس بها من جهتنا اليمنى، أما الثالثة فكانت أمامنا بمسافةٍ قريبة جداً، وهي التي انتزعناها من القراصنة قبل بضعة أيام. وعلى جهتنا اليسرى كانت أرض بلاد فارس، ولكنها بعيدة.

وعند الساعة التاسعة والربع مساءً، حينما كانت تهبُّ رياحٌ خفيفة جداً من الشمال والشمال الشرقي، نشرنا شراع الميزان والشراع الأمامي الكبير، وبقينا نسير بإتجاه الجنوب والجنوب الشرقي. وخلال وقت قصير أصبحت جميع السُفن خلفنا. ومع إقتراب الظهيرة بدأت الرياح تهبُّ بشكلٍ أعذب بكثير. وعند الساعة الثالثة عصراً، انعطفنا نحو الشرق والجنوب الشرقي. وفي نحو الساعة الخامسة مساءً طوينا جميع أشرعتنا، الشراع الأمامي الكبير، وشراع الميزان، وأشرعة الميزان الأمامية، لأنَّ سلوك ذلك الطريق خلال الليلة القادمة سيكون محفوفاً بالمخاطر، وقد نَجنَحُ نحو اليابسة، لأنَّ الرياح بدأت تبرد أكثر فأكثر، فاستدرنا نحو الجنوب والجنوب الشرقي لنبقى خارج نطاق جزيرة لارا. فلو كان الوقت نهاراً لمررنا بين اليابسة وتلك الجزيرة،

ولكننا لم نجرؤ على المجازفة بذلك ليلاً، ومغادرتها إلى جهة اليسار أأمن لنا، فَقرَّرنا الإبحار بمحاذاة تلك الجزيرة عند منتصف الليل، ولكننا لم نرها، مع أننا كُنّا نحمل أنواراً كافيةً لتمييز بعض اليابسة القريبة منها.

أخيراً، قَرّرنا أن نجتاز جزيرة لارا ليلاً، ولكننا اكتشفنا في اليوم التالي أننا كُنّا بعيدين عمّا خَطَّطنا. ومع ذلك، ولأننا لم نكتشف خطأنا إلّا بعد منتصف النهار، فقد اندفعنا شرقاً في الساعة السادسة مساءً، مُبحرين بإتجاه اليابسة، لئلا تقذفنا الأمواج بعيداً بإتجاه جزيرة كنج. وفي نحو الساعة السادسة والنصف امتلأت مُؤخّرة مركبنا الطويل بالماء، حتى غَمَرها. وسرعان ما طوينا الشراع المُربَّع، ونزل ثلاثةٌ بحّارة وذهبوا إلى القارب سباحةً لربطه بحبلٍ تعلقوا بطرفه، ثم تَسلَّقوه. وربطنا طرف الحبل الآخر بالسفينة، وسحبنا المَرساة الصغيرة، فَحاول رجالُنا سحبها من الماء من جهة واحدة، لتفرغ الماء من الجهة الأخرى. ولكن وزن الماء كان أثقل في تلك الجهة، فإنقلبت. وكادَ اليأسُ أن يَنالَ مِنّا في تقويمها، لولا أننا بذلنا جهداً كبيراً وصرفنا وقتاً كبيراً، لئلا تَتَحطَّم من جهة القيادة، لأنَّ البحر كان هائجاً جداً حينها. فقطعوا الحبال وتركوها تذهب، مع أنها خسارة مئة قرش لصاحب السفينة. وهذا ما جعلنا نقضي ساعات، فسبقتنا إحدى السُفن التي كانت على ميمنتنا.

وفي نحو الساعة السابعة والنصف صباحاً أبحرنا بمساعدة رياح شمالية· وفي نحو الساعة التاسعة والنصف أصبحنا قريبين من جزيرة على جهتنا اليسرى، علمنا أنها أندارفيا، ولكننا كُنّا مخطئين.

وفي نحو الساعة العاشرة بدأ عنفُ الرياح يهدأ، فأبحرنا نحو الشرق والجنوب الشرقي. وفي نحو الساعة الثانية بعد الظهر شاهدنا جزيرةً صغيرةً عن يسارنا بالقُرب جداً من اليابسة، وعلمنا أنها أندارفيا، وأنَّ الجزيرة الأخرى التي اجتزناها في نحو الساعة التاسعة والنصف صباحاً بإتجاه أندارفيا هي جزيرة لارا.

جزيرة لارا

إن جزيرة لارا هذه عبارة عن مكانٍ صحراوي مُنخَفضٍ قليلاً، قريب من اليابسة، ولهذا لم نرَها بسهولة. ولا تَنبتُ فيها سوى بعض الأشجار البريّة، وعلى جهة واحدة منها فقط، وهي الجهة الغربية والشمالية الغربية، التي شَكَّلت بداية الجزيرة من جهتنا، ويمكن تمييزها من تلك الأشجار. وتمتد هذه الجزيرة من الغرب والشمال الغربي إلى الشرق والجنوب الشرقي، وهي تبعد سبعين فرسخاً عن جزيرة خرج.

جزيرتا أندارفيا وقيس

إن جزيرة أندارفيا صغيرة إلى حدٍ ما، وقريبة جداً من اليابسة، وتشبه جزيرة لارا في إمتدادها، فهي تمتد من الغرب والشمال الغربي إلى الشرق والجنوب الشرقي. وتُوجَد في هذه الجزيرة مياهٌ صالحةٌ للشرب، وشاهدنا في منتصفها بعض الأشجار البَريّة، وأكواخاً لبعض الصيادين الذين يأتون من اليابسة للصيد هنا. وهي تَبعدُ سبعة أو ثمانية فراسخ عن لارا.

ومع أن هاتين الجزيرتين قريبتان جداً من اليابسة (كما قُلت) إلّا أن هناك مَمراً يفصلهما عن اليابسة، يسمح بمرور السفن، لأنّه عميقٌ جداً، فتَتَوجَّه إليه السُفن في

بعض الأحيان. وبعد الظهر هَبَّتْ رياحٌ عذبة، بدءاً من الساعة الثانية وثلاثة أرباع الساعة، فوصلنا إلى الجهة البعيدة من الجزيرة. وبعد ساعةٍ كانت جزيرة قيس [١] إلى الجنوب الشرقي منا. وفي نحو الساعة الرابعة والنصف رأينا رأس السفينة التي سبقتنا في الصباح. وفي الوقت ذاته لاح لنا الطرف القصي لجزيرة قيس، التي كانت على ميمنتنا.

جزيرة قيس

تبعد هذه الجزيرة نحو خمسة فراسخ عن جزيرة أندارفيا، مع أنهم يقدرون المسافة بين لارا وقيس بخمسة عشر فَرسخاً. وهي تمتد من الغرب والجنوب الغربي إلى الشرق والشمال الشرقي، ويبلغ محيطها نحو خمسة فراسخ. وهي منخفضةٌ ومنبسطةٌ جداً، وتشبه الجزيرتين السابقتين، ولكنها مأهولة بالسكان، فبيوتهم مُبعثَرة هنا وهناك.

(١) قال عنها ياقوت الحموي (قيس جزيرة، وهي كِيش في بحر عُمان، دورُها أربعة فراسخ، وهي مدينةٌ مليحة المنظر، ذات بساتين وعمارات جيدة، وبها مسكن ملك ذلك البحر، صاحب عُمان، وله ثلثا دخل البحرين، وهي مرفأ مراكب الهند وبر فارس وجبالها، تظهر منها للناظر، يزعمون أن بينهما أربعة فراسخ. رأيتها مِراراً، وشربهم من آبار فيها، ولخواص الناس صهاريج كثيرة لمياه المطر، وفيها أسواق وخيرات ... وفيها مغاصٌ على اللؤلؤ وفي جزائر كثيرة حولها). معجم البلدان، ج ٤، ص ٤٤٢.

مثالٌ فظيع لوحشية البرتغاليين

علمتُ أن أهل هذه الجزيرة قتلوا برتغالياً سبق أن نزل شاطيء الجزيرة لحماقة ارتكبها. وبعد وقتٍ تَوجَّهت سفنٌ برتغالية إلى هنا، بقيادة الأميرال روي فيريرا أندرادا، الذي ذَهَبَ إلى شاطيء الجزيرة وأخذ طفلاً رضيعاً ووضعه في فوهة مدفع هاون، وبوحشيةٍ مُنقَطعة النظير أمر والد ووالدة الطفل البرئ بإطلاق القذيفة بأنفسهما. كان القائد وحشاً بشرياً، وكانت هذه طريقته الإعتيادية في الإنتقام من أهالي تلك السواحل، حينما يفعلون ما لا يروقه. ولا يزال اسمه حتى اليوم مُرعِباً جداً لهم، حتى إنهم يستخدمونه لتهدئة أطفالهم الصغار عندما يبكون، مُهدِّدينَ إيأهم باسم لويس دي فيريرا. وفي الوقت ذاته، أَجبَرَتْ وحشيتُه الكثيرين على مغادرة الجزيرة، لئلا يَتَعرَّضوا إلى تلك المُعاملة الوحشية. ومع ذلك، لا يزال البعض مقيماً ولديه مواشٍ هناك. وقد علمتُ أن جميع أنواع الفواكه تنمو في هذه الجزيرة، ولكن بما أن البرتغاليين انقطعوا عن الذهاب إليها، لم يعد بها شيء. كما تَأكَّدتُ أن في تلك الجزيرة مياهاً عَذبَة جداً في الشمال الغربي، وفي الأطراف الشرقية منها.

في نحو الساعة الخامسة طوينا شراع الميزان، وشراع الميزان العلوي، والشراع العلوي الكبير، وشراع المُقدِّمة، حتى لا يطول طريقنا، فمستوى الماء على هذا الساحل منخفضٌ جداً عموماً. وفي نحو الساعة السابعة مساءً بلغنا الجهة الأخرى لجزيرة قيس، وتباطأت الرياح كثيراً. وبعد نصف ساعة لاحَ لنا مكانٌ من اليابسة، منفتحٌ بإتجاه الشرق، ويُشكِّل ما يَشبه خليجاً على شكل نصف دائرة، أقصى نقطة فيه تُسمَّى غيرد.

وطوال ذلك اليوم كان مسارنُا جنوبياً شرقياً. وحينما أصبحنا قريبين من بداية هذا الخليج مباشرةً، هَبَّتْ علينا رياحٌ شرقيةٌ وشماليةٌ شرقيةٌ لطيفة، فاستدرنا نحو الجنوب الشرقي، وجعلنا نقطة غيرد إلى الشرق والجنوب الشرقي منا.

وفي نحو الساعة العاشرة مساءً اندفعنا نحو الجنوب والجنوب الشرقي، وكان عُمق الماء هناك سبع عشرة قامةً. وبعد ربع ساعة، حينما تَحوَّلت الرياح إلى شمالية غربية، اندفعنا نحو أقصى الجنوب. ولكن بعد أن أخذت تهبُّ بقوةٍ شديدة، طوينا الشراع الرئيس واندفعنا نحو الجنوب والجنوب الشرقي. وفي نحو الساعة العاشرة وثلاثة أرباع الساعة استدرنا نحو الجنوب الشرقي، وكان عُمق الماء هناك خمس عشرة قامةً.

جزيرة پالورو - جبل شناص

الأحد، ٢٢ تشرين الثاني / نوفمبر: عند الساعة الثانية بعد منتصف الليل وصلنا إلى جزيرة پالورو، التي كانت على ميمنتنا. وكان اتجاهنا حينذاك شرقياً وجنوبياً شرقياً. وكان عُمق الماء هناك ثلاث عشرة قامةً، فَوجَّهنا السُفن نحو الجنوب والجنوب الشرقي. وعند الساعة الثانية والربع وجدنا أن عمق الماء يتراوح بين ست وسبع قامات. وعند الساعة الثانية وثلاثة أرباع الساعة اندفعنا نحو الشرق والجنوب الشرقي، وكان عُمق الماء خمس عشرة قامةً أولاً، ثم عشر قامات، ثم ثماني قامات. وكُنّا حينذاك على ميسرةِ جبلٍ على اليابسة يُدعى شناص. وعند الساعة الخامسة والنصف صباحاً أصبحنا أمام جزيرة كنج، التي تبعد عن جزيرة قيس خمسة عشر فرسخاً براً،

وثلاثين فرسخاً بحراً، ومئة فرسخ عن جزيرة خرج، وخمسة وعشرين فِرسخاً عن البصرة. ومن جزيرة كنج إلى كمبرون تبلغ المسافة عشرين فرسخاً براً وثلاثين فرسخاً بحراً. ورَسونا في الطريق على بُعد نصف فرسخ نحو الجنوب والجنوب الشرقي من المدينة، فشاهدنا أربعَ سُفنٍ راسية. وفي اليوم ذاته وصَلَتْ أربعُ سُفنٍ أخرى بعدنا، كانت في طريقها من البصرة إلى سورات.

[١٢] رحلة سبستياني

الأب جوزيبه دي سانتا ماريا الكرملي سنة ١٦٦٦م

تكملة السفرة إلى البصرة

في الأيام الأولى من شهر أيلول مَرَّرنا بقريتين هما: المِجَر Maggiar وقصر (؟) Casser. وحَدَثَ هنا أنّ اقترب منا مركبٌ قوي مُزوَّد بأسلحة على متنه تاجر أرمني حلبي الأصل، قادمٌ من اسطنبول وقبلته البصرة، وكانت غاية سفره استعادة مقدار من المال يبلغ مائتي ألف قرش من والي البصرة كان قد اقترضها من أخيه. فدعا أحد التجار الذين كانوا معنا، وهو تاجرٌ مسلم حلبي أيضاً اسمه جبريل (أو عبد الجبار؟ (Agebrail) فَتَمنَّيت أن أنضم إليهم لأصل البصرة بأسرع وقت، لأني كنتُ أخشى أن أتأخر فلا أجد سفينة تقلّني إلى الهند. لكن صاحب المركب اعتذر متذرعاً بأنَّ لا مكانَ عنده على المركب، فبقيت حيث أنا أتألم من الضجر والكسل والفوضى، وتَكرَّر ارتطام مركبنا يوماً بعد يوم وكان الرُكّاب يضطرون إلى دفعه. ولذا كانوا يَتذَّمرون، وأخذوا يجاهرون بأنهم لن يدفعوا أجور السفر لأنهم عُوضُوا عنها بأتعابهم، وكادوا أن يعلنوا العصيان على رَبَّان الدانك وعلى العسكريين.

ولما قاربنا منطقة البصرة، لاحظنا تأثير المدّ والجزر في النهر، بالرغم من بُعدِنا عن البحر أكثر من مئة ميل (فالأراضي العربية في تلك المنطقة منخفضة جداً). وكان أصحابي قد نزلوا إلى اليابسة لارتطام الدانك من جديد، وباءت المحاولات المُتكرِّرة

لدفعه بالفشل (كما حَدثَ سابقاً أكثر من مرة).

وبعد مدة دفع تيار الماء الدانك إلى مكانٍ بعيد في الضفة الثانية، فاضطر الركاب إلى خلع ثيابهم وعاموا في النهر مع بعض الأعراب بعد أن تَعلَّقوا بقطعةٍ من الخشب، وذهبوا إلى حيث كان الدانك، وكانت حركتهم بطيئة بسبب انحسار الماء على إثر الجزر، وكانت الأرض هناك طينية.

إنّ نهر دجلة بعد أن يتلاشى ويَضَمَحِل جداً.. يعود ليسترجع قواه الضائعة وانحداره الجارف، فيسير متبختراً وسط صفوف من النخيل والأشجار المُثمِرة المختلفة، وتقوم على جانبيه قُرى صغيرة وقِلاع متناثرة شُيِّدت باللَّبن، من هذه القرى[١]: بني (خالد؟) Beini والدَكَّة Dechi و(؟) Amma والمنصورية (أو بني منصور؟) والقِلاع Cala أو مدينة محمد بن السلطان (لَعلَّها ديار بني محمد!) Mametto figlio del Soldano والمْدَينَة Medina وتقابلها الفتحية أو الفتحة Elfataia وأخيراً القرنة Gorna حيث يلتقي دجلة بالفرات، بعد أن يُخلِفا بحيرات (أهواراً؟) واسعةً على طريقهما، وأخيراً يتنازلان عن اسميهما، ليتخذ النهر الجديد المُتكوِّن من إتحادهما إسماً جديداً هو حسبما يذكر حزقيال نهر «كوبار»[٢] في شط العرب، وهو

---

(١) إنّ هذه القُرى هي الجزائر المُتكوّنة من سواعد شط العرب: علي ظريف الأعظمي: تأريخ البصرة ص ١٣٠ في الهامش، علي الشرقي: الجزائر: لغة العرب ٤ (١٩٢٧) ٥٢٦.

(٢) يلمح المؤلف إلى نبوءة حزقيال ١:١ في الكتاب المُقدَّس حيث قال «في السنة الثلاثين ... وأنا بين الجلاء على نهر كبار ...».

بالحقيقة نهرٌ عظيم، وجديرٌ بالملاحظة أنّ هذا النهر في انحداره نحو البحر يحافظ على مياه دجلة عن يساره وعلى مياه الفرات عن يمينه.

قَرَّرَ القبطان أن يَتقدَّم إلى البصرة ليدفع ضريبة المكس عن البضائع التي يحملها في قاربه، وعن الآخرين، لكن الرياح هَبَّت بقوة فَمَزَّقَتْ الشراع من أعلاه إلى أسفله ودفعتنا بعيداً، فجاء رجالُ الكمرك هناك ليستوفوا الرسوم، ولم يلقوا نظرة إلى امتعتنا، فقد اعتبرونا دراويش فرنجيين، (وهذه عادة الكمارك العثمانية في معاملتها رجال الدين).

تحيط القرنة أسوار شُيِّدَت بإعتناءٍ بالغ [١]، لكنها ليست ذات شأن لأنها من الطين، والقُرنة بلدةٌ كبيرة على ما تظهر، وموقعها مهم نظراً لكونها مُشيَّدة أمام هذا النهر الواسع العظيم، وإلى يسارها فرعٌ كبيرٌ من دجلة إذ يلتقي هناك من جديد ...

عند الأصيل نُشِرَتْ الأشرعة على الصواري، فعاد الدانك يمخر عبابَ النهر، ولم يكن النهار صحواً، فقد هَبَّت عاصفةٌ، ظننتُها في أول الأمر كالضباب الكثيف، ثم ظهرت على حقيقتها، فإذا بها عاصفة رملية (وهذا أمرٌ عادي في ضواحي البصرة خلال أشهر الصيف). أما الليل فقد كان هادئاً جداً، وكان بامكاننا أن نرى على ضوء القمر حركات غريبة كان يقوم بها درويش هَرِم تَدلُّ على انحراف في مَسلَكه ...

---

(١) يقول الأعظمي في سياق كلامه على الحرب بين حسين باشا والي البصرة ومرتضى باشا والي بغداد سنة ١٠٦٣-١٠٦٤هـ «فاستعد (حسين باشا) للحرب وحَصَّنَ القِلاع خصوصاً قلعة القورنة» المرجع نفسه ص ١٣١.

لقد لاحظت المُسلِمين خلال مدة سفري كُلُّها، ابتداء بمدينة طرابلس وإلى البصرة أنهم يؤدون الصلاة يومياً، منذ الصباح الباكر عند نهوضهم، ثم في منتصف النهار، وفي المساء عند الغروب، وهم يُصلُّون بسجداتٍ وركعات وإنحناءات مُتكرِّرة ولم يتأخروا عن موعد أداء الصلاة، فكانوا ينزلون عن الخيل ويتركون كُلَّ عمل آخر من أجل القيام بالصلاة ... وللمُسلمين أدعية كثيرة وأوراد يُردّدونها دائماً ونَحنُ في المركب، يطلبون السفر الميمون المُوفَق ...

أخيراً مررنا بقرية «العين» Lain الصغيرة، وبجزيرة يقوم عليها بستان الوالي، فرأينا عن بُعد والفرح يغمر قلوبنا، مراكب الإفرنج، ثم وصلنا إلى أسوار جديدة جميلة، لكنها من الطين أيضاً.

ويعتقد أمير البَلدَة (واليها) أنّ بامكانه إدارة البصرة والدفاع عنها بواسطة هذه الأسوار، وهو يقيم في قلعة كردلان[١] وهي حصنٌ لا بأَسَ به.

وبعد أن وَزَّعنا الحلوان (البخشيش) حسب العادة، استَقَلَّلنا قارباً صغيراً، سار بنا في القناة لأنَّ المدينة لا تزال بعيدة نحو ميل، وهكذا بعدَ سفرٍ نهري استغرق ٢١ يوماً، وصلنا إلى البصرة في السابع من أيلول، وهو عشية عيد ولادة سيدتنا مريم عليها أفخر السلام ... فاستقبلنا الرهبان[٢] بفرحٍ لا يُوصَف.

---

(١) لا تزال معروفة وتعني أرض التل أو مأوى التل، وتقع قرية كردلان في الجانب الشرقي من شط العرب في مقاطعة تنومة وهي تجاه البصرة تماماً.

(٢) يَتكلَّم عن الرهبان الكرمليين، انظر الملحق رقم ٨.

مكوثنا في البصرة

قَدِمَ لزيارتنا في الدير، كثيرٌ من المسيحيين الجُدُد، الذي اقتبلوا العماد في كنيستنا، وهم من نصارى القديس يوحنا [١] ويكثر هؤلاء في تلك المناطق. وليس لهم أسرار مُقدَّسة ولا شريعة دينية، بل يعيشون على الفِطرة، وقد ملأت الأساطير والخرافات عقولهم ...

تقع البصرة في بلاد العرب الصحراوية Arabia deserta وهي مدينةٌ كبيرة، لكنها ليست جميلة، وهي غنية بالبضائع التي تردها من بلاد العرب ومن أوروبا وإيران والهند [٢] وتكثر فيها الفواكه على أنواعها، والحمضيات بصورةٍ خاصّة، ويسكنها شعبٌ من مختلف الأقوام والجنسيات ...

إنّ حاكم البصرة «أي الوالي» هو في الواقع ملكٌ مستقل أكثر من باشا عادي خاضعٌ للسلطان. فقد أصبح دست الولاية وراثياً، ولذا فانه يدير شؤون المنطقة حسب هواه. ونظراً إلى أن جيشه لم يكن قوياً عِدةً وعَدداً، كما أن ولايته واقعة بين مملكتين جبارَّتين أعني العثمانية والفارسية، فلكي يكسب رضا الطرفين وصداقتهما،

---

(١) يريد الصابئة المندائيين وسيعود إلى الكلام عليهم في الفصول اللَّاحقة، وهو يعتبرهم فرقة نصرانية، وهذا وهم وقع فيه هو وبعض معاصريه كتافرنيه (انظر رحلته ص ١٠٠).

(٢) ذكر الأب غودنيهو اليسوعي عن البصرة ١٦٦٢ أنها «أعظم سوق تجاري في هذه البحار» عن لونكريك: أربعة قرون ص ١٤٢.

ولكي يهرع لنجدته أحدهما إذا ما حَارَبه الطرفُ الآخر [١]، لذا كان يدفع جزية إلى الطرفين، وفي الوقت نفسه كان يجتهد في تعزيز مركزه ويُحصِّن مدينته ويُقيم علاقات جيدة مع الإفرنج ليتَخلَّص من «ضغط» المملكتين [٢].

وكان الرجل يكن للرهبان احتراماً وحُباً، ويَتحَدَّث معهم كأصدقاء. وكان تجار البَلدَة من مسلمين وهراطقة [٣] وغرباء يزورون الدَير ويطلبون مساعدة الرُهبان لتمشية أمورهم عند الوالي، وحدث قبل فترةٍ وجيزة من وصولنا أننا ربحنا دعوى بواسطته ضد الأتراك أنفسهم، فقد شيَّدوا مسجداً بالقرب من كنيستنا وعندما فرغوا من بنائه طلبوا هدم الكنيسة، بِحُجّة أنّ الشريعة تأمر بذلك، ولهم مسجد آخر خارج المدينة باسم عيسى ومريم لأنَّ المسلمين يكنُّونَ احتراماً عظيماً للمسيح ولأمه مريم كما وَرَدَ في القرآن.

قبلَ مدةٍ قصيرة، مَرَّتْ من هناك قافلةٌ مُؤلَّفة من عددٍ كبير من الإبل والخيول، تقصد مكة، إنّ المسلمين يعتقدون أنّ مَنْ يقضي نَحبَه وهو في طريق الحج يُعدُّ سعيداً، ومَنْ يصل إلى هدفه فإنّه يَتقدَّس وطُوبى لِمَنْ يموت وهو في مكة. كثيرون هم الذين

---

(١) جاء في كلشن خلفا عن حسين باشا والي البصرة أنه اعتمد أكثر من مَرَّة على الإيرانيين لمقاومة السلطة العثمانية (المرجع المذكور ص ٢٤٩ و٢٦٥-٢٦٦ و٢٧٢).

(٢) قال لونكريك إنّ الوالي كان مُتساهِلاً مع الأقليات النصرانية الضعيفة (المرجع نفسه ص ١٣٩).

(٣) الهراطقة في رأي المؤلف هم نصارى غير كاثوليك من أرثوذكس وبروتستانت، والكلمة في اليونانية Heresis.

يأتون كُلَّ سنة إلى الحَجّ من مختلف الأمصار: من آسيا وأفريقيا وحتى من بعض جهات أوروبا ...

عندما قَدِمنا إلى البصرة، وجدنا في الميناء سفينةً هولندية جميلة تستعد للإقلاع، واسمها فليخلاند Flichland وكانت وجهتها سورات [١] Suratte فَقَرَّرت السفر بها دون تأجيل إلى فرصةٍ أخرى (كما كان يحاول إقناعي بعض رفاقي بِحجّة الاستراحة من وعثاء الطريق). لكنني كنت أقول لهم «إنّ السفر ضروري، أما الحياة فلا». فاتصلنا بقبطان السفينة وبموظفيها الهولانديين، ودعوناهم إلى زيارة الدَير، فاظهروا إستعدادهم لتسفيري.

وكانت في حوزتي أمانة القنصل الإنكليزي «في حَلَبْ» وهي قطعٌ ثلاثة من الزمرد. فَسلَّمتها إلى الأب مُدبِّر الدَير ليرسلها إلى إيران، وهكذا تَخلَّصتُ منها، لأني كنتُ طول الطريق خائفاً عليها من الفُقدان، وكُنتُ قد ضَمَّمتها مع دراهمي والكتب الرسمية بكل عناية، وكُنتُ أُغيِّر مخبأها من وقتٍ إلى آخر خوفاً من وقوعها بيد الغرباء، فقد أُقتَل إذا ما اطَّلَعَ أحدهُم عليها، لأني كُنتُ أحمل كتاباً إلى شاه فارس وهو عدو السلطان العثماني، ولي كتاب مُوجَّه إلى ملك المغول وهذا بدوره عدو الشاه الفارسي!

---

(١) سورات من مُوانئ الهند، أول مكان استَولَت عليه شركة الهند الشرقية الإنكليزية في القارّة الآسيوية واتخذته مقراً لها ومُنطَلقاً لتوسعها، وقد انتزعته من أيدي البرتغاليين بعد معركةٍ دامية سنة ١٦١٢، وفي السنة التالية حصلت الشركة من حاكم الميناء على إذنٍ بإنشاء معمل للحرير.

اتخذتُ خادِماً جديداً ملبارياً يدعى نيقولا، وكان منذ أربع عشرة سنة عند الآباء الرُهبان، منذ أن حَرَّروه من الرِق وأعادوا إليه حريته، أما موسى فقد تركته ليعود إلى أهله لأنّه لا يفيدني في السَفر الجديد وقد أعطيته ما يَسرُّه ثم أبدلتُ ثيابي التركية وارتديت الثوبَ الرهباني.

في اليوم الحادي عشر أخذني رفاقي في زورقٍ إلى حيث كان الهولنديون، وكان يتبعنا عن كثب قاربٌ عليه مسلمون ايرانيون يقرعون الطبول ويُزمِّرون على الناي، فذهبنا من المدينة إلى السفينة، وبعد أن صعدنا إليها، بلغنا سلام زورقنا وقارب الإيرانيين، وهو عبارة عن طلقاتٍ نارية توديعية.

الإبحار إلى كومبرو في فارس والتَوجّه إلى سورات في الهند

رافقنا كثيرون إلى المركب، منهم الأب كازميرو الكرملي، أحد رُهبان ديرنا (في البصرة) وكان عالماً فاهماً يتقن لغاتٍ عديدة، وهو هولندي الأصل، وكان الهولنديون يكنُّون له احتراماً كبيراً، وقد اخلوا السبيل قبل أيام عن أحد البحّارة الذي كان مسجوناً عندهم، نزولاً عند طلبه.

في أصيل ذلك اليوم نُشِرَتْ الأشرعة للريح، فسارت السفينة تَمخرُ عُبابَ الماء حسب إشارات بعض الأدلّاء الذين كانوا يسيرون أمامها ليَتحَسَّسوا قاعَ النهر.

صباح اليوم التالي تُوفيّ أحد البحّارة إذ كان مريضاً، فَدُفِنَ في إحدى الجُزر الصغيرة، وهذه الجزر تُقسِّم النهرَ إلى أربعة فروع، فَدخَلتْ الخليج الذي يبعد عن البصرة نحو أربعين ميلاً، السفينة في أحد هذه الفروع، ونحو الظهيرة ولجنا ثم عبرنا

جزيرة يعقوب (ويزعمون أن يعقوب عليه السلام كان هنا) فسِرنا إلى الأمام، حتى وصلنا في اليوم التالي إلى جزيرة خرق (؟) Carrach وهناك تركنا الأدلاء لمصيرنا وعادوا أدراجهم، وقد رأينا جُزراً عديدة حتى وصلنا إلى ميناء كومبرو«بندر عباس»، وهو ميناء يقوم على اليابسة يبعد نحو فرسخ عن هرمز ... فاطلَقَتْ سفينتنا طلقاتِ التحية للقلعة الجاثمة هناك فجاءنا الجواب على التحية من مركبٍ إنكليزي كان راسياً هناك، وقد نظرت من السفينة إلى «جزيرة» هرمز (١) التي كانت حتى في فترة قريبة بيد البرتغاليين، وموقعها مهم جداً، بل هي أشهر منطقة تجارية في العالم، وقد قالوا عنها «لو اعتبرنا العالم خاتماً، فهرمز هي حجرته الكريمة». وقد استولى العاهل الفارسي عليها بمساعدة الإنكليز، فَقلّتْ على إثر ذلك أهميتها وَفَقَدَتْ شهرتها، وقد كان هناك حصنٌ قوي يحيط به خندق مليء بالماء، وكان في السابق مُجَهَّزاً بنحو ٣٠٠ مدفع، فأصبحَ اليوم بسلاحٍ قليل، إذ نُقِلَ السلاحُ القديم إلى أصفهان مع النواقيس الكبيرة التي «اشتراها؟» الآباء الإغسطينيون (٢). وكان الإنكليز قد عَلَّقوا آمالاً عريضة على

---

(١) جزيرة تقع في الخليج العربي، عند المَضيق المُسمّى باسمها، احتلَّها البرتغاليون في مطلع القرن السادس عشر. وعندما قويت شركة الإسطول الإنكليزي أخذ يَتَحرَّش بالبرتغاليين، ثم رأى الشاه عباس الأول أنّ احتلال البرتغاليين للجزيرة يُقلل من هيبته، فطلب من الإنكليز أن يساعدوه ضد البرتغاليين، فبدأت المناوشات سنة ١٦٢٠-١٦٢١ وفي ١٨ / ٢ / ١٦٢٢ حاصروا الجزيرة إلى أن سقطت في ١ آيار. وعلى إثر ذلك تحول البرتغاليون إلى مسقط فبنوا القلاع والحصون. Wilson: op. cit. p. 101. ss.

(٢) أتباع رهبنة كاثوليكية غربية، قدموا إلى فارس من الهند بأمر البابا إقليميس السابع، وحَلُّوا في ←

هذا الموقع عندما ساعدوا الشاه الإيراني في الإستيلاء عليه، فخابت آمالهم، ونِعمَ ما حَدَثْ! لذلك ندموا كثيراً على ما فعلوا وعلى إثر إستيلاء الفُرس على هُرمز انتقلت الحركة التجارية إلى كامبرو(بندر عباس)، لكن شَتَّان بين هذا الموقع وذاك. فهذا مكانٌ مُتهدِّمٌ ضيِّقٍ، ومناخهُ حارٌ جداً والجفاف فيه كبير.. «وذلك بالعكس».

أخبار مُتفرِّقة عن فارس

... في السنة الماضية سقط الأب كازميرو [١] في البصرة فريسةَ المرض، ولم يُمهِلهُ طويلاً، إذ توفّاه الله. وكان بالقرب منه في ساعاته الأخيرة بطرس جويريده وهو ابن أخي السيدة معاني [٢] التي كانت زوجة ديللا فاله [٣] ... وقد كان «بطرس جويريده» في البصرة تَرجُماناً للهولنديين ...

وقد استفسرتُ عمّا فَعَلَ الدهرُ بالشاب جيوفاني فيريس [٤] Giovanni Vieres

---

مدينة أصفهان سنة ١٦١٦ (نقاشة: عناية الرحمان ص ١٨).

(١) سبق ذكره في الفصل الثامن عشر من الكتاب الأول من الرحلة.

(٢) انظر بحث يعقوب سركيس عن هذه الأسرة لعلاقتها بالسائح الإيطالي المشهور ديللافاله في مجلة النور البغدادية ١ (١٩٥٠) عدد ٨ ص ٩.

Ettore Rossi: Poesie inedited in Persiano di Pietro della Valle. (RSO, XXVIII. 1953, pp. 108-117).

(مع الشكر الجزيل للأستاذ كوركيس عواد الذي أفادنا في ذكر هذا المرجع عن الست معاني جويريدة).

(٣) انظر الملحق رقم (٩).

(٤) هو شابٌ هندي من الملبار، كان وثنياً فَتَنصَّر، ذكره سبستياني في ف ١٨ من الكتاب الأول ج ١ ص ٦٤).

الذي كُنتُ قد نَصَّرته عندما مَرَّرتُ بهذه المدينة في سفرتي السابقة، فعلمتُ أنه انتقل إلى شيراز بعد وفاة سيده، ليعيش هناك تحت أنظار الأباء. وكان يعيش من المساعدات التي كانت تغدقها عليه السيدة الكريمة إسميكان Ismikan أخت السيدة معاني المذكورة، وهي عَمَّة السيد بطرس جويريدة ...

فَكَّرتُ بالذهاب إلى أصفهان لأُقدِّم للشاه كتاباً وجَّههُ اليه قداسة سيدنا البابا (١) ... لكن القيظ الشديد منعني إضافة إلى أني سَمِعتُ بأنَّ الملك المذكور هو حالياً خارج المدينة على رأس جيشٍ لجب، يستعد للهجوم على بغداد (ثم ظَهَرَ فيما بعد أنه لا صِحةَ لهذا الخبر) فَغَيَّرتُ رأيي خوفاً من أن أُمنَع بعدئذٍ من الدخول إلى الأراضي التركية، لذا قَرَّرتُ السفر إلى البصرة.

الوصول إلى البصرة ... وأخبار عن الصابئة

... في مطلع شهر آب «١٦٥٨» وصلنا إلى البصرة، فَعَلِمتُ أنَّ مبعوث السلطان العثماني كان قد وَصَلَ قبل فترةٍ وجيزة إلى المدينة، فذهبتُ لزيارته يرافقني ترجمان يهودي، وقَدَّمتُ له لوحةً جميلة تمثل شجرة الأناناس، وهي شجرةٌ مثمرة معروفة في الهند وكان قد طلبها مني إذ كان برفقتي على السفينة «عمادي Amadi» فأُعجِبَ بها، لقد رأيت الرجل مضطرباً، وأخذ يستفسر مني عن أخبار حلب واسطنبول، وكان

---

(١) هو البابا اسكندر السابع، وتأريخ الرسالة ١٨ / ٢ / ١٦٥٦ تجد نصها في: A Chronicle.. op. cit., vol. I, p. 363.

خائفاً جَزِعاً. وقد سَمعتُ عنه أنه ذَهَبَ في منتصف الليل بصورة مُتخفيَّة ودون حرس إلى بيت أحد الإفرنج ليستشيره.. ثم زاره قبطان السفينة «عمادي» وقائدها، فَقدَّم لهما هدايا حسنة: رداء من الأطلس المُطرَّز الجميل، وقِطعاً من الديباج المُقصَّب من عمل أحمد آباد، ومناديل اسطنبولية منقوشة ...

قبل مدة قصيرة قام الباشا بزيارة ديرنا في تلك المدينة، وقد دَخَلَ الكنيسة ... ثم البستان فرآها يابسة، فاستفسر عن السبب، فَقِيل له: قِلة الماء، فأمر في اليوم التالي أن تُشق على نفقته ترعةٌ من النهر إلى داخل البستان مباشرة فتم العمل في فترةٍ وجيزة، كما أنه سَمَحَ للأب منصور، الذي كان صديقه، أن يُشيِّد غُرفاً جديدة، من أجل راحته، ولفائدة الدير، وهذا ما حدثَ فعلاً.

إنّ جد هذا الوالي يدعى شاهر أو قاه (Ka) وهو أول مَنْ اغتصب الولاية وجعلها وراثية.

فَخَلَفه ابنه علي، ثم جَلَسَ بعده حفيده المدعو حسين Osen ولما كان الرجل قد طَعَنَ في السن، فقد سلم الباشوية إلى ابنه محمد (١)، مُحتَفِظاً بحقوق الحكم الشرعية، ورغم تَقدّمه بالسن فقد كانت أخلاقه فاسدة، وبالرغم من علو مقامه، [فقد قام

(١) هل كان محمد هذا ابن حسين وخليفته أم بالأحرى هو محمد بن فداغ نائب حسين الذي قُتِلَ على أيدي الرعاع عند نشوب الحرب بين حسين وإبراهيم باشا الذي قدم إلى البصرة على رأس جيشٍ جرار نظراً لاستبداد حسين في الإدارة (الأعظمي: المرجع المذكور ص ١٣٢-١٣٣) أم هو محمد باشا ابن علي باشا ميرميران الإحساء؟؟ «لونكريك: المرجع المذكور ص ١٤٠).

بأعمال لا تَليقُ بمركزه][1].

عندما زار هذا الوالي دَيرَنا، وَقَعَ نظره على شاب روسي الأصل كان يخدم هناك فَشُغِفَ به، وكان الفتى طريفاً وخلوقاً، فطلبه الباشا من مدير الدَير، وقَدَّم ثمناً له ٧٠٠ قرش ... فأجابه الكاهن بأنه يُفضِّل أن يُقطَّع إربا إربا على أن يُسلِّم ذاك الشاب المسكين ... وعلى إثر ذلك طَلَبَ الأب المُدبّر مني أن اصطحب الصبي إلى إيطاليا لأنَّ حياته باتت في خطر في تلك الأصقاع، فقبلت المُهمة عن طيب خاطر، وكان الشاب يتقن العربية والفارسية والتركية وله إلمام بالبرتغالية. وكان اسمه يوسف وقد استَرَقَّه الأتراك إذ كان طِفلاً مع أمه على حدود روسيا فقادوهما إلى اسطنبول، وهناك اشتراهما رجلٌ أرمني فَتَحنَّن الرجل على الطفل فأودعه عناية الآباء الكبوشيين الذين أرسلوه إلى دَيرنا، وكان الفتى في تلك الأثناء عليلاً.

وكان في الدير غلامٌ آخر اسمه اسكندر وأَصلهُ من بروت في روسيا، اختطفه التَتَر وباعوه إلى الجركس الذين عادوا فباعوه إلى وزير من سادة بلاط أصفهان، ومن هناك هَرَبَ بمساعدة رهباننا ثم جاء إلى ديرنا. وإذ كان في أصفهان أَشهَرَ إسلامه واختتن ... فَطَلَب الأب المُدبّر اصطحاب الشاب إلى أوروبا ...

---

(١) قال الأعظمي «حسين باشا ... أساء السيرة والتدبير وظلم الأهلين حتى كرهوه ونقموا عليه ...» (المرجع المذكور ص ١٣٠-١٣٤).

السفر إلى بغداد

منذ أشهر عديدة وأنا أُقاسي آلاما مُبرِّحَة بسبب مرضٍ في خصري، ظهر عندما كُنتُ في مسقط، فبدأتُ بمعالجته هنا [في البصرة]. ثم تَوقَّفت عن المعالجة خوفاً من أن أصبح اتعس حالاً، وكان الحَرُ شديداً، وقد استغرب من هذا الحر خادمنا أبلحد نفسه [١] [وهو من سكان البلاد].

صعدنا إلى السفينة في ١٦ آب «١٦٥٨» ومعنا كُلٌّ من اسكندر ويوسف خادمينا، وقد أطلقنا عليهما إسمين فرنجيين وهما إلكسندرو وكارلو.

ولما كان التونيون يسيرون ضد التيار، فإنّ دانكنا كان يَتَقدَّم ببطء، وبعد أن عبرنا القرنة وكوي Coi والمدينتين due Medine والتركية؟ الساقية Saghe قدمنا في اليوم السادس إلى الجزائر ,Gezzael فإلتقينا هناك بالفرنسيين والجنود الذين تركوا البصرة منذ شهر، فأتوا للحال للسلام علينا واستقبلونا بفرحٍ عظيم، وأخذوا يُردّدون علينا كيفَ ماتَ قبل أيام أكبر الجنود سِنّاً في الساقية ودُفِنَ هناك ...

يكثر نصارى مار يوحنا في أطراف الجزائر Gezzael وقد أظهروا نحونا لُطفاً كبيراً. وقد توغلنا في نهر الفرات فمررنا بالشالوشية (Salucia) وكوت معمَّر Cutimarmer ومسافر Musafar وأخيراً العرجة Arge [٢] وهذه قرية لا بأس بها،

---

(١) إنّ هذه التسمية مُختَزَلَة من «عبد الأحد»، والاسم نصراني حديث، وجِدَ حسب اعتقادنا على إثر دخول الرهبان الدومنيكيين إلى الشرق، وهو تعريب اسم دومينيكو Domenico.

(٢) كوت معمَّر قريةٌ بين سوق الشيوخ والناصرية على ساحل الفرات من جهة الشامية، أما ←

يسكنها عدد من الصابئين، وقد أعطونا مقداراً من الحليب، وكانوا يشيرون إلى واحدٍ منهم كان قد اعتنق الإسلام قَبلَ مدة، فلمّا شَعَرَ بأنَّ الكلام يدور عليه استشاطَ غضباً فأخذ يصرخ ويسب ورفع قبضته مُهدِّداً.

بعد أن عبرنا قريةَ العرجة تَحرَّش بنا بعض الأعراب نحو منتصف الليل، ولما كُنّا على إستعداد لمناجزتهم، فإنهم لم يَتَمكَّنوا من مباغتتنا أو أن يلحقوا بنا أذية. كما استطعنا النجاة من خطرٍ آخر أشد، فقد مَرّ بنا أسدٌ هائج، وكاد أن يهجم علينا أما الخطر الأقوى فكان القَيظ الشديد ...

وصلنا إلى السماوة Samauat وهي قريةٌ كبيرة، فمكثنا فيها يومين، وَحَدَثَ هناك أنَّ رُبّان دانكنا غَضَبَ على غُلام كان يداعبه، وفي سورة غضبه كاد أن يقضي عليهما إذ رماهما من الدانك، لا لشيء إلّا ليَتخلَّص من دفع الرسوم عنهما ... وكان الرُبّان يُعاقر الخَمرَة فتجده ثملاً مُعظَم الوقت..

بعد تركنا السماوة مَرَّرنا ونَحنُ في النهر في مناطق تكثر عليها الخيام، وفي التاسع من شهر أيلول، شاهدنا في إحدى الخِيام، صبايا عربيات وهُنَّ يرقصن. وكان الرقص يجري بأنَّ تقف الفتيات إثنتين إثنتين، تقوم الواحدة واقفة فوق كتفي رفيقتها وكان شعر رؤوسهن منثوراً، وفيه زينة «حُلي؟» كثيرة. أما ثيابهن فقد كانت بسيطة وطويلة

العرجاء أو العرجة فتقع شمالي الناصرية بنحو ثلاثة كيلو مترات (يعقوب سركيس: مباحث عراقية ٢ / ٣٧٤، علي الشرقي: الجزائر في مجلة لغة العرب ٤ (١٩٢٧) ص ٥٢٦-٥٣٠.

ولها أكمام عريضة، وكُنَّ يقفن ويتراقصن ويُغنينَ فَرِحاتٍ جَذِلاتٍ ويؤدين ألعاباً جميلة، وكان ذلك بمناسبة الإحتفال بعيد الأضحية الذي يدوم ثلاثة أيام. ففي هذا اليوم يقوم الأتراك «المسلمون» بنحر الأغنام والكِباش في المدينة (المُنوَّرة)، أما الإيرانيون فإنهم ينحرون الإبل. وبعد أن يُضحُّوا، يدخلون لزيارة قبر النبي والتَبرُّك به.

فهرس المحتويات

المقدّمة **٣**

تمهيد **٧**

المحور الأوّل: تراجم من أصحاب الرحلات ٧

جدول بأسماء الرحّالة وبلدانهم وتأريخ رحلاتهم ٣٣

المحور الثاني: سور البصرة ٣٩

المحور الثالث: ملامح من العلاقات الاقتصاديّة والثقافيّة بين البصرة وبلاد الهند ... ٦٠

المصادر ١١٥

وصف للطريق الصحراوي بين البصرة وحلب: ١٢٠

[١] رحلة ناصر خسرو علوي **١٢٥**

سفر نامة ١٢٥

وصف المد والجزر بالبصرة ووصف انهارها: ١٢٨

وصف أحياء البصرة: ١٢٩

وصف الخشّاب (المنار): ١٣٠

[٢] رحلة سيد علي ريس **١٣٥**

[٣] نص رحلة فيدريجي (سنة ١٥٦٣م) **١٣٩**

[٤] رحلة الإيطالي كاسبارو بالبي سنة ١٥٧٩م **١٤٣**

القرنة ١٤٣

السكان ١٤٥

وصف البصرة..... ١٤٦
رسوم المكس ١٤٧
تجارة الهنود في البصرة..... ١٤٨
الأوزان والنقود والمقاييس في مدينة البصرة ١٥٠
الأوزان..... ١٥٠
المقاييس ١٥٠
النقود ١٥٠
الضرائب ١٥٤
الموازين من جديد ١٥٥
أجور السفن ١٥٥
الإبحار من البصرة إلى جزيرة هُرمز ١٥٧
الحمام الزاجل ١٥٧
مغادرة البصرة ١٥٩
وصف السفينة..... ١٦٠
تكملة الرحلة ١٦٣
مقاييس هرمز ١٦٦
العودة من البصرة إلى بغداد في نهر دجلة ١٦٧
[٥] رحلة جون إيلدرد (١٥٨٣ ـ ١٥٨٤) ١٧١
البصرة..... ١٧٢
العودة إلى بغداد عبر نهر دجلة..... ١٧٣
[٦] الإبحار مُجدَّداً من هُرمز والوصول إلى الخليج الفارسي مَرَّة ثانية، ثم عبر نهري دجلة والفرات إلى مدينة البصرة..... ١٧٧

جزيرة خرج ١٧٨
قناة خراب ١٨٠
شط العرب ١٨١
مدينة البصرة ١٨٦
تبجيل المسلمين للمسيح ١٩٣
الفصل الرابع ١٩٥
الرحلة البريّة إلى بغداد ١٩٨
حقول الملح ١٩٩
البصرة القديمة ١٩٩
البُرجسية ٢٠١
الرميلة ٢٠٣
[٧] رحلة ديللافالية إلى العراق ٢٠٥
البصرة في ٢٠ آيار ١٦٢٥ ..... ٢٠٥
البصرة ٢٠٦
علاقات الحويزة بالبصرة ٢١٢
البصرة والفُرس ٢١٥
افتتاح كنيسة الكرمليين في البصرة ٢٢٢
أخبار متفرقة ٢٢٣
من حلب في ٥ آب ١٦٢٥ ..... ٢٣٠
[٨] رحلة لابولي لاغوز سنة ١٦٤٩ ..... ٢٣٥
علي باشا أمير البصرة ٢٣٥

سُكّان البصرة ٢٣٨
علي باشا وتنبؤات المنجمين ٢٣٨
علي باشا يَتَخلَّص من هجوم فارسي وآخر تركي بأُعجوبة ٢٣٨
دير الكراملة الحُفاة والوكالات التجارية في البصرة ٢٤١
ديانة الصابئة وكتاب آدم ٢٤٢
الصابئة: مهنتهم، صفاتهم، اللَّون الأزرق، وكتبهم ٢٤٣
كتاب آدم ٢٤٣
الكتاب المُسمّى ديوان ٢٤٥
القرآن؛ اعتقادهم بيحيى وعيسى؛ القرآن وعيسى ٢٤٦
البرتغاليون يدّعون إنشاء كنيسة للصابئة المسيحيين في البصرة ٢٤٧
الصابئة يعودون لديانتهم بعد فقدان البرتغاليين لمضيق هرمز ٢٤٧
البرتغاليون يعرضون على الصابئة الإقامة في جزيرة سيلان ٢٤٨
يوحنا يُعمِّد عيسى ٢٤٨
الصابئة يكرهون اللون الأزرق ٢٤٩
الصابئة يتنازعون مع أسقف روماني ٢٤٩
قصة النِيلة وتعكير اليهود للمياه ٢٥٠
النبي يحيى، ابنُ زكريا واليصابات ٢٥٠
طقوس الصابئة وشعائرهم واختيار رهبانهم ٢٥١
سياسة شيوخهم لإبعادهم عن العرب ٢٥١
ضرورة أن تكون أُمُّ الكاهن أو القرباني عذراء ٢٥٢
حادثة النخلة التي حَمَلَت رُطباً في غير أوانه ٢٥٣

التعميد والقرابين الثلاثة ٢٥٣
التعميد ٢٥٣
أعياد التعميد الكبيرة ٢٥٤
قُربان الخبز والخمر والزيت ٢٥٥
قُربان الدجاجة ٢٥٦
قربان الخروف ٢٥٦
مراسيم زواج الصابئة ٢٥٧
مراسيم الزواج ٢٥٧
الإبحار إلى بابل (=بغداد) ٢٥٨
مغادرة البصرة ٢٥٨
القرنة مكان إلتقاء دجلة بالفرات ٢٦٠
أمير البصرة يستولي على العزير ٢٦٣
محاورة بين درويش من التبت وإبراهيم بك ٢٦٤
[٩] رحلة فنشنسو إلى العراق في القرن السابع عشر ٢٧٣
البصرة ٢٧٧
مغادرة البصرة ٢٨٣
العودة إلى البصرة ٢٨٤
[١٠] رحلة تافرنييه ٢٨٧
إكمال الطريق من بغداد إلى البصرة والكلام على ديانة الصابئة وهم نصارى يوحنا ٢٩٢
[١١] نص رحلة جان دي تيفينو ٣١٣
الرحلة من بندريق إلى البصرة ٣١٣
رسائل من والي البصرة ٣١٣

سفن بندر ريق ٣١٤
عدم استخدام الحديد في السفن ٣١٤
عدم استخدامهم البوصلة ٣١٥
الفُرسخ ٣١٥
بندر ديلام ٣١٦
هنديجان ٣١٧
الكارون ـ شوشتر ـ خوزستان ـ أحشويرش ٣١٩
خواسبيس ـ تيريباري ـ زيماري ٣٢٠
دورقستان ـ قيبان ٣٢١
الطريق إلى البصرة ٣٢٢
خداع الملاّحين ٣٢٢
سفنٌ على نهر الكارون ـ تزفيت الدانق ٣٢٣
كوت معان ٣٢٦
دورقستان ـ كوت شمال ٣٢٦
كوت منيثيل ـ الحفّار وكوت حفّار ٣٢٨
جزيرة چادر ٣٢٩
جزر البورين والبوشاصي والفيّاضي ٣٣٠
الوصول إلى البصرة ٣٣١
من بندر ريق إلى البصرة في يوم واحد ٣٣١
أخبارٌ كاذبة من بلاد فارس ٣٣١
الهولنديون يثيرون الفرنسيين – القراصنة الفرنسيون – الخوف من الفرنسيين ٣٣٢
الفصل الثامن: وصف البصرة، موقع البصرة ٣٣٣
محيط البصرة ـ بوابتا البصرة ٣٣٣

جودة موقع البصرة ٣٣٤
وفرة النخيل فيها ٣٣٤
الخضار والفواكه في البصرة ٣٣٤
ميدان البصرة ٣٣٥
ميناء البصرة مناسبٌ لجميع الدول ٣٣٥
مرفأ البصرة العظيم ٣٣٦
المواد المُحمَّلة من البصرة ٣٣٧
رياح السموم في البصرة ٣٣٧
الخمر ممنوع في البصرة ٣٣٨
الدمامل والأورام المُنتَشِرة في البصرة ٣٣٩
خطورة الجو عندما ينتهي الحر ٣٣٩
الأوزان والنقود في البصرة ٣٤٠
والي البصرة ٣٤١
إثنان من أعمام الوالي يطلبان عزله ـ ثورة في البصرة ـ مقتل مرتضى باشا ٣٤٢
الفصل التاسع: تتمة وصف البصرة، القطيف، الإحساء، والصابئة: أحوالهم ومعتقداتهم ٣٤٤
قيبان – القرنة ٣٤٤
القطيف والإحساء ٣٤٥
الوالي يَشنُّ الحرب ٣٤٦
البضائع الهندية في مسقط ٣٤٧
القطيف ـ جزيرة البحرين ٣٤٧
طريقة غريبة في استخراج الماء العذب من قاع البحر ٣٤٨
طريقة صيد اللؤلؤ ٣٥٠
حق الملك الفارسي في اللؤلؤ ٣٥٠

عائدات والي البصرة ـ حجاج مكة ٣٥٢
الطريق من البصرة إلى مكة ٣٥٤
جبل عرفات ـ شعاب حفّار ٣٥٥
رعايا والي البصرة ـ الكراملة ٣٥٦
دهاء الهولنديين في حرق القرفة ٣٥٧
الحرية في البصرة ٣٥٧
الصابئة أو مسيحيو القديس يوحنا- تعميد الصابئة ٣٥٧
الأسرار المُقدَّسة للصابئة – خبز القربان ٣٥٩
كهنة الصابئة ٣٥٩
زواج الصابئة ٣٦٠
الصابئة لا يعرفون ما الإنجيل ـ أعياد الصابئة ـ عيد بنجيا ٣٦٠
اعتقادهم بالمسيح عيسى ورأيهم بالحياة الأخرى ٣٦١
اللحم الذي يأكله الصابئة – كهنتهم هم القصّابون ٣٦١
الصابئة لا يسمحون لغيرهم بالشُربِ من إنائهم ويشمئزون من اللون الأزرق ٣٦٢
هرويز والكرخة ٣٦٣
قربان الدجاجة لدى الصابئة ـ سنة الصابئة ٣٦٤
الفصل العاشر: الرحلة من البصرة نحو الهند ٣٦٤
مغادرة البصرة على ظهر السفينة هوپول ٣٦٤
حمولة السفينة هوپول ٣٦٦
أجرة السفر من البصرة إلى سورات ٣٦٧
مغادرة السُفن من البصرة – شط العرب ٣٦٧
جُزُر بوشالي والفيّاضي والبورين ٣٦٩
جزيرتا چادر وقيبان ٣٦٩
موسم الإبحار ٣٧١

جزيرة خرجو ٣٧٥
جزيرة خرج ٣٧٦
صيد اللؤلؤ ٣٧٧
الوصول إلى جزيرة خرج – خدعة هولندي ٣٧٨
كوچر ٣٨٠
خليج نابان ٣٨١
جزيرة لارا ٣٨٤
جزيرتا أندارفيا وقيس ٣٨٤
جزيرة قيس ٣٨٥
مثالٌ فظيع لوحشية البرتغاليين ٣٨٦
جزيرة پالورو – جبل شناص ٣٨٧
[١٢] رحلة سبستياني ٣٨٩
الأب جوزيبه دي سانتا ماريا الكرملي سنة ١٦٦٦م ٣٨٩
تكملة السفرة إلى البصرة ٣٨٩
مكوثنا في البصرة ٣٩٣
الإبحار إلى كومبرو في فارس والتَوجّه إلى سورات في الهند ٣٩٦
أخبار مُتفرِّقة عن فارس ٣٩٨
الوصول إلى البصرة ... وأخبار عن الصابئة ٣٩٩
السفر إلى بغداد ٤٠٢